سلمان رشدي

العار



ترجمة: عبد الكريم ناصيف

دار التكوين منشورات الجمل

رواية

سلمان رشدي

العــار

رواية

ترجمة: عبد الكريم ناصيف

منشورات الجمل ـ دار التكوين

وُلد سلمان رشدي في مدينة بومباي عام ١٩٤٧، وهو بريطاني من أصل هندي تخرّج من جامعة كنج كولج في كامبردج بريطانيا، عام ١٩٨١. حصل على جائزة بوكر الإنجليزية الهامة عن روايته **«أطفال منتصف الليل»**. نشر رواية **«آيات شيطانية»** في سبتمبر عام ١٩٨٨ أثار ضجة كبيرة في دول العالم الإسلامي الأمر الذي أدى إلى منع ترجمة وبيع الكتاب في اللغة العربية. في نهاية عام ١٩٩٠ خرج سلمان رشدي باعتذار رسمي للمسلمين في العالم. وفي الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٩٨ أعلنت إيران أنه تم إسقاط الفتوى ضد سلمان رشدي الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى إعادة العلاقات الدبلوماسية بين المملكة المتحدة وإيران. من أعماله الروائية: **غريموس** (١٩٧٥)؛ **أطفال منتصف الليل** (١٩٨٠)؛ **العار** (١٩٨٣)؛ **ابتسامة جكوار** (١٩٨٧)؛ **آيات شيطانية** (١٩٨٨)؛ **هارون وقصص البحر** (١٩٩٠)؛ **مشرد باختيار** (١٩٩٢)؛ **شرق، غرب** (١٩٩٤)؛ **النفس الأخير للجدار** (١٩٩٥)؛ **الارض تحت أقدامها** (١٩٩٩)؛ **الجنون** (٢٠٠١)؛ **خطوات تقطع الخط** (٢٠٠٢)؛ **شاليمار المهرج** (٢٠٠٥)؛ **عرافة فلورنسا**.

Salman Rushdie: *SHAME*, roman

سلمان رشدي: **العار**، رواية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، الطبعة الأولى ٢٠٠٩

تلفاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٢٣٦٤٦٨ - ص.ب: ١١٤٢٨، دمشق - سوريا
taakwen@yahoo. com
ولـ منشورات الجمل، بيروت - بغداد
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٦٦٨١١٨، ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

(١)

فرارات من الوطن الأم

الفصل الأول

النادل الأبكم

في بلدة «ك» الحدودية النائية، التي تبدو حين ينظر المرء إليها من الجو أشبه بثقل حديدي[1] سيئ التناسب، عاشت هناك ذات يوم ثلاث أخوات فاتنات رقيقات، أسماؤهن.. لا.. أسماؤهن الحقيقية لم تستخدم قط، تماماً كطقم الأواني الصينية الفاخر ذاك الذي أقفلت عليه الخزانة عقب وصوله المأسوي مباشرة ثم نسي كل من في المنزل مكان وجوده إلى درجة صار معها الطقم العظيم المؤلف من ألف قطعة، والذي يمت بالنسب لأواني غاردنر في روسيا القيصرية، ضرباً من الأسطورة العائلية التي كف الجميع تقريباً عن الإيمان بأنها تمت إلى الواقع بصلة.. أقول كانت الأخوات الثلاث، وعلي أن أذكر ذلك بلا مماطلة، يحملن اسم العائلة شاكيل وكن مشهورات عموماً (بحسب تسلسل السن) بأسماء شوني، موني، بوني.

ذات يوم قضى والدهن نحبه.

وكان من عادة السيد شاكيل العجوز الذي ترمل قبل ثمانية عشر عاماً، أن يشير إلى بلدته تلك باعتبارها «فوهة الجحيم». لكن إبان هذيانه الأخير بدأ مونولوجياً متصلاً وغامضاً إلى حد كبير، استطاع الخدم من ثنايا جولاته المضطربة أن يفهموا فقرات طويلة من الكلمات البذيئة

---

(١) الثقل الحديدي: يستخدم في الرياضة وهو قضيب له كرتان من جانبيه.

واللعن والسباب الفظيع إلى درجة جعلت الهواء يفور أشد الفوران حول سريره.

في ذلك المونولوج سكب الناسك العجوز المغيظ كل ما في صدره من كراهية لمسقط رأسه، بلدته التي كان حيناً من الزمن يدعو الشياطين والأبالسة لتدمير كل ما فيها من أبنية واطئة قاتمة الألوان، تلك الأبنية المختلطة اختلاط الحابل بالنابل والمحيطة بالسوق العامة، وحيناً آخر يدعو الأبالسة ذاتها بكلماته المرصعة بالموت لأن تدمر منطقة الكانتونمنت بدورها الفخمة الأنيقة المتعالية. وهاتان هما كرتا الثقل الحديدي الذي تشكله البلدة: القديمة ومنطقة الكانتونمنت، الأولى يقطنها السكان الأصليون المستعمرون والثانية المستعمرون الأجانب، الإنكليز أو البريطانيون أو «السادة». كان شاكيل العجوز ينفر من كلا العالمين وقد ظل طوال سنوات كثيرة حابساً نفسه ضمن مسكنه الضخم العالي الجدران، الأشبه بقلعة من القلاع، والذي كان ينفتح في الداخل ومن جميع جوانبه على باحة معتمة أشبه بالبئر. كان المنزل يقع بجانب ميدان مفتوح تفصله مسافة متساوية عن السوق العامة ومنطقة الكانت، وكان باستطاعة السيد شاكيل وهو على فراش الموت أن يرى عبر واحدة من نوافذ المبنى القليلة المفتوحة نحو الخارج قبة فندق البالادي[1] الكبير، تلك التي كانت ترتفع من بين شوارع الكانتونمنت البغيضة كسراب، كشيء وهمي لا يمكن تصديقه، والتي كان في داخلها مباصق ذهبية وسعادين عنكبوتية أليفة ترتدي بزات موحدة نحاسية الأزرار وقبعات ندل الفنادق كما يوجد فيها جوقة موسيقية كاملة تعزف الموسيقى كل مساء في صالة مزخرفة بتماثيل الجص وسط خليط هائل من نباتات خيالية، وورود صفراء ومغنوليا[2] بيضاء ونخيل عالي الرؤوس أخضر

---

(١) البالادي: نسبة إلى بالاديوم: تمثال إلهة الحكمة عند الإغريق.

(٢) مغنوليا: نوع من الشجيرات والأشجار التي تعيش في شمالي أمريكا وآسيا، منها ما

كالزمرد ـ أي باختصار، كان باستطاعته أن يرى فندق فلاشمان الذي كانت قبته المذهبة الكبيرة متشققة منذ ذلك الحين، لكنها مع ذلك كانت تشع بكبرياء بغيضة، كبرياء مجدها المحكوم عليه بالهلاك الوشيك.

وتحت تلك القبة كان هنالك ضباط انكليز تلمع أحذيتهم وبدلاتهم كما كان مدنيون بباقات بيضاء وسيدات معقوصات الشعور نهمات العيون، يتوافدون كل ليلة من بيوتهم الراقية المنعزلة كي يرقصوا ويشتركوا جميعاً في وهم واحد هو أن الشمس لوّنتهم ـ في حين أنهم كانوا بالحقيقة مجرد أناس بيض أو رماديين عملياً نظراً للآثار الضارة التي كانت تتركها تلك الحرارة الشديدة على جلودهم الهشة الريا، وكذلك بسبب العادة التي درجوا عليها وهي أن يشربوا البورغوندي[1] القاتمة في الهجيرة تحت أشعة الشمس المسعورة غير مبالين بأكبادهم. سمع الرجل العجوز موسيقى الإمبرياليين المنبعثة من الفندق الذهبي، مثقلة بمرح اليأس، فصب لعناته على فندق الأحلام ذاك بصوت عال واضح كل الوضوح، ثم هتف:

«اغلقوا تلك النافذة كيلا أموت وأنا أسمع ذلك الصخب». جاءت الخادمة العجوز حشمة بيبي وأغلقت مصاريع النافذة. حينذاك استرخى العجوز قليلاً ثم استنفر الاحتياطي الأخير من طاقته وبدأ من جديد مغيّراً مجرى تياره الهذياني القاتل:

«هيا أسرعن» هتفت حشمة بيبي منادية بنات المحتضر وهي تجري خارجة من الغرفة «أبوكن يسلم نفسه إلى الشيطان» ذلك أن السيد شاكيل، بعد أن حذف العالم الخارجي، راح يصب كل ما في مونولوج احتضاره من غضب على نفسه، مستنزلاً اللعنة الأبدية على روحه «الله

= هو دائم الخضرة ومنها ما يتساقط أوراقه. أزهارها بيضاء جميلة أو صفراء أو وردية وتظهر في وقت مبكر من الربيع قبل الأوراق.

(١) خمر تصنع في منطقة بورغونديا في فرنسا.

وحده يعلم ما حل بشاته» تابعت حشمة بلهجة اليائسة: «لكن أباكن يسلك الطريق الخاطئ».

كان الأرمل قد نشّأ بناته بمساعدة مرضعات من أصل فارسي ومربيات مسيحيات ومبادئ أخلاقية صارمة هي في معظمها إسلامية، رغم أن شوني اعتادت أن تقول إن الشمس هي التي جعلته صلباً هكذا. وكانت الفتيات الثلاث قد بقين داخل ذلك البيت الأشبه بالمتاهة لم يخرجن منه حتى يوم وفاته، أي بغير علم عملياً، فقد كن سجينات جناح الحريم حيث يسلي بعضهن البعض الآخر باختراع لغات خاصة وتخيل الكيفية التي يظهر بها الرجل إذا ما تعرى، وكذلك، في سنوات ما قبل بلوغهن، بتصور الأعضاء التناسلية الغريبة على شكل تجاويف في الصدر يمكن لحلمات أثدائهن أن تدخل فيها بصعوبة. «ذلك أن كل ما كنا نعرفه في تلك الأيام» كانت واحدتهن تذكّر الأخرى باندهاش شديد في ما بعد «هو أن المفروض أن يحدث الإخصاب من خلال الصدر». حياة الحريم الدائمة تلك شدت بين الأخوات الثلاث وثاقاً من الحميمية والحب لا انفصام له. فقد كن يقضين أمسياتهن جالسات إلى النافذة خلف ستار من المخرمات، يتطلعن إلى قبة الفندق الكبير المذهبة ويتمايلن مع أنغام الموسيقى الراقصة المليئة بالألغاز.... وهناك إشاعات تقول إنهن كن يستكشفن أجساد بعضهن البعض وهن مسترخيات في قيلولات العصر الطويلة، أما في الليالي فكن ينسجن طلاسم سرية للإسراع بوفاة والدهن. لكن الألسن الشريرة تقول أي شيء، خاصة عن فتيات جميلات يعشن بمنأى عن أعين الرجال التي تعري الأجسام. ما هو صحيح بصورة مؤكدة تقريباً، أن الأخوات الثلاث، وقبل زمن طويل من فضيحة الطفل، كن يشتقن للأطفال، شوق العذارى المطلق، وأنهن اتفقن في ما بينهن على أن يبقين كلاً واحداً لا يتجزأ، تربطهن إلى الأبد روابط صباهن وحميميته، حتى بعد أن يجيء الأطفال: أي بعبارة أخرى صممن على أن يشتركن بالأطفال.

وليس باستطاعتي أن أثبت أو أنفي القصة البذيئة التي تقول إن هذه الاتفاقية كتبت ووقعت بمزيج من دماء الدورة الشهرية للأخوات الثلاث المنعزلات، ثم حرقت حتى أصبحت رماداً، لتحفظها أروقة ذاكرتهن وحسب. لكنهن، وطوال عشرين عاماً، لم يحظين إلا بطفل واحد اسمه عمر الخيام.

هذا كله حدث في القرن الرابع عشر، وأنا أستخدم التقويم الهجري بالطبع: فلا تتصوروا أن قصصاً من هذا النوع تحدث دائماً في الأيام الغابرة، إن من الصعب تحقيق التجانس الزمني بالسهولة التي نحقق فيها تجانس الحليب، وفي تلك النواحي وحتى فترة حديثة تماماً كانت مركبة المئات الهجرية الثلاث عشرة لا تزال تتقدم.

عندما أخبرتهن حشمة بيبي أن والدهن في نزعه الأخير، ذهبت الأخوات الثلاث إلى زيارته وهن في أبهى حللهن، فوجدنه وقد أمسكت به قبضة خزي خانقة يطلب إلى الله بصوت تخنقه حشرجات الموت أن يلقي به في موقع مهجور من أطراف جهنم، مكان على حدود الجحيم إلى أبد الآبدين. بعد ذاك أطبق فمه لا ينبس ببنت شفة فسارعت شوني، البنت الكبرى، لطرح السؤال الوحيد الذي يهم الفتيات الثلاث: «أبي، سنكون ثريات الآن، أليس كذلك؟».

«عاهرات» شتمهن الرجل المحتضر «لا تضعن ذلك في حسابكن».

وقد ثبت في الصباح الذي أعقب موت الوالد ذي اللسان البذيء أن بحر الثروة الذي لا قرار له والذي كان الجميع يظنون أن أشرعة عائلة شاكيل تبحر فيه، لم يكن سوى فوهة بركان خامد. إذ كانت الشمس اللاهبة لعجزه المالي (ذاك الذي استطاع إخفاءه سنوات طويلة خلف واجهة من رعاية أبوية مهيبة ومزاج قذر وترفع مفرط أشد سمية من كل ما تركه لبناته من إرث) تلك الشمس كانت قد جففت بحار أمواله جميعاً إلى حد جعل شوني وموني وبوني يقضين أيام الحداد كلها وهن يرتبن أمور

الديون التي لم يكن الدائنون يتجرؤون على مفاتحة والدهن بها وهو على قيد الحياة، والتي باتوا يرفضون تأجيل دفعها (إضافة إلى فوائدها المركبة) دقيقة واحدة. لقد خرجت الفتيات من عزلتهن التي دامت طيلة حياتهن وعلى وجوههن تعبير اشمئزاز طويل العهد من تلك الرخم التي تحوم حولهن بانتظار اللحظة التي تلتهم فيها جثة إهمال والدهن الكبير، وبما أنهن نشأن على أن ينظرن إلى المال كأحد موضوعين يحظر عليهن مناقشتهما مع الغرباء، فقد وقعن على تجريدهن من ثروتهن دون أن يزعجن أنفسهن حتى بقراءة الوثائق التي تقدم بها الدائنون. ونتيجة ذلك كله فقد فقدن جميع الأراضي الزراعية الخصبة في تلك المنطقة الجدباء بمعظمها.

أجل فقدنها كلها، ولم يبق للأخوات الثلاث سوى بيت ضخم تصعب إدارته، بيت محشو من أرضه حتى سقفه بالممتلكات، بيت تسكنه خادمات يرفضن التخلي عنه ليس بسبب الإخلاص بقدر ما هو بسبب الرعب الذي يعاني منه سجين مدى الحياة تجاه العالم الخارجي. وكما هي العادة التي ربما يدرج عليها كل من نشأوا نشأة أرستقراطية ـ فقد كان رد فعلهن على نبأ الدمار الذي أحاق بهن هو تصميمهن على إقامة حفلة.

في السنوات اللاحقة كانت واحدتهن تروي للأخرى قصة تلك الحفلة الصاخبة الشهيرة بنوع من الفرح الخالص الذي يعيد إليهن الوهم بأنهن لا يزلن في ميعة الصبا.

«لقد طبعت الدعوات في الكانت» تبدأ شوني كلامها وقد جلست بجانب أختها على كرسي خشبي هزاز قديم، ثم تستأنف وهي تضحك ضحكات سعيدة مكتومة على المغامرة القديمة «وأية دعوات! مزخرفة، مكتوبة بحروف مذهبة، على بطاقات صلبة كالخشب! لقد كانت أشبه ببصقات في عين القدر».

فتضيف موني «وكذلك في عيني والدنا المتوفى المطبقتين. فهي

بالنسبة إليه أشبه بممارسة عمل معيب تماماً، انحراف، برهان على إخفاقه في فرض إرادته علينا».

«تماماً كما برهن دمارنا على إخفاقه في مجال آخر» تتابع بوني.

في البداية خيل إليهن أن إحساس أبيهن بالعار، وهو على فراش الموت، إنما كان منشأه معرفته بالإفلاس الذي سيحل ببيته. لكن، في ما بعد بدأن يتفحصن احتمالات أقل واقعية وعدم إمتاع «لعله كان يرى، وهو على فراش موته، صورة المستقبل» افترضت شوني فردت أختاها «حسن. إذاً لا شك أنه مات ميتة أبأس من الحياة التي جعلنا نحياها».

انتشر في المدينة خبر ظهور الأخوات شاكيل في المجتمع بسرعة البرق وفي الأمسية التي طال توقعها، غزا البيت القديم جيش من عباقرة الموسيقى الذين ملأت ألحان آلاتهم الموسيقية المختلفة البيت المتزمت الذي لم يعرف شيئاً من هذا القبيل طيلة عقد من الزمن، كما حمل إليه أفواج من الخبازين وصانعي الحلويات وغلمان المطاعم أكواماً هائلة من المأكولات، مفرغين بذلك رفوف حوانيت البلدة مالئين السرادق الضخم ذا الألوان العديدة الذي نصب في الباحة المركزية، يعكس نسيجه الصقيل كالمرآة مجد الترتيبات. مع ذلك بات واضحاً أن الغطرسة التي نشّأ الوالد بناته عليها وزرعها في نقي عظامهن كانت قد أصابت بالعدوى القاتلة لائحة ضيوفهن. فقد شعر معظم مواطني «ك» بإهانة قاتلة تقريباً حين وجدوا أنه حكم عليهم بأنهم غير جديرين بصحبة الأخوات المتألقات الثلاث اللواتي غدت دعواتهن المؤطرة بالذهب حديث البلدة. بعدئذ أضيفت إلى جريمة شطبهم لمواطنيهم من قائمة المدعوين جريمة دعوة الآخرين، إذ تبين أن الأخوات ارتكبن جريمة فظيعة هي الخروج على العادات والتقاليد: فالدعوات التي ازدرت المواطنين ولم تعرف طريقها إلى وجهائهم، شقت طريقها إلى حي الإنكليز، حي الكانت، وإلى قاعة السادة الأجانب الراقصين. لقد بقي البيت المحظّر دخوله منذ زمن طويل مغلقاً في وجه المواطنين المحليين جميعاً إلا قلة منهم.

وهكذا، بعد ساعة الكوكتيل في فندق فلاشمان، قام بزيارة الأخوات الثلاث حشد من الأجانب ذوي البدلات الموحدة والمخصصة للاحتفالات. دخل السرادق المصقول كالمرآة إمبرياليون! ـ أجل، سادة ذوو بشرات رمادية مع سيداتهم ذوات القفازات ـ دخلوا بأصواتهم الخشنة وسيمائهم المتألقة لشدة تعطفهم وتلطفهم.

«وقد قدمت المشروبات الروحية» قالت الأم العجوز شوني، مذكّرة، ثم صفقت بيديها ابتهاجاً بما تمثله الذكرى من رعب. لكن تلك هي النقطة التي كان التذكير يتوقف عندها، وكانت السيدات الثلاث جميعاً يصبحن كتلة من الفضول المبهم، حتى أنني أجد نفسي عاجزاً عن توضيح الأشياء اللامعقولة التي نمت وتفرعت عن تلك الحفلة خلال رحلة السنين الكئيبة.

هل القضية حقاً هي أن الضيوف القلائل من غير البيض ـ أي الإقطاعيين المحليين وزوجاتهم الذين كانت ثرواتهم في الماضي تافهة مقارنة بملايين شاكيل الكثيرة ـ وقفوا معاً كتلة متماسكة من الغضب ناظرين نظرات تنذر بالهلاك إلى السادة الأجانب الطافرين فرحاً؟ أهو صحيح حقاً أن أولئك الأشخاص جميعاً قد غادروا المنزل بعد لحظات قليلة جداً دون أن يلمسوا كسرة خبز وذرة ملح، تاركين الأخوات للعناصر الاستعمارية؟ أمن المحتمل أن الأخوات الثلاث، وقد أشرقت عيونهن بالأثمد والاستثارة، شرعن ينتقلن بصمت رزين من ضابط إلى ضابط، وكأنهن يقدرن قيمة كل منهم، كأنهن يتفحصن الشوارب لتقدير قيمتها بحسب كثافتها، والفكوك ليقيمنها بحسب زوايا نتوئها؟ وبعد ذاك (تمضي الأسطورة) أهو صحيح أيضاً، أن الفتيات الثلاث صفقن معاً آمرات الموسيقيين بأن يبدأوا عزف موسيقى راقصة من طراز غربي... فالس، مينيت، خبب ثعلب، بولكا، غافوت، موسيقى اكتسبت خصائص شيطانية قاتلة حين خرجت تهدر من آلات الفنانين الثائرة؟

ما يحكى هو أن الرقص استمر طوال الليل، وفضيحة حدث كهذا

كانت ستضع الفتيات اللواتي تيتمن حديثاً خارج حدود اللياقة الاجتماعية على أي حال، لولا أن أموراً أسوأ كانت ستحل. فبعد انتهاء الحفلة مباشرة، وبعد أن غادر المنزل عباقرة الموسيقى المهتاجون وألقيت جبال الطعام الذي لم يمس إلى الكلاب البقعاء ـ ذلك أن الأخوات الثلاث لم يسمحن، لشدة ترفعهن، بأن يوزع الطعام المعد لأندادهن من النبيلات والنبلاء على الفقراء من الناس ـ بعد ذلك مباشرة سرت إشاعة في كل مكان من أسواق «ك» مفادها أن واحدة من الفتيات الثلاث المتعجرفات قد صارت امرأة في تلك الليلة الصاخبة بالذات.

يا للعار! يا للعار والشنار!

لكن إن كانت الأخوات شاكيل قد أحسسن بالعار، فذلك ما لم تظهر عليه أية دلالة، بل إنهن أرسلن حشمة بيبي، وهي واحدة من الخدم الذين رفضوا مغادرة المنزل، إلى البلدة «ك» حيث جندت أبرع حرفي في البلدة واسمه ميستري يعقوب بالوش كما ابتاعت أيضاً أكبر قفل مستورد وجدته في مخزن مشيئة ـ الله للخردوات. ذلك القفل كان كبيراً وثقيلاً إلى درجة اضطرت معها حشمة بيبي لأن تحمله إلى المنزل على ظهر بغل استأجرته خصيصاً لهذا الغرض فسأل صاحبه الخادمة: «لماذا تريد سيداتك هذا القفل الهائل الآن، وقد وقع الغزو وانتهى؟». فأجابت حشمة وقد عقدت حاجبيها للتأكيد: «عسى أن يبول أحفادك على قبرك أيها الشحاذ».

تأثر ميستري يعقوب، الرجل الذي استأجرته حشمة بيبي، بالغ التأثر بالهدوء الشديد الذي عاملته به الحيزبون العجوز، القديمة قدم الطوفان، فشرع يعمل تحت إشرافها دون أن يتجرأ على إطلاق آهة شكوى. لقد جعلته يبني رافعة خارجية غريبة من نوعها أو نادلاً ـ أبكم، رافعة كبيرة تكفي لحمل ثلاثة رجال ويمكن بواسطتها رفع الأشياء من الشارع عن طريق سلسلة من البكرات إلى الطوابق العلوية من المنزل أو العكس. وقد أكدت حشمة بيبي على أهمية أن يبني تلك البدعة بطريقة

يمكن تشغيلها دون أن يضطر سكان القصر إلى الظهور أمام أية نافذة ـ ولا حتى ظهور أصابع صغيرة منهم. بعدئذ ذكرت خصائص الأمن غير المألوفة التي تود أن يوفرها ميستري للآلة الغريبة، فقد قالت له «ضع هنا آلة تحرير النابض التي يمكن تشغيلها من داخل المنزل، بحيث يمكنها، إذا ضغطت عليها، أن تجعل قعر الرافعة كله ينقلب رأساً على عقب ثم ضع هناك وهناك بعض الألواح السرية التي يمكنها أن تطلق نصال خناجر بطول ثماني عشرة بوصة، حادة حادة. إذ ينبغي توفير الحماية لسيداتي من المتطفلين الدخلاء».

إذاً، كان النادل ـ الأبكم يشتمل على كثير من الأسرار الرهيبة. وقد أكمل ذاك الميستري عمله دون أن تقع عيناه على واحدة من الأخوات الثلاث، لكنه حين توفي عقب ذلك بأسابيع قليلة وهو يمسك بمعدته وينقلب بطناً على ظهر في الزقاق، باصقاً دماً شاعت أقوال في كل مكان بأن تلك النساء عديمات الحياء قد سممنه لضمان سكوته فلا يبوح بكلمة عن آخر أعماله وأشدها غموضاً. لكن يحسن بنا أن نذكر أن الشهادة الطبية تنفي نفياً قاطعاً صحة تلك الأقوال. فيعقوب بالوش، الذي كان يعاني في وقت من الأوقات من آلام متقطعة في منطقة الزائدة، مات بصورة مؤكدة تقريباً ميتة طبيعية، والآلام التي أودت بحياته لم تكن نتيجة سموم وهمية وضعتها له الأخوات اللواتي يفترض أنهن قاتلات، بل نتيجة التهاب عادي قاتل تماماً في الصفاق أو شيء من هذا القبيل.

بعدئذ، جاء يوم شوهد فيه المستخدمون الذكور الثلاثة الباقون لدى الأخوات شاكيل وهم يطبقون أبواب القصر الأمامية الضخمة المصنوعة من خشب الساج الثقيل والنحاس. لكن قبل أن تنغلق أبواب العزلة تلك على الأخوات الثلاث، كيلا تفتح بعدئذ طوال نصف قرن ونيف، شاهد الحشد الصغير من سكان البلدة الفضوليين الذين تجمعوا في الخارج، عربة يد يتكوم فيها ذلك القفل الهائل الذي يرمز لاعتزالهم. وحين أغلقت الأبواب، فإن صوت القفل الكبير وهو يوضع في مكانه وصوت

المفتاح وهو يدور فيه إنما كان نذيراً ببداية حبس غريب من نوعه أسلمت السيدات المجللات بالعار، وخادماتهن أيضاً، أنفسهن إليه.

بعدئذ تبين أن حشمة بيبي تركت، حين قامت برحلتها الأخيرة إلى البلدة، عدداً من المغلفات المختومة التي تحوي تعليمات تفصيلية موجهة إلى مؤسسات التموين الرئيسية في البلدة والمحالّ الخاصة بالسلع والخدمات، بحيث بات يأتي إلى القصر، وفي الأيام المعينة والساعات المحددة كي يمثل أمام آخر آلة بناها ميستري يعقوب، الخياط المحدد أو الغسالة المعينة، الإسكافي أو بائع اللحوم، الفواكه، الخرداوات، الأزهار، القرطاسية، الخضروات، الحبوب، الكتب، المشروبات البسيطة، المشروبات الغازية، المجلات الأجنبية، الصحف، المراهم، العطور، الإثمِد، لحاء الأوكالبتوس[1] لتنظيف الأسنان، التوابل، النشاء، الصابون، أدوات المطبخ، أطر اللوحات، ورق اللعب، وأوتار الآلات الموسيقية. وكان على من يأتي من هؤلاء أن يطلق صفرة متفقاً عليها فيهبط النادل الأبكم، بكل ما يصدره من حفيف، إلى الأرض حاملاً تعليمات مكتوبة. بهذه الطريقة، عملت الأخوات شاكيل على الانسحاب كلية من العالم، عائدات بملء إرادتهن إلى عالم الزهاد ذاك الذي كن قادرات على الاحتفال بانتهائه بعد وفاة والدهن مباشرة، وبذلك كانت غطرسة ترتيباتهن هي التي جعلت اعتزالهن أشبه بعمل من أعمال الكبرياء لا التوبة والندامة.

لكن، ثمة سؤال دقيق يبرز أمامنا: كيف كن يدفعن ثمن هذا كله؟ إنني، بشيء من الانزعاج، ولكي أبين فقط أن الكاتب الذي يكتب قصتهن والذي اضطر سابقاً لأن يترك الكثير من الأسئلة الغامضة دون جواب قادر على تقديم أجوبة واضحة حين يلزم الأمر، أكشف هنا أن حشمة بيبي سلمت آخر ظرف مختوم لبواب المؤسسة الأقل مرغوبية في البلدة، حيث

(١) نوع من الشجر لأزهاره وأوراقه رائحة طيبة.

لا يقيم أحد وزناً لتعاليم القرآن التي تحرم الربا، وحيث تنوء الرفوف والخزائن تحت ثقل الركام المتبقي من قصص متحللة فاسدة لا عد لها ولا حصر. . لكن يا للعنة! سأكون صريحاً وأقول ـ إنها ذهبت إلى مكتب للرهن، وكان على صاحب ذلك المكتب، السيد شلق الهرم هرم الزمان، الناحل نحول قلم الرصاص، شلق ذي العينين الواسعتين البريئتين، أن يقدم نفسه هو الآخر إلى النادل الأبكم في ما بعد (تحت ستر الظلام، كما تقضي بذلك التعليمات) كي يثمن أشياء يجدها هناك، ويبعث إلى المنزل الصامت في الحال أموالاً نقدية بنسبة ثماني عشرة ونصف بالمائة تقريباً من القيمة الراهنة للكنوز المرهونة غير القابلة للاسترداد. فالأمهات الثلاث لعمر الخيام شاكيل الذي كان على وشك المجيء، كن يستخدمن الماضي، رأسمالهن المتبقي الوحيد، كوسيلة لشراء المستقبل.

لكن أيهن كانت الحامل؟

شوني الكبرى أم موني الوسطى أم بوني الصغرى، أم هو ابن الثلاث؟ ـ ما من أحد اكتشف ذلك قط، حتى ولا الابن الذي ولد. فكتمهن للسر كان مطلقاً وقد خضع لأشد التدقيق بالتفاصيل. تصور فقط أنهن جعلن الخدم يقسمون على الكتاب يمين الولاء والإخلاص، وقد انضم هؤلاء إليهن في سجنهن فلم يغادر واحدهم المنزل إلا وقدماه قبل رأسه، يلفه الكفن الأبيض، وبالطبع، عن طريق الرافعة التي صنعها يعقوب بالوش. خلال فترة الحمل كلها لم يدع طبيب إلى المنزل، وكما تقدم، فإن الأخوات الثلاث، ليقينهن بأن الأسرار التي تفشى تجد منافذ لها دائماً من تحت باب أو عبر ثقب مفتاح أو نافذة مفتوحة، إلى أن يعرف كل إنسان في المنطقة المحيطة كل شيء دون أن يعرف أحد كيف. . أكرر أن هؤلاء الأخوات أبدين التضامن العاطفي الفريد الذي كان أشد خصائصهن تميزاً وذلك بأن شرعن يدعين ـ وفي هذه الحالة اثنتان منهن ـ كل الأعراض الظاهرة التي كانت الثالثة مضطرة لإبدائها.

ورغم أن فارق السن بين شوني وبوني كان حوالى خمس سنوات،

فقد بدأت الأخوات في ذلك الوقت، عن طريق ارتدائهن ملابس واحدة ومن خلال التأثيرات الغامضة لحياتهن غير المألوفة، تلك الحياة التي اخترنها بأنفسهن، تشابه واحدتهن الأخرى إلى درجة بات حتى الخدم يخطئون في تمييزهن. لقد سبق وقلت إنهن كن جميلات لكنهن لم يكنَّ من تلك النساء اللواتي تشبه وجوهن البدر وعيونهن اللوز واللواتي يتغزل بهن الشعراء، بل كن ذوات ذقون متينة وبنية قوية، يمشين بخطا واسعة وهدف محدد ويتمتعن بقوة ساحرة كل السحر تقريباً. بعد ذاك، شرعت ثلاثتهن في وقت معاً، يزدن سماكة الخصر والصدر. تمرض واحدة منهن في الصباح فتبدأ الأخريات بالتقيؤ على نحو مماثل ومتزامن إلى درجة يستحيل معها القول أيهن التي أصيبت معدتها بالغثيان أولاً. وبصورة متماثلة أيضاً بدأت بطونهن بالانتفاخ، مع تقدم شهور الحمل. ولعل هذا كله كان يتحقق بمساعدة بعض الأشياء المادية كالمساند والحشيات وحتى الأبخرة التي تستثير الإغماء، لكن رأيي الذي لا يتزعزع هو أن تحليلاً كهذا يحط كثيراً من الحب الذي كان يجمع بين الأخوات الثلاث. إذ رغم اللامعقولية البيولوجية، أجدني على استعداد لأن أقسم إنهن كن راغبات من صميم قلوبهن بهذا النحو من المشاركة في أمومة جنينهن ـ كي يحولن العار العام الناجم عن حمل السفاح الذي حدث إلى انتصار خاص بالحصول على الطفل الذي كانت الأخوات الثلاث متلهفات إليه، أي قصارى القول، كان هناك حملان وهميان زائفان يرافقان الحمل الحقيقي، في حين كان توافق سلوكهن وتزامنه يدل على أنه نتاج شكل من أشكال العقل الجماعي المشترك.

في مخدع واحد كن ينمن، برغبات واحدة كن يشعرن ـ الرغبة في المرزبانية[1] بتلات الياسمين، لب الأناناس، الطين ـ وفي الأوقات ذاتها، بل حتى معدلات الاستقلاب في أجسامهن كانت تتبدل على نحو

---

(١) نوع من الحلوى التي تصنع من الأرز والسكر واللوز.

متوازٍ. إذ صار وزنهن واحداً، كما بتن يشعرن بالإنهاك في وقت واحد، ويستيقظن معاً، كل صباح، كما لو أن أحد الناس يقرع لهن جرساً. كذلك بتن يشعرن بآلام متماثلة في الأرحام الثلاث، جنين واحد وصورتاه الشبحيتان كانت كلها ترفس الأرحام وتغير اتجاهها بالدقة التي تعمل بها فرقة رقص حسنة التدريب... ولأنهن كن يعانين معاناة واحدة فإنني سأمضي إلى حد القول ـ إن الأخوات الثلاث اكتسبن الحق الكامل في أن ينظر إليهن على أنهن أمهات مشتركات للطفل القادم. وهكذا حين انتاب المخاض إحداهن ـ ولن أحاول هنا حتى تخمين الاسم ـ ما من أحد سواهن رأى من التي تدفق الماء من رحمها ولا اليد التي أقفلت باب المخدع من الداخل. ما من عين خارجية شهدت ما فعلته الثلاث، ذات الحمل الصادق منهن والوهميتان، أو اللحظة التي فرغ فيها بالونان، بينما ظهر هناك، بين زوج ثالث من الأفخاذ يشبه طريقاً زقاقياً، الطفل ابن الحرام، ولا اللحظة التي رفعت فيها يدان من تلك الأيدي عمر الخيام شاكيل من كاحليه وأمسكتا به، رأساً على عقب ثم ضربتاه على قفاه.

الأنفاس الأولى التي تنفسها بطلنا، عمر الخيام هذا، كانت في ذلك القصر غير المعقول الذي كان أكبر من أن تعد غرفه أو تحصى، لقد فتح عينيه فرأى عبر نافذة مفتوحة وهو لا يزال مقلوباً رأساً على عقب، القمم الرخامية البيض، قمم «الجبال المستحيلة» في الأفق. كانت واحدة من أمهاته الثلاث ـ لكن أيهن يا ترى؟ ـ قد أمسكته من كاحليه وصفعته لجذب الأنفاس الأولى إلى رئتيه.. وظلت كذلك حتى بدأ الطفل الصراخ، وهو لا يزال محدقاً إلى الذرى المقلوبة.

بعدئذ سمعت حشمة بيبي صوت مفتاح يدور في قفله فجاءت خائفة متوجهة إلى الغرفة حاملة الطعام، الشراب، الملاءات الجديدة، الإسفنج، الصابون، المناشف لتجد الأخوات الثلاث جالسات معاً في السرير الواسع، السرير نفسه الذي كان والدهن قد احتضر فيه، وهو سرير ضخم من الماهوجاني ذو أربع ركائز نُقشت عليها أفاعٍ تلتف صعداً

حتى تصل الكلة البروكارية التي تشبه جنة عدن. كان على وجوههن جميعاً تعبير الفرح الخجول الذي يعد من المستلزمات الحقيقية للأم وكان الطفل ينتقل من صدر إلى صدر ولم يكن ثدي من الأثداء الستة إلا مترعاً بالحليب.

شيئاً فشيئاً أدخل في ذهن عمر الخيام الصغير أن بعض الأشياء غير النظامية سبقت مولده كما لحقته أيضاً. وقد تكلمنا عما سبق ذلك المولد، أما ما تلاه فهذا هو:

في عيد ميلاده السابع قالت له أمه الكبرى شوني: «لقد رفضت أن أهمس باسم الله في أذنك حين ولدت» وفي عيد ميلاده الثامن أسرت له الأم الوسطى ـ موني: «لم يكن موضع بحث إطلاقاً أن يُحلق رأسك. فشعر فاحم جميل كشعرك هذا لا أسمح لأحد أن يحلقه وعيناي تبصران، لا يا سيدي!».

بعد سنة واحدة تماماً تصنعت أمه الصغرى بوني تعبيراً صارماً ثم أعلنت: «ما كنت لأسمح في أي ظرف من الظروف أن تختتن. ما هذه الفكرة؟ قلفة الذكر ليست قشرة موز يلقى بها».

وهكذا دخل عمر الخيام شاكيل الحياة دون الانتفاع بفوائد الختان أو الحلاقة أو الموافقة الإلهية، وهناك الكثير من الناس يعتقدون أن هذا كله ضرب من الإعاقة.

لقد ولد في فراش احتضار، علقت فوقه (كما علقت الستائر وكلة البعوض ـ الناموسية) صورة شبحية لجده ذاك الذي أسلم روحه وهو يدعو أن يكون مأواها الجحيم، وكان أول ما رآه مشهد سلسلة من الجبال المقلوبة... لذلك تملك عمر الخيام شاكيل، منذ أيامه الأولى، إحساس بأن العالم منقلب رأساً على عقب، أن كل شيء بالمقلوب، كما تملكه شعور آخر أشد سوءاً، خوف امرئ يعيش على حافة العالم، قريباً جداً من شفا الهاوية إلى حد قد يسقط معه في أية لحظة. كان الطفل عمر الخيام يتطلع عبر تلسكوب قديم، من نوافذ الطابق العلوي في

المنزل إلى الأراضي الواسعة الخاوية المحيطة بمدينة «ك» فيشتد اقتناعاً بأنه، ولا بد، قرب حافة الأشياء ذاتها، وأن وراء الجبال المستحيلة التي تبدو في الأفق ثمة العدم، الفراغ الكبير الذي بدأ، في كوابيسه، يتعثر ويسقط فيه على نحو منتظم. كان أشد ما يخفيه في أحلامه تلك هو شعوره بأن ارتماءه في الفراغ هو الأمر المناسب، بشكل من الأشكال وأنه لا يستحق ما هو خير من ذلك... وكان يستيقظ وسط كلة البعوض وهو يتصبب عرقاً غزيراً بل وهو يصرخ ليقينه أن أحلامه تنبئه بتفاهة قيمته، ولم يكن يستسيغ ما تنبئه به أحلامه.

وهكذا اتخذ عمر الخيام في تلك السنوات نصف المتبلورة القرار الذي لن يتغير البتة ألا وهو تجزيء وقت نومه، فكان المسعى الذي دام طيلة حياته والذي أدى به أخيراً، وفي الوقت الذي صعدت فيه زوجته وهو في قلب الدخان ـ لكن لا، ينبغي ألا نسمح للنهايات باستباق البدايات والوسط، حتى وإن كانت التجارب العلمية الحديثة قد بينت لنا أنه ضمن أنماط معينة من النظام المغلق، وبتأثير ضغط شديد، يمكن إقناع الزمن بأن يسير القهقرى، وبذلك تسبق النتائج أسبابها. هذه بالضبط هي طريقة السرد غير المفيدة التي يتعين على كاتب الرواية ألا يوليها اهتماماً، ففي تلك الطريقة يكمن الجنون ـ جزّأ وقت نومه إلى درجة كانت فيها أربعون دقيقة من النوم كل ليلة، أربعون غمضة عين تكفي لإنعاشه. كم كان صغير السن حين صمم ذلك التصميم الذي أدهش الكبار، حين قرر الفرار من واقع الأحلام غير المستساغ إلى أوهام حياته اليومية الأكثر قبولاً. «خفاش صغير» دعته أمهاته الثلاث بتحبب حين علمن بتحركاته الليلية عبر غرف القصر التي لا تحصى، وعلى كتفيه شادار[1] رمادي قاتم يخفق ويرفرف، لكنني سأترك إلى القارئ حرية

---

(١) رداء أشبه بالعباءة التي تلبسها المرأة المحجبة عندنا، الحجاب فيه ضمن العباءة وتلبسه المرأة الهندية المسلمة.

اتخاذ القرار في ما إذا كان عمر هذا قد تحول إلى واحد من فرسان الصليبيين ذوي الأردية الشهيرة أم إلى مصاص دماء يرتدي العباءة، أم إلى وطواط ليل أم دراكولا.

لقد كانت زوجته، وهي البنت الكبرى للجنرال رضا حيدر، مصابة بالأرق أيضاً، لكن أرق عمر الخيام ينبغي ألا يقارن بأرقها، فأرقه كان بملء إرادته، أما هي، صفية زنوبيا، فقد كانت تستلقي في الفراش، تطبق أجفانها وتضغط عليها بسبابتيها وإبهاميها كما لو أنها تود انتزاع تنبهها كما تنتزع ذرات الغبار أو الدموع. وكانت تتحرق، تشتعل ناراً في تلك الغرفة التي ولد فيها زوجها وتوفي جده، بجوار ذلك السرير، سرير الأفاعي والفردوس... لكن اللعنة على هذا الزمن المتمرد! إنني آمر مشهد الموت هذا بأن يعود إلى الزاوية في الحال: شنزم[1]!

في سن العاشرة كان عمر الخيام قد بدأ فعلاً يشعر بالامتنان لوجود الجبال الواقية المطبقة على الأفق الغربي والجنوبي، «الجبال المستحيلة»، لا، لن تجد ذلك الاسم في أطلسك، مهما تكن كبيرة شاملة، ذلك أن للجغرافيين حدوداً يقفون عندها، أما عمر الخيام الذي وقع في غرام التلسكوب النحاسي المشع إشعاعاً عجيباً والذي نبشه من بين أشياء كثيرة غريبة تزحم قصره، فقد كان يدرك دائماً أنه إن كانت هناك أية مخلوقات سليكونية أو وحوش غازية تسكن نجوم المجرة التي تتألق فوق رأسه كل ليلة فإنها لا تعرف مواطنها تلك بالأسماء الموجودة في مصورات نجومه البالية المتسخة أشد الاتساخ. وظل طيلة حياته يكرر القول «لقد كان لدينا أسبابنا لإطلاق ذلك الاسم على سلاسلنا الجبلية الخاصة».

أما رجال القبائل بعيونهم الغائرة وقسوتهم الصخرية، أولئك الذين كانوا يسكنون تلك الجبال، والذين كانوا يشاهدون أحياناً في شوارع «ك»

---

(١) شنزم: للتو، هذه اللحظة.

في الطرف الآخر من حياته (إذ يبدو وكأن من المتعذر رصد المستقبل، فهو يصر على العودة والتسرب إلى الماضي)، عندما ارتبط اسمه في الصحف كلها بفضيحة جرائم القتل التي تقطع فيها رؤوس الضحايا، فإن فرح رودريغز ابنة ضابط الجمارك، أطلقت لسانها من عقاله لتحكي قصة اليوم الذي رافقها فيه عمر الخيام المراهق الذي كان لا يزال شخصاً بسيطاً، زر قميصه مقطوع عند سرته، إلى موقع أبيها في مكان ما من الحدود على بعد أربعين ميلاً غرب بلدة «ك». لقد جلست فرح في حجرة البراندي الصغيرة المحظورة مخاطبة الغرفة عموماً وهي تضحك ضحكات جعلها الزمن وهواء البراري متكسرة كشظايا الزجاج بعد الضحكات البلورية التي كانت تضحكها سابقاً، وكانت تتذكر وتقول: «غير معقول. فما إن وصلنا إلى هناك في سيارة جيب حتى هبطت في الحال غيمة داكنة خيمت على امتداد الحدود تماماً وكأنها لا تستطيع العبور دون تأشيرة دخول، الأمر الذي بعث الرعب في قلب شاكيل فاضطرب ثم أصيب بدوار ووقع مغشياً عليه، رغم أن كلتا قدميه كانتا على أرض صلبة».

بل حتى في أيام تميزه الأكبر، عندما تزوج ابنة رضا حيدر، وأصبح رضا حيدر هذا رئيساً للجمهورية، فقد كان عمر الخيام شاكيل يبتلى أحياناً بذلك الدوار غير المعقول، بذلك الإحساس بأنه مخلوق يقف على حافة رجل هامشي. وذات مرة، خلال الفترة التي كان يدمن فيها على الكحول ويخطب ود اسكندر حربا، ذلك المليونير العابث، المفكر الراديكالي، رئيس الوزراء ومن ثم الجثة التي تجترح المعجزات، وصف عمر الخيام نفسه لاسكي ذاك وهو بين أقداحه، إذ أسر له قائلاً «إنك ترى أمامك شخصاً ليس هو بطل حياته، رجلاً ولد ونشأ وكأنه خارج الأشياء. والوراثة تؤخذ بالحسبان، أولا تظن ذلك؟». فأجاب اسكندر حربا: «تلك فكرة تقبض الصدر».

لقد نشأ عمر الخيام شاكيل وترعرع على أيدي ما لا يقل عن ثلاث

أمهات، دون أن ترى عيناه أباً واحداً. وقد زاد من غموض الوضع كله في ما بعد حين بلغ عمر سن العشرين تقريباً، مولد أخيه الأصغر الذي كانت تدعي أمومته الأخوات الثلاث أيضاً والذي كان الحمل به لا يقل رجساً عن الأول. كما حملت للفتى الناشئ الكثير من القلق والاضطراب تجربته الأولى في ميدان الحب وكذلك مطاردته بتصميم شديد لتلك الفتاة الصعبة المنال، فرح الفارسية (المولودة باسم زهر عشتار)، وهي الفتاة التي كانت مشهورة لدى فتيان الجوار جميعاً، باستثنائه وحده، هو المعزول بالفطرة، باسم: «كارثة المغازلة».

إنه سريع الإغماء، هامشي، مقلوب، مفتون، مؤرّق، كثير التحديق إلى النجوم، بدين: فأي ضرب من الأبطال هو هذا البطل؟

الفصل الثاني

طوق من أحذية

بعد أسابيع قليلة من دخول القوات السوفياتية أفغانستان، عدت إلى الوطن لزيارة والدي وأخواتي وتقديم ابني البكر لهم. تقيم عائلتي في منطقة (الدفاع) التابعة لجمعية السكن التعاونية الخاصة بضباط مرافق الدفاع الباكستانية رغم أنها ليست عائلة عسكرية. ومنطقة الدفاع هذه هي الجزء الراقي من كراتشي، إذ إن قلة قليلة من الضباط الذين سمح لهم بشراء أرض هناك، بأدنى مستوى للأسعار، كانوا يستطيعون تحمل نفقات البناء.

مع ذلك لم يكن مسموحاً لهم أن يبيعوا أرضهم الخلاء أيضاً. فلكي تشتري قطعة أرض تعود لضابط من ضباط منطقة الدفاع عليك أن توقع عقداً معقداً. من شروط هذا العقد أن تبقى الأرض ملكاً للبائع حتى وإن كنت قد دفعت له سعر السوق الكامل ثم أنفقت كل ما تملك على بناء بيت خاص بك على قطعة الأرض تلك طبقاً للمواصفات التي تريدها أنت. أي أنك، من حيث المبدأ، ستبقى مجرد شخص حسن النية، فاعل خير أراد أن يقدم للضابط البائس بيتاً يسكنه بدافع حبه للإحسان الذي لا حدود له. غير أن العقد كان يلزم البائع بتسمية شخص ثالث تناط به صلاحيات مطلقة وسلطة كاملة على البيت حين ينجز. هذا الطرف الثالث ترشحه أنت ويقوم، حين يذهب عمال البناء إلى البيت، بتسليم الملكية إليك. أي لا بد للعملية من عملين منفصلين من أعمال

حسن النية. ومنطقة الدفاع هذه شيدت بكاملها تقريباً على أساس الشخص الحسن النية هذا. ولا شك أن هذه الروح، روح الرفاقية، روح العمل المشترك الهادف الخالي من الأنانية، جديرة بكل إكبار.

إنها عملية رائعة. البائع يثري، الوسيط ينال أجره، وأنت تحصل على بيت، ولا أحد يتجاوز القانون. كذلك لم يسأل أحد، بالطبع، كيف حدث أن المنطقة العمرانية المرغوبة أكثر من مناطق المدينة الأخرى كلها قد قسمت بين إدارات الدفاع بهذه الطريقة. هذا الموقف، أيضاً يظل جزءاً من أسس الدفاع: فالجو هناك مليء بأسئلة لم تسأل.

مع ذلك رائحتها ضعيفة فالأزهار في الحدائق الكثيرة اليانعة والأشجار الممتدة على طول الشوارع والعطور التي تضعها سيدات ذلك الحي المرفهات الجميلات تطغى تماماً على الرائحة الأخرى تلك، المجردة كل التجريد. الدبلوماسيون، رجال الأعمال الدوليون، أبناء الحكام المستبدين السابقين، نجوم الغناء، أقطاب صناعة المنسوجات، أبطال الكريكيت، كلهم يأتون إلى هنا ويذهبون، كما يوجد الكثير من سيارات التويوتا والداتسون الجديدة، واسم (جمعية الدفاع) الذي قد يبدو للبعض أشبه برمز (يمثل علاقة المنفعة المتبادلة بين إعمار الوطن وقواته المسلحة) لا يترك مثل هذا الانطباع في المدينة، بل هو اسم فقط.

ذات مساء، وعقب وصولي مباشرة، قمت بزيارة صديق قديم لي، شاعر، وقد كنت أتطلع بشوق كبير لأن أحظى بواحدة من محادثاتنا الطويلة القديمة، أن أسمع وجهات نظره حول الأحداث الأخيرة في الباكستان وأفغانستان. بالطبع، كان بيته مليئاً بالزوار كالعادة، لكن ما من أحد بدا مهتماً بأن يتحدث عن شيء، سوى دورة الكريكيت القائمة بين الباكستان والهند.

جلست إلى الطاولة مع صديقي وبدأنا شوط شطرنج بليد. لكنني كنت بالفعل أود معرفة واقع الحال وحقيقة الأمور، لذا، عمدت أخيراً للبوح بما يشغل ذهني، بادئاً بطرح سؤال عن إعدام ذو الفقار علي بوتو.

إلا أن نصف السؤال فقط عبر شفتي، أما النصف الآخر فقد انضم إلى صفوف المنطقة من الأسئلة الكثيرة التي لم تسأل، نظراً لأنني شعرت برفسة بالغة الإيلام تحط على ساقي، ودون أن أصرخ، غيرت جملتي وهي في منتصفها إلى موضوعات الرياضة. كما ناقشنا أيضاً ازدهار الفيديو الذي لا يزال في بدايته.

كان الناس يدخلون ويخرجون، يتحلقون ويضحكون. وبعد أربعين دقيقة تقريباً قال صديقي: (الآن أوكي) سألته «من هو يا ترى؟». فأعطاني اسم المخبر الذي تغلغل في تلك المجموعة الخاصة. لقد كانوا يعاملونه بكل تهذيب، دون أن يلمحوا إلى أنهم يعرفون سبب وجوده، إذ إنه سيختفي في تلك الحالة وسيأتي بدلاً منه مخبر لا يعرفونه. في ما بعد، قابلت ذلك المخبر، فوجدته فتى لطيفاً ذلق اللسان بريء السيماء، سعيداً ولا شك لأنه لم يكن يسمع ما يستحق كتابة تقرير عنه. كان نوع من التوازن قد تحقق. ومرة ثانية أدهشني كم يوجد في الباكستان من أشخاص لطفاء مثله، كما أدهشني التهذيب المتنامي في تلك الحدائق التي تضمخ الهواء بأريجها.

بعد زيارتي الأخيرة إلى كراتشي قضى صديقي الشاعر شهوراً عدة في السجن لأسباب اجتماعية بالطبع. أي بعبارة أخرى، كان يعرف شخصاً وهذا الشخص يعرف زوجة الصهر الثاني لعم شخص ثالث ربما يقطن في شقة واحدة، وربما لا يقطن مع شخص رابع يهرب الأسلحة إلى رجال العصابات في إقليم بالوشستان. إذ يمكنك أن تذهب إلى أي مكان في الباكستان، يمكنك أن تذهب حتى إلى السجن إن كنت تعرف أناساً فيه. ولا يزال صديقي يرفض التحدث عما جرى معه إبان تلك الأشهر، لكن أناساً آخرين أخبروني أنه ظل في أسوأ الحالات زمناً طويلاً بعد خروجه. كما قالوا إنه تعرض للتعليق من كاحلي قدميه وقد انقلب رأسه إلى الأسفل كما تعرض للضرب أيضاً، وكأنه وليد جديد ينبغي إجبار رئتيه على التنفس كي يتمكن من الصراخ. لكنني لم أسأله إن كان

قد صرخ، أم رأى من النافذة في تلك اللحظة ذرى الجبال وقد انقلبت رأساً على عقب.

إنني حيث ألتفت أجد ما يخزي، ما يدعو للخجل. لكن ككل شيء آخر، عش مع الخزي فترة كافية يصبح جزءاً من الأثاث، وفي منطقة الدفاع يمكنك أن تجد الخزي والعار في كل منزل، سيجارة تحترق في منفضة، لوحة مؤطرة على جدار، غطاء يستر الفراش، إنما لم يعد هناك من يلحظه، فالكل مهذب متحضر.

ربما كان صديقي سيروي هذه القصة أو قصة أخرى على أنها قصته، لكنه لم يعد ينظم الشعر. لذا أجدني هنا أخترع بدلاً منه ما لم أخترعه من قبل، ولسوف تلاحظ أن بطلي علق من كاحليه من قبل وأن له اسم شاعر شهير، لكن قلمه لم ولن يكتب الرباعيات قط.

«أيها الغريب... أيها المتعدي... يا من لا تملك حقاً في طرق هذا الموضوع؟ أنا أدري: لا، ما من أحد ألقى القبض علي. وليس هناك احتمال في أن يفعلوا ذلك، أيها المتطفل... أيها القرصان... إنني أرفض أوامرك. فنحن نعرفك، بلغتك الأجنبية التي تتلفع بها كالراية: تتكلم عنا بلسانك ذي الشعب العديدة، ترى ماذا يمكنك قوله سوى الكذب؟».

فأجيب بطرح المزيد من الأسئلة: هل ينبغي النظر إلى التاريخ باعتباره ملكية للمشاركين في صنعه فقط؟ أية محاكم صادقت على مثل هذه المزاعم، أية وفود رسمت حدود الأقاليم؟

لو يستطيع الموتى أن يتكلموا!!

إنني أقول لنفسي ستكون هذه رواية وداع، الرواية التي بدأت فيها آخر كلماتي عن الشرق بالانفلات منذ سنوات كثيرة. وأنا لا أصدق نفسي دائماً حين أقول هذا فالشرق جزء من العالم الذي ما أزال، شئت ذلك أم أبيت، منشداً إليه وإن يكن انشداداً رخواً.

أما بالنسبة إلى أفغانستان: فقد قابلت في إحدى الحفلات، وبعد

عودتي إلى لندن، دبلوماسياً بريطانياً مخضرماً، اختصاصياً محترفاً بتلك الناحية، ناحيتي (أنا) من العالم، فقال إن من المناسب تماماً أن يدعم الغرب، (بعد قصة أفغانستان) الحكم الديكتاتوري للرئيس ضياء الحق. ولم يكن من الواجب أن أفقد أعصابي، لكنني فقدتها، إنما دون نفع أو جدوى. بعد ذاك غادرنا المائدة فقالت زوجته وهي سيدة مهذبة هادئة قامت بكثير من محاولات التهدئة وإحلال السلام بيننا: «قل لي لماذا لا يتخلص الناس في الباكستان من ضياء الحق بالطرق العادية، كما تعلم؟».

أيها القارئ العزيز، ليس العار من خصائص الشرق حصراً.

البلاد في هذه الرواية ليست هي الباكستان أو ليست كذلك تماماً. فهناك اثنتان، حقيقية ووهمية، تشغلان الحيز نفسه تقريباً. وقصتي، أو بلدي الخيالي، تشكل، مثلي أنا زاوية صغيرة مع الواقع. لقد وجدت هذا الخروج عن القصة ضرورياً. مع ذلك فإن قيمة هذا الخروج مفتوحة للنقاش. فوجهة نظري أنني لا أكتب عن الباكستان فقط.

إنني لم اسم البلد الذي أكتب عنه كما أن بلدة «ك» ليست هي بلدة كيتا على الإطلاق. لكنني لا أود أن أتمسك كثيراً بهذه النقطة. فحين أصل إلى المدينة الكبيرة سأدعوها كراتشي وسوف تكون فيها منطقة (دفاع).

موقع عمر الخيام كشاعر موقع غريب يثير الفضول. فهو لم يشتهر كثيراً في موطنه، فارس، ووجوده في الغرب مترجماً هو بالحقيقة إعادة صوغ كامل لأشعاره، تختلف في كثير من الحالات اختلافاً جذرياً عن روح النص الأصلي (إن لم نقل عن مضمونه) وأنا أيضاً رجل ترجم له، نقل إلى لغة أخرى. ومن المعتقد عموماً أن شيئاً ما يضيع دائماً عند الترجمة، لكنني أتمسك بفكرة أخرى وأستخدم كدليل عليها نجاح رباعيات الخيام التي ترجمها فيتزجيرالد، تلك الفكرة القائلة: إن شيئاً ما يمكن اكتسابه بالترجمة أيضاً.

«رؤيتي لك عبر تلسكوبي الحبيب» قال عمر الخيام شاكيل لفرح زهر عشتار يوم صارحها بحبه «تلك الرؤية منحتني القوة للخروج على سلطة أمهاتي» فأجابت: «متلصص! أبول على كلامك. الأمر وما فيه أن خصيتيك هبطتا بسرعة كبيرة فاشتعلتا ناراً. فلا تحملني مشاكلك العائلية». كانت فرح أكبر منه بعامين، رغم ذلك كان عمر الخيام مضطراً لأن يعترف بأن محبوبته الغالية بذيئة اللسان.

. . . لقد أعطي الطفل، شأنه شأن ذلك الشاعر الكبير، كنية أمهاته. كذلك أطلقت الأخوات الثلاث وكأنما ذلك بهدف واحد هو التوكيد على غايتهن من تسميته باسم ذلك الشاعر الخالد عمر الخيام، اسم «نيسابور» أيضاً على ذلك الصرح المعتم كثير الأروقة الذي بات كل ما يملكونه في الدنيا. وهكذا نشأ عمر ثان في مكان ثان له الاسم نفسه وغالباً ما كان يلحظ، وهو يشب ويترعرع، نظرة غريبة في الأعين الست لأمهاته الثلاث، نظرة بدت وكأنها تقول «هيا، أسرع، نحن بانتظار قصائدك». لكن (وأكرر ذلك) ما من رباعية سجلها قلمه.

كانت طفولة عمر الخيام طفولة استثنائية طبقاً لأي معيار من المعايير، فما كان يطبق على الأمهات والخدم كان يطبق على بطلنا الهامشي أيضاً، ودونما نقاش.

لقد قضى عمر الخيام اثني عشر عاماً طوالاً، أي أشد سنوات نموه أهمية، سجين ذلك القصر المنعزل، ذلك العالم الثالث الذي ليس مادياً ولا روحياً بل هو نوع من البلى المكثف المتكون من البقايا المتفسخة لذينك النمطين العائليين الأكثر انتشاراً في الوجود، ذلك العالم الذي كان عمر يجري فيه باستمرار ضمن الأبخرة العفنة المتلاشية والمتخلفة عن أفكار منبوذة وأحلام منسية، كما كان يجري ضمن أشياء كثيرة أبلاها العث وعلاها الغبار وعشش فيها العنكبوت.

إن الإجراءات المحسوبة حساباً دقيقاً التي عزلت الأمهات بها

أنفسهن عن العالم خلقت نوعاً من المنطقة الانتروبية[1] الشديدة الحر التي لم يكن أي جديد فيها، رغم كل تعفن الماضي، بقادر على النمو والتي أصبح الفرار منها أعظم مطامح الفتى عمر الخيام. فهو، باللاوعي، كان يحلم بشيء واحد: أن يخرج من ذلك العالم المبهم البغيض، من متاهة الزمان والمكان تلك التي وصل بفضلها أخيراً، هو الذي كان يجري ويجري، يلهث ويلهث بأعصاب مشدودة تتمزق، إلى نقطة البدء، وكله إحساس بأن حياته ذاتها موضع رهان نتيجة خوفه المرضي من احتجازه في «نيسابور». لقد كان بالنتيجة، شيئاً جديداً في تلك المتاهة القاحلة التي امحى فيها الزمن.

هل سمعت يا ترى بأولئك الأطفال المذؤوبين الذين أرضعتهم ـ كما ينبغي أن نفترض ـ ذئبة ضارية كثيرة الأثداء كثيفة الشعر تعوي ـ للقمر؟ إنهم، حين يفصلون عن قطيع الذئاب، يعضون أذرع منقذيهم شر عض، وإذا ما وضعوا في الشباك والأقفاص يحملون معهم روائح اللحم النيء والبراز إلى عالم حريتهم وضيانه، ذلك أن أدمغتهم تكون أشد نقصاً من أن تكتسب شيئاً من أسس التمدن الأولية البدائية... كذلك، فإن عمر الخيام نشأ هو الآخر على أثداء أمومية كثيرة، وطاف ما يقارب الأربعة آلاف يوم في ذلك الدغل المحشو بأشياء وأشياء، ذلك الصرح الذي يدعى (نيسابور)، قصره المعزول المسور، وطنه الأم، إلى أن أفلح في فتح ثغرة في الحدود حين طلب يوم عيد ميلاده طلباً لم يكن باستطاعة أي شيء ترفعه آلة ميستري بالوش أن يلبيه.

«دعك من شغل صبيان الأدغال هذا» نخرت فرح بوجهه حين حاول عمر مراودتها عن نفسها «فأنت لست سعدان ـ نكاح، جيم يا صغيري» وقد كانت على صواب، حين تكلمت بلغة تربوية، لكنها كانت قد أنكرت التوحش، الشر في داخله أيضاً فبرهن، بجسدها ذاته، أنها على خطأ.

---

(١) الانتروبيا: الطاقة الحرارية غير المستفاد منها.

لنبدأ بالأمور أولاً بأول: فطوال اثنتي عشرة سنة كان لديه القصر يسرح فيه ويمرح إذ لم يكن أحد يرفض له شيئاً (ما عدا الحرية) وهكذا نشأ فتى مزعجاً مدللاً ماكراً إذا زمجر أسرعت أمهاته لمداعبته... لكن بعد أن بدأت الكوابيس ترتاده وبدأ النوم يتعذر عليه، غاص أكثر وأكثر في أعماق ذلك العالم المتفسخ الذي بدا وكأنه بلا قرار. صدقني حين أقول لك إنه كان يهيم في الدهاليز التي لم يطرقها أحد منذ زمن طويل إلى درجة كانت معها قدماه المصندلتان تغوصان في الغبار حتى الكاحلين، وإلى حد اكتشف معه السلالم المحطمة التي أحالتها إلى ممرات يستحيل عبورها زلازل قديمة جعلتها ترتفع حتى مستوى الجبال المسننة ثم تنخفض كاشفة عن مهاوٍ مظلمة مرعبة.. في سكون الليل وأصوات الفجر الأولى كان عمر يستكشف ما وراء التاريخ منقباً في ما بدا أنه آثار «نيسابور» القديمة ذات القيمة الأثرية الكبيرة فاكتشف في الخزائن خشباً تفتت تحت أصابعه وهي تجرب فتح الأبواب، كما اكتشف أشكالاً غير معقولة لأوان ذات رسوم تعود للعصر الحجري الحديث وتمت للطراز الكوتديجي. أما المطبخ الذي لم يعد يخطر ببال أحد في المنزل أنه موجود حتى، فقد كان يطيل النظر فيه، جاهلاً كل شيء تقريباً، إلى الأدوات البرونزية التي يعود تاريخ صنعها إلى عصر خرافي تماماً بينما كان في مناطق أخرى من ذلك الصرح الهائل، مناطق هجرت منذ زمن طويل بسبب التلف الذي أصاب التمديدات فيها، وكان يغوص في شبكات التصريف الآجرية المعقدة تلك التي كشفتها الزلازل والتي باتت عتيقة الطراز بالية منذ قرون.

بل إنه في إحدى المناسبات أضاع طريقه تماماً فراح يجري كالمجنون هنا وهناك مثل رحالة الزمان الذي أضاع طلسم سحره فخشي ألا يخرج مرة ثانية من دهليز التاريخ المتفسخ ثم وصل إلى نقطة ميتة، حيث طفق يحدق مذعوراً إلى الغرفة التي صدعت جدرانها الخارجية جذور شجرة هرمة ضخمة تبحث عن الماء. لعله كان في سن العاشرة

راح يصرخ «خذي ذلك. خذي ذلك أيتها الأشياء البالية. . (ثم ألقى بالبلطة المجرمة ومكنسة التنظيف) وانفجر يبكي دموعاً حارقة.

لكن ينبغي القول إنه حتى في تلك الأيام لم يكن أحد يصدق قصص الفتى عن تلك الأشياء اللامحدودة المرمية في البيت. فقد قالت له حشمة بيبي ذات يوم بصوتها الأشبه بصرير باب «هي دائماً يا صغيري، تنتاب الرأس المسكين». كذلك ضحك الخدم الذكور الثلاثة قائلين: حين نسمعك أيها الصغير، يخيل إلينا أن هذا البيت قد كبر وتضخم حتى لم يعد من فراغ لمكان سواه في العالم

أما الأمهات الثلاث فقد مددن أيديهن، وهن يجلسن بارتخاء في مقعدهن الهزاز المفضل، يربتن ظهره ثم قالت موني الوسطى بنبرة حاسمة: «على الأقل، لديه مخيلة حية»، فوافقت موني الصغرى: «أجل، إنها تأتيه من اسمه الشاعري». أما الأم الكبرى شوني التي أزعجها كثيراً احتمال أن يسير الطفل في نومه، فقد أمرت أحد الخدم بأن ينام خارج غرفة عمر الخيام مباشرة لكنه في ذلك الحين كان قد وضع مناطق (نيسابور) الأكثر وهمية خارج الحدود إلى الأبد. فبعد أن انقض على مخلفات التاريخ كما ينقض الذئب (أو الطفل ـ الذئب) على القطيع، أسلم عمر الخيام نفسه إلى مناطق المنزل المكنوسة الممسوحة، المستخدمة والمطروقة جيداً.

شيء ما ـ ربما هو توبيخ الضمير ـ قاده إلى مكتب جده ذي الألواح الخشبية القاتمة وهو الغرفة المحشوة بالكتب التي لم تدخلها الأخوات الثلاث منذ وفاة الرجل العجوز. هناك اكتشف عمر أن هيئة العالم الكبير التي كان يتخذها السيد شاكيل إنما كانت هيئة زائفة، تماماً مثلما كانت فطنته المزعومة في مجال الأعمال، نظراً لأن الكتب كلها كانت تحمل لوحات مالك سابق يدعى الكولونيل أرثر غرينفيلد، كما أن كثيراً من أوراقها لم تكن قد فتحت. إنها مكتبة رجل من سادة القوم تم شراؤها

بالجملة من ذلك الكولونيل المجهول وظلت مهملة لم يمسها أحد طيلة إقامتها في قصر شاكيل، فانقض عليها عمر الخيام أيما انقضاض.

هنا لا بد لي من أن أثني على مواهبه في التعلم الذاتي. إذ إنه لم يترك «نيسابور» إلا وقد تعلم اللغتين العربية والفارسية كما تعلم اللاتينية والفرنسية والألمانية وكل ذلك بمساعدة المعاجم المجلدة تجليداً جيداً وكتب النصوص المهملة التي تركها له جده بغروره الخادع، أية كتب أغرق الفتى نفسه فيها!! المخطوطات الموضحة بالرسوم لأشعار غالب، مجلدات الرسائل المرسلة من أباطرة المغول إلى أبنائهم، ترجمة بيرتون لقصص ألف ليلة وليلة، وكذلك رحلات ابن بطوطة وحكاية المغامر الأسطوري حاتم الطائي.. أجل، أجل.. هنا أرى أن علي أن أسحب (كما أمرت فرح عمراً بأن يسحب) الصورة المضللة، صورة الطفل المتوحش ابن الغابة.

غير أن النقل المستمر للأشياء من غرفة المعيشة، وعبر النادل الأبكم، إلى مكتب الرهن كان يلقي الضوء، من حين إلى آخر، على مسألة مخفية. فتلك الحجرات الكبيرة المحشوة حتى حافتها بالتركة المادية التي خلفتها وراءها أجيال من الأسلاف الكسابين النهابين كانت تفرغ شيئاً فشيئاً. وهكذا لم يبلغ عمر العاشرة والنصف حتى كان هناك فراغ كاف للتحرك فيه دون أن يرتطم المرء بقطعة أثاث في كل خطوة. وذات يوم أرسلت الأمهات الثلاث خادماً إلى المكتب كي يزيل من حياتهن حاجزاً من خشب الجوز نقشت عليه نقشاً رائعاً صورة للجبل الدائري الأسطوري، جبل قاف، تكملها الطيور الثلاثون التي تغرد للإله هناك. لكن ذهاب برلمان الطيور ذاك كشف لعمر الخيام عن صندوق كتب صغير محشو بمجلدات حول نظرية التنويم المغناطيسي وتطبيقه: مخطوطات سنسكريتية، مؤلفات في علم السحر الفارسي، نسخة مجلدة من كتاب الكاليفالا الفنلندي، وصف لممارسات التنويم المغناطيسي

للأب غاسنر كلوسترزو، بحث في نظرية فرانز ميسمر[1] نفسه حول «المغناطيسية الحيوانية»، كما وجد أيضاً (وكان في ذلك إفادته الكبرى) عدداً من المنشورات ذات الطبعة الرخيصة من نوع «تعلم بنفسك». وهكذا بدأ عمر الخيام، بشَرَهٍ بالغ، يلتهم هذه الكتب، وهي الكتب الوحيدة في المكتبة التي لم تكن تحمل اسم الكولونيل المتعلم، إنه تركة جده الحقيقية وقد أدت به إلى الغرق طيلة حياته في ذلك العلم السري ذي القوة الرهيبة في مضمار الخير أو الشر.

كان خدم المنزل يعانون من كثرة الفراغ مثلما كان يعاني هو نفسه، فأمهاته كن قد أصبحن بالتدريج شديدات التساهل حول قضايا كثيرة مثل النظافة والطبخ لذلك بات الخدم الذكور الثلاثة موضع تجارب عمر الخيام الأولى بملء رغبتهم. إذ شرع بمساعدة قطعة نقود لامعة يضعها فوق رأس واحدهم، يمارس التنويم المغناطيسي ثم اكتشف بشيء من الكبرياء موهبته في ذلك الفن: إنه بغير جهد يبقي صوته على مستوى رتيب واحد مهدهداً إياهم إلى أن يغيبوا تماماً. وبتنويمهم ذاك عرف، علاوة على معرفة أشياء أخرى، أن الدوافع الجنسية التي فقدتها أمهاته فقداناً تاماً منذ ولادته على ما يبدو، لم تكن قد فقدت على النحو نفسه لدى هؤلاء الرجال. فكانوا، وهم في غيبوبتهم، يعترفون مغتبطين بأسرار مداعباتهم الجنسية المتبادلة ويباركون الأمهات الثلاث على تبديلهن لظروف حياتهم إلى درجة أمكن معها كشف رغباتهم الحقيقية. فالعلاقة القائمة بين الخدم الذكور الثلاثة بملء رضاهم كانت توفر التوازن الغريب للعلاقة المشابهة، إنما الأفلاطونية، تلك التي كانت قائمة بين الأخوات الثلاث (لكن المرارة في فم عمر الخيام ظلت تكبر وتكبر، رغم أنه كان محاطاً بالكثير من الحميمية والعواطف).

كذلك وافقت حشمة بيبي على تجربة التنويم فجعلها عمر تتصور

---

(١) طبيب نمسوي توفي عام ١٨١٥.

أنها تسبح فوق غيمة وردية رقيقة. ثم بدأ ينغّم صوته وهي تستلقي على حصيرتها «إنك تغوصين في الغيمة أعمق وأعمق. شيء رائع أن تكوني في الغيمة... إنك تودين أن تغوصي إلى الأسفل والأسفل»، لكن كان لهذه التجارب أثر جانبي مأسوي، ذلك أن أمهاته، وبعد عيد ميلاده الثاني عشر مباشرة، علمن بالعلاقة القائمة بين الخدم الثلاثة الذين راحوا يحدقون إلى السيد الصغير وفي عيونهم الاتهام. كما أن حشمة بيبي راحت تتمنى لنفسها الموت، ففي النهاية سمعها وهي تغمغم... «أعمق وأعمق في قلب الغيمة الوردية»، ذلك أن السيدة العجوز وقد أعطيت لمحات عن العدم عبر القوى التأملية التي يتصف بها صوت المنوم المغناطيسي الصغير، أرخت أخيراً الإرادة الحديد التي ظلت تتمسك بواسطتها بالحياة مدة من الزمن زعمت أنها تربو على مائة وعشرين عاماً، وعندما ارتخت تلك الإرادة الحديد كفت الأمهات الثلاث عن التأرجح في مقعدهن طالبات إلى عمر الخيام الإقلاع عن التنويم المغناطيسي. لكن حينها كان العالم قد تغير، وعلي أن أعود قليلاً إلى الوراء كي أصف هذا التغير.

فمن الأشياء الأخرى التي وجدت في الغرف التي كانت تفرغ تدريجياً هناك: التلسكوب المذكور آنفاً، والذي طفق عمر الخيام يستخدمه للتجسس من نوافذ الطابق العلوي (فنوافذ الطابق السفلي كانت مغلقة المصاريع مرتجة على الدوام) وكان يرى العالم منه أشبه بقرص وضاء، بدر يثير في نفسه البهجة، لقد راقب معارك بين أطفال يلعبون بطائرات ورقية ذات أذناب ملونة خيوطها سود شحذها أصحابها لجعلها حادة كموسى الحلاقة، كما سمع صرخات المنتصرين ـ بوربوي ـ بوي ـ تنتقل إليه مع النسيم المشبع بالرمال. وذات مرة، انقطع خيط طائرة خضراء وبيضاء فدخلت إلى غرفته عبر النافذة المفتوحة. وفي يوم آخر، قبل عيد ميلاده الثاني عشر بقليل، حين كان يطوف بمرقابه في ذلك القمر الذي يشكله العالم الخارجي، رأى فرح زهر عشتار بخيالها الفاتن

الغامض، هي التي لم تكن حينذاك تتعدى الرابعة عشرة إلا أن جسمها كان يتحرك بكل سحر الأنثى وفتنتها، في تلك اللحظة تماماً شعر عمر بصوته يتحشرج كما شعر بأشياء أخرى عند حقويه تنزلق إلى الأسفل لتتخذ أمكنتها المحددة في أسفل أكياس معزولة كانت فارغة حتى ذلك الحين. وما تلا ذلك ربما كان أمراً لا مناص منه.

لم يكن عمر حراً. فحريته في التطواف داخل المنزل لم تكن سوى حرية زائفة أشبه بحرية الحيوان داخل حديقة حيوانات، وأمهاته لسن سوى حارسات شديدات الحب والرعاية. أمهاته الثلاث: آه! من سواهن يا ترى زرع في قلبه القناعة بأنه شخصية وحيدة الجانب، متفرج من أجنحة حياته الخاصة؟ لقد راقبهن اثنتي عشرة سنة، وكان يكرههن. أجل لا بد من قول ذلك، يكرههن لانغلاقهن، للطريقة التي كن يجلسن بها، وأذرعهن متشابكة على مقعدهن الهزاز ذي الصرير الشديد، لميلهن لأن يرخين لنفسهن العنان، يقهقهن ويستعدن ذكرياتهن حين كن فتيات صغيرات، لطريقتهن في احتضان واحدتهن الأخرى، لجمعهن رؤوسهن الثلاثة معاً والتهامس بما لا يعلم إلا الله، لإكمال واحدتهن جملة الأخرى. كان عمر الخيام، المعزول داخل أسوار «نيسابور» منفياً من المجتمع البشري، نفاه عنه قرار أمهاته الغريب، ولقد ضاعف اندماج أمهاته الثلاث في أم واحدة ذلك الإحساس بالنفي، زاد من شعوره بأنه، وهو في وسط الأشياء، خارج الأشياء، رهن اللاوجود.

اثنتا عشرة سنة مضت. في البداية، كان الكبرياء الشديد الذي دفع شوني وموني وبوني لإنكار الإله وذكرى والدهم ومكانتهم في المجتمع، قد أتاح لهن إمكانية الحفاظ على معايير للسلوك هي وحدها ما تركها لهن أبوهن من تركة. فقد كن ينهضن، كل صباح، بفارق ثوان قليلة بين الواحدة والأخرى، ينظفن أسنانهن بتمرير عيدان الأوكاليبتوس إلى الأعلى والأسفل ومن هذا الجانب إلى ذاك خمسين مرة ثم يرتدين ملابس متماثلة ويدهن شعور بعضهن بالزيت ثم يرجلنها الواحدة للأخرى

ويشكلن أزهاراً بيضاً في الكعكات السود الملتفة التي صنعتها جدائلهن ـ كما كن يخاطبن الخدم، وكذلك بعضهن البعض بتلك الصيغة المهذبة، صيغة الجمع، ولقد أضفت صرامة سلوكهن ودقة تعليماتهن المنزلية صيغة الشرعية على كل أفعالهن بما في ذلك (وهذا هو المهم ولا ريب) إنجاب طفل غير شرعي، لكن شيئاً فشيئاً كن ينزلقن.

ففي اليوم الذي رحل فيه عمر الخيام قاصداً المدينة الكبيرة، أخبرته أمه الكبرى بالسر الذي كان تاريخ الإفصاح عنه بداية لانهيارهن. «لم نكن نرغب قط في الكف عن إرضاعك» اعترفت له شوني، «أما الآن فأنت تعلم أنه ليس من المألوف أن يظل طفل حتى السادسة من عمره يرضع ثدي أمه، لكنك ظللت ست سنوات ترضع واحدة منا كل عام. في عيد ميلادك السادس فقط، تخلينا عن متعة المتع هذه، فاختلف بعد ذلك كل شيء، إذ بدأنا ننسى الغاية من الأشياء».

ذلك أنه في غضون السنوات التالية، ومع جفاف الأثداء وانكماشها كانت الأخوات الثلاث قد فقدن أيضاً صلابة الجسد وانتصابه ذاك الذي كان وراء قدر كبير من جمالهن. فقد أمسين مترهلات، كما برزت عجرات بين شعورهن كذلك فقدن اهتمامهن بشؤون المطبخ، وأطلقن للخدم الحبل على الغارب. لكنهن كن لا يزلن ينهرن بسرعة واحدة ووفق أسلوب واحد، فظلت روابط تماثلهن راسخة لا تتزعزع.

لنذكر هذا: لم تكن الأخوات شاكيل قد تلقين تعليماً مناسباً ما عدا السلوك، في حين كان ابنهن، حين غلظ صوته، قد حصّل لنفسه ما جعله معجزة في التعلم الذاتي حقاً. لقد حاول أن يثير اهتمام أمهاته بعلمه، لكنه حين كان يشرع بإيراد أروع البراهين على نظريات إقليدس أو شرح صورة أفلاطون عن «الكهف» شرحاً بليغاً، فإنهن كن يرفضن الأفكار غير المألوفة التي يوردها في الحال. «أفكار إنكليزية على ألمانية»، كانت الأم شوني تقول فتسارع الأخريان لهز أكتافهما هزة المرأة الواحدة «من تراه يفهم أفكار تلك النماذج الحمقاء؟» تسأل موني الوسطى

بنبرة من يشطب على شيء شطباً نهائياً. «إنهم يقرأون الكتب بالمقلوب، من اليسار إلى اليمين».

لقد زاد تعلق أمهات عمر الخيام بكل ما هو قديم من مشاعره نصف المترابطة والحديثة الظهور بأنه غريب عن كل ما حوله وذلك لسببين: الأول أنه طفل موهوب، مواهبه قيد الارتداد إلى باعثها الأول والثاني أنه بات يخمن، بسبب كل ما تعلمه، إن ما تبتغيه أمهاته إنما هو احتجازه بينهن. ولقد عانى من الإحساس بأنه ضائع داخل غيمة، تنفرج من حين إلى آخر متيحة لمحات سريعة من السماء. . . لهذا السبب ورغم كل ما كان يغمغم به لحشمة بيبي، لم تكن الغيوم تجذب الطفل في يوم من الأيام.

الآن إذاً، عمر الخيام شاكيل في الثانية عشرة تقريباً. إنه مفرط الوزن ولعضوه التناسلي الذي اكتسب القدرة الجنسية حديثاً، قلفة كان ينبغي إزالتها. أماته يزددن غموضاً حول الأسباب الداعية لأن يعشن حياتهن بتلك الطريقة، في حين أنه بات بين عشية وضحاها قادراً على ممارسة أشكال من العدوان كانت في السابق غريبة على طبيعته، طبيعة الفتى البدين اللين العريكة. وأقدم هنا ثلاثة أسباب (سبق وأن ألمحت إليها): السبب الأول هو رؤيته لفرح، ابنة الرابعة عشرة، في القمر الذي كانت تريه إياه عدسته التلسكوبية، الثاني هو ضيقه من تبدل نبرة صوته، تلك التي أفلتت من كل قدرة على التحكم لتخرج على شكل صرير حاد في حين برزت كتلة بشعة في حنجرته وكأنها فلينة. كما ينبغي على المرء ألا ينسى السبب الثالث أي التبدلات الكريمة (أو غير الكريمة) التي تحدثها هرمونات البلوغ في شخصية المراهق. . ولجهلهن بتجمع هذه القوى الشيطانية داخل ابنهن، فقد ارتكبت الأمهات الثلاث خطأً فادحاً هو سؤالهن إياه عما يرغب في عيد ميلاده.

إذ فاجأهن بقوله وقد تجهم وجهه: «لن تعطينني إياه، فما الفائدة؟». وتشهق الأمهات الثلاث وقد تملكهن الذعر، كما تطير ست

أيد إلى ثلاثة رؤوس لتتخذ وضعيات «لا أرى، لا أسمع، لا أنطق بسوء». ثم تتكلم الأم شوني ويداها على أذنيها: «كيف تقول هذا؟ أيها الغلام، ما الذي تقوله؟». ثم تتابع موني الوسطى وهي تختلس النظر من بين أصابعها وكأن مأساة قد حلت: «هناك من عكر مزاج ملاكنا... الأمر واضح». بعدئذ تبعد بوني الصغيرة يديها عن شفتيها كي تنطق شراً: «اطلب.. اطلب فقط... ما الذي يمكننا أن نرفضه؟ أي شيء لا نفعله من أجلك؟».

حينذاك ينفجر بصوت أشبه بالهدير «أرغب في أن تدعنني أخرج من هذا القصر المرعب» ثم ينتقل بصوت أكثر هدوءاً، إلى ذلك الصمت الذي خلفته كلماته: «وأن تخبرنني باسم والدي».

«وجنة الفتى... وجنة الفتى...» تصرخ موني أمه الوسطى، بعد ذاك تسحبها أختاها إليهما ليشكلن حلقة متجهة نحو الداخل، وأذرعتهن حول خصورهن في وضع التوعد الداعر ذاك الذي يجده الغلام ثقيلاً على معدته. «ألم أقل لكن؟» يقول شاكياً متصنعاً العذاب والألم «إذاً لماذا طلبتن مني ذلك أصلاً؟».

لكن في تلك اللحظة يطرأ تغير ما، إذ تنطلق مقاطع شجارية من حلقة الأمهات فطلبات الغلام أوقعت الفرقة بين الأخوات لأول مرة منذ أكثر من عقد. إنهن يتجادلن، والجدال عملية صعبة شائكة، يتنازعن نزاع نساء يحاولن أن يتذكرن كيف كن في يوم من الأيام.

وحين يخرجن من ركام تماثلهن الذي تفجر شظايا، يقمن بمحاولات بطولية كي يزعمن لعمر، ولأنفسهن كذلك، أنه لم يحدث شيء خطير، لكن رغم تمسك الثلاث بالقرار الجماعي الذي اتخذنه، فإن الغلام يرى أن هذا الإجماع بالرأي ليس إلا قناعاً بقي في مكانه بمشقة بالغة.

«هذه طلبات معقولة»، تتكلم بوني الصغرى أولاً «ينبغي تلبية واحد منها على الأقل».

يخيفه انتصاره، وتقفز الفلينة في حنجرته لتصل لسانه تقريباً ثم يسأل مرتعداً: «أي منها أي منها أي منها؟».

هنا تتولى موني الرد فتقول برزانة كاملة: «سوف نطلب حقيبة جديدة تأتي في رافعة ميستري ولسوف تذهب إلى المدرسة لكن ينبغي ألا تكون سعيداً كثيراً». بعدئذ تضيف «نظراً لأنك حين تغادر هذا البيت ستجرحك الكثير من الأسماك الحادة التي سيرميك بها الناس في الشوارع، كأنها السكاكين». لقد كان لموني، أشد أمهاته عداء لحريته، لسانها الذي شحذه جيداً فولاذ هزيمتها.

أخيراً تقول أمه الكبرى ما خصص لها وبنوع من إعطاء التعليمات: «عد إلى البيت دون أن تعارك أحداً، وإلا سنعلم أنهم أهانوا كبرياءك، جعلوك تشعر بذلك الإحساس المحظر، الإحساس بالعار».

ثم تقول موني الأخت الوسطى «وستكون تلك نتيجة سيئة تماماً».

إنها هذه الكلمة: «Shame»[١] «العار». لا، علي أن أكتبها بصيغتها الأصلية وليس بهذه اللغة بالذات، هذه اللغة الملوثة بالمفاهيم الخاطئة والنثار المتراكم من ماضي أصحابها الذين لا يعرفون الندامة، هذه الإنكليزية التي أجد نفسي مضطراً لأن أكتب بها وبذلك تحور إلى الأبد ما أكتب. «شرم»، تلك هي الكلمة التي أرى، أما كلمة «عار» الحقيرة هذه فترجمة غير صالحة لها على الإطلاق. ثلاثة أحرف: شين، راء، ميم، (تكتب طبعاً من اليمين إلى اليسار)، إضافة إلى حركات مد تدل على أحرف صوتية قصيرة. إنها كلمة قصيرة لكنها موسوعة من المعاني. فليس العار وحده ما حرمت أمهات عمر الخيام عليه أن يحس به بل حرمن عليه الانزعاج، الخيبة، اللياقة، التواضع، الخجل، وكذلك الإحساس بأن له مكاناً خاصاً به في العالم، إضافة إلى جملة أخرى من

---

(١) الكاتب هندي باكستاني لكنه يكتب بالإنكليزية وهذه مشكلة بالطبع، فهناك بعض التعابير التي لا مرادف لها بالإنكليزية، كما نرى هنا.

الذي كن ينكرنه عليه، أي الانفتاح للتجربة، لكأن الأخوات الثلاث، وفي اليوم نفسه الذي وقع فيه ناظرا العالم لأول مرة على ابنهن عمر الخيام، قد نفذت إلى قلوبهن سهام «الشرم» المحظورة. لكن مشاجراتهن خمدت حين قام بفراره الثاني، إلا أنهن لم يستعدن توحدهن قط إلى أن قررن تكرار عملية الأمومة مرة ثانية.

هنا أمر غريب أيضاً لا بد من ذكره: فحين فرقت صفوفهن رغبات عمر الخيام في عيد ميلاده، كان قد مضى على توحدهن بطريقة لا تمايز فيها زمن أطول من أن يستطعن استعادة أي إحساس بذواتهن السابقة ـ معنى ذلك بالضبط أن النتيجة التي أدى إليها ذلك الانقسام هو أنهن انقسمن بالطريقة الخاطئة، إذ كن قد امتزجن كلهن معاً إلى درجة ظهر معها على بوني الصغرى شيب قبل أوانه واتخذت الهيئة الملكية التي كان ينبغي أن تكون من الصفات المميزة للكبرى، في حين بدت الكبرى وكأنها أمست روحاً قلقة ممزقة، ملؤها التردد والميل للأخذ بأواسط الأمور، أما موني فقد غدت مصدراً للمناكدة والمشاكسة المصطنعة التي تعد الصفة التقليدية لكل صغير من أي جيل والتي تظل حقاً من حقوق الأصغر بغض النظر عن سنه وفي الفوضى التي رافقت إعادة خلقهن فقد تركبت الرؤوس على غير أجسامها، إذ أصبحن قنطورات[1] سيكولوجيا، نساء ـ أسماك، هجينات، وبالطبع فإن انقسام الشخصيات المشوش هذا حمل معه ما يدل على أنهن لا يزلن غير منفصلات تماماً، إذ لم يكن بالإمكان فهمهن إلا حين يعاملن ككل واحد.

من تراه لا يرغب في الفرار من أمهات كهذه الأمهات؟ ففي السنين اللاحقة سوف يتذكر عمر الخيام طفولته كما يتذكر العاشق معشوقته التي هجرته: ذكرى لا تتغير ولا تشيخ، تقبع دائماً في دائرة أشواق القلب. إلا أنه كان يتذكرها مصحوبة بالكراهية بدلاً من الحب، باردة، جليدية

---

(١) (ج قنطور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس)

بدلاً من أن تكون لاهبة متقدة لقد كتب عمر الآخر أشياء عظيمة نابعة من الحب، أما قصة بطلنا فهي أبأس، ذلك ولا شك، لأنها كانت مشربة بالبغضاء والمرارة.

قد يكون من السهل القول بأنه نمت لدى عمر الخيام منذ سن مبكرة اتجاهات بارزة معادية للمرأة - إذ إن جميع تعاملاته اللاحقة مع النساء كانت أعمال انتقام موجهة ضد ذكرى أمهاته - لكنني أقول في معرض الدفاع عن عمر الخيام: إنه طوال حياته، وفي كل أفعاله وحالاته، كان يؤدي واجبه البنوي، كان يسدد كل ما يترتب عليه تجاههن. فصاحب مكتب الرهن، السيد شلق، أقلع عن زيارة النادل.. الأبكم، وذلك يدل على وجود حب، حب من نوع ما... لكن عمر الخيام لم يكن قد نضج بعد. في تلك الفترة تماماً وصلت الحقيبة عن طريق آلة ميستري، فعلقها على كتفه بروح النزّاع إلى الفرار، ابن الثانية عشرة، وما إن دخل النادل الأبكم حتى بدأت الحقيبة انحدارها الرفيق عائدة إلى الأرض. لقد حمل له عيد ميلاده الثاني عشر الحرية بدلاً من الكعك كما حمل له أيضاً، داخل الحقيبة، دفاتر ذات حواش زرق ولوحاً حجرياً للكتابة، ولوحاً خشبياً يمكن غسله وبعض أقلام الريش التي يمكنه بها كتابة الخط الملتف الذي تكتب به لغته الأم، إضافة إلى حكاك، أقلام رصاص، مسطرة خشب، وعلبة أدوات هندسية من منقلة وفرجار وبوصلة علاوة على علبة ألومنيوم صغيرة للتخدير يمكنه بها قتل الضفادع. وهكذا، مزوداً بأسلحة العلم المعلقة على كتفه، غادر عمر الخيام أمهاته وهن يلوحن له بالوداع دونما كلمة (ودون أن يظهر أثر لفرقته عليهن).

لكن عمر الخيام شاكيل لن ينسى أبداً تلك اللحظة التي خرج فيها من النادل - الأبكم ووطئ تراب الأرض المحايدة المحيطة بقصر طفولته العالي الذي كان ينتصب كالمنبوذ بين الكانتونمنت والبلدة، أو رؤيته الأولى للجنة الاستقبال التي كان أحد أعضائها يحمل إكليلاً من أكثر الأكاليل إثارة للدهشة.

فعندما تلقت زينات قابولي، زوجة أحسن تاجر للسلع الجلدية في بلدة «ك». طلب الأخوات الثلاث بإرسال حقيبة مدرسية مع العامل الذي كانت ترسله إلى النادل ـ الأبكم مرة كل أسبوعين طبقاً لأوامر الأخوات شاكيل، جرت لتوها إلى منزل صديقتها المفضلة الأرملة فريدة بالوش التي كانت تقيم لدى أخيها بلال، واتفق الثلاثة، الذين لم يكفوا يوماً عن الاعتقاد بأن موت يعقوب بالوش في الشارع كان نتيجة اختلاطه بالأخوات المعتزلات المتنسكات، على أن ثمرة الفضيحة التي حدثت منذ زمن طويل، تلك الثمرة البشرية لا بد وأنها على وشك الخروج إلى ضوء الشمس. وهكذا سمروا أنفسهم خارج قصر شاكيل بانتظار هذا الحدث، لكن بعد أن أخرجت زينات قابولي من مكان ما في مؤخرة حانوتها كيس خيش مليئاً بأحذية عتيقة بالية وصنادل وأخفاف لا قيمة لها على الإطلاق إضافة إلى جوارب تالفة تركت من أجل مناسبة كهذه، ثم نظمتها كلها معاً بحيث شكلت أشد الإهانات جميعاً أي طوقاً من أحذية. «إكليل أحذية» أقسمت الأرملة بالوش لزينات قابولي «فقط انتظري، إن لم أعلقه بنفسي في عنق ذلك الولد».

غير أن سهر فريدة وزينات وبلال طيلة أسبوع كامل لفت الانتباه لا محالة، وهكذا ما إن قفز عمر الخيام خارجاً من النادل ـ الأبكم حتى انضم إليهم متطفلون آخرون: بلهاء، معيّرون، أولاد شوارع بأسمالهم الممزقة، كتبة عاطلون عن العمل، خادمات، غسالات في طريقهن إلى غيطان الغسيل، كما كان هنالك أيضاً ساعي البريد في البلدة، محمد عبد الله الذي كان يحمل على جبهته النقطة أو الكدمة الدائمة التي تبين أنه متعصب ديني يؤدي الصلوات الخمس كل يوم وربما صلاة التراويح أيضاً. كان عبد الله هذا قد وجد وظيفة له بتدخل من ذلك الثعبان ذي اللحية الذي كان يقف إلى جانبه تحت أشعة الشمس الحارقة. إنه رجل الدين المحلي ذو السمعة السيئة مولانا داود الذي كان يطوف في المدينة على دراجة نارية وهبه إياها السادة الإنكليز مستنزلاً اللعنات على

المواطنين. وقد تبين أن عبد الله هذا كان قد أثار حنقه قرار الأخوات شاكيل في عدم إرسال رسالتهن إلى مدير مدرسة الكانت عن طريق البريد، بل بدلاً من ذلك وضعنها في مغلف نزل عن طريق النادل ـ الأبكم إلى بائعة الأزهار «عذراء»، ومعه أجرة إضافية صغيرة. كان عبد الله ذاك يخطب ود «عذراء» منذ بعض الوقت لكنها كانت تسخر منه: «أنا لا أهتم قيد شعرة برجل ينفق من الوقت على مؤخرته أكثر بكثير مما ينفقه على رأسه». وهكذا فإن قرار الأخوات في أن يعهدن إليها بالرسالة، أثار ساعي البريد، إذ اعتبر ذلك إهانة شخصية له، طريقة للحط من مكانته الاجتماعية وكذلك برهاناً آخر على اللعنة التي حلت بهن، ترى ألم يقمن بعملهن القبيح هذا، أي التراسل مع بغي لا تفتأ تسخر من الأتقياء الورعين، تحالفاً معها؟ «انظروا» صرخ عبد الله محتداً حين لمست قدم عمر الخيام الأرض «ها هي ذي بذرة الشيطان تقف أمامكم».

في تلك اللحظة تماماً وقع حادث مشؤوم. فعبد الله الذي كانت قد أثارته قضية الاتصال مع عذراء، تكلم أولاً، الأمر الذي أغاظ سيده مولانا داود، وخسارة عبد الله لدعم سيده رجل الدين تقضي على أية فرصة له في الترقية مستقبلاً الأمر الذي زاد من كراهيته لآل شاكيل جميعاً، ذلك أن رجل الدين كان يعتقد بالطبع، أن من حقه هو أن يبدأ الهجوم على الطفل البدين المسكين رمز الإثم المجسد الذي بلغ قبل الأوان. وفي محاولة منه لاستعادة زمام المبادرة، ألقى داود بنفسه على ركبتيه غائصاً في التراب عند قدمي عمر ثم طفق يمرغ جبهته بالتراب وهو يصرخ: «أيها الإله.. يا ربنا، يا شديد العقاب.. انزل على هذه اللعنة البشرية حمم لظاك.. إلخ.. إلخ..». هذا الاستعراض العجيب الغريب أثار أيما إثارة الأشخاص الثلاثة الذين تنبهوا للأمر كله بالأصل. «من التي مات زوجها بسبب نادل ـ أبكم؟» سألت فريدة صديقتها بصوت كالفحيح: «أهو ذلك العجوز الصخاب؟ إذاً من ينبغي أن تتكلم الآن؟».

بيد أن أخاها بلال لم يتوقف بانتظار فرصة للتكلم بل بدأ في الحال، وطوق الأحذية في يده، يتقدم بخطا واسعة، هادراً بذلك الصوت الجهوري الذي يحاكي صوت سميّه الأسود، ذلك الصوت الأسطوري لمؤذن الرسول، أول مؤذن في الإسلام «يا ولد.. يا ثمرة العار.. اعتبر نفسك محظوظاً أنني لا أفعل أكثر من هذا.. أتظن أنني لا أستطيع أن أسحقك سحق البعوضة؟». فيما كانت تتردد وراءه أصداء غليظة لأصوات أولاد الشوارع، الغسالات، الكتبة وهم يغنون: «بذرة الشيطان.. نبع النيران.. زوج من مات؟ مثل بعوضة..». وقد شكلوا حلقة مغلقة فيها عبد الله ومولانا والمرأتان الناقمتان وبلال، بينما وقف عمر مثل نمس سمرته في مكانه حية كوبرا، لكن الأمور لم تقف عند ذاك الحد، فأحقاد البلدة التي أرجئت اثنتي عشرة سنة بعثت إلى الحياة من جديد... ولم يكن باستطاعة بلال أن ينتظر أكثر، فاندفع إلى الصبي قاذفاً طوق الأحذية باتجاهه فيما كان داود ينبطح أرضاً للمرة السابعة عشرة، لكن في تلك اللحظة تماماً انتصب مولانا داود، قانصة عجفاء مهزولة تتدخل بين طوق الأحذية المهين وهدفهن ودون أن يعرف أحد كيف، كان الطوق القاتل قد استقر حول عنق رجل الدين بمحض المصادفة.

شرع عمر يقهقه ضاحكاً: فهكذا تكون نتائج الخوف. وقهقه معه أولاد الشارع، بل حتى الأرملة بالوش اضطرت لأن تكتم ضحكها فخرج ذلك على شكل دموع من عينيها. في تلك الأيام، لم يكن الناس يتحمسون كثيراً لرجال الدين كما يفعلون اليوم بحسب ما يقوله القادمون من هناك وهكذا نهض مولانا داود والإجرام في وجهه، لكنه، هو الذي لم يكن أبله، سرعان ما أشاح ذلك الوجه عن بلال العملاق ماداً براثنه إلى عمر الخيام ـ لكن أنقذه ذلك الشخص المبارك، السيد إدواردو رودريغز مدير المدرسة الذي وصل طبقاً للترتيبات ثم شق طريقه عبر الحشد بغية أخذ التلميذ الجديد إلى المدرسة. وبرفقة رودريغز كانت

هناك الرؤيا التي بعثت في قلب الخيام من الفرح ما أدهشه، ما أنساه الخطر الذي أوشك أن يحيق به. «هذه فرح»، قال له رودريغز «إنها أكبر منك بسنتين» وتطلعت الرؤيا إلى عمر ومن ثم إلى مولانا الذي كان، لشدة غضبه، قد نسي نزع طوق الأحذية من عنقه، فقلبت رأسها إلى الوراء ضاحكة مقهقهة:

«يا إلهي!! يا للعنة!!» خاطبت فرح عمراً فكانت كلمتها الأولى تجديفاً «لماذا لم تبق في بيتك؟ إن في هذه البلدة من البلهاء ما يكفيها».

الفصل الثالث

الجليد الذائب

بيضاء باردة كثلاجة، كانت تنتصب بين المروج الخضر المحيطة بها: مدرسة الكنتونمنت. كما كانت تزدهر في حدائقها الأشجار، ذلك أن السادة الإنكليز كانوا يوجهون كميات كبيرة من إمدادات المياه النادرة في المنطقة إلى الخراطيم التي كان جنائنيو الكانت يطوفون بها طيلة النهار. لقد كان واضحاً أن تلك الكائنات الرمادية الغريبة القادمة من العالم الشمالي الرطب لا تستطيع العيش إلا بوجود العشب وأزهار البوغنفيلية وأشجار التمر الهندي. أما الغراس البشرية التي ترعاها المدرسة فقد كانت بيضاء (رمادية) وسمراء أيضاً، تتراوح بين الثالثة من العمر والتاسعة عشرة. لكن بعد سن الثامنة كانت أعداد الأطفال الإنكليز تهبط هبوطاً شديداً، ليبقى الأولاد الذين هم في الصفوف العليا وكلهم من السمر تقريباً. ترى ما الذي كان يصيب الأطفال ذوي الجلود الشقراء بعد ميلادهم الثامن؟ الموت، الاختفاء، الظهور المفاجئ للصبغ السافع في جلودهم؟ ـ كلا، كلا. لكننا لكي نجيب إجابة صحيحة لا بد من أن نبحث بحثاً شاملاً في الدفاتر العتيقة لشركات النقل البحري ومفكرات السيدات البائدات منذ زمن طويل في ما كان يطلق عليه المستعمرون الإنكليز اسم الوطن الأم، ذاك الذي كان بالحقيقة أرض الخالات والعمات العوانس والقريبات الأخريات الأبعد قليلاً واللواتي كان يبعث إليهن الإنكليز المستعمرون بأطفالهم لتخليصهم من مخاطر التربية

الشرقية. . لكن بحثاً كهذا متعذر المنال على الكاتب الذي يتعين عليه أن يشيح بناظريه عن قضايا جانبية كهذه دون إمهال.

المدرسة هي المدرسة والكل يعلم ما يجري هناك. لقد كان عمر الخيام ولداً بديناً وبذلك أصابه ما يصيب البدينين عادة، تهكم وسخرية، رشات حبر على القذال، ألقاب يعير بها، بضع ضربات وأشياء من هذا القبيل شائعة على كل حال. لكن حين وجد زملاؤه أنه لا ينوي أن يثور لتعييرهم إياه بأصوله غير المألوفة تركوه وشأنه، قانعين بما يحدثونه في ساحة المدرسة من حين لآخر. وقد لاءمه هذا كل الملاءمة. فقد بدأ، هو الذي لا يعرف الخجل، المعتاد على العزلة، يستمتع بعدم رؤيتهم عن قرب. ومن موقعه على هامش الحياة المدرسية، كان يجد كثيراً من المتعة في نشاطات أولئك الذين هم من حوله، ويبتهج بكل صمت بسقوط إمبراطور اللعب هذا أو ارتفاع ذلك أو تأمل نقاط الضعف في الزملاء غير المثيرين: متع المتفرج.

ذات مرة وقف، بمحض المصادفة، في زاوية ظليلة من الملعب الوارف الأشجار فشاهد فتى وفتاة أكبر سناً منه يتغازلان خلف الظلال. وقد أحس، وهو يرقب مغازلاتهما، برضا ذاتي دافئ غريب، فقرر أن يبحث عن فرص أخرى للاستغراق في هذه التسلية الجديدة وحين كبر أكثر، وبات يسمح له بالبقاء في الخارج غدا ماهراً في هذه المطاردة المحببة إلى نفسه، حتى غدت البلدة تسلم أسرارها لعينيه كليتي ـ الوجود. فعبر المصاريع غير الكافية لحجب الأنظار، كان عمر يتجسس على مضاجعة ساعي البريد عبد الله للأرملة بالوش وكذلك لصديقتها المفضلة زينات قابولي في مكان آخر إلى أن جاءت المناسبة المشؤومة التي انقض فيها ساعي البريد وتاجر السلع الجلدية وبلال ذو الصوت الجهوري بعضهم على البعض الآخر بالسكاكين في أحد الأزقة الضيقة وانتهوا جميعاً جثثاً باردة كالحجارة، ولم يكن ذلك سراً عليه لكنه كان أصغر سناً من أن يدرك كيف تضامنت فريدة وزينات، هما اللتان كان

ينبغي أن تكره واحدتهما الأخرى كره السلم بعد أن انجلى الأمر كله وكيف عاشتا بعد تلك المجزرة الثلاثية، تربط بينهما عرى صداقة لا تتحطم ويجمعها طهر التبتل طيلة وجودهما على قيد الحياة.

أي دعنا نقل بصراحة أن ما بدأه التلسكوب عن بعد، تابعه عمر الخيام عن قرب. ولنكن أكثر شجاعة فنذكر كلمة «متلصص» ولنتذكر أن فرح زهر عشتار سبق أن ذكرت تلك الكلمة (في السياق التلسكوبي). لكننا وقد أطلقنا عليه الآن لقب المتلصص، علينا أيضاً أن نقول إنه لم يقع يوماً في الفخ، خلافاً لذاك الفتى الوقح من آغرا الذي كان، كما يحكى، يتطلع من فوق سور عال كي يتجسس على بناء تاج محل. فذاك فقئت عيناه، أو هكذا تقول القصة، أما عينا عمر الخيام المتلصصتان فقد زادت من انفتاحهما تلصصيته تلك التي كشفت له عن الطبيعة الغنية كثيراً والسرية كثيراً التي تتصف بها الحياة البشرية كما كشفت له عن المتع الحلوة ـ المرة التي يحظى بها الإنسان من خلال الكائنات البشرية الأخرى.

لقد كان فيه عيب كلي واحد. ولا حاجة للقول إن ما ظلت الأمهات الثلاث طوال اثنتي عشرة سنة يخفينه عنه كشف التلامذة عنه النقاب في اثنتي عشرة دقيقة: أي قصة الحفلة الأسطورية التي تم فيها تفحص الضباط ذوي الشوارب، وتقدير حجمهم ومن ثم... لكن حين عيره زملاؤه بهذه الحكاية الأسطورية، امتنع عمر الخيام، خضوعاً منه لأوامر أمهاته، عن الدخول في أية اشتباكات. لقد كان يحيا في جنة عدن الأخلاق أو ضرب من ضروبها ولم يكن يبالي بالإهانات والإساءات، لكنه بعد ذلك، شرع يراقب السادة الإنكليز بحثاً عن علامات معينة، يتفحصهم سعياً وراء تشابه في السيماء بينه وبين واحد منهم، منتظراً أن يقع على سيماء عرضية أو حركة فطرية يمكنها أن تكشف عن هوية والده المجهول. لكنه لم يفلح في ذلك. ربما كان الوالد قد ولى منذ زمن بعيد، وربما يحيا، إن كان لا يزال على قيد الحياة، في منزل منفرد على

شاطئ البحر تطغى عليه أمواج الحنين لآفاق مجده الغابر، ويتلمس بأصابعه الأشياء البائسة القليلة ـ قرون صيد عاجية، سكاكين، صورته وهو يصيد نمر المهراجا ـ تلك التي بقيت له من أيامه الماضيات، أصداء ماضيه المتلاشية التي تشبه أصدافاً قذفتها بحار بعيدة. . . لكن هذه كلها تخمينات بعيدة. فالصبي الذي أخفق في تحديد مكان والده، اختار لنفسه شخصية في متناول اليد، منحها وسام الشرف هذا دون أية تحفظات، وكانت تلك الشخصية هي السيد إدواردو رودريغز، مدير المدرسة الذي كان هو نفسه قد جاء حديثاً إلى بلدة «ك»، حين نزل برشاقة بالغة في محطة الباصات قبل بضع من السنين يرتدي الملابس البيض، في يده قفص طيور فارغ وعلى رأسه قبعة بيضاء.

كلمة أخيرة حول تلصصات عمر الخيام: نظراً لأن أمهاته الثلاث كن قد بدأن يعشن حياة غير مستقرة أيضاً، فإنهن لم يستطعن منع أنفسهن، في أيام تراخي تصميمهن هاتيك، عن محاصرته بالأسئلة المتلهفة، كلما عاد من الخارج، عن أزياء السيدات ودقائق الحياة في البلدة كلها وعما يسمعه من أشياء عنهن. ومن حين إلى آخر كن يغطين وجوههن بشالاتهن، بحيث كان واضحاً أنهن لم يعدن قادرات على منع أنفسهن من الشعور بالعاطفة التي كن قد حرمنها أشد التحريم. . . والتجسس على العالم من خلال عيني ابنهما الذي لم يكن بالإمكان الاعتماد عليه (والذي لم يكن يقول لهما كل شيء طبعاً) تجسسهما ـ بواسطة الغير ذاك كان له التأثير الذي يفترض أن تكون لأشياء كهذه: أي أنه أضعف بنيتهن الأخلاقية، ولعل هذا هو السبب الذي جعلهن قادرات على التفكير بتكرار جريمتهن.

كان السيد إدواردو رودريغز ناحلاً وحاداً مثل مجموعة أقلامه الرصاصية الضخمة، ولم يكن أحد يعرف عمره. فطبقاً للزاوية التي كان النور يسقط بها على وجهه كان باستطاعته أن يتخذ هيئة مراهق متغطرس براق العينين أو مظهر رجل كئيب غارق في استعادة عشيات الصبا التي

ولت وانقضت. ولكونه يسكن في جنوب البلدة دونما تفسير لذلك، فقد كان يقطع الشوارع أشبه بشبح غامض ثم يذهب مباشرة من موقف باصه إلى مدرسة الكانتونمنت حيث كان يفلح كل الفلاح في التحدث عن طريقته في التدريس قبل أن يخيم الظلام. وكان كل ما يعطيه من تفسير هو أن يقول: «من الضروري أن يكون المرء غير عادي إذا ما أراد أن ينشر الكلمة».

كان السيد إدواردو يقيم لدى عائلة متزمتة من العائلات الإنكليزية الأقل حظاً، نزيل غرفة يدفع أجرها، وقد علق على جدرانها صليباً كما ألصق عدداً من الصور الرخيصة التي اقتطعها من التقاويم، صور أرض ساحلية منعشة تتمايل فيها أشجار النخيل وفي الخلف آفاق تغرب فيها الشمس بألوانها البرتقالية غير المعقولة، وكاتدرائية من عهد الزخارف الباروكية تنتصب، وقد غطت العرائش قسماً منها عند لسان بحري تزدحم فيه مراكب ذات أشرعة كاللهيب. كان عمر الخيام وفرح زهر عشتار هما التلميذان الوحيدان اللذان دخلا هذا المعتزل في يوم من الأيام ولم يشاهدا علائم تدل على شيء شخصي أكثر، لقد بدا وكأن إدواردو يحجب عن ماضيه أشعة شمس الصحراء الشديدة، فيمنعه من أن يبهت. هكذا كان خواء مسكن المعلم الذي يعمي البصر والذي لم يلحظه عمر الخيام حتى زيارته الثالثة إذ رأى فوق خزانة الغرفة قفص طيور رخيصاً، قفصاً بدأ طلاؤه المذهب يتقشر منذ زمن طويل، قفصاً فارغاً تماماً كما كان يوم وصوله إلى محطة الباصات «لكأنه أتى هنا لكي يمسك طيراً»، همست فرح لعمر الخيام بازدراء كبير «ولم يستطع، ذلك الغبي!».

كان من الممكن أن ينجذب إدواردو وعمر، وكلاهما غريب عن بلدة «ك» بطريقته الخاصة، واحدهما إلى الآخر بفضل ذلك الإدراك شبه الواعي لتشابههما. بيد أن قوى أخرى كانت تعمل عملها أيضاً. هذه القوى يمكن جمعها كلها براحة تامة تحت عنوان واحد، سبق أن ذكرناه من قبل، إنه «كارثة المغازلة».

إذ لم يغب عن أعين أهل البلدة وشائعاتهم أن إدواردو كان قد وصل، في يده قفص وعلى رأسه قبعة، بعد شهرين فقط من إرسال ضابط الجمارك زهر عشتار إلى هذه النواحي مع ابنة في سن الثامنة وبلا زوجة. وهكذا لم يمض وقت طويل حتى اكتشف غلمان البغالة وتجار الأدوات المعدنية وأصحاب الدراجات البخارية من رجال الدين أن مركز الخدمة السابق لزهر عشتار هذا كان في تلك المنطقة ذات كاتدرائيات العرائش وخلجان جوز الهند التي يمكن استنشاق روائحها من على بدلة رودريغز البيضاء واسمه البرتغالي ـ كما بدأت الألسنة ترغي: «إذاً أين هي زوجة فتى الجمارك ذاك؟ طلقها، أعيدت إلى أمها، قتلت في سورة غضب؟ انظروا إلى فرح تلك. إنها لا تشبه أباها، ليس من ذرة تشابه!». لكن تلك الألسنة كانت مجبرة أيضاً على الاعتراف بأن فرح زهر عشتار لم تكن تشبه أدنى شبه المعلم أيضاً، وبذلك، سد ذلك الطريق في وجوههم على كره منهم، خاصة حين بدا واضحاً أن رودريغز وزهر عشتار كانا على علاقة حميمة للغاية. «إذاً لماذا ينفى ضابط الجمارك إلى هذا المكان النائي، طرف العالم هذا؟». وكان لدى فرح جواب بسيط: «والدي الغبي هو النموذج الذي يستمر في رؤية الأحلام بعد أن يستيقظ. إنه يعتقد أننا سنعود ذات يوم إلى المكان الذي لم نكن فيه قط، بلاد أهرامزاد اللعينة تلك، وأن الحدود الإيرانية البائسة هذه هي أقرب نقطة يمكننا بلوغها ـ تصور، لقد تطوع بملء إرادته».

الشائعة كالماء. إنها تتغلغل عبر السطوح بحثاً عن أضعف النقاط فيها، إلى أن تجد الثغرة، وهكذا كانت المسألة مسألة وقت ليس إلا، حصل بعده أهل «ك» الطيبون على تفسير لكل شيء، ذلك التفسير المليء بالفضائح والمخازي!! يا إلهي! رجل كبير السن يقع في غرام طفلة صغيرة! إدواردو وفرح ـ أقصد أن ما يستحيل حدوثه، يحدث كل يوم. وقبل سنين قليلة فقط، كانت هناك تلك، المرأة الأخرى ـ أجل، لا بد من أن يكون الأمر كذلك، فهؤلاء الأجانب كفرة كل الكفر،

ليحمنا الله. . . . إنه يلحق بهذه البنية الصغيرة حتى هنا. . . حتى آخر العالم. ومن يدري أي تشجيع تقدمه له الفتاة؟ فالمرأة تعرف كيف تنبئ الرجل بأنه مرغوب فيه أو غير مرغوب فيه حتى ولو كانت في سن الثامنة طبعاً، هذه الأشياء في دمها.

لكن لا إدواردو ولا فرح قدَّما، من خلال سلوكهما، أدنى دليل على أن لتلك الشائعات أساساً من صحة ـ صحيح أن إدواردو لم يتزوج خلال السنوات التي كانت فرح تنمو فيها تجاه الاكتمال الأنثوي، لكن الصحيح أيضاً أن فرح، المعروفة بأنها «كارثة» كانت تلقب أيضاً بـ«كتلة الجليد» وذلك بسبب برودتها الشديدة تجاه معجبيها الكثر، وهي البرودة التي امتدت إلى علاقتها بإدواردو رودريغز أيضاً «ماذا تظن؟ إنهما يقيمان ساتراً جيداً بالطبع»، إذ كان باستطاعة الشائعات المظفرة أن تستنتج أن الأحداث ستثبت صحتها في النهاية.

أما عمر الخيام، بكل ما في نفسه من حب للتلصص واستراق السمع، فقد أظهر أنه يدير الأذن الصماء لهذه القصص جميعاً، وهذه هي تأثيرات الحب. لكنها مع ذلك كانت تجد طريقها إلى أذنيه، وكانت تتغلغل تحت جلده وإلى دمه ثم تشق طريقها، على شكل نثرات صغيرة، إلى قلبه، إلى أن خيل إليه هو الآخر أنه شريك مدير المدرسة رودريغز بكل ما ارتكبه من موبقات. اختر لنفسك أباً تختر أيضاً تراثاً (لكن لا يزال على صفية زنوبيا أن تنتظر بضع صفحات).

لقد أضعت كثيراً من الفقرات بصحبة الشائعات، فلنعد إلى الأرض الصلبة: لقد أخذ إدواردو رودريغز، ترافقه فرح وعلى نحو يغذي الشائعات، عمر الخيام إلى مدرسته في يومه الأول، وهي واقعة تشهد على النفوذ الكبير الذي لا يزال لاسم شاكيل في البلدة. في الأشهر التالية، اكتشف إدواردو قدرات الغلام الاستثنائية على التعلم فكتب إلى أمهاته يعرض عليهن خدماته كمعلم خاص يمكنه أن يساعد الغلام في تحقيق ذاته. وقد وافقت الأمهات على اقتراح معلم المدرسة، كذلك،

فإن التلميذ الآخر الوحيد الذي كان يتلقى دروساً خصوصية من إدواردو إنما كان فرح زهر عشتار التي كان والدها معفى من دفع أي أجر نظراً لأن إدواردو كان معلماً يكرس نفسه لمهنته كل التكريس. ومع مرور السنين، باتت رؤية الثلاثي، عمر، إدواردو وفرح من المناظر المألوفة في المدينة.

إذاً، رودريغز هذا هو الذي كانت لديه القدرة على التكلم بصيغة الأمر، وهو الذي وجه عمراً باتجاه مهنة الطب. فقد قال للصبي بين صور الخلجان وأقفاص الطيور الفارغة: «لكي ينجح المرء في الحياة عليه أن يكون ذا جوهر. أجل، اصنع لنفسك جوهراً، تلك هي بطاقة المرور.... ومن هو الأكثر جوهرية؟ أوه إنه الشخص الذي يقوم بالتوزيع! أقصد توزيع النصائح، التشخيص، تحديد العلاجات. إذاً، كن طبيباً، فهذا ما رأيت فيك».

وهذا (بحسب رأيي) ما رآه إدواردو في عمر: إمكانات طبيعته الهامشية الحقيقية. فما الطبيب، بالنتيجة؟ ـ متلصص أضفيت على تلصصه الشرعية، غريب نسمح له بإدخال أصابعه بل حتى يديه في أماكن لا نسمح للآخرين بأن يدخلوا فيها سلامة واحدة، الطبيب هو الذي يحدق إلى ما نبذل كل جهدنا لإخفائه، إنه الغريب الذي يجلس على حافة السرير، البعيد الذي نقبله في أشد حالاتنا حميمية (ولادة، موت إلخ). إنه المجهول الاسم، الشخصية الثانوية، مع ذلك، فهو، وعلى نحو يثير المفارقة، الأساسي الجوهري، خاصة في الأزمات.. أجل، أجل، كان إدواردو معلماً بعيد النظر ولم يكن مخطئاً. فعمر الخيام، الذي اتخذ من رودريغز أباً له، لم يفكر مرة واحدة بمخالفة رغبات معلمه. وبهذه الكيفية تصاغ الحياة.

لكن ليس بهذه الطريقة فقط، بل أيضاً بواسطة الكتب المهملة التي اكتشفها بمحض المصادفة في بيته وبفضل إرهاصات الحب الأولى التي طال كبتها.. فحين بلغ عمر الخيام السادسة عشرة من عمره، وجد نفسه

ملقى في دردور هائل من الفرح المخيف، ذلك أن فرح الفارسية، زهر عشتار الكارثة، دعته لأن يخرج معها ذات يوم لزيارة مخفر أبيها الجمركي.

«ووقع مغشياً عليه، رغم أن كلتا قدميه كانتا على أرض صلبة». لقد ذكرنا من قبل شيئاً مما حدث على الحدود، كيف هبطت الغيمة وكيف أغمي على عمر الخيام هو الذي حسب خطأ أن تلك الغيمة هي كابوس طفولته في ما يتعلق بالخواء وحافة الأرض، ولعل نوبة الإغماء تلك هي التي جعلته يفكر بما ينبغي أن يفعل في وقت لاحق من ذلك اليوم.

التفاصيل أولاً: كيف كانت نغمة الدعوة التي وجهتها له فرح؟ ـ سمجة، جافة، لا أبالي إن أتيت أم لم تأتِ. دافعها المحرض، أين مصدره؟ ـ إنه المعلم إدواردو الذي حثها على نحو خاص «إنه غلام وحيد، كوني لطيفة معه. أنتما شخصان لامعان وعليكما أن تلتصقا واحدكما بالآخر. (لقد كان عمر الخيام ألمع الاثنين إذ رغم فارق السن بينهما، فقد كان يوازي فرحاً بطرق أخرى، وكان قد غدا في صفها نفسه). ما هي السرعة التي قبل بها عمر الخيام الدعوة؟ ـ للتو، على الفور، في الحال أو أسرع حتى.

خلال الفصل الدراسي كانت فرح تقيم في منزل ميكانيكي فارسي وزوجته، تلك التي كان أبوها قد طور صداقة معها لهذا الغرض بالذات. ذلك الميكانيكي، وهو شخص لا يستحق حتى الوصف يدعى جمشيد، ساق بهما إلى الحدود في يوم العطلة المحدد سيارة الجيب التي كان يصلحها، وحين اقتربوا من الحدود ارتفعت معنويات فرح في حين انخفضت معنويات عمر...

لقد اشتد خوفه من الحافة على نحو غير معقول، بينما كان يجلس خلفها في السيارة المكشوفة وشعرها المتطاير مع الريح يخفق أمامه ويتراقص كأنه لهب أسود: في حين راق مزاجها بسبب تطوافهم حول الجبل، عبر ممر ترقبهم فيه أعين السكان القبليين الشكاكين الخفية إذ إن

فراغ الحدود أبهج فرحاً، بغض النظر عن مقدار النخر الذي نخرته بوجه أبيها لاستلامه هذا العمل في نقطة ميتة. بل لقد شرعت تغني كاشفة أن لها صوتاً شجياً.

على الحدود: الغيمة، نوبة الإغماء، رش الماء على الوجه، زوال الإغماء، والسؤال المعهود أين أنا. ثم ينهض عمر الخيام ليجد أن الغيمة ارتفعت في الجو، حتى بات بإمكانه أن يرى أن الحدود مكان غير مثير للاهتمام: لا سور، لا شرطة، لا أسلاك شائكة، لا أنوار كاشفة، لا حواجز مخططة بالأحمر والأبيض، لا شيء سوى صف من الأعمدة الإسمنتية الضخمة بفاصل مائة قدم بين الواحد والآخر، أعمدة مغروسة في الأرض الوعرة الجرداء. وهناك ينتصب مقر صغير للجمارك وطرف سكة حديد صار لونها بنياً من الصدأ، وعلى السكة تقف عربة بضائع منسية واحدة، صارت هي الأخرى بنية بسبب الصدأ والإهمال. «لم تعد القطارات تأتي» تقول فرح: «فالوضع الدولي لا يسمح بذلك».

لكي يحصل على دخل حسن، يعتمد ضابط الجمارك على حركة المرور. البضاعة تمر عبر نقطة الحدود، ضابط الجمارك يحتجزها لسبب ما، أصحابها يرون السبب، يتم التوصل إلى تسوية وتحصل عائلة الجمركي على ملابس جديدة. ولا أحد يبالي قيد شعرة بهذا الترتيب. فالجميع يعلم كم هي ضئيلة رواتب مثل هؤلاء الناس، لذلك تجري المفاوضات باحتفاظ كامل للكرامة من كلا الجانبين.

لكن القليل من البضائع المدفوعة الرسوم تمر عبر البناء الآجري الصغير، مركز قوة السيد زهر عشتار. فتحت ستر الظلام، ينتقل رجال القبائل بين البلدين عبر الأعمدة الإسمنتية والصخور. ومن يدري ما يحملون في ذهابهم وإيابهم؟ وهذه هي مأساة زهر عشتار. فهو، رغم المنحة الدراسية التي تنعم بها ابنته، كان يلقى كل الصعوبة في تأمين بقية نفقاتها، كيف يعزي نفسه: «قريباً، قريباً ستسير سكة الحديد. . .». غير أن الصدأ كان يتراكم على هذا الاعتقاد أيضاً. إنه يحدق بناظريه عبر

الأعمدة الإسمنتية إلى أرض الأجداد زاراتسترا ويحاول أن يحصل على عزائه من قربها منه، لكن في هذه الأيام، ثمة عناء يرتسم على محياه... فرح زهر عشتار تصفق بيديها وتجري بين الأعمدة الإسمنتية التي لا نهاية لها، داخلة خارجة. «النمرح، أليس كذلك؟» تصرخ «تيب ـ تاب!» وبغية الحفاظ على مزاجها الرائق يوافق عمر الخيام على أن المكان رائع تماماً. فيهز زهر عشتار كتفيه بشيء من المرارة ثم يعود إلى مكتبه مع سائق الجيب، بعد أن حذر الفتى والفتاة من البقاء طويلاً تحت الشمس.

ولعلهما بقيا طويلاً طويلاً، فكان ذلك ما شجع عمر الخيام على التصريح بحبه «رؤيتك عبر تلسكوبي» إلخ. لكن ليس ثمة حاجة لتكرار حديثه أو جواب فرح الفظ. بعدئذ ينهال عمر الخيام، وقد رفضته فرح، بأسئلته المتضرعة: «الماذا؟ لم لا؟ لأنني بدين؟» فتجيب فرح: «بدين، قد لا يكون في ذلك ضير، لكنْ، ثمة شيء بشع فيك، أتعلم ذلك؟» ـ «بشع؟» «لا تسألني عما لا أدريه، شيء ما. لا بد أنه في شخصيتك أو في مكان ما».

يسود بينهما الصمت حتى الأصيل. عمر يتمعج بين الأعمدة الإسمنتية في إثر فرح، فيلاحظ أن شظايا مرايا قد ربطت إلى كثير من الأعمدة بخيطان، وحين تقترب فرح من كل شظية ترى نثرات من نفسها تنعكس في المرآة، فتبتسم ابتسامتها الخاصة تلك، ويفهم عمر الخيام أن محبوبته كائن بشري أكثر اعتداداً بنفسه من أن يخضع لأي هجوم تقليدي، فهي ومراياها توأمان ولا حاجة للغرباء لأن يجعلوهما يشعران بالكمال.... بعدئذ وفي وقت متأخر من الأصيل، تخطر له فكرة، ربما ألهمته إياها شدة أشعة الشمس أو نوبة الإغماء، فيسأل فرح زهر عشتار «هل سبق لك أن جربت التنويم المغناطيسي؟» ـ وللمرة الأولى في التاريخ تتطلع إليه باهتمام.

بعد ذاك، عندما بدأت رحمها تنتفخ وطلبها مدير المدرسة الغاضب

إلى مكتبه ثم طردها لإلحاقها العار بمدرسته، بعد ذاك حين رماها والدها في الشارع، هو الذي اكتشف فجأة أن مقره الجمركي الفارغ أكثر امتلاء من أن يتسع لابنة كشف بطنها شدة التصاقها بممارسات مرفوضة أخرى، ثم أخذها إدواردو رودريغز، وهي تقاوم، محاولة التخلص من قبضة يده الشديدة إلى قسيس الكانت كي يتزوجها بالقوة هو الذي طرد من عمله لسلوكه غير اللائق، إذ أعلن، بفعله هذا، أنه هو المرتكب لكل ما لحق بالفتاة، بعد ذاك حين غادر إدواردو وفرح إلى محطة القطار في عربة من العربات لاحظ الجميع أنها خالية تقريباً من المتاع (رغم أن القفص الخالي أيضاً كان موجوداً إلا أن الألسنة الشريرة قالت إن إدواردو أمسك أخيراً طيرين بدلاً من واحد) ثم رحلا وعادت المدينة إلى خوائها الرمادي مرة ثانية بعد الوهج الخاطف الذي تركته الدراما الرديئة التي مثلت في شوارعها. . . . أقول بعد ذاك، حاول عمر الخيام، دون جدوى، أن يجد العزاء لنفسه في أن واحدة من صيغ التطمين الأولى في عملية التنويم التي تكرر مرات كثيرة، كما يعلم كل منوم مغناطيسي، إنما كانت تسير كما يلي: «ستفعلين ما أطلب إليك أن تفعليه، لكنني لن أطلب ما لا ترغبين في فعله».

«وقد كانت راغبة» قال عمر لنفسه «إذاً ما هو ذنبي؟ لا بد أنها كانت راغبة والكل يعرف خطر ذلك».

لكن رغم تلك الصيغة «لن أطلب ما لا ترغبين في فعله»، وكذلك رغم ما قام به إدواردو رودريغز من أفعال، تلك التي نمت عن تصميم شديد وانسحاب سريع، كاد عمر الخيام أن يقتنع بأن المعلم هو الأب فعلاً ـ ولم لا، بالمحصلة؟ فالمرأة التي ترغب في ذلك مع رجل قد ترغبه مع اثنين! ـ رغم كل شيء، أقول، إن عمر الخيام شاكيل تملكه شيطان رجيم جعله يرتعش وهو يتناول إفطاره، جعله يسخن ليلاً ويبرد نهاراً، بل يصرخ أحياناً لغير ما سبب في الشارع أو أثناء صعوده النادل الأبكم. كانت أصابعه تمتد، دونما إنذار إلى معدته أو تمسك بأجزاء

داخلية مختلفة من جسمه، بدءاً من تفاحة آدم وحتى أمعائه الغليظة (والدقيقة أيضاً) بل إنه كان يمر بلحظات يوشك فيها على الاختناق كما كان يقضي ساعات بطولها في المرحاض بلا جدوى، الأمر الذي جعل ساقيه تثقلان على نحو غامض وجعله يستيقظ في الصباح أحياناً ليرى أنه غير قادر على النهوض من سريره. كما جعل لسانه جافاً وركبتيه تصطكان وقاد قدميه المراهقتين إلى حانات البراندي الرخيصة.

ذات مرة، حين عاد إلى البيت ثملاً متعثراً واستقبلته أمهاته وهن في أشد حالات الغضب، سمعنه يقول لزمرة متمايلة هي الأخرى من زملائه السكارى: «الأمر الوحيد في هذه القضية هو أنه جعلني أفهم أمهاتي أخيراً. فهذا ولا بد هو الذي جعلهن يحبسن أنفسهن كي يتحاشين الناس، ومن لا تحبس نفسها، بابا، في حالة كهذه؟». ثم أقسم لزملائه، الذين سقطوا على التراب نائمين وهو يتقيأ سائل عاره الأصفر الرقيق فيما كان النادل ـ الأبكم يهبط، أقسم قائلاً: «أنا أيضاً رجل. وأقسم إنني سأفر من هذا السجن أيضاً».

في المساء الذي بلغ فيه عمر الخيام عامه الثامن عشر وكان تقريباً أسمن من خمسين بطيخة معاً، عاد إلى البيت ليخبر شوني وموني وبوني أنه حصل على منحة دراسية في أفضل كلية للطب في كراتشي، فلم تتمكن الأخوات الثلاث من إخفاء حزنهن لرحيله الوشيك إلا بإقامة حاجز كبير حوله، حاجز من أثمن الجواهر واللوحات في البيت، تلك التي أسرعن لجمعها من غرفة إلى غرفة إلى أن انتصبت كومة من الأشياء الجميلة والعتيقة أمام مقعدهن الهزاز المفضل القديم «المنحة الدراسية شيء حسن حقاً» بدأت أمه الصغرى «لكن باستطاعتنا نحن أيضاً أن نقدم المال لابننا حين يود دخول العالم»، «ماذا يحسب أولئك الأطباء؟». تساءلت شوني بنوع من السخط «هل نحن أفقر من أن ندفع لقاء تعليمك؟ ليذهبوا هم وإحسانهم إلى الشيطان. فلدى عائلتك المال الوفير» «مال موروث» تدخلت موني. ولعجزه عن إقناعهن بأن المكافأة نوع من

التكريم الذي لا يود رفضه، فقد اضطر عمر الخيام لأن يغادر إلى محطة السكك الحديد، جيوبه ملأى بالأوراق النقدية التي حملها له صاحب مكتب الرهن، وحول عنقه إكليل من مائة زهرة قطفت لتوها، أريجها يمحو تماماً عفن طوق الأحذية الذي يتذكره والذي لم يخطئ عنقه ذات مرة إلا بالكاد. كان عبق ذلك الإكليل شديداً إلى درجة نسي معها أن يقول لأمهاته آخر شائعة سمعها وهي أن زهر عشتار، ضابط الجمارك، وقع فريسة المرض بتأثير طلسم الصحراء التي لا رشوة فيها وبات معتاداً على الوقوف عارياً تماماً فوق الأعمدة الإسمنتية وشظايا المرايا تجرح قدميه. كان زهر عشتار، باسط اليدين محروماً من ابنته، يخاطب الشمس متضرعاً إليها أن تنزل على الأرض لتلتهمها بنيرانها الوهاجة. وكان رجال القبائل الذين نقلوا هذه الرواية إلى أسواق بلدة «ك»، يرون أن حماسة رجل الجمارك شديدة إلى درجة سينجح معها ولا شك في تحقيق دعائه، لذا يجدر بالجميع أن يتخذوا استعداداتهم ترقباً لنهاية العالم.

آخر من تكلم معه عمر الخيام قبل فراره من بلدة العار تلك كان رجلاً يدعى شاند محمد وقد قال في ما بعد: «ذلك الفتى البدين لم يكن يعاني من الحمى على ما يبدو حين بدأت كلامي معه لكنه بدا شديد المرض حين انتهيت». وكان شاند هذا بائع ألواح ثلج. ذلك أنه ما إن ألقى عمر الخيام، الذي كان لا يزال عاجزاً عن التخلص من الوهن الشديد الذي حل به منذ حادثة الحدود، ما إن ألقى بجسمه البدين في عربة الدرجة الأولى حتى أسرع إليه شاند قائلاً: «يوم حار يا سيدي، المرء فيه يحتاج للثلج». فرد عليه شاكيل في البداية وهو مكتئب مقطوع الأنفاس: «اغرب عني، ولتبع البلهاء الآخرين ماءك المثلج» لكن شاند أصر قائلاً: «يا سيدي، عند العصر، ستهب رياح «اللو»، وإذا لم تضع الواحي الثلجية عند قدميك فإن الحرارة ستذيب نقي عظامك».

وهكذا ابتاع عمر الخيام، وقد اقتنع بهذه الحجة المفحمة، أنبوباً صفيحياً بطول أربع أقدام وعرض ثماني عشرة بوصة وارتفاع قدم واحد،

يحوي في داخله لوحاً متصلاً من الثلج رش عليه نشارة الخشب والرمل لإطالة عمره. وحين رفعه البائع، مهمهماً، إلى العربة، قال النكتة التالية: «هذه هي الحياة، قطعة ثلج تعود إلى البلدة وأخرى تغادرها بالاتجاه المعاكس».

فك عمر الخيام حزام صندله ثم وضع قدميه العاريتين على الثلج فأحس بنوع من الراحة، ثم سأل شاند محمداً بتراخٍ، وهو يقدم له حزمة من الأوراق النقدية: «أي هراء تقول؟ كيف يمكن لقطعة ثلج أن تعود من رحلة دون أن تذوب؟ لا بد أنك تعني الأنبوب الصفيحي، فارغاً أم مليئاً بالثلج الذائب».

«أوه كلا، يا سيدي، أيها الرجل العظيم» كشر بائع الثلج ضاحكاً، وهو يضع النقود في جيبه «أنا أعني قطعة الثلج الوحيدة التي تذهب إلى كل مكان دون أن تذوب على الإطلاق».

انخطف اللون من الوجنتين السميتين وانتفضت القدمان المكتنزتان بعيداً عن الجليد، ثم بدأ عمر الخيام، وهو يتطلع حوله كأنما يعتقد أنها قد تتجسد أمامه في أية لحظة، بدأ يتكلم بنبرة بدلها الخوف إلى درجة جعلت بائع الثلج يتراجع القهقرى، مذعوراً.

«هي؟ متى؟ أنت تحاول أن تهين. . .؟». ثم أمسك بقميص الرجل البالي، فلم يبق أمام المسكين خيار سوى أن يخبره بكل شيء، أن يكشف أن السيدة فرح رودريغز (المولودة باسم زهر عشتار) عادت على القطار نفسه، قبل بضع ساعات فقط، دون ذرة من حياء، عادت إلى مربع طفولتها ثم اتجهت مباشرة إلى مخفر أبيها الحدودي «رغم أنه ألقى بها في الشارع، كما تلقي بسطل مياه قذرة، فتأمل فقط يا سيدي».

حين رجعت فرح، لم يكن معها زوج ولا ولد. ولم يكتشف أحد قط ما الذي حل بإدواردو والجنين الذي ضحى من أجله بكل شيء، لذا انتشرت، بالطبع، قصص شتى لا تخشى الدحض: حادث إسقاط، عمليه إجهاض رغم المذهب الكاثوليكي الذي يعتنقه رودريغز، الطفل

طرح على صخرة بعد ولادته، الطفل خنق وهو في المهد، الطفل أعطي إلى ميتم أو ألقي في الشارع، فيما كانت فرح وإدواردو مثل العشاق المجانين يمارسون الحب على رمال الخلجان الساحرة أو في رواق كنيسة مغطاة بالنباتات المعرشة وظلوا كذلك إلى أن تعب واحدهما من الآخر فرفسته على قفاه ورفسها (هو الذي تعب من مغازلاتها الفاسقة)، فركته وفركها، ليس مهماً من فرك الآخر. . . المهم أنها عادت فاحجروا على أولادكم.

ولشدة كبريائها، لم تكلم فرح رودريغز أحداً من سكان «ك»، سوى ما يتعلق بطلب الطعام والزاد من الحوانيت. إلى أن بدأت مع تقدم السن بها، ترتاد أماكن الشراب المستورة التي ستذكرها، في السنوات اللاحقة، بعمر الخيام بعد أن أصبحت الصحف تنشر اسمه.

وفي زياراتها النادرة إلى سوق «ك»، كانت فرح تشتري حاجياتها دون أن تنظر إلى أحد وجهاً لوجه بل كانت تقف بحيث تنظر إلى نفسها في كل مرآة تتاح لها بشعور صريح برهن للبلدة أنها لم تكن نادمة على شيء. وهكذا، حتى عندما شاع القول بأنها إنما عادت لكي تبحث عن أبيها المجنون وتشرف على مخفر الجمارك لتحول دون طرده من قبل سادته الإنكليز، حتى حينذاك فإن موقف البلدة لم يلن. إذ كان الناس يقولون من يدري ما الذي يجري هناك، أب عارٍ وابنة عاهرة، إن أفضل مكان لهما هو أن يذهبا هناك، إلى الصحراء حيث لا يراهما أحد سوى الله والشيطان، وهما يعرفان ذلك كله من قبل.

في قطاره، وقد استقرت قدماه مرة أخرى على كتلة الثلج الذائبة، وجد عمر الخيام نفسه يطير بعيداً إلى المستقبل مقتنعاً بأنه أفلح أخيراً في أن يفر، فحملت لذة تلك الفكرة المريحة، وكذلك متعة الجليد، البسمة إلى شفتيه، رغم أن الريح الساخنة كانت قد بدأت بالهبوب.

بعد عامين كتبت له أمهاته يخبرنه أنه بات لديه أخ أطلقوا عليه اسم بابار تيمنا باسم إمبراطور المغول الأول الذي اجتاز الجبال المستحيلة

وفتح كل بلد قصده. بعد ذلك عاد الهناء إلى الأخوات الثلاث اللواتي وحّدتهن الأمومة مرة ثانية، وعشن سعيدات لا تمييز بين الواحدة والأخرى سنين طويلة داخل أسوار «نيسابور».

لكن حين قرأ الرسالة كان رد فعله الأول أن أطلق صفرة ناعمة بما يشبه الإعجاب.

ثم قال بصوت عالٍ: «يا للعجائز الساحرات!! لقد فعلنها مرة ثانية».

(٢)

المتبارزون

الفصل الرابع

خلف الستارة

هذه رواية تدور حول صفية زنوبيا، كبرى بنات الجنرال رضا حيدر وزوجته بلقيس، وما جرى بين أبيها وبين الرئيس اسكندر حربا، رئيس الوزراء السابق، المتوفى الآن، وزواجها المثير للدهشة من شخص يدعى عمر الخيام شاكيل، الطبيب، البدين، الذي ظل فترة من الزمن الصديق الحميم لاسكندر حربا نفسه ذاك الذي كان لعنقه القدرة العجائبية في أن تبقى سليمة لا يخدشها حتى حبل المشنقة، أو ربما سيكون قولنا أكثر دقة، وإن يكن أكثر إبهاماً، إن قلنا إن صفية زنوبيا هي التي تدور حول هذه الرواية.

على أي حال، ليس من المعقول أن نشرع بالتعرف إلى شخص دون أن نحصل أولاً على بعض المعرفة بخلفيته العائلية: لذا لا بد من السير على هذا الطريق فنفسر كيف صارت بلقيس تخشى رياح العصر الساخنة تلك التي تسمى رياح «اللو».

في آخر صباح من أيام عمره، وكعادته، ارتدى والدها محمود كمال المشهور باسم محمود ـ المرأة، بدلة من قطعتين، زرقاء متألقة، مقلمة بأقلام حمر لامعة، ثم تطلع برضا شديد إلى نفسه في المرآة المزخرفة التي كان قد انتزعها من بهو مسرحه حباً بإطارها الذي لا تقاوم فتنته لما فيه من نقوش لملائكة عراة تطلق السهام وتنفخ في الأبواق الذهب، ثم

احتضن ابنته ذات الثمانية عشر ربيعاً معلناً: «إذاً، يا فتاتي، أنت ترين أباك أنيق المظهر، يليق به أن يكون المسؤول الإداري الأول في الإمبراطورية المجيدة». وعند الإفطار، حين بدأت الابنة بكل طاعة وخضوع تصب له الطعام في طبقه، هدر بنوع من الغضب الأبيض قائلاً «لماذا تتعبين نفسك يا بنية؟ الأميرات لا يخدمن أحداً». فأحنت بلقيس رأسها ثم حدقت من الزاوية اليسرى لعينيها إلى أبيها الذي هتف بصوت عالٍ: «أوه، رائع، رائع، بيلو... يا لسلوك النخبة الراقية.. أقسم على ذلك...».

والحقيقة الغريبة إنما الواقعة، هي أن مدينة عبدة الأوثان التي جرى فيها هذا المشهد ـ ولنسمّها باسم اندرابراست ابرانكيلا أو حتى دلهي ـ غالباً ما كان يحكمها رجال يؤمنون (مثل محمود) بالله، آثارهم لا تزال حتى اليوم تنتشر في أنحاء المدينة مراصد قديمة وأبراج نصر ومنها بالطبع، تلك القلعة العظيمة «الحمراء» التي ستلعب دوراً هاماً في قصتنا هذه. والأكثر من ذلك أن كثيراً من هؤلاء الحكام المؤمنين، يعودون بمنشئهم لأوضع الأصول وكل تلميذ مدرسة يعرف تاريخ ملوك المماليك... لكن النقطة الأساسية على أي حال هي أن هذه القضية بكاملها، قضية حكم ـ إمبراطورية كانت مجرد نكتة عائلية، ذلك أن منطقة سيادة محمود لم تكن، بالطبع، إلا دار سينما الإمبراطورية، وهي دار سينما صغيرة في أحد أحياء البلدة القديمة.

كان محمود يحب أن يقول «عظمة دار السينما تدل عليها شدة صخب زبائنها. اذهب إلى تلك الدور الفخمة في المدينة الجديدة، انظر إلى مقاعدها المخملية الوثيرة التي تشبه العروش، إلى تلك المرايا التي تغطي الأبهاء كلها، تلمس الهواء المكيف وسوف تدرك لماذا يجلس المتفرجون هادئين هدوء الجحيم. إن روعة الأشياء المحيطة بهم تروضهم، كما يروضهم أيضاً ثمن التذاكر لكن في إمبراطورية محمود، كان الرواد، بما يدفعونه من أجور ضئيلة، يغدون أشبه بأبالسة الجحيم،

ما عدا وقت الأغاني. «نحن لسنا حكاماً مستبدين، يا بنتي، لا تنسي ذلك خاصة في هذه الأيام التي تنقلب فيها الشرطة ضدنا وترفض المجيء لإخراج المشاغبين والأوباش الذين يطلقون من الصفير ما يمزق الآذان. لكن لا بأس، فالمسألة مسألة حرية فردية، بالنتيجة».

أجل، لقد كانت إمبراطورية من الدرجة الخامسة، لكن بالنسبة إلى محمود كانت شيئاً هاماً تماماً: إقطاعة ملك من المماليك، ذلك أنه لم يكن قد بدأ حياته المهنية في الأزقة القذرة، واحداً من تلك النماذج التافهة التي تدفع عربات الملصقات السينمائية وتلعلع أصواتهم دعاية لبعض الأفلام «العرض الآن، العرض الآن» أو «فلمان دفعة واحدة...». ثم ألا يجلس الرجل الآن في مكتب مدير كامل الأثاث بصندوق ماله ومفاتيحه؟ إذاً أنت ترى: حتى النكت العائلية تتعرض لخطر حملها على محمل الجد إذ تكمن في طبيعة كل من الأب والبنت نزعة نحو الحرفية، انعدام الدعابة، كبرت بلقيس بسببه وكبر معها وهم لم تفصح عنه بأن تكون كالملكة، وهم ينبعث شعاعه من زوايا عينيها الكابيتين. إذ ما إن غادر والدها المنزل إلى عمله حتى شرعت تناجي المرآة الملائكية قائلة: «اسمعي، بالنسبة إلي إما أن تكون سيطرة مطلقة أو لا شيء... فلو كنت أنا المسؤولة لما كان هؤلاء الأوباش يفلتون من يدي بصفيرهم وضجيجهم» وبذلك فقد أوجدت بلقيس ذاتاً سرية أكثر تسلطاً وحباً للأوامر من والدها الإمبراطور. وفي دجنّة إمبراطوريتها، كانت بلقيس ليلة بعد ليلة تتفحص الأشكال الوهمية الضخمة المشعة للأميرات اللواتي كن يرقصن أمام جمهور صخاب بإشراف تمثال فروسي مذهب، تمثال فارسٍ مدجج بالسلاح من فرسان القرون الوسطى يحمل لوحة كتب عليها كلمة بلا معنى: «نُجارة». وبما أن الأوهام تغذي الأوهام، فقد وجدت بلقيس نفسها تتصرف بترفع يتناسب مع إمبراطورية الأحلام تلك، ناظرة إلى عبارات السخرية التي كان أولاد أزقتها يعيرونها بها على أنها إطراءات «رحماك يا سيدتنا المبجلة، يا حاكمة خانسي». لقد أطلقوا

عليها اسم حاكمة خانسي أي ملكة السعال أو بعبارة أدق ملكة الهواء المعطوس، ملكة المرض والرياح الحارة.

وكان والدها يحذرها «حذار، كل شيء يتغير في هذه المدينة، إذ حتى الألقاب البالغة الرقة تكتسب معاني جديدة، قاتمة للغاية».

ذلك كان في الزمن الذي سبق مباشرة التقسيم العفن الشهير الذي شطر البلاد القديمة وأسلم لأتباع الله بضع شرائح منها قضمتها الحشرات، بضعة فدادين غربية غبراء وبضعة مستنقعات شرقية كثيرة الأدغال كان يسعد اتباع غير الله كثيراً أن يتخلوا عنها. (بلاد الله الجديدة: قطعتان من الأرض، يفصل بينهما ألف ميل، بلاد غير معقولة إلى درجة لم تستطع أن تقوم إلا بالكاد) لكن لنبتعد عن العاطفية ولنقل فقط إن المشاعر كانت محتدمة إلى درجة كان معها مجرد الذهاب إلى السينما نوعاً من العمل السياسي، فأتباع الله يذهبون إلى دور سينمائية معينة وعبدة الأوثان يذهبون إلى دور أخرى، أي كانت الدور قد قسمت سلفاً قبل أن تقسم البلاد العتيقة المتعبة. لكن من المؤكد أن عبدة الأوثان كانوا يسيطرون على صناعة السينما، ولكونهم نباتيين، فقد أنتجوا فيلماً شهيراً جداً اسمه: «الفتى العابث»، لعلك سمعت به؟ قصة غير عادية عن بطل مقنع وحيد يجوب سهوب الهند ـ الغانج ليحرر قطعان البقر من رعاتها ويخلص تلك الحيوانات المقدسة ذات القرون والفروع من مسالخها. وهكذا تجمعت عصبة مسلحة بالحجارة حول دور السينما التي تعرض هذا الفيلم ثم وجه أتباع الله طعنة خاطفة باندفاعهم لمشاهدة أفلام رعاة بقر لا نباتية مستوردة تذبح فيها الأبقار بالقطعان ويستمتع رعاتها الطيبون بموائد لحمها. كما أن حشوداً من الناس الذين أثارتهم هذه الأفلام هاجمت دور عرض خصومهم.. أي كان ذلك زمن كل شكل من أشكال الجنون، وذلك كل شيء.

نتيجة خطأ واحد، أضاع محمود ـ المرأة إمبراطوريته، ومنشأ ذلك عيب قاتل في شخصيته، هذا العيب هو التسامح. «آن الأوان لأن نرتفع

فوق حماقات التقسيم هذه كلها»، خاطب مرآته ذات صباح، وفي ذلك اليوم بالذات حجز فيلمين معاً لعرضهما في داره السينمائية: راندولف سكوت والفتى العابث، بحيث يتبع واحدهما الآخر على الشاشة.

يوم الافتتاح، أي يوم دماره، تغير معنى لقبه إلى الأبد. لقد كان أولاد الشارع ينادونه محمود ـ المرأة ذلك أنه كان أرمل وكان مضطراً لأن يقوم بدور الأم بالنسبة إلى بلقيس نظراً لأن زوجته توفيت والفتاة في عامها الثاني. لكن الآن بات هذا اللقب الرقيق يعني شيئاً أكثر خطورة، وحينما كان يتكلم الأولاد عن محمود ـ المرأة فإنهم كانوا يعنون محمود «الضعيف» محمود «المخزي» محمود «الأحمق».

ذات مرة قال لابنته بنوع من الاستسلام «امرأة، أي لقب هذا.. ترى أليس هناك نهاية للأعباء التي يمكن لهذه الكلمة أن تحملها؟ هل هناك في الدنيا كلمة عريضة الظهر قذرة كهذه الكلمة؟».

الكيفية التي استقر عليها وضع الفيلمين المزدوجين: كلا الجانبين من أهل المدينة، النباتي وغير النباتي، قاطعا الإمبراطورية. ولخمسة، ستة، سبعة أيام ظل الفيلمان يعرضان في الدار الخاوية حيث تحدق مراوح السقف البطيئة الدوران وجص حيطانها المتقشر والباعة الصغار إلى المقاعد الفارغة والصفوف الهادئة من كل صخب أو ضجيج. عروض الثالثة والنصف، السادسة والنصف والتاسعة والنصف كلها واجهت الحال ذاته، بل حتى عرض الأحد الصباحي الخاص لم يستطع إغراء أحد بولوج الأبواب الدوارة على محاورها. «أوقف العرض» حثت بلقيس أباها «ما الذي تريده؟ فقدان عجلتك اليدوية أم ماذا؟».

لكن في ذلك الحين كان نوع من العناد الغريب قد سيطر على عقل محمود ـ المرأة فأعلن أن العرض المزدوج سيستمر أسبوعاً ثانياً، حينها تخلى عنه غلمان عجلاته اليدوية إذ ما من أحد يرغب في أن ينادي تلك النداءات الغامضة في الأزقة الضيقة المكهربة، وما من صوت كان يجرؤ على القول «العرض يبدأ الآن» أو «أسرعوا قبل فوات الأوان».

كان محمود وبلقيس يقطنان في منزل رفيع لطيف خلف الإمبراطورية مباشرة، «خلف الستارة» كما كان يقول، وفي ذلك العصر الذي انتهى فيه العالم وبدأ ثانية، شعرت ابنته الإمبراطورة التي كانت وحيدة في المنزل إلا من خادمة، شعوراً مفاجئاً بغصة خانقة ليقينها أن أباها بكل ما يتصف به من رومانسية مجنونة، قد اختار متابعة خطته الحمقاء إلى أن تقتله. وبغتة أحست بالرعب لسماعها صوتاً أشبه بخفق أجنحة الملائكة، صوتاً لم تجد له فيما بعد تفسيراً مناسباً لكنه ظل يدوي في أذنيها إلى أن أصيب رأسها بالصداع، فجرت خارجة من منزلها دون أن تلوي على شيء سوى أنها ألقت على كتفيها منديل العفة الأخضر، وبتلك الطريقة وجدت نفسها تقف، مبهورة الأنفاس، أمام الأبواب الثقيلة للسينما التي كان أبوها يقبع خلفها مكتئباً حزيناً بين المقاعد الخاوية يرقب العرض، حين بدأت الريح الحارقة، ريح الرؤيا النبوئية بالهبوب.

لقد انتفخت جدران إمبراطورية والدها نحو الخارج كفطيرة ساخنة، في حين كانت الريح، الأشبه بسعال عملاق مريض، تلفح حاجبيها (اللذين لم ينمُوَا بعد ذلك قط) وتنتزع الملابس عن جسدها إلى أن وقفت عارية كما خلقها ربها في الشارع ولم تلحظ عريها، لأن العالم كان يشرف على الانتهاء، ومع تردد الأصداء الغريبة لتلك الريح القاتلة رأت عيناها المحترقتان كل شيء ينقذف خارجاً: المقاعد، دفاتر الحجز، المراوح ومن ثم أشلاء جثة أبيها الممزقة ونثرات مستقبلها المفحمة. «انتحار» صاحت بلقيس ثم لعنت محمود ـ المرأة بصوت عال جعلته القنبلة يرتعش «أنت اخترت هذا». وحين استدارت على عقبيها وأسرعت باتجاه البيت رأت أن الجدار الخلفي للسينما قد تفجر، وفي أعلى الطابق الذي يشكله بيتها الرفيع اللطيف كان قد انطمر تمثال الفارس المذهب الذي لم تعد بحاجة لأن تقرأ على لوحته الكلمة الساخرة عديمة المعنى «نُجارة».

لا تسل عمن زرع القنبلة، ففي تلك الأيام كان هناك الكثيرون ممن يزرعون القنابل، الكثيرون من جنائنيي العنف. ربما كانت قنبلة واحدة من المؤمنين، زرعها في إمبراطورية محمود واحد من أبناء دينه الأكثر تزمتاً وتعصباً، إذ يبدو أن ساعة توقيت القنبلة بلغت الصفر في مشهد حب ذي إيحاءات خاصة ونحن نعلم ما هي آراء المؤمنين بالحب، أو وهم الحب، خاصة حين يتعين دفع المال لرؤيته... إنهم خصوم معادون وهكذا قطعوا المشهد، وفسد الحب.

وابلقيساه! ها هي ذي عارية، بلا حاجبين، تحت الفارس الذهبي، ملفوفة بهذيان ريح النار، ترى شبابها يطير بجانبها، محمولاً على أجنحة الانفجار الذي كان لا يزال يدوي في أذنيها. جميع المهاجرين يتركون ماضيهم خلفهم، رغم أن البعض يحاول أن يحزمه ضمن علب وصرر، لكن، أثناء الرحلة يتسرب شيء ما من التذكارات المخبأة والصور الفوتوغرافية القديمة، إلى أن يعجز أصحابها نفسهم عن تمييزها والتعرف إليها، ذلك أن قدر المهاجرين هو أن يجردوا من التاريخ، أن يقفوا عراة وسط احتقار الغرباء الذي يرونهم وهم يلبسون أفخر الملابس، بروكار الاستمرارية وحواجب الانتماءات، على أي حال، ما أريد قوله هو أن ماضي بلقيس تركها حتى قبل أن تترك تلك المدينة. فقد وقفت في الزقاق بعد أن عراها انتحار والدها، لترقبه وهو يمضي. في ما بعد، كان ذلك الماضي يزورها أحياناً على صورة قريب منسي يأتي لزيارتها، لكنها ظلت زمناً طويلاً كثيرة الارتياب بالتاريخ، لقد تزوجت من بطل ذي مستقبل باهر، لذلك دفعت الماضي بعيداً عنها وذلك بالطبع، كما يدفع المرء عنه أولئك الأقارب البؤساء الذين يقصدونه لاستدانة المال منه.

لا بد أنها مشت أو جرت إلا إذا كانت قد حدثت أعجوبة ورفعتها قوة إلهية ما بعيداً عن ريح كارثتها. لكنها حين استعادت وعيها، أحست بضغط حجر أحمر على جلدها. كان الظلام قد خيم وكان الحجر يقبع على ظهرها بارداً في حرارة الجو الجاف المعتم. وكان الناس يمرون بها

حشوداً حشوداً، حشوداً كبيرة ومسرعة إلى درجة أن الفكرة الأولى التي خطرت في ذهنها هي أن انفجاراً لا يمكن تخيله يدفعها: «قنبلة أخرى، يا إلهي. . . هؤلاء الأشخاص جميعاً سيتفجرون لشدته، لكنها لم تكن قنبلة. بل أدركت أنها تتكئ على السور الذي لا نهاية له، سور القلعة الحمراء التي تهيمن على المدينة القديمة، في حين كان الجند يسوقون الحشد عبر أبوابها التي انفتحت على مصاريعها، بدأت قدماها تتحركان على نحو أسرع من دماغها فقادتها إلى داخل الحشد. بعد لحظة، شعرت بأنها تنسحق تحت وطأة انتباهها لعريها فبدأت تصرخ «أعطوني ثوباً». وظلت تصرخ إلى أن رأت أن لا أحد يسمع، لا أحد ينظر إلى جسد الفتاة العارية المسفوعة التي لا تزال جميلة رغم ذلك. بعدئذ انكمشت على نفسها خجلاً، متسترة بيديها في ذلك البحر المندفع كأنها قشة في تيار، ثم شعرت بأن حول عنقها قطعة طويلة من الموسلين. كان منديل العفة قد علق بجسدها إذ ثبته هناك الدم المتخثر الذي نزف من الجروح والخدوش الكثيرة التي لم تكن تعرف حتى بوجودها. فسارعت لستر عورتها بتلك البقايا ثم ولجت الحمرة القاتمة للقلعة وسمعت دوي أبوابها وهي تنغلق.

في دلهي، أيام ما قبل التقسيم، كانت السلطات تجمع المسلمين، حفاظاً على سلامتهم كما كانوا يقولون، ثم تحتجزهم في القلعة الحمراء، بعيداً عن غضب عبدة الأوثان. عائلات بكاملها كانت تحتجز هناك، جدات، أطفال صغار، أعمام فاسدون. . . بما في ذلك أفراد عائلتي. ومن السهل أن أتصور أنه بينما كان أقربائي يتحركون عبر القلعة الحمراء في الوجود الموازي للتاريخ، ربما شعروا بإيحاء ما عن الوجود الخيالي لبلقيس كمال وهي تندفع عارية جريحة مارة بهم كأنها الشبح. . . أو العكس بالعكس، نعم العكس بالعكس.

لقد حمل مد الكائنات البشرية بلقيس بعيداً، ربما حتى أطراف الرواق المستطيل المزخرف الواسع الواطئ السقف، ذاك الذي كان ذات

يوم قاعة الإمبراطور التي يستقبل فيها عامة الناس، وفي ذلك الديوان الذي يردد الأصداء وقعت بلقيس مغشياً عليها وقد طغى عليها إحساسها بذل عريها. ولا عجب ففي ذلك الجيل من النساء العاديات العفيفات المحترمات: نساء النمط الذي لا يحدث له شيء، أو يفترض ألا يحدث له شيء سوى الزواج، الإنجاب، الموت، لدى الكثير منهن مثل هذه القصص. فقد كان زمناً غنياً بالقصص، إن تسنى لك أن تعيش كي تروي قصتك..

قبل فترة وجيزة من الزواج المخزي الذي قامت به ابنتها الصغرى غودنيوز حيدر قصت بلقيس للفتاة قصة لقائها بزوجها فقالت: حين أفقت من غيبوبتي، كان الوقت نهاراً وكنت ملفوفة بمعطف ضابط. لكن لمن تظنين كان ذلك المعطف؟ بالطبع له، لوالدك رضا، ماذا أحكي لك؟ لقد رآني مرمية هناك، وقد عرضت كل بضاعتي، وكما تعلمين، أظن أن الفتى الشجاع أعجب بما عرضت». فانطلقت غودنيوز تهتف باستنكار «أوه!! ماذا؟ .. هش.. هش..» مدعية أنها صدمت بوقاحة أمها فقالت بلقيس خجلى: «مقابلات كهذه لم تكن غير شائعة حينذاك». فأجابت غودنيوز باحترام شديد: «حسن ماما، إن كان قد تأثر فالأمر لا يدهشني قط».

حين وصل رضا إلى قاعة الشعب، اتخذ وضعية الاستعداد أمام بلقيس التي كانت قد تسترت باحتشام، ضارباً عقبيه الواحد بالآخر محيياً ثم ابتسم قائلاً لزوجة المستقبل: «المعتاد خلال المغازلة أن تكون المرأة مرتدية ثيابها، ومن حق الزوج في النهاية أن يخلعها... لكن في حالتنا هذه، الإجراء العكسي هو الصحيح، إذ علي أن أكسوك، من رأسك حتى قدميك، بما يناسب عروساً شديدة الحياء» (فتأوهت غودنيوز المفعمة شوقاً للزواج، حين سمعت هذا ثم قالت «يا إلهي كلماته الأولى رومانسية للغاية»).

كيف بدا في ناظري بلقيس المغطاة بمعطف عسكري: «فارع

القامة، أشقر البشرة للغاية، شديد الكبرياء لكأنه ملك من الملوك» وما من أحد التقط صوراً لمقابلتهما تلك، لكننا لا بد من التماس العذر لها بسبب حالتها الذهنية حينذاك، فرضا حيدر يبلغ من الطول مائة وثمانية وخمسين سنتيمتراً: أي أنه ليس عملاقاً كما ترى. أما بشرته، فمن المؤكد أنها كانت أدكن مما كانت عينا بلقيس المغرمتان ترغبان في قبوله. لكن، متكبر مثل ملك؟ هذا محتمل. حينذاك لم يكن رضا سوى نقيب في الجيش لكن مع ذلك كانت تلك الرتبة شيئاً هاماً.

من الأشياء الحسنة التي يمكن قولها أيضاً عن رضا حيدر: إنه كان يمتلك من الطاقة ما يكفي لإنارة شارع. وإن أخلاقه كانت دائماً حسنة وسلوكه لا غبار عليه.. إذ حتى عندما صار رئيساً، كان يقابل الناس بكثير من التواضع (الذي لا يتعارض مع الكبرياء) إلى درجة أن القلة القليلة من الناس كانت ترغب في تناوله بالسوء بعد ذاك. ومن يفعل منهم ذلك يشعر، وهو يتكلم، وكأنه يغدر بصديق، كما كان يحمل على جبهته كدمة خفيفة لكنها دائمة، كدمة كنا قد لاحظنا مثلها من قبل على جبهة عبد الله المؤمن ساعي بريد «ك»: الكدمة التي وسمت رضا بسمة الرجل المتدين.

تفصيل وحيد أخير: لقد قيل عن النقيب حيدر إنه لم ينم طيلة أربعمائة وعشرين ساعة بعد تجميع المسلمين في القلعة الحمراء، الأمر الذي يفسر وجود الجيوب السود المنتفخة تحت عينيه. وهذه الجيوب ستكبر وتسود كلما ازدادت قوته إلى أن يغدو بغير حاجة لوضع نظارات شمسية على النحو الذي تستخدمه الصفوة العليا من الناس، إذ كان يبدو كمن يضع نظارتين طيلة الوقت حتى وإن كان في الفراش. هوذا جنرال المستقبل حيدر: راظو، راز ـ ماتاز، ريزور غوتز العجوز نفسه.. فكيف كان باستطاعة بلقيس أن تقاوم رجلاً كهذا؟ لقد هزمت بأقصى سرعة...

خلال وجودهم في القلعة، كان النقيب ذو الجيوب العينية يزور بلقيس بانتظام حاملاً معه على الدوام قطعة من ثياب أو زينة: سارٍ،

بلوزة، صندل، قلم حواجب لكي تعيد به الحاجبين اللذين احترق شعرهما، منهدة، أحمر شفاه. وكانت كلها تنهمر عليها انهماراً. فأساليب القصف الشديد تستهدف فرض استسلام سريع.

وحين باتت خزانة ثيابها ممتلئة إلى درجة تسمح بإبعاد المعطف العسكري، تعرضت له في القاعة قائلة: «تعال نفكر بالأمر» تابعت بلقيس القصة لابنتها «ولعل ذلك هو الوقت الذي أبدى فيه تلك الملاحظة الهامة». ذلك أنها تذكرت كيف أجابت يومها: منكسة الرأس وفق الطريقة التي تتصرف بها أرقى الممثلات والتي كان والدها قد أطراها ذات يوم إذ قالت بأسى: «لكن أي زوج يمكنني الحصول عليه، أنا التي لا تملك دوطة؟ بالتأكيد ليس نقيباً كريماً كهذا الذي يبهر الملكات».

وهكذا أصبح رضا وبلقيس خطيبين تحت أعين الحشود المحرومة المعذبة لتستمر بعد ذلك الهبات: أفخر المأكولات والمشروبات، إضافة إلى الحناء والخواتم. لقد وضع رضا خطيبته خلف حاجز من حجر مصنوع كالشبك ووضع جندياً لخدمتها والدفاع عن عريها.

وهكذا، معزولة خلف ذلك الحاجز الحجري عن غضب الجمهور المرير القاتم، راحت بلقيس تحلم بيوم زفافها، يدافع عنها ضد الإثم ذلك الحلم القديم بأن تكون ملكة، حلمها الذي اخترعته منذ زمن طويل: «أف أف» كانت توبخ اللاجئين المحملقين بانشداه «إن هذا الحسد لفظيع كل الفظاعة».

بعد ذاك أقيمت الأسلاك الشائكة على الشبك الحجري: «أوه مدام.. من أين تظنين أنه يجيء بثيابك الفاخرة؟ من متاجر الحرفيين الضخمة؟ انظري إلى مهاد النهر الطينية تحت أسوار القلعة، عدي الأجساد العارية المسلوبة التي تلقى هناك كل ليلة..». بعدئذ تنفذ كلمات خطيرة من الشبك الحجري: آكلة قمامة، بغي، عاهرة. لكن بلقيس كانت تصرف أسنانها وتقول لنفسها: «كم هو سلوك سيئ أن تسأل المرأة الرجل من أين يأتي بهداياه... ابتذال كهذا لن أفعله، لا، أبداً».

هذا الشعور، جوابها على مسبات زملائها اللاجئين لم يعبر شفتيها قط، لكنه كان يملأ فمها إلى حد جعله ينتفخ وكأنه مبوز.

أنا لن أقاضيها، ففي تلك الأيام كان الناس يسعون للبقاء على قيد الحياة بأية وسيلة.

وككل شيء آخر انقسم الجيش، فتوجه النقيب نحو الغرب إلى أرض الله الجديدة التي قضمها العث. وهناك جرى احتفال الزفاف، بعدئذ جلست بلقيس حيدر بجانب زوجها الجديد في طائرة لنقل الجند، امرأة جديدة، عروساً جديدة تطير إلى عالم براق جديد.

«ما الذي ستفعله هناك يا رضا..» كانت تصرخ «أية عظمة!!! أية شهرة!!». وكانت أذنا رضا تحمران تحت الأعين (المحمرة من اللهو) أعين زملائه الذين يصحبونه في تلك «الداكوتا» الكثيرة الضجيج والعجيج، لكنه كان يبدو مسروراً كل السرور.

لقد صدقت نبوءة بلقيس أخيراً، فهي، التي تعرضت حياتها للتفجير، ذاك الذي فرغها من التاريخ كيلا يترك في مكانه إلا حلمها الأسود بأن تكون ملكة، ذلك الوهم البالغ القوة إلى درجة اقتضى معها أن يدخل عالم الحقيقة ـ هي، بلقيس التي لا جذور لها والتي باتت تتوق للاستقرار، لعالم يخلو من الانفجارات، رأت في رضا نوعاً من الكتلة الصخرية التي يمكنها أن تبني حياتها عليها. فهو رجل راسخ الجذور، يشعر أنه بلا عيوب إلى حد جعله يبدو هائل الحجم. «عملاق تماماً» تلاطفه بلقيس، هامسة في أذنه كيلا تثير قهقهات الضباط الآخرين في الحجرة «متألق كنجوم الشاشة».

إنني أتساءل أية طريقة أفضل لوصف بلقيس. كامرأة جردها التغيير من ثيابها، إنما لفت نفسها بحقائق لا ريب فيها، أم كفتاة أصبحت ملكة، إنما فقدت القدرة على إنجاب الأبناء، أم كسيدة كان أبوها امرأة وابنها فتاة أيضاً، كما كان زوجها، رجل الرجال، رضاها أورراز ـ ماتاز نفسه، مضطراً في النهاية لأن يلبس الغطاء الأسود المذل الذي تلبسه

النساء، أم ربما كائن تمسك به قبضة القدر الخفية ـ ترى ألم تجد أنشوطة الحبل السري التي خنقت ابنها، أو الابنين التوأمين، صداها في حبل آخر أشد رهبة؟.. لكن علي قبل كل شيء، أن أرجع إلى نقطة ابتدائي، ذلك أنها، بالنسبة إلي كانت وستبقى دائماً بلقيس التي تخاف الريح.

ولسوف أكون عادلاً، فلا أحد يحب رياح اللو، رياح العصر الساخنة تلك التي تخنق الأنفاس. إننا نغلق المصاريع، نعلق على النوافذ أقمشة رطبة ونحاول أن ننام. لكن مع تقدم بلقيس في السن، باتت الريح تثير فيها مخاوف غريبة. فقد لاحظ زوجها والأطفال كم تصير عصبية سريعة الغضب كل عصر، كم تستغرق من الوقت لكي تهدأ وهي تصفق الأبواب وتقفلها، إلى أن غدا رضا حيدر يحتج على العيش في منزل تضطر فيه لأن تطلب المفتاح من زوجتك قبل أن تتمكن من الوصول إلى المرحاض فمن رسغها الناحل كانت تتدلى حلقة مفاتيحها المجلجلة التي تزن عشرة أطنان، حلقة عصابها، لقد نما في نفسها الخوف من الانتقال ففرضت حظراً على نقل أي شيء في المنزل أو تحريكه من مكانه مهما كان تافهاً. وهكذا بات للكراسي، منافض السكائر، المزهريات، جذور جعلتها غير قابلة للحركة وذلك كله بفضل قوة إرادتها المخيفة. «حيدري يحب كل شيء في مكانه» كانت تقول للآخرين، غير أن مرض التشبث بالمكان كان مرضها هي. وكانت تمر أيام تضطر فيها لأن تظل داخل المنزل، سجينة حقيقية، لا لشيء إلا لأنه قد يكون نوعاً من الخزي والعار أن يراها غريب وهي في حالتها تلك، فحين تهب ريح اللو كانت تزعق مثل جني أو عفريت أو شيطان من تلك الشياطين صارخة بخدم المنزل أن يأتوا ويثبتوا الأثاث كيلا تطيره الريح مثل محتويات «الإمبراطورية» التي ضاعت قبل زمن طويل. ثم تصرخ بيناتها (حين يكن موجودات) بأن يتمسكن جيداً بأي شيء راسخ وطيد الأركان خشية أن تحملهن رياح النيران إلى السماء.

وإنها لرياح سيئة، رياح «اللو».

لو كانت هذه الرواية رواية واقعية حول الباكستان، ما كنت لأكتب عن بلقيس والريح، بل كنت سأتكلم عن أختي الصغرى، تلك التي تبلغ الثانية والعشرين من عمرها وتدرس الهندسة في كراتشي والتي لم يعد بإمكانها أن تجلس على شعرها بعد، والتي هي (خلافاً لي) مواطنة باكستانية. إنني في أيامي الحسنة أفكر بها كباكستانية وحينذاك أشعر بحب شديد لذلك المكان واجداً من السهل أن أنسى حبها (أي حب أختي) للكوكا كولا والسيارات المستوردة.

ورغم أنني أعرف باكستان منذ زمن طويل، إلا أنني لم أعش فيها أكثر من ستة أشهر كل مرة. بل إنني ذات مرة أقمت فيها أسبوعين لا غير. وبين هذه الإقامات ذات الأشهر الستة والأسبوعين هناك فجوات ذات مدد متفاوتة. لقد تعرفت إلى الباكستان بالتقسيط، وهي الطريقة نفسها التي تعرفت بها إلى أختي النامية. فقد رأيتها أول مرة ساعة ولدت (وحينها انحنيت، أنا ابن الرابعة عشرة فوق مهدها فبكت في وجهي) بعد ذاك رأيتها وهي في الثالثة ثم في الرابعة فالسادسة فالسابعة فالثامنة فالرابعة عشرة فالثامنة عشرة فالحادية والعشرين. وهكذا كان هناك تسع أخوات يتعين علي أن أتعرف إليهن وأشعر أنني أكثر قرباً إلى التجسد الذي تظهر به من التجسد السابق (وهذا ينسحب على البلاد أيضاً).

أعتقد أن ما أود الاعتراف به هو أنني مضطر، وقد قررت الكتابة عن ذلك العالم، لأن أفكر فيه على شكل شظايا مرآة مكسورة، أي على النحو ذاته الذي كانت فرح زهر عشتار ترى به وجهها في أعمدة الحدود الإسمنتية ولا بد لي من أن أكيف نفسي مع حتمية ضياع بعض الشظايا.

لكن لنفترض أن هذه رواية واقعية.. لنتأمل فقط ما يمكن أن نضع فيها، مثال على ذلك، قضية المضخات السرية غير القانونية التي كان السكان الأغنياء يركّبونها في منطقة «الدفاع» لسرقة المياه من تمديدات جيرانهم ـ وهكذا يمكنك أن تميز الناس ذوي المكانة الأعظم من خلال

خضرة مروجهم (فأدلة كهذه لا تقتصر على منطقة الكانتونمت في بلدة «ك») ثم هل كنت سأضطر لوصف نادي السند في كراتشي حيث لا تزال هنالك لوحة تقول: «لا يسمح للكلاب والنساء باجتياز هذه النقطة»؟ أم أنني سأحلل المنطق البارع للبرنامج الصناعي الذي يعمل لإنشاء مفاعلات نووية إنما لا يستطيع تصنيع براد؟ أوه يا عزيزي ـ الكتب المدرسية تقول «ليست إنكلترا بلداً زراعياً» وقد أنقص المعلم ذات مرة علامتين من مذاكرة أختي الصغرى في الجغرافيا لأنها اختلفت بنقطتين عما هو مكتوب في كتاب الجغرافيا فكم هو فظيع، يا قارئي العزيز أن يظهر هذا كله!! كم هو فظيع!!

إلى أي حد يمكن لمادة الحياة الحقيقية أن تصبح قاهرة... مثال على ذلك نائب رئيس المجلس الوطني قبل زمن طويل، ذاك الذي قتل في المجلس حين رماه النواب المنتخبون بقطع الأثاث، أو مراقب الأفلام السينمائية ذاك الذي أمسك بقلمه الأحمر وراح يشطب كل مشهد من فيلم «ليل الجنرالات» الذي يزور فيه الجنرال بيتر أوتول صالة الفنون ويخربش على لوحات السيدات العارية المعلقة على الجدران، بحيث أذهل المتفرجين المشهد السريالي للجنرال بيتر وهو يتمشى في بهو البقع الحمراء الراقصة أو مدير التلفزيون الذي قال لي ذات يوم وهو بكامل رزانته إن كلمة (بورك)[1] تتألف من أربعة أحرف، أو قضية مجلة التايم (أم هي النيوزويك يا ترى؟) تلك التي لم يسمح لها بالدخول إلى البلاد لأنها تتضمن مقالة عن الحساب المصرفي المزعوم للرئيس أيوب خان في مصارف سويسرا، أو قطاع الطرق الذين يدانون لأنهم يفعلون، كمشاريع خاصة، ما تفعله الحكومة كسياسة عامة، أم تراني أتكلم عن الإبادة الجماعية في بالوشستان أم عن منح الدولة المتحيزة التي تدفع بموجبها رواتب لطلاب في الخارج تخرجوا وانتهوا، لأعضاء من حزب

---

(١) بورك: لحم الخنزير.

الجمعة المتعصب، أم أتكلم عن محاولة الإعلان عن أن الساري لباس غير محتشم أم عن عمليات الشنق الإضافية، وهي الأولى من نوعها منذ عشرين عاماً، لا لشيء إلا لإضفاء صفة الشرعية على إعدام السيد ذو الفقار علي بوتو وكأنه ذرة من ذرات الأثير، تماماً كما اختفى الكثير من أولاد الشوارع الذين يسرقون كل يوم وفي وضح النهار أم عن العداء للسامية تلك الظاهرة المثيرة للاهتمام التي يعمل الناس بتأثيرها على الحط من قدر كل يهودي يلتقون به بغية الحفاظ على التضامن مع الدول العربية التي تقدم لعمال الباكستان فرص العمل والقطع النادر الذي تشتد الحاجة إليه كثيراً هذه الأيام، أم عن التهريب، ازدهار صادرات الهيروين، الديكتاتوريين العسكريين، المدنيين المرتشين، الموظفين الفاسدين، القضاة الذي باعوا ضمائرهم، الصحف التي لا تنطق إلا بالكذب، أم أتكلم عن تقاسم الميزانية العامة، مع إشارة خاصة إلى النسب المئوية التي توضع جانباً من أجل الدفاع (وهي نسب كبيرة) ومن أجل التعليم (وهي غير كبيرة)، إذاً تصوروا ما كنت سألقاه من صعوبات.

الآن، لو كنت أكتب كتاباً من هذا النوع، فلن يفيدني في شيء أن أحتج على أنني أكتب بصورة عامة وليس فقط عن الباكستان، إذ كان الكتاب سيمنع ثم يلقى في سلة المهملات ويحرق. وكان كل ذلك الجهد سيضيع هباء.. فالواقعية يمكن أن تمزق قلب الكاتب.

لكنني لحسن الحظ، اكتب قصة هي نوع من الحكايا الخرافية الحديثة، وبذلك تجري الأمور على ما يرام، إذ لا أحد يزعجه ما أكتب أو يأخذ ما أقوله على محمل الجد، وبالتالي لن تكون ثمة حاجة لاتخاذ أي إجراء عنيف أيضاً.

فأية راحة...

لكن علي الآن أن أتوقف عن قول ما لست أكتب عنه، إذ ليس هناك ما هو خاص كثيراً حول ذلك، فكل قصة يقرر المرء أن يرويها هي نوع

من الرقابة، إنها تحول دون قص قصص أخرى. . . وعلي أن أعود إلى قصتي الخرافية ذلك أن أموراً كثيرة حدثت وأنا أرغي وأثرثر.

وبطريق عودتي، أعبر بعمر الخيام شاكيل، بطلي الذي نحي جانباً والذي ينتظر بفارغ الصبر أن أصل إلى النقطة التي يمكن فيها أن تدخل الرواية عروسة ـ المستقبل، صفية زنوبيا، تدخلها ورأسها في المقدمة كما يفعل الجنين وهو يشق طريقة إلى النور، لكنه لن ينتظر طويلاً، فهي على وشك الظهور.

لكن، أمامنا وقفة قصيرة فقط، أذكر فيها (فمن المناسب أن أذكر هذا هنا) أن عمر الخيام كان مضطراً خلال حياته الزوجية، لأن يقبل دون نقاش ولع صفية زنوبيا الطفولي بتحريك الأثاث ونقله من مكان إلى آخر. فهي، التي كانت تثيرها كل الإثارة تلك الأفعال المحرمة في الماضي، كانت تعيد ترتيب الطاولات، الكراسي، المصابيح، في كل يوم وفي كل وقت لا يراها فيه أحد، وكأنها لعبة سرية تحبها كثيراً وتلعبها بافتتان أعمى مخيف. ولقد كان عمر يجد أن الاحتجاجات تبلغ شفتيه لكنه كان يصدها، وهو يعلم أن ما يقوله سيكون بلا جدوى، لكنه كان يرغب كثيراً في أن يهتف «بالشرف، يا زوجتي، لا يعلم إلا الله ما تفعلين بكل هذا النقل والتبديل».

الفصل الخامس

المعجزة ـ الخطأ

تستلقي بلقيس مستيقظة تماماً في عتمة مخدع كهفي، وذراعاها تتقاطعان على صدرها. فحين تنام وحيدة، تجد ذراعاها، بحكم العادة، طريقهما إلى هذه الوضعية رغم أن آل زوجها لا يحبذونها، لكن ليس باستطاعتها الامتناع عنها: إنها احتضان لنفسها بنفسها كما لو أنها تخشى فقدان شيء.

كل ما يحيط بها في العتمة أشكال لمفارش أخرى غامضة. أسرة خفيفة عتيقة ذات فرش رقيق ترقد عليها نساء أخريات تتغطى واحدتهن بملاءة مفردة. أربعون أنثى تقريباً يتجمعن حول الأم الرئيسة بريام بشكلها الملكي الدقيق، فيما هي تشخر شخيراً شهوانياً. كانت بلقيس تعلم عن هذه الحجرة ما يكفي لأن تكون على يقين من أن معظم الأشكال المتعددة على نحو غامض في الظلام ليست نائمة أكثر مما هي نفسها نائمة. بل حتى شخير بريام قد يكون مجرد خداع. فالنساء ينتظرن مجيء الرجال.

قبضة الباب تدور فتصدر خشخشة أشبه بخشخشة طلبة. وعلى التو يحدث تغير في حالة الليل. فساد لذيذ يسري في الجو. نسيم عليل يتحرك كما لو أن دخول الرجل الأول قد أفلح في تبديد بعض الحرارة الشديدة الخانقة التي يشعها فصل الحرارة وجعل مراوح السقف تتحرك بصورة أكفأ قليلاً عبر الجو اللزج. أربعون امرأة، إحداهن بلقيس،

يتحركن حركات واهنة تحت ملاءاتهن. . . مزيد من الرجال يدخلون، إنهم يسيرون على أطراف أصابعهم في ممرات المهجع المظلمة وقد أطبق سكون تام على النساء ما عدا برياما. فالأم الرئيسة تشخر بقوة أكثر من ذي قبل. شخيرها صفارات إنذار، يعطي أوامر واضحة ويوفر ما يلزم من الشجاعة للرجال.

في الفراش المجاور لبلقيس راني همايون، الفتاة العزباء التي لا تتوقع، لهذا السبب، زيارة أحد هذه الليلة، إنها تهمس عبر العتمة: «ها قد جاء اللصوص الأربعون».

بعدئذ تصدر أصوات مكتومة في العتمة: حبال الأسرة الخفيفة تصر وتتمزق تحت الثقل الإضافي الذي يشكله الجسد الثاني، ثم حفيف ملابس وزفرات أشد تنطلق من الأزواج الغزاة. وشيئاً فشيئاً تكتسب العتمة نوعاً من الإيقاع الذي يتسارع، يبلغ الذروة، ثم يهمد. بعد ذاك تحدث حركة مضاعفة باتجاه الباب. ومرات عديدة تسمع خشخشة الطبلة نتيجة دوران قبضة الباب وأخيراً يطبق الصمت، فالأم برياما توقفت عن الشخير تماماً، وقد بات من التهذيب أن تفعل ذلك.

أما راني همايون، التي فازت في موسم الزواج هذا بواحدة من خيرة الزيجات والتي ستترك هذا المهجع عما قريب ليبني بها المليونير إسكندر حربا ذلك الشاب ذو الشفتين المكتنزتين الشهوانيتين والثقافة الأجنبية والبشرة الشقراء، فقد باتت صديقة لبلقيس عروس ابن عمها رضا والتي هي في مثل سنها، ثمانية عشر عاماً. بلقيس تستمتع (وهي تتظاهر بالخجل) بأقاويل راني البذيئة عن موضوع ترتيبات النوم الجماعية هذه. إذ تقهقه راني بضحكات مكتومة بينما تطحن كلتاهما التوابل اليومية «تصوري، في تلك العتمة من تراها تعلم إن كان زوجها الحقيقي هو الذي وطئها أم لا؟ ومن تراها تشكو؟ أقول لك يا بيلو. هؤلاء الرجال المتزوجون مع سيداتهم يستمتعون بوقتهم تماماً في هذا الوضع العائلي المشترك فمن يدري؟ قد يلتقي أخوال ببنات أخواتهم، أخوة بزوجات

أخوتهم، وغداً لن يعرف أحد قط من هم الآباء الحقيقيون للأطفال» فتحمر بلقيس خجلاً واستحياء وتطبق على فم راني كفاً معطرة «كفى، عزيزتي، أي ذهن مليء بالقذارات ذهنك هذا؟».

لكن راني صعبة المراس لا تكف «لا، بلقيس، أقول لك، أنت جديدة هنا، أما أنا فقد نشأت وترعرعت في هذا المكان، وأقسم بالشعرات التي على رأس جدتنا برياما أن هذا الترتيب الذي يفترض أنه تم بقصد الحشمة والعفة إلخ... ليس سوى عذر لإقامة أكبر حفلة للجنس الجماعي على وجه الأرض».

ولا تستنتج بلقيس (فكم ستكون وقحة إن تفعل ذلك) أن برياما ذات الجسم الدقيق القزمي تقريباً ليست عمياء وبلا أسنان وحسب بل ليس على رأسها الهرم شعرة واحدة أيضاً فالأم الرئيسة تضع شعراً مستعاراً.

أين نحن الآن، وفي أي زمان؟ ـ في بيت عائلة من العائلات الكبيرة يقع في الحي القديم من المدينة الساحلية التي لا بد لي، ولا خيار لدي، من أن أدعوها كراتشي. لقد جاء رضا حيدر، اليتيم كزوجته (بعد هبوطه مباشرة من طائرة الداكوتا التي حملتهما إلى الغرب) جاء بزوجته إلى خضم أقرباء أمه. وبرياما هي جدته من جهة المرحومة أمه. هناك قال لبلقيس: «عليك أن تقيمي هنا إلى أن تستقر الأمور ويغدو بإمكاننا أن نرى ما علينا وما لنا». وهكذا أقام حيدر في تلك الأيام في مقر القيادة المؤقتة في إحدى الثكنات العسكرية بينما كانت زوجته تستلقي بين قريباتها المدعيات ـ النوم، وهي تعلم أنه ما من رجل سيزورها ليلاً ـ لكن مهلاً، أنا أرى أنني وصلت بقصتي إلى قصر غريب ثان، ربما سيقارنه القارئ بقصر آخر ناءٍ في بلدة «ك» الحدودية، لكن أي تناقض كامل يمكن أن يستخلصه المرء من المقارنة! فهذا القصر ليس معتزلاً مغلقاً لا يدخله أحد ولا يخرج منه أحد بل إنه يتفجر بأفراد العائلة الخارجين الداخلين ومن يمت إليهم من الأقرباء.

«إنهم لا يزالون يعيشون وفق الأسلوب الريفي القديم» حذر رضا

بلقيس قبل أن يودعها في ذلك البيت الذي كان المعتقد السائد فيه أن كون المرأة متزوجة لا يبرئها من الخزي والعار إذا ما عرف أحد بأنها تنام بانتظام مع رجل من الرجال، وهذا ما جعل برياما تخرج، دون أن تناقش ذلك مرة واحدة، بفكرة اللصوص الأربعين، إذ كانت جميع النساء بالطبع، ينكرن حدوث شيء «من ذلك النوع» وهكذا حين كان يحدث الحمل، فإن الجميع كانوا ينظرون إليه وكأنما حدث بسحر ساحر، لكأن جميع الحاملات معصومات عن الخطأ وكأنهن جميعاً عذراوات. ولقد تقبل الجميع فكرة التوالد العذري في هذا المنزل لطرد أفكار معينة أخرى، أفكار جسدية مزعجة.

أما بلقيس، تلك الفتاة ذات الأحلام الملكية، فقد كانت تفكر إنما دون أن تفصح: «يا إلهي! ناس جهلة لا أعرف رأس أبيهم، نماذج متخلفة، بلهاء ريفيون، أجلاف تماماً ومع ذلك علي أن أحشر بينهم». لكنها كانت تقول لرضا بكل كياسة ولطف «ما أروع التقاليد القديمة» وكان رضا يهز رأسه بكل جد موافقاً تماماً فيغوص قلبها إثر ذلك أكثر وأكثر.

ففي إمبراطورية برياما، لم يكن أحد ينظر إلى بلقيس، القادمة الجديدة وأصغر أفراد العائلة، نظرته إلى الملكات ويعاملها معاملة الملكات.

«لنر إن كنا لا ننجب صبياناً» قال رضا لبلقيس، «ففي عائلة أمي، الصبيان كثمار الشجر». وهكذا، ضائعة في غابة الأقرباء الجدد، متجولة في الغاب الدموي لبيت الأخوال رجعت بلقيس إلى قرآن العائلة بحثاً عن الشجرة العائلية هذه فوجدتها هناك في مكانها التقليدي، منقوشة على ظهر الكتاب تحدد نسب العائلة وتفرعاتها. فاكتشفت أنه منذ جيل برياما التي كان لها أختان، أرملتان كلتاهما، إضافة إلى ثلاثة أخوة ـ أحدهم صاحب أراض، والثاني متبطل لا عمل له، والثالث أبله متخلف عقلياً ـ منذ ذلك الجيل المتوازن جنسياً، لم يولد سوى ابنتين في العائلة كلها.

إحدى هاتين البنتين هي أم رضا المتوفاة والأخرى هي راني همايون التي لم تكن تستطيع الانتظار فكلها توق لأن تفر من ذلك البيت الذي لا يتركه أبناؤه قط بل يأتون بزوجاتهم ليكدسوهن فيه حيث يعشن وينجبن مجتمعات كالدجاج. فقد كان لرضا أحد عشر خالاً شرعياً، كما يعتقد أنه كان هناك أيضاً أحد عشر خالاً، على الأقل، أبناء غير شرعيين للخال المتبطل الذي كان زير نساء. وإضافة إلى راني، فقد كان باستطاعته أن يشير إلى ما مجموعه اثنان وثلاثون ابن خال ولدوا على فراش الزوجية. (أما الذرية المفترضة للأخوال غير الشرعيين فلم يرد ذكرها في شجرة القرآن) ومن هذه السلالة الضخمة من الأقرباء، كانت هناك نسبة كبيرة تسكن تحت ظل برياما الصغير إنما كلي القوة، فالمتبطل والأبله لم يتزوجا لكن حين جاء الإقطاعي للإقامة لديها شغلت زوجته أحد الأسرة في جناح حريم برياما. وقد كان هذا الإقطاعي وزوجته موجودين في ذلك الحين الذي أتكلم عنه، كذلك كان هناك ثمانية من الأخوال الأحد عشر الشرعيين مع زوجاتهم وحوالى (أوه! كم تجد بلقيس صعوبة في عدهم) تسعة وعشرين ابن خال إضافة إلى راني همايون. ست وعشرون كنة خال كن ينحشرن في المهجع الحريمي إضافة إلى الأخوات الثلاث اللواتي ينتسبن للجيل الأقدم، وبوجود بلقيس نفسها يصبح العدد أربعين.

رأس بلقيس حيدر يفتل. لقد وجدت نفسها واقعة في شرك لغة تتضمن اسماً محدداً تماماً لكل قريب من أولئك الأقرباء الكثر وكانت هي، القادمة الجديدة المتحيرة، عاجزة عن التخفي خلف نداءات نوعية مثل «خال» «ابن خال»، «خالة» الأمر الذي جعلها باستمرار تقع في جهلها المطبق المهين. وفي خضم ذلك الحشد الصاخب من القريبات والأقرباء لم تكن تتكلم، بل لم تكن تنبس ببنت شفة إلا حين تكون وحيدة مع راني أو رضا، لذا فقد اكتسبت شهرة مثلثة الأسماء: الطفلة البريئة العذبة، ممسحة الباب، والبلهاء وبما أن رضا كان غالباً ما يغيب عدة أيام متوالية، حارماً إياها من الرعاية التي كانت النساء الأخريات

يحظين بها من أزواجهن يومياً، فقد حصلت أيضاً على مكانة الفتاة البائسة المسكينة التي زاد منها فقدانها لحاجبيها (اللذين لم يكن استخدام القلم يفيد في إخفاء حقيقتهما). وبفضل هذا فقد أعطيت أكثر قليلاً من حصتها من الواجبات المنزلية وكذلك أكثر قليلاً من حصتها من لسان برياما السليط. لكنها كانت موضع إعجاب وحسد أيضاً، نظراً لأن رأي العائلة برضا كان حسناً للغاية، وكانت النساء يعترفن بأنه رجل طيب لا يضرب زوجته. هذا التعريف للطيبة أخاف بلقيس التي لم يخطر ببالها يوماً من الأيام أنها قد تتعرض للضرب، فأثارت الموضوع مع راني التي أجابتها «أوه، نعم لكم يضربونهن! طاق! طيق! أحياناً يبهجك أن تشهدي منظراً كهذا لكن على المرء أن يحترس أيضاً، فالرجل الطيب قد يفسد، شأنه شأن اللحم، إن لم تبقيه بارداً».

وبما أنها باتت توصف رسمياً، بالفتاة المسكينة البائسة، فقد كانت بلقيس مضطرة أيضاً لأن تجلس كل مساء عند قدمي برياما، العجوز العمياء الطاعنة في السن وهي تقص من جديد حكاياها العائلية حول أهم القضايا كالطلاقات البارزة، حالات الإفلاس، الجفاف، غش الأصدقاء، موت الأطفال، أمراض الصدر، موت رجال في ريعان شبابهم، خيبات آمال، فقدان جمال، نساء غدون بدينات إلى حد فاحش، صفقات تهريب، هزال عذارى، لعنات، تيفوئيد، قطاع طرق، لواط، عقم، برود جنسي، اغتصاب، ارتفاع أسعار، مقامرين، سكيرين، قتلة، انتحارات وكذلك قضية الله. لقد كان لسرد برياما الرتيب اللطيف لنشرة الأهوال العائلية هذه أثر بالغ في تهدئتهن بشكل من الأشكال وكذلك في جعلهن يشعرن بالأمان وغمسهن في السائل التحنيطي لمحترميتها غير القابلة للارتداد. إذ كان قص القصص يبرهن على أن العائلة قادرة على تجاوز الأهوال وقادرة رغم كل شيء، على الاحتفاظ بشرفها وكرامتها ومبادئها الأخلاقية الثابتة. «لكي تكوني من العائلة» قالت برياما لبلقيس «عليك أن تعرفي شؤوننا وكذلك أن تخبرينا بشؤونك». وهكذا اضطرت بلقيس ذات

مساء (ورضا موجود إلا أنه لم يبذل أية محاولة لحمايتها) اضطرت لأن تحكي للعائلة قصة محمود ـ المرأة: كيف انتهى وكيف تعرت في شوارع دلهي. «لا عليك» أعلنت برياما مطمئنة بلقيس حين كانت هذه ترتعش خجلاً مما باحت به «فقد استطعت، على الأقل، إبقاء منديلك عليك».

بعد ذلك، غالباً ما كانت بلقيس تسمع قصتها وهي تحكي من جديد، كلما اجتمع اثنان أو أكثر من العائلة في زوايا الباحة الحارة المليئة بالعظاءات أو على السطوح في ليالي الصيف المتألقة النجوم أو في غرف رعاية الأطفال لدب الرعب في قلوبهم بل حتى في مخدع راني المثقلة بالجواهر والمخضبة بالحناء صباح يوم زفافها، ذلك أن القصص، ولا سيما قصص كهذه، هي الصمغ الذي يلصق ما بين الأهل، يشد بعضهم إلى البعض الآخر، ضاماً الأجيال بخيوط الأسرار الخفية. في البداية ونتيجة تكرار القصة، طرأت تبديلات عليها لكنها استقرت أخيراً، ولم يعد أحد بعد ذاك، سواء كان راوياً أم مستمعاً، يتحمل أي تغير أو تبديل في النص المصون المقدس، لقد حدث هذا حين علمت بلقيس أنها صارت فرداً من أفراد العائلة. ففي المصادقة على قصتها كان يكمن القبول، القرابة، الدم. ولقد قال رضا لزوجته ذات مرة «إن سرد القصص بالنسبة إلينا شعيرة من شعائر الروابط الدموية».

لكن لم يكن باستطاعة رضا أو بلقيس أن يعلما أن قصتهما ستكون أكثر القصص إثارة وإمتاعاً وأنها، مع الزمن، ستبدأ بالجملة التالية (وهي، بحسب رأي العائلة، تحتوي على جميع الرنات المناسبة لاستهلال قصة كهذه).

«في اليوم نفسه الذي كان فيه الابن الوحيد لرئيس جمهورية المستقبل رضا حيدر سوف يتشكل».

فيهتف المستمعون «أجل. أجل. قصي تلك القصة علينا. إنها الأفضل».

في ذلك الفصل الحار أعلنت الأمتان المنقسمتان حديثاً عن بدء

الأعمال العدوانية على حدود كشمير. وليس باستطاعتك أن تمنع حرباً شمالية في الصيف الحار، فالضباط، الأفراد، الطهاة، كلهم كانوا مستمتعين وهم يتجهون شمالاً نحو برودة التلال، «أوه! هذا من حسن الحظ، أليس كذلك؟»؛ «أيها الفاعل بأخته، هذه السنة، على الأقل، لن أموت من شدة القيظ». فيا لرفاق حسن الحظ على صعيد الطقس! لقد ذهب الجنود إلى الحرب بلا مبالاة الذاهبين لقضاء عطلة وقد حدثت هناك وفيات بالتأكيد، غير أن منظمي الحرب كانوا قد استعدوا لهذا أيضاً. فمن يقتل في سبيل الله يمض مباشرة إلى جنان الخلد العاطرة حيث تحف به إلى الأبد الحوريات العين التي لم يمسسهن أنس ولا جان. «فبأي آلاء ربكما تكذبان؟» يتساءل القرآن الكريم.

معنويات الجيش عالية، لكن معنويات راني منخفضة تماماً، ذلك أنه سيكون من غير الوطنية أن تقيم عرساً وقت الحرب. وهكذا أرجئ موعد الزفاف فخبطت راني بقدمها الأرض. لكن رضا حيدر دخل راضياً مطمئناً إلى سيارته العسكرية المموهة ليفر بنفسه من قيظ المدينة الفوار المجنون، وحينذاك فقط همست زوجته في أذنه بأنها تتوقع حدثاً سعيداً. (وإذا أخذنا ورقة من كتاب برياما نجد فيها ما يلي: «لقد انقلبت إلى عين لا ترى وأذن لا تسمع كما شخرت بصوت عال حين قام رضا حيدر بزيارة مهجع النساء الأربعين وفعل تلك المعجزة).

فهتف رضا هتاف انتصار شديد إلى درجة أن برياما الجالسة على تختتها داخل المنزل اقتنعت وهي رهينة التشوش والعمى والعرق المتصبب أن حفيدها تلقى نبأ انتصار كبير. لذلك أجابت بكل بساطة حين تسرب إليها ذلك الخبر بعد بضعة أسابيع: «الآن عرفت ذلك؟ إنني أعرف منذ شهر (لقد حدث هذا حين لم يكن الناس قد عرفوا بعد، أن جانبهم خاسر دائماً تقريباً، حتى أن الزعماء الوطنيين، الذين هبوا لمواجهة التحدي، أتقنوا ما لا يقل عن ألف طريقة وطريقة لإنقاذ الشرف من عار الهزيمة».

«إنه آت» صرخ رضا بصوت أصاب أذني زوجته بالصمم وجعل الجرار تنقلب من على رؤوس الخادمات وأدخل الرعب في قلوب الإوز. «ماذا قلت لك يا سيدتي؟» قال وهو يسوي قبعته على رأسه برشاقة أكثر. ثم ربت بطن زوجته وضم راحتي يده معاً صانعاً إشارة كإشارة الغوص، ثم هتف «ووو ـ يا امرأة ها هو ذا آتٍ». بعدئذ هدر مبتعداً إلى الشمال واعداً بتحقيق انتصار كبير على شرف ابنه القادم، تاركاً خلفه بلقيس التي غفلت، بعد أن اغتسلت للمرة الأولى بسوائل الأمومة الأنانية، عن رؤية الدموع في عيني زوجها، تلك الدموع التي حولت جيوب عينيه المسودة إلى جيوب مخملية، تلك الدموع التي كانت من المؤشرات الأولى على أن الرجل الذي سيكون في المستقبل رجل الأمة القوي، هو من ذلك النوع الذي يبكي بسهولة كبيرة... أما بينها وبين راني همايون المحبطة فقد أسرت بلقيس بكثير من الفخار «لا تبالي بهذه الحرب الحمقاء. الخبر المهم أنني سأنجب صبياً يتزوج ابنتك التي لم تكون بعد».

وفي ما يلي مقطع من حكاية العائلة حول رضا وبلقيس، نقدمه بصيغته الرسمية إذ سيكون نوعاً من تدنيس المقدسات تبديل أي شيء فيه:

«عندما سمعنا أن رضا، ابننا، قد وجه ضربة هجومية بالغة الجرأة إلى درجة لم تترك خياراً لنا سوى أن ندعوها نصراً، أجفلنا ولم نصدق آذاننا ـ ذلك أن أكثر الآذان حدة في تلك الأيام، كانت تعاني من عيب أساسي هو انعدام مونوفيتها حين تصغي لنشرات الأخبار الإذاعية ـ وفي مناسبات كهذه سمع الجميع أموراً لا يعقل أن تكون صحيحة ـ لكن حينذاك أومأنا برؤوسنا ونحن ندرك أن رجلاً زوجته حبلى بصبي لهو قادر على فعل أي شيء، نعم، الصبي الذي لم يكن قد ولد بعد هو المسؤول عن هذا النصر الوحيد في تاريخ قواتنا المسلحة ـ ذلك النصر الذي كان أساس شهرة رضا بأنه رجل لا يقهر وهي الشهرة التي سرعان

ما غدت كبيرة منيعة إلى درجة لم تستطع معها حتى سنوات الإذلال الطويلة التي رافقت انهياره، أن تقضي عليها. لقد عاد بطلاً، إذ استولى لصالح بلادنا الجديدة المقدسة على وادٍ جبلي عالٍ صعب المنال إلى درجة يتعذر معها حتى على الماعز الصعود والتنفس هناك. جريئاً جسوراً كان، وهماماً صنديداً إلى حد تعين معه على كافة الوطنيين الحقيقيين أن يشهقوا إعجاباً ـ وعليك ألا تصدق الدعاية القائلة إن العدو لم يزعج نفسه في الدفاع عن ذلك المكان ـ فالقتال كان شرساً ضارياً ـ وبعشرين رجلاً فقط استولى على الوادي! تلك العصبة الضئيلة من العمالقة. تلك المجموعة الجريئة كالأبالسة وعلى رأسها ريزور غوتز العجوز ـ فمن تراه يتحداهم؟ ـ من يقف في وجوههم؟

بالنسبة إلى كل الشعوب، ثمة أمكنة تعني الكثير الكثير. «آنسو» كنا نهتف بكبرياء ونبكي، بحب حقيقي للوطن نبكي «تصوروا ـ تصوروا ـ لقد استولى على وادي آنسو!» وتلك حقيقة: الاستيلاء على «وادي الدموع» الخرافي الذي جعلنا نبكي مر البكاء، تماماً كما فعل بنا فاتحه في السنوات اللاحقة. لكن بعد حين من الزمن، اتضح أن لا أحد يعلم ما ينبغي فعله بذلك المكان حيث يتجمد بصاقك قبل أن يصل الأرض، وذلك باستثناء اسكندر حربا بالطبع ـ ذاك الذي مضى، جاف العينين كعادته دائماً، إلى دائرة الهيئات القبلية وابتاع مجموعة التلال بكاملها تقريباً. المجموعة الرخيصة كالزبل، الرخيصة كالثلج، مقابل مبلغ من المال دفعه نقداً ـ وبعد بضع سنوات كانت تنتصب هناك مقرات للتزلج على الجليد ومواقع لهبوط الطائرات ومرابع ليلية على الطراز الأوروبي، الأمر الذي جعل رجال القبائل المحليين يذوبون خجلاً ـ لكن هل رأى رضا، بطلنا العظيم، شيئاً من ذلك القطع الأجنبي؟ (هنا وبصورة دائمة تلطم راوية القصة جبهتها براحة كفها) «كلا، بل كيف يمكن ذلك، وهو بطل الجيش العظيم؟ كيف واسكندر دائماً يصل أولاً. لكن» وهنا تتكلم الراوية بأكثر النبرات الصوتية حذراً وسرية «أن تظل أخيراً هو المهم».

عند هذه النقطة لا بد لي من مقاطعة الحكاية. فالمبارزة بين رضا حيدر (الذي رقي إلى رتبة رائد لحسن بلائه في وادي آنسو) وبين اسكندر حربا، تلك المبارزة التي بدأت في وادي آنسو، إنما لم تنته هناك بالتأكيد، ينبغي أن تنتظر بعض الوقت أيضاً، ذلك أن ريزور غوتز العجوز عاد بعد آنسو إلى المدينة، وحل السلام مرة ثانية، كما جرت الاستعدادات للاحتفال بالزفاف ذاك الذي سيخلق عداوات قاتلة بين الأصهرة: داخل العائلة.

راني همايون مطرقة الرأس ترافب في خاتم كالمرآة عريسها وهو يقترب منها على طبق مذهب تحمله على الأكتاف مجموعة من الأصدقاء. بعدئذ أغمي عليها لثقل ما تحمل من جواهر، فأعادتها إلى الوعي بلقيس الحامل التي أغمي عليها هي نفسها. بعدئذ بدأ كل فرد من أفراد العائلة يلقي بالمال في حجرها، وحينذاك رأت من وراء حجابها الخال الفاسق العجوز وهو يقرص مؤخرات قريبات زوجها الجديد، لعلمه أن شعره الأشيب يمنعهن من أن يشتكين. في النهاية رفعت حجاب المرأة التي بجانبها حين رفعت يد أخرى حجابها هي وتطلعت بنظرة طويلة صارمة إلى وجه إسكندر حربا الذي كانت معظم فتنته الجنسية الطاغية تعود لنعومة وجنتيه الخاليتين من التجاعيد، وجنتي الخمسة والعشرين ربيعاً ـ اللتين كان يتكور حولهما شعر طويل صار لونه كله، ولسبب غريب لا يعرفه أحد، بلون الفضة، كما رق في الأعلى إلى حد كشف معه عن قبة جمجمته الذهبية، كذلك كان يتكور بين الوجنتين، كما اكتشفت، شفتان خفف كثيراً من قسوة انشقاقهما سماكتهما الشهوانية، شفتان أشبه بشفتي حبشي أسود، وهي الفكرة التي خطرت ببالها فمنحتها ارتعاشة آثمة خاصة من ارتعاشات اللذة... في وقت لاحق، ترجلت عن الحصان الأبيض يملأها الرعب ثم سمعت أبواب المخدع الزوجي تطبق خلفها في البيت الآخر الذي كان من العظمة بحيث بدا بيت برياما أشبه بكوخ ريفي ـ بعد ذاك، وهي تستلقي

على فراش الزوجية الذي كان يقف أمامه الرجل الذي حولها لتوها إلى امرأة مكتملة، وشرع يتأمل على مهل جمال جسدها، في تلك اللحظة أبدت، هي راني حربا، ملاحظتها الزوجية الخالصة الأولى، فقد سألته:

من ذلك الرجل البدين الذي خر حصانه تحته حين وصل موكبك؟ أظن أنه ذلك الشخص الفاسد، الدكتور أو ما شابه، ذاك الذي يقول كل من في البلدة أنه ذو تأثير سيئ عليك.

هنا أدار إسكندر حربا ظهره إليها ثم أشعل سيجاراً وسمعته بعد ذلك يقول: «ليكن واضحاً لديك أنك لست من يختار لي أصدقائي».

لكن راني التي طغت عليها نوبة ضحك شديد بتأثير ذكراها لصورة الحصان الشامخ الذي خر أرضاً ثم ساحت قوائمه الأربع في اتجاهات البوصلة الأربعة، تحت وطأة عمر الخيام شاكيل ذي الوزن الهائل وكذلك بتأثير الاسترخاء الناجم عن الحرارة اللطيفة التي تركتها في جسدها مضاجعته لها قبل لحظة ـ راني هذه عاودت الكلام بصورة تهديئية: «كل ما قصدته يا اسكي، هو أن أقول أي نموذج عديم الحياء ينبغي أن يكون هذا الرجل، وهو يحمل ذلك التل من البدانة إلى كل مكان».

عمر الخيام في الثلاثين: أي أكبر بخمس سنوات من اسكندر حربا وبأكثر من عشر سنوات من عروس إسكندر حربا، وها هو ذا يدخل من جديد حكايتنا الصغيرة، شخصية ذات شهرة رفيعة كطبيب، وسمعة سيئة ككائن بشري منحط، غالباً ما يقال عنه إنه، على ما يبدو، خالٍ من الحياء تماماً «شخص لا يعرف معنى كلمة حياء» كما لو أن جزءاً أساسياً من تربيته كان قد أهمل، أو لعله اختار عن عمد إقصاء تلك الكلمة من مفرداته، خشية أن يحطمه وجودها ذو الآثار التفجيرية على ذكرياته الماضية وأفعاله الحاضرة، تحطم آنية فخارية عتيقة. لقد حددت راني حربا هوية عدوها تحديداً صحيحاً، والآن ها هي ذي تتذكر، وهي ترتعش للمرة الأولى بعد المائة منذ الحادثة، تلك اللحظة التي جاء فيها

أحدهم، خلال احتفالات الزفاف، برسالة هاتفية تنبئ إسكندر حربا أن رئيس الوزراء قد اغتيل. وحين وقف اسكندر وطلب إلى الجميع السكوت، ثم نقل محتوى الرسالة إلى الضيوف المذعورين، ساد صمت رهيب طوال ثلاثين ثانية ثم جاء صوت عمر الخيام شاكيل الذي كان باستطاعة الجميع أن يسمعوا معه رذاذ الكحول حين صاح «ابن الزنى ذاك! مات فليمت. ترى لماذا يريد إفساد حفلنا؟».

حينذاك كان كل شيء أصغر مما هو اليوم، فحتى رضا حيدر كان مجرد رائد لكن، شأنه شأن المدينة ذاتها، كان يتوسع، ينمو سريعاً وبطريقة غبية إلى درجة كان كل منهما يغدو أقبح وأقبح كلما نما أكثر وأكثر. لكن علي أن أخبركم كيف كانت الأمور في تلك الأيام، أيام ما بعد التقسيم: سكان المدينة القدماء الذين اعتادوا العيش في أرض أقدم من الزمان ولهذا السبب كانوا يتعرضون شيئاً فشيئاً للحت، بفعل أمواج الماضي العائدة العنيدة، أولئك السكان أصيبوا بنوع من الصدمة، حين قيل لهم إن عليهم أن ينظروا إلى أنفسهم وإلى بلادهم أيضاً، نظرة جديدة.

لكن مخيلاتهم لم تكن مهيأة للقيام بعمل كهذا، وبوسعك أن تفهم ذلك. وهكذا فإن الناس الذين كانوا جدداً فعلاً، من أقرباء بعيدين وأشباه ـ معارف وغرباء تماماً، أولئك الناس الذين تدفقوا من الشرق للإقامة في أرض الله، هم الذين أمسكوا بزمام الأمور. فالجدة التي اتصف بها كل شيء في تلك الأيام كانت تبدو هشة قلقة، وكان كل شيء يبدو وكأنه مزعزع بلا جذور. ففي كل مكان من المدينة (التي هي العاصمة بالطبع) كان البناؤون يغشون الإسمنت الذي يضعونه في أسس البيوت الجديدة. وكان الناس ـ وليس رؤساء الوزراء وحسب ـ يتعرضون لإطلاق الرصاص بين الفينة والفينة، ولحز أعناقهم في الأزقة الضيقة، كما غدا قطاع الطرق ملياردير ية، وكان هذا كله متوقعاً. التاريخ عتوّ صدئ، إنه آلة لم يشغلها أحد منذ آلاف السنين. وبغتة يطلب إليه في ذلك البلد

العمل بأقصى سرعة لتقديم أقصى نتاج. فلا عجب إن وقعت حوادث... حسن، ثمة بضعة أصوات تقول إن كان هذا هو الوطن الذي كرسناه لإلهنا فأي نوع من الآلهة يسمح ـ لكن هذه الأصوات تكتم قبل أن تكمل أسئلتها، تأتيها رفسات على عظام سيقانها من تحت الطاولات ولمصلحتها هي، فما كل ما يعلم يقال. لا، بل الأمر أكثر من ذلك: ثمة أشياء لا يسمح لها بأن تكون حقيقية.

على أي حال، أوضح رضا حيدر، لدى الاستيلاء على آنسو، مزايا تدفق المهاجرين الذي يمنح طاقة جديدة، حسنات وجود كائنات جديدة، لكن سواء كان ذلك بفضل توفر الطاقة أم لا فقد أخفق رضا في الحيلولة بين ابنه البكر وبين أن يختنق حتى الموت وهو لا يزال في رحم أمه.

مرة ثانية (بحسب رأي جدته لأمه) بكى بكاء النساء. وحين تعين عليه أن يبين صلابة شفته العليا، حينها فقط بدأ يعول وقد جحظت عيناه فشاهد الجميع كيف كانت دموعه تنحدر على شاربه الكث وكيف لمعت جيوب عينيه المسودة مرة أخرى مثل برك زيت صغيرة. غير أن زوجته بلقيس، لم تذرف قطرة دمع واحدة.

«إي، رضا» طفقت بلقيس تعزي زوجها بكلمات جمدتها يقينية قنوطها الفظيع «راضو، كفى، كفى، المرة القادمة سيعوضنا الله عنه».

كذلك تدخلت برياما هازئة من الكل بلا استثناء «ريزور غوتز العجوز، إصبع قدمي، أنتم تعلمون أنه اخترع ذلك الاسم لنفسه وأرغم جنده على مناداته به، أمرهم أمراً! خزان ماء مثقوب عتيق، أو ما هو أكثر من ذلك».

كان الحبل السري قد التف حول عنق الجنين فتحول إلى أنشوطة جلاد (تجسدت فيها مسبقاً أنشوطات أخرى)، أجل، تحول إلى كاتمة أنفاس كتلك التي يستخدمها السفاكون وهكذا خرج الجنين إلى العالم مصاباً بداء لا شفاء منه، الموت، وذلك قبل أن تبصر عيناه النور. «من يدري لماذا يفعل الله أموراً كهذه؟» قالت برياما لحفيدها بنبرة لا رحمة

فيها «لكن علينا أن نخضع لإرادة الله، علينا أن نخضع، فلا نبكي بكاء الأطفال أمام النساء».

مع ذلك: كونه وُلد ميتاً كحجر لم يكن سوى علة، تدبر الصبي أمر تجاوزها ببراعة تثير الإعجاب. ففي غضون أشهر، أو ربما أسابيع فقط، كان الطفل قد «برّز» في المدرسة وفي الكلية ثم خاض الحرب بشجاعة الأبطال وتزوج أغنى فتاة في البلدة ثم تبوأ أرفع منصب في الدولة. وقد كان وسيماً، مشهوراً، طاغي التأثير أما كونه جثة ميتة فتلك حقيقة لم تكن، على ما يبدو، أكثر أهمية من عرج خفيف أو عيب صغير في النطق.

بالطبع، أنا أعلم تماماً أنه لم يكن للصبي وجود على أرض الواقع، مات قبل أن يتاح الوقت لتسميته. أما مآثره اللاحقة فقد جرت كلها في خيال رضا وبلقيس المنكوبين، حيث اكتسبت هيئة الواقعية الحقيقية إلى درجة بدأت معها تصر على أن يكون لها كائن بشري يمكنه تنفيذها وتحويلها إلى مآثر حقيقية. وهكذا، تسيطر عليهما الانتصارات الخيالية لابنهما الذي ولد ميتاً، كان رضا يمضي إلى بلقيس في مهجع الحريم ذي العيون العمياء وقد تملكهما كلاهما الشوق والرغبة مقتنعين كل القناعة بأن حملاً ثانياً سيعوض الأول وأن الله سبحانه وتعالى (فرضا، كما نعلم، رجل متدين) موافق على أن يبعث لهما عوضاً رائعاً عن البضاعة التالفة التي تسلماها في الولادة الأولى، وكأنما هو مدير مؤسسة بريدية مشهورة. أما برياما التي كشفت كل شيء، فقد كانت تفرقع لسانها بصوت صاخب على هراء التقمص هذا، مدركة أنه ليس سوى فكرة وردت، كأية جرثومة، من بلاد عبدة الأوثان تلك التي رحلوا عنها، لكن الغريب أنها لم تقس عليهم قط، لإدراكها أن العقل البشري يفعل المستحيل للتغلب على أحزانه. وهكذا، فقد حملت قسطها من المسؤولية عما حدث في ما بعد، وما كانت لتهمل واجبها لأنه مؤلم وحسب بل كان عليها أن تطرد فكرة التقمص تلك في أي وقت تستطيع

ذلك، لكن الفكرة مدت جذورها بسرعة بالغة، وبعد ذاك كان الأوان قد فات، إذ لم تعد القضية مطروحة للنقاش قط.

بعد سنوات كثيرة، حين وقف اسكندر حربا في قاعة المحكمة التي أجريت فيها محاكمته طلباً لرأسه، ووجهه رمادي كبدلته المستوردة التي خيطت له حين كان أوزن بمرتين، حينها سخر من رضا معيراً إياه بذكرى هاجس التقمص ذاك. فقد قال بصوت لم يغير السجن من نبرته الرزينة الرصينة: «هذا القائد الذي يصلي ست مرات في اليوم وفي المناسبات والأعياد التي ينقلها التلفزيون، أتذكر تماماً حين اضطررت لأن أذكره بأن فكرة التقمص نوع من الهرطقة والكفر. ولم يكن يسمعني بالطبع. فمنذ ذلك الحين كان رضا حيدر قد اعتاد عدم الاستماع لنصائح الأصدقاء».
وخارج القاعة سرت همهمات بين الأفراد الشجعان من حاشية حربا المتفككة مفادها أن الجنرال حيدر نشأ وترعرع في دولة معادية تقع خلف الحدود، وهناك أدلة على أن جدته لأبيه هندية، لذا فإن أفكار الكفر والوثنية قد تسربت إلى دمه منذ زمن طويل.

صحيح أن اسكندر وراني حاولا مناقشة المسألة مع آل حيدر أولاء، إلا أن العناد جعل شفتي بلقيس تطبقان وتنشدان كطبل لا منفس فيه. في تلك الأثناء، كانت راني تتوقع مولوداً، وكانت قد أبقت الأمر سراً، أما بلقيس فكانت قد وضعت لنفسها مبدأ لا تحيد عنه وهو ألا تفعل ما تنصحها به قريباتها من حريم المهجع، وهو السبب الذي جعلها، هي بلقيس حيدر، تكتشف أنه رغم كل ممارساتها الليلية يصعب كثيراً أن تحبل.

وحين وضعت راني بنتاً، فإن إخفاقها في إنجاب صبي قدم لبلقيس قدراً من العزاء، قدراً ليس كبيراً. ذلك أن حلماً آخر من أحلامها هوى أرضاً، إنه تصورها للزواج الذي كان سيربط بين بكريهما هي وراني. إذ إن الوليد الجديد، الآنسة آرجماند حربا، ستكون أكبر سناً من أي ذكر سيولد لدى آل حيدر، وبذلك فإن زواجاً كهذا لم يعد موضع بحث.

لكن الحقيقة، أن راني نفذت ما عليها من الصفقة التي اتفقتا عليها، وهذه الحقيقة هي التي زادت من كآبة بلقيس العميقة الغور كالبئر.

وهكذا، تحت سقف برياما بدأت السخريات والتعليقات الخفيفة تتناول هذه المرأة غير الطبيعية التي لا تنجب سوى الأطفال الموتى، فالعائلة تفخر بخصوبة نسائها. وذات ليلة، أوت بلقيس إلى فراشها وقد غسلت الحاجبين المرسومين عن وجهها واستعادت شكل الأرنب المجفل ثم راحت تحدق، والغيرة تملأ قلبها، إلى الفراش الخاوي الذي كانت تشغله ذات يوم راني حربا، حينذاك جاءها من الجانب الآخر صوت تلك القريبة الشريرة التي تدعى دنيازاد وهو يفح بإهانات حالكة كالليل: «يا مدام، عار عملك ليس عارك وحدك، ترى ألا تعلمين أنه عار مشترك؟ فعار أي منا يحط بكلكله علينا جميعاً ويكسر ظهورنا. فتأملي ما أنت فاعلة بأهل زوجك، كيف تكافئين الناس الذين أخذوك بأحضانهم حين كنت معدومة هاربة من أرض الكفرة تلك».

كانت برياما قد أطفأت الأنوار ـ فالمفتاح الرئيسي معلق بحبل فوق رأسها ـ وكان شخيرها يطغى على كل شيء في حجرة الحريم المظلمة. لكن بلقيس لم تستطع البقاء ساكنة في فراشها، بل شبت كالفرس ثم ألقت بنفسها على دنيازاد التي كانت تنتظرها بكل لهفة وشوق، بعدئذ هوتا دون صوت على الأرض، وقد اشتبكت يدا كل منهما بشعر الآخر، واندفعت ركبة كل منهما إلى بطن الأخرى، دون صوت كانت المعركة تجري، فسلطة الجدة شديدة، لكن الخبر انتشر عبر الغرفة تحمله أمواج العتمة، فانتصبت النساء في أسرتهن يراقبن. وحين جاء الرجال، تحولوا هم أيضاً إلى متفرجين صم بكم لتلك المعركة الضارية التي فقدت خلالها دنيازاد عدة حفنات من شعرها اقتلعتها بلقيس من رأسها وتحت إبطيها أما هذه فقد كُسرت سنٌّ من أسنانها تحت قبضة غريمتها وقد استمرت المعركة إلى أن دخل رضا حيدر المهجع ففصل بينهما. في تلك اللحظة كفت برياما عن الشخير وأشعلت النور، فانطلقت مع

اشتعاله كل الضجة وصيحات الهتاف والصراخ التي كانت الظلمة قد حبستها. وبينما اندفعت النسوة لإسناد الجدة العمياء الصلعاء بالحشيات. . كانت بلقيس ترفض، وهي ترتجف بين ذراعي زوجها، أن تظل لحظة واحدة تحت سقف واحد مع من يفترين عليها. فقد تلفعت ببقايا مزق حلمها الطفولي الملكي قائلة: «زوجي، أنت تعلم أن نشأتي أرفع من نشأة هؤلاء النسوة، وإن كنت لا أرزق بأطفال فما ذلك إلا لأنني لا أستطيع أن أحمل بهم هنا، في حديقة الحيوانات هذه، مثلما يفعلن هن، فعل الحيوانات».

«أجل. أجل. نحن نعلم أنك تظنين نفسك خيراً منا»، ردت برياما وهي تغوص بين الحشيات والمساند، مصدرة صوت هسيس كصوت بالون يفرغ هواءه: «إذاً، خذها من هنا، رضا يا ولدي». ثم تابعت بصوتها الأشبه بطنين دبور: «وأنت أيتها السيدة، انصرفي عنا فعندما ترحلين عن هذا البيت، سيرحل العار معك، وسوف تنعم عزيزتنا دنيا التي هاجمتها لأنها نطقت بالحق، بسلام أكثر. هيا يا نازحة! احزمي متاعك بسرعة وامضي حيث تشائين».

أنا، أيضاً، أعلم شيئاً ما عن قضية النزوح هذه. فأنا نازح من بلد ما (هي الهند) وقادم جديد إلى بلدين (إنكلترا التي أقيم فيها وباكستان التي انتقل إليها أهلي رغماً عني) ولدي نظرية تقول إن النفور الذي نثيره، نحن النازحين أو المهاجرين، له كل الشأن بتغلبنا على قوة الجاذبية. لقد قمنا بالعمل الذي كان يحلم به قديماً كل الناس، فعلنا ما كانوا يحسدون عليه الطيور. لقد طرنا.

إنني أشبّه الجاذبية بالانتماء. فكلتا الظاهرتين موجودة يلحظها كل ذي عين: قدماي تقفان على الأرض، وأنا لم أغضب يوماً كما غضبت حين قال لي والدي إنه باع منزل بومباي الذي قضيت فيه طفولتي. لكن كلتا الظاهرتين لا يمكن فهمهما، فنحن نعرف قوة الجاذبية لكن لا نعرف منشأها، ولكي نفسر لماذا نرتبط بمسقط رأسنا نزعم أننا شجر كما نتكلم

عن الجذور. انظر تحت قدميك فإنك لن ترى ناميات كثيرة العقد تشق طريقها عبر الأخمصين. لذلك أفكر أحياناً أن الجذور أسطورة من أساطير القدماء صممت بهدف واحد هو إبقاؤنا في أماكننا.

أما الأساطير المضادة للجاذبية والانتماء فتحمل الاسم نفسه: الطيران، الهجرة، أو الانتقال بالطائرة مثلاً من مكان إلى آخر. أن نطير وأن نفر: كلاهما من سبل البحث عن الحرية... غريب أمر هذه الجاذبية، ففي حين تظل عصية على الفهم يبدو أن الجميع يجدون سهلاً عليهم أن يفهموا القوة النظرية المضادة لها: الجاذبية ـ المضادة. بيد أن اللاانتماء يرفضه العلم الحديث.... لنفترض أن إحدى الشركات التي تصنع العقاقير كشركة سياجيجي مثلاً أو بفايزر أو روش أو حتى نازا قد أنتجت قرص دواء مضاد للجاذبية فإن الخطوط الجوية العالمية ستذهب شذر مذر بين عشية وضحاها بالطبع. إذ إن بالمي هذه الأقراص سيتمكنون من الإفلات من قوة جاذبية الأرض والسباحة في الجو إلى أن يغوصوا في طيات السحاب. وقد يكون من الضروري حينذاك تصميم ملابس طيران خاصة تقي من البلل. وحين تزول آثار القرص يمكن للمرء ببساطة أن يهبط برفق على الأرض مرة ثانية، إنما في مكان آخر وذلك بسبب سرعات الريح السائدة ودوران الكوكب الأرضي. انتقال الأشخاص هذا بين دولة وأخرى سيغدو ممكناً بصنع أقراص ذات مفعول مختلف يتناسب مع طول الرحلة. كما سيتعين صنع نوع من أدوات التوجيه التعزيزية، ربما على شكل رزمة تحزم على الظهر. والإنتاج الضخم لهذه الأدوات سيجعلها في متناول كل بيت. إنك ترى الصلة التي تربط بين الجاذبية والجذور. فأقراص كهذه ستجعلنا جميعاً مهاجرين. إذ سنطير إلى الأعلى وسنستخدم أدواتنا التعزيزية لتوجيه أنفسنا الوجهة اللازمة ونترك البقية للكوكب الذي يدور.

عندما يرحل الأفراد عن وطنهم الأم يسمّون مهاجرين. وعندما تفعل الأمم الشيء ذاته (بنغلادش مثلاً) يسمّى عملها انفصالاً. فما هي خير

صفة للأفراد المهاجرين والأمم المنفصلة؟ أظن أنها فرط الأمل، انظر إلى أعين أناس كهؤلاء في الصور القديمة تجد الأمل يشع براقاً عبر ظلال الصورة الباهتة. لكن ما تراها الصفة الأسوأ؟ إنها خواء اليدين من المتاع. وإنني أتكلم هنا عن الحقائب غير المرئية. تلك الحقاب الكرتونية التي ربما يحوي عدد كبير منها بضعة تذكارات فقدت معناها: فقد انفصلنا عما هو أكثر من الأرض. لقد انفصلنا، ونحن نطير عالياً، عن التاريخ، عن الذاكرة، عن الزمان.

إنني قد أكون هذا الشخص وقد تكون الباكستان تلك البلاد. فمن المعروف جيداً أن مصطلح الباكستان المركب من الحروف الأولى لكلمات أخرى، مصطلح فكرت به لأول مرة في إنكلترا فئة من المثقفين المسلمين، بحيث يرمز الحرف ب للبنجابيين والحرف أ للأفغانيين والكاف للكشميريين والسين للسند والمقطع «تان» لإقليم بلوشستان (وليس هنا ذكر للجناح الشرقي كما ترى، فبنغلادش لم يرمز لها في ذلك الاسم الشامل، لذا أخذت أخيراً، بالتلميح ذاك وانفصلت عن أولئك الانفصاليين. فتخيل ما يصنعه بالناس انفصال مزدوج كهذا!) إذاً ولدت تلك الكلمة في المنفى ثم رحلت شرقاً، لتنقل إلى كل مكان وتفسر ومن ثم تفرض نفسها على التاريخ: مهاجرة عائدة تستقر في أرض مقسمة وتشكل رق ماضٍ يمسح ويكتب، رقاً يحجب ما كتب تحت الطبقة الظاهرة، فمن أجل إقامة باكستان كان لا بد من حجب تاريخ الهند، من إنكار أن القرون الزمنية الهندية تقبع تماماً تحت سطح الزمان المعياري الباكستاني. لقد كتب الماضي من جديد، ولا شيء آخر.

من الذي أمر بكتابة التاريخ من جديد؟ ـ **المهاجرون**، وبأية لغة؟ ـ بالأُردية والإنكليزية وكلتاهما لغة مستوردة، رغم أن إحداهما قطعت مسافة أقل من الأخرى. لكن يمكننا أن نرى التاريخ اللاحق للباكستان على أنه مبارزة بين طبقتين من الزمان، العالم المحجوب يشق طريقه عبر ما تم فرضه بالقوة. ففي كل فنان رغبة حقيقية في أن يفرض رؤيته على

العالم. والباكستان، ذلك الرق المتفتت المتقشر، الباكستان تلك التي تخوض الحرب المرة تلو المرة مع نفسها، يمكن وصفها بأنها فشل العقول الحالمة. لعل الصباغ الذي استخدم لم يكن صباغاً مناسباً، لعله كان صباغاً غير دائم كصباغ ليوناردو، أو لعل تصور المكان جرى على نحو غير ملائم، فجاءت الصورة ملأى بعناصر متناقضة لا يمكن الجمع بينها. ساري مهاجر يكشف عن وسط الجذع مقابل لباس السند الوطني المتزمت، لغة أُردية مقابل لغة بنجابية، حاضر مقابل ماضٍ: إنها معجزة خطأ، جاءت في غير مكانها.

اما بالنسبة إلي: فأنا أيضاً، شأني شأن كل مهاجر، رجل خيالي، إنني أصنع بلداناً وهمية وأحاول أن أفرضها على البلدان الموجودة. وأنا، أيضاً، أواجه مشكلة التاريخ. ما ينبغي الاحتفاظ به وما ينبغي التخلص منه، كيف أمسك بذكريات تصر على أن تتلاشى وكيف أتعامل مع التغيير. وإذا ما عدنا إلى فكرة «الجذور»، فعلي أن أقول إنني لم أعمل على تخليص نفسي منها كلية. إنني في بعض الأحيان، أرى نفسي شجرة ضخمة مثل شجرة إيجدرازيل الرمادية، شجرة العالم الأسطورية تلك التي حكت عنها أساطير الشمال الاسكندينافي. فلشجرة إيجدرازيل الرمادية تلك ثلاثة جذور. الأول يمتد بفضل فالهالا إلى بحيرة المعرفة حيث يأتي أودين لكي يشرب. والثاني تستهلكه شيئاً فشيئاً النار الدائمة الاشتعال، نار مسبلهايم، أو عالم سورتر إله اللهب. أما الثالث فيقضمه قضماً تدريجياً وحش مخيف يدعى نيدهوغ. وحين يكمل الوحش والنار القضاء على الجذرين تسقط شجرة الرماد وتحل الظلمة. فشفق الآلهة: حلم شجرة بالموت.

إنني أكرر، ليس للبلاد ـ الرق التي أتكلم عنها في قصتي هذه، اسم خاص بها. لقد كتب الكاتب التشيكي المنفي كونديرا ذات يوم يقول: الاسم يعني استمرارية الارتباط بالماضي وما شعب بلا ماض سوى شعب بلا اسم: إلا أنني أتعامل مع ماضٍ يرفض الانكتام والكبت، ماضٍ

في صراع يومي مع الحاضر، لذا ربما كانت قسوة لا مبرر لها من جانبي أن أرفض إعطاء اسم للبلد الخرافي الذي أتكلم عنه.

هناك قصة مشكوك في صحتها تحكي أن نابير، بعد أن شن حملة ناجحة على ما يشكل الآن جنوب الباكستان، أرسل إلى إنكلترا رسالة آثمة تتألف من كلمة واحدة هي «بيكافي» أي سيطرت على السند. وإنه ليغريني أن اسمي باكستاني ذات المظهر المزاجي باسم هذه التورية المزدوجة اللغة (والخيالية أيضاً لأنها لم تلفظ على أرض الواقع البتة) فلنسمّها بيكافيستان.

كان ذلك في اليوم الذي كان فيه الابن الوحيد لجنرال المستقبل رضا حيدر سيتقمص من جديد.

إذ كانت بلقيس قد انتقلت من مسكن برياما وحضورها المانع للحمل، إلى مسكن بسيط مخصص للضباط المتزوجين وزوجاتهم في مجمع القاعدة العسكرية ولم يمض طويل وقت على فرارها حتى حملت مثلما تنبأت تماماً، فهتفت منتصرة «ماذا قلت لك؟ رضا، إنه عائد، الملاك الصغير عائد، فقط انتظر وسترى». وقد عزت بلقيس خصوبتها المكتشفة حديثاً إلى حقيقة واحدة هي أنها باتت قادرة أخيراً على إطلاق الأصوات وصنع الضجة أثناء ممارسة الحب «بحيث يمكن لذلك الملاك الصغير الذي ينتظر أن يولد، سماع ما يجري والاستجابة طبقاً لذلك». قالت لزوجها بشغف شديد فمنعته سعادة الملاحظة من أن يجيب بأن الملائكة ليسوا وحدهم من يسمعون تأوهات حبها وتنهداته، بل أيضاً كل ضابط متزوج في القاعدة بما في ذلك رئيسه المباشر والضباط الأحدث منه، الأمر الذي اضطره لأن يسكت على مقدار لا بأس به من المزاح يصبه على رأسه كل من حوله.

باشرت بلقيس العمل ـ فالولادة الجديدة وشيكة الحدوث ـ ورضا حيدر ينتظر متصلب الجذع وهو يجلس في ردهة من ردهات جناح التوليد في المستشفى العسكري. بعد ثماني ساعات من صياح بلقيس

وزعيقها وتفجر الأوعية الدموية في وجنتيها واستعمال الكلمات البذيئة التي لا يسمح للسيدات باستعمالها إلا وقت المخاض، ظهر الجنين أخيراً! لقد اجترحتها بلقيس، معجزة الحياة! وبذلك ولدت ابنة رضا حيدر ـ في الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة من بعد الظهر، ولدت وملؤها الحيوية والنشاط، ترفس برجليها وتخبط بيديها، صورة معاكسة تماماً لأخيها الكبير الذي ولد ميتاً.

لكن حين سلمت الطفلة المقمطة لبلقيس، لم تستطع تلك السيدة منع نفسها من الصراخ بصوت واهٍ: «أهذا كل شيء يا إلهي؟ أبعد ذلك الهياط والمياط كله تخرج هذه الفأرة لا غير؟».

فبطلة قصتنا، المعجزة الخطأ، صفية زنوبيا، ولدت أصغر من أي جنين رآه ناظران (وقد ظلت صغيرة عندما كبرت، وارثة بذلك صفات جدتها الكبرى، تلك التي كان اسمها، برياما، وعلى الدوام نوعاً من النكتة في العائلة).

بعد ذاك أعادت بلقيس تلك الصغيرة إلى حد مدهش إلى القابلة التي حملتها خارجة بها إلى الأب القلق المتلهف. «ابنة، يا سيدي الرائد، إنها وضاءة كنور النهار، ألا ترى ذلك؟». لكن من غرفة الولادات، كان الصمت قد فاض، انتشر من مسام الوالدة المستنزفة إلى ردهة الانتظار، فصمت رضا أيضاً. إنه الصمت: لغة الهزيمة على مر الزمان.

هزيمة؟ لكنه ريزور غوتز العجوز، قاهر جبال الجليد، هازم المروج المكسوة بالصقيع وأغنام الجبال ذات الصوف الجليدي! هل انسحق رجل المستقبل، رجل ـ الأمة القوي بهذه السهولة؟ لا، مطلقاً. هل أسلمته قنبلة القابلة إلى الاستسلام بلا قيد أو شرط؟ بالتأكيد لا. فقد شرع رضا يجادل وشرعت الكلمات تندفع قوية جارفة كدبابات منقضة، فارتجت جدران المستشفى وتراجعت، وأجفلت الخيول ملقية بفرسانها في ميادين البولو القريبة.

«غالباً ما تقع أخطاء» صاح رضا، «أجل من المألوف وقوع لخبطات

فظيعة! أجل، وحين ولد ابن خالتي الخامس. . . لكن بالنسبة إلي ليس هنالك «لكن» يا امرأة. إنني أطلب رؤية مدير المستشفى». وبصوت أعلى من ذلك صاح: «الأطفال لا يأتون إلى هذا العالم أنقياء خالصين!». ثم راحت تنفجر الكلمات من فمه كأنها القذائف: «أعضاء تناسل! ممكن! لتكن! محجوبة!».

كان رضا حيدر يهدر ثائراً فتجمدت القابلة وهي تحييه متخذة وضع الاستعداد؛ فالمستشفى عسكري، كما تعلم، ورضا أعلى رتبة منها، إذاً هي لا تملك سوى كلمة نعم، فما يقوله الرائد رضا صحيح بالتأكيد. بعدئذ ولت الأدبار. فوثب الأمل إلى عيني الأب الغائمتين وكذلك إلى بؤبؤي بلقيس المتوسعين، بلقيس التي سمعت الضجة بالطبع. حينذاك جاء دور الطفلة التي كان جوهرها ذاته موضع شك، جاء دورها في الصمت والتأمل.

بعد ذاك دخل مدير المستشفى (الطبيب العميد) إلى الغرفة المهتزة الجدران التي كان رئيس المستقبل فيها يحاول أن يؤثر في علم الحياة بعمل من أعمال الإرادة الفائقة لقدرة البشر. فقتلت كلماته الثقيلة الحاسمة، هو الأرفع رتبة من رضا، كل أمل لديه. لقد مات الابن الجهيض مرة ثانية، بل حتى شبحه طردته بعيداً كلمات الطبيب القاتلة: «ليس هناك احتمال للخطأ. الرجاء أن تلاحظ أن الطفلة غسلت قبل القيام بتقميطها. إذاً لا خلاف على جنسها، فاسمح لي أن أقدم لك تهاني». لكن أي أب يسمح بأن يعدم ابنه الذي حملت به أمه مرتين، بهذه الطريقة ودون قتال؟ وهكذا شرع رضا يمزق اللفائف وحين وصل إلى الطفلة التي في داخلها انقض على المنطقة الوسطى منها ثم صاح «انظر! إنني أسألك يا سيدي ما هذا؟»، «إننا نرى هناك التشكل المتوقع لعضو الأنثى، النتوء المألوف ما بعد الولادة لدى الأنثى. . .» «نتوء!» صرخ رضا يائساً «أليس هذا يا دكتور نتوء ذكورة لا شك فيه؟».

لكن العميد كان قد غادر الردهة.

«عند ذاك» كما تقول الحكاية التي تناقلتها العائلة، «عندما اضطر والداها للاعتراف بأنها ابنتهما، وللخضوع، كما يقضي بذلك دينهما، لإرادة الله، في تلك اللحظة بالذات شرع الكائن الناعس الجديد كل الجدة الذي كانت تحمله ذراعا رضا، شرع ـ وهذه حقيقة لا مراء فيها ـ بالاحمرار خجلاً.

آه، يا لصفية زنوبيا المحمرة كالياقوت!

لعل الحادثة المذكورة آنفاً قد تعرضت للتحسينات والتعديلات خلال تناقلها الشفوي من شخص إلى آخر لكنني لن أكون الشخص الذي يضع موضع الشك صحة تراث شفاهي. إنهم يقولون إن الطفلة احمرت خجلاً عند ولادتها.

إذاً، حتى حينذاك، كان من السهل كثيراً أن تشعر بالخجل، أن تحس بالعار.

الفصل السادس

قضايا شرف

هناك قول مأثور: الضفدع الذي ينق عند حافة بئر سيخيفه كثيراً الضفدع العملاق حين يدوي صوته بالرد عليه.

حين اكتشفت حقول الغاز الكبيرة في وادي نيدل في منطقة «ك» أصبح السلوك غير الوطني لرجال القبائل المحليين المتطرفين موضع اهتمام الجميع، خاصة بعد أن هاجم هؤلاء مهندسي الحفر وعلماء الغاز والتنقيب الذين أرسلوا إلى نيدل بغية وضع الخطط من أجل حفر آبار البوتان، وقد قام رجال القبائل باغتصاب كل فرد من أفراد الفريق بمعدل ثماني عشرة مرة، وستين في المائة من المرات قبل أن يقطعوا أعناق الفريق بكامله، الأمر الذي جعل رئيس الوزراء علاء الدين غيشكي يطلب مساعدة عسكرية. ولم يكن آمر القوات التي نيطت بها مسؤولية حماية موارد الغاز التي لا تقدر بثمن سوى رضا حيدر، بطل حملة آنسو الذي كان قد غدا عقيداً مكتملاً، «ومن تراه أفضل من كاسب جوهرة كوادي آنسو للدفاع عن واد جبلي بالغ القيمة؟» هذا ما طرحته جريدة الوطن اليومية الأولى، جريدة «الحرب» وبصورة بلاغية مثيرة، فقدم ريزور غونز العجوز بنفسه، وهو على سلم القطار المكيف هواؤه حديثاً والمتجه إلى الغرب، البيان التالي لمحرر جريدة «الحرب»: «قطاع الطرق هؤلاء ليسوا سوى ضفادع في بئر، يا سيدي المحرر الطيب، وبإذن الله، سأكون ذلك العملاق الذي يبعث الرعب في قلوبهم».

في ذلك الحين كانت ابنته صفية زنوبيا في الشهر الخامس عشر من عمرها. وقد صحبت العقيد حيدر، هي وأمها بلقيس، في رحلة إلى «الجبال المستحيلة». وما إن انطلق القطار من محطته حتى بدأت عبارة «كفرة يعربدون» (وهي عبارة رضا المألوفة) تتسرب إلى مقصورتهم. سأل رضا عن هوية جيرانه فكان الجواب «أشخاص كبار جداً يا سيدي. مديرو شركات سينمائية ونجمات شهيرات» فهز رضا كتفيه. «إذاً علينا أن نتحمل الصخب، فأنا لن أتنازل وأدخل شجاراً مع ممثلي سينما». حين سمعت بلقيس ذلك زمت شفتيها وعلى محياها ابتسامة جامدة بينما كانت عيناها تحدقان بشراسة إلى مرآة الجدار الذي كان يفصلها عن إمبراطورية ماضيها.

كانت العربة من طراز جديد، تنفتح على الممر فيها أبواب المقصورات جميعاً، وبعد بضع ساعات حين كانت بلقيس عائدة من لدن سيدات الشاشة، انحنى شاب مكتنز الشفتين كاسكندر حربا، خارجاً بجسمه من مقصورة السينمائيين مطلقاً صوت قبلة من بعيد هامساً لها بكلمات تحبب مفعمة بالويسكي «أوه! أقسم إنك لتصونين نفسك عن كل غريب، الإنتاج الوطني هو الأفضل، لا شك في ذلك». وكان باستطاعة بلقيس أن ترى عينيه تعصران نهديها، لكن لسبب لا تعرفه لم تذكر تلك الإهانة التي لحقت بشرفها حين عادت إلى زوجها.

كذلك تلقى شرف رضا حيدر إهانة أخرى في تلك الرحلة، أو لنكن أكثر دقة، عند نهاية تلك الرحلة. ذلك أنهم حين وصلوا محطة كانت في بلدة «ك» وجدوا حشداً من الناس أشبه بالجراد في انتظارهم وهم ينشدون الأغاني ويلقون الأزاهير ويلوحون بالرايات وأعلام الترحيب ورغم أن بلقيس رأت رضا وهو يفتل شاربيه فإن شفتيها المبتسمتين لم تنبسا ببنت شفة ولم تنبهاه إلى الحقيقة الواضحة وهي أن الاستقبال الحافل هذا لم يكن للعقيد المبجل بل للناس المبتذلين الذين كانوا في المقصورة المجاورة. نزل حيدر من القطار باسطاً ذراعيه مستهلاً خطبة عصماء

حول ضمان السلامة والأمن لحقول الغاز ذات الأهمية البالغة، لكن سرعان ما كادت تقلبه أرضاً أقدام المصورين والمعجبين المندفعين نحو الممثلات الوقورات (فلم يلحظ، هو الذي اختل توازنه، ذلك الشاب ذا الشفتين المكتنزتين وهو يلوح بأصابعه مودعاً بلقيسه). غير أن الأذى الذي لحق بعروسه هنا يفسر جانباً كبيراً مما حدث بعد ذلك، إذ بدأ، بسلوك الذليل غير المنطقي، يرجع إلى زوجته التي كانت تشترك مع خصومه الألداء بالخلفية السينمائية، تلك الخلفية التي انصب عليها مرة ثانية سخطه الشديد لعدم مجيء الابن الذي كان ينتظره، ومن خلال الجسر الذي أقيم حديثاً بين زوجته ونجمات السينما شرع رضا بصورة لا شعورية يلقي تبعات عدم إنجابه على رواد السينما التافهين في بلدة «ك».

تشبه مشكلات الزواج مياه الأمطار الخماسينية التي تتجمع على سطح بيتك. إنك لا تعرف بوجودها هناك، لكنها تزداد وطأة وثقلاً يوماً بعد يوم إلى أن يأتي اليوم الذي ينهار فيه السقف كله على رأسك. . .

وهكذا ترك آل حيدر سندباد منغال، الفتى ذا شفتي ـ التقبيل، أصغر أبناء رئيس المؤسسة السينمائية الذي جاء ليتولى مسؤولية النشاط السينمائي في ذلك الإقليم، وهو يطلق وعوداً بإجراء تغييرات أسبوعية في عروض السينما وإنشاء دور عرض جديدة واستقدام نجوم السينما والغناء على نحو منتظم، ثم لملموا أنفسهم شاقين طريقهم عبر الحشد المزدحم المستمتع بالاستماع للوعود السينمائية تلك، خارجين من المحطة.

وفي فندق فلاشمان، قادهم النادل إلى جناح العرسان الذي كانت تطغى عليه رائحة النفتالين الشديدة بسبب عتال موهن القوى طفق يتبع آخر القردة المدربة، ذاك الذي كان يرتدي بزة خدم الفنادق الموحدة، والذي لم يستطع، لشدة يأسه، أن يقاوم نفسه، فمد يده لامساً ذراع رضا حيدر ثم سأله «سيدي العظيم، رجاء، هل تعلم متى سيعود السادة الإنكليز؟».

وراني حربا؟

حيثما تتطلع تجد وجوهاً ساخرة، حيثما توجه أذنيها تسمع أصواتاً تستخدم كلمات بذيئة إلى درجة تصبغ أذنيها الصاغيتين بألوان قوس قزح. ذات صباح، وبعد وصولها مباشرة إلى بيتها الجديد تستيقظ لتجد فتاتين فلاحتين تنقبان في أدراج ملابسها، مخرجتين ورافعتين بأيديهما ملابسها الداخلية المستوردة المخرمة، متفحصتين أحمر شفاهها الياقوتي: «ما الذي تفعلانه؟» ـ وتلتفت الفتاتان لتحدقا إليها دون حياء أو خجل وهما لا تزالان ممسكتين بالملابس وأدوات التجميل والأمشاط «أوه، زوجة اسكي، لا داعي للانزعاج، فقد قالت لنا مربية اسكي أن نتفرج»، «لقد لمعنا أرضية المنزل، لذلك سمحت لنا أن نلقي نظرة» «أوهي، زوجة اسكي، انظري إلى تلك الأرض التي نظفناها لك ولمعناها! إنها أكثر لمعاناً من مؤخرة سعدان، أقسم على ذلك» ـ فتنهض راني مستندة إلى مرفقيها، ثم تتكلم بصوت يغالب النعاس «اخرجا، ألا تخجلان من وجودكما هنا؟ اذهبا، اغربا عن وجهي قبل أن»، وتقوم الفتاتان بحركة تهوية لنفسيهما وكأن ناراً تتوهج في الغرفة «أوه يا الله! الجو شديد الحر»، «هاي زوجة اسكي. غطسي لسانك في الماء!» فتصرخ راني «لا تكونا وق. . . .» لكنهما تقاطعانها «لا بأس عليك يا سيدتي، في هذا البيت لا تزال مربية اسكي هي صاحبة الأمر والنهي» ثم تتحرك الفتاتان، وهما تهزان ردفيهما المكتنزين، نحو الباب، وهناك تقفان من أجل اللقطة الوداعية «يا للعنة!! اسكي يقدم لزوجته ملابس رائعة. إنها أروع الملابس، بلا جدال»؛ «هذا صحيح، لكن حين يرقص الطاووس في الدغل لا أحد يرى ذيله»، فتصرخ راني: «قولا لمربية اسكي ـ قولا للمربية، أريد أن أرى ابنتي». بيد أن الفتاتين تغلقان الباب ثم تهتف إحداهما عبره «ولم كل هذا الترفع والجبروت؟ الطفلة ستجيء حين تكون جاهزة». بعد ذلك لا تعود راني حربا لذرف الدموع، كما لا تعود بعد ذلك لمخاطبة مرآتها بقولها «لا يمكن لهذا أن يحدث»، أو لتصعيد آهات حنين بالغ لمهجع اللصوص الأربعين. فهي، زائد ابنتها

ناقص زوجها، قد ألقي بها في هذا المكان النائي الواقع في آخر العالم: موهينجو، إقطاعة آل حربا في السند تلك التي تمتد من الأفق إلى الأفق والتي تعاني من نقص دائم في المياه ويأهلها متوحشون ساخرون هازئون «فرانكيشتاينات» تماماً ولم تعد تتصور أن إسكندر يجهل كيف يعاملونها هنا، «إنه يعلم» تخاطب راني مرآتها وهي تعني زوجها الحبيب، عريسها الذي تقدم لها على طبق من ذهب «المرأة، عادة، تصبح أكثر حرية بعد أن تنجب»، تتابع نجواها للمرآة: «أما زوجي اسكي فإنه يحب الضبط والربط». بعدئذ تكتم فمها بيدها ثم تمضي مسرعة إلى الباب والنوافذ كي تتأكد من أن أحداً لم يسمعها.

في ما بعد، تجلس بالتنورة الطويلة والسترة المصنوعتين من الكريب الإيطالي عند مدخل المنزل الأكثر رطوبة، تطرز شالاً وترقب سحابة غبار صغيرة عند الأفق. «لا، لا يمكن أن يكون اسكي، إنه في المدينة مع صديقه الحميم شاكيل، لقد عرفت المشكلة، عرفتها مذ رأيته أول مرة، ذلك البرميل الخنزيري الهائل الحجم. لعلها واحدة من تلك الزوابع الصغيرة التي تهب في هذه السهوب ليس إلا».

تربة موهنجو عنيدة. إنها تحمص أهلها وتصلّبهم كما تتصلب الصخور في الحر. الخيول في الإسطبل صلبة كالحديد، الماشية ذات عظام من ماس. الطيور هنا تنقر الأرض رافعة بمناقيرها كتل التراب ثم تبصق عليها وتبني أعشاشها من الطين الذي تصنعه بهذه الطريقة.

وليس هناك سوى بضع أشجار، هذا إذا ما استثنينا الغابة الصغيرة التي يسكنها الجن، حيث تهرب حتى الخيول الحديد... وفيما تطرز راني شالها، تقبع بومة في ثلم من أثلام الأرض وقد أسلمت نفسها للنوم، لا يرى منها سوى طرف ذيلها فقط.

«إن يقتلوني هنا، لن ينتقل الخبر خارج حدود هذه الإقطاعة» تكلم راني نفسها وهي لا تدري إن كانت قد تكلمت بصوت عالٍ أم لا. في هذه الأيام غالباً ما تندفع أفكارها التي حررتها العزلة، عبر شفتيها دون

علم منها، وغالباً ما تصارع واحدتها الأخرى. ذلك أن الفكرة التالية التي تشكلت في ذهنها مباشرة وهي تجلس في الشرفة السميكة الطنف كانت ما يلي: «إنني أحب هذا البيت».

الشرفات تحيط بالجدران الأربعة جميعاً. وهناك ممشى طويل مغطى بشبك مانع للبعوض يصل البيت بالمطبخ المنفصل عنه. ومن أعاجيب هذا المكان أن أرغفة الخبز لا تبرد فيه وهي تجتاز هذا الممر ذا الأرض الخشب إلى قاعة الطعام كما أن انتفاخاتها لا تهمد. إنه بيت مليء باللوحات الزيتية والثريات، سقفه عالٍ، سطحه مطلي بالقطران، ركعت عليه ذات يوم قبل أن يهجرها زوجها وهي تقهقه متطلعة عبر فتحة النور إليه هو الذي كان لا يزال في سريره. إنه البيت الذي نشأ فيه اسكندر حربا «إنني أملك منه هذه القطعة على الأقل، هذا التراب، مسقط رأسه، بلقيس، أية مخلوقة عديمة الحياء ينبغي أن أكون لكي أقيم هنا من أجل جزء صغير إلى هذا الحد من زوجي». وتجيب بلقيس من الطرف الآخر للهاتف وهي في بلدة «ك» قائلة: «ربما كان ذلك يناسبك يا عزيزتي، أما أنا فإنني لا أستطيع تحمل وضع كهذا، على أي حال، زوجي رضا في حقول الغاز، لكن وفري عليك شفقتك، فحين يعود إلى المنزل قد يكون متعباً كثيراً إلا أنه لن يكون مستنزفاً. . . إنك تدركين قصدي».

الآن تصل سحابة الغبار إلى قرية مير، إذاً هو زائر وليس زوبعة. إنها تحاول كتم انفعالها. القرية تحمل اسم والد اسكندر، السيد مير حربا، الذي لاقى وجه ربه بعد أن منح ذات يوم، وبكل فخار، رتبة الفروسية من قبل السلطات الإنكليزية لما قدمه من خدمات. تمثاله ينظف كل يوم من سلح الطيور. فالسيد مير الحجري يطل بكثير من الرفعة على مستوصف القرية وماخورها، نموذجاً مصغراً لإقطاعي مستنير. . . «زائر» تقول راني وهي تصفق بيديها وتقرع الجرس. لكن لا يحدث شيء إلى أن تخرج مربية اسكي، أخيراً، تلك المرأة ذات الجثة الضخمة واليدين

الطريتين الناعمتين، وهي تحمل إبريقاً من عصير الرمان. «لا داعي لإثارة مثل هذه الضجة، يا زوجة اسكي، فأهل هذا البيت يعرفون كيف يستقبلون الضيوف» وخلف المربية يسير غلبابا العجوز، الأصم، الأعمى، وفي يده طبق نصف فارغ من الفستق الذي تساقطت حباته مشكلة ما يشبه الدرب على الأرض. «ياالله، من خدمك أولاء يا عزيزتي». عرضت بلقيس وجهة نظرها من بعيد «هذه النماذج العتيقة كلها اندثرت منذ خمسمائة سنة. أقسم إن عليك أن تأخذيهم إلى الطبيب وتحقنيهم بما يميتهم دون ألم. يا إلهي، كيف تتحملين كل ذلك؟ ملكة بالاسم، لا، عليك أن تجعلي من نفسك ملكة بالفعل».

راني تتأرجح في الكرسي على شرفتها إبرة التطريز تتحرك دون عجالة، وهي تشعر بأن الشباب والمرح قد تسربا منها قطرة بعد قطرة، بفعل الضغط الشديد الذي تشكله عليها اللحظات وهي تمر، بعد ذلك يصل الخيالة إلى باحة المنزل فتميز من بينهم ابن عم إسكندر، مير حربا الصغير من مقاطعة دارو التي تبدأ حدودها عند الأفق الشمالي لإقطاعتهم هم، ففي هذه الأنحاء تقوم الآفاق مقام أسيجة الحدود.

«سيدتي راني» يهتف مير الصغير وهو على ظهر حصانه «ليس من الصواب أن تلوميني على هذا. لومي زوجك، كما أن عليك أن تشدي لجامه أكثر. اعذريني لكن الرجل ابن زنى حقيقي. لقد دمرني».

ثم ترجل اثنا عشر خيالاً مسلحاً وبدأوا ينهبون البيت فيما كان السيد مير يلف ويدور مقدماً التبريرات والأعذار لكنة عمه في حمى الهياج والصخب وصهيل الخيول الذي أفلت لسانه من كل عقال. «ما الذي تعرفينه عن شرج الثور ذاك، يا مدام؟ أنا أعرف. ذلك الخنزير، اللوطي، اللغز. اسألي أهل القرية كيف كان أبوه العظيم يقفل الأبواب على زوجته ويقضي الليالي في الماخور، كيف اختفت إحدى المومسات حين انتفخ بطنها ولم يكن ذلك بسبب الطعام الذي أكلته، بالطبع، وكان الشيء التالي بعد ذلك أنه بات لدى السيدة حربا طفل رغم أن الجميع

يعلمون أن زوجها لم يقاربها منذ عشر سنوات. وكما كان الأب. تجدين الابن الآن، يا سيدتي المبجلة. يؤسفني إن كان كلامي لا يعجبك. إنه سفاح ابن زنى، بذرة رخم تعيش على الجيف. فهل تظنين أن باستطاعته أن يهينني أمام الناس وينجو من العقاب؟ من الأكبر سناً يا ترى؟ أنا أم مصاص البراز النازل من شروج القردة الموبوءة ذاك؟ من صاحب الأملاك الأكبر، أنا أم هو بأرضه ذات الست بوصات التي لا يعيش عليها حتى القمل؟ قولي له من الملك هنا؟ قولي له من يستطيع أن يفعل ما يشاء في هذه الأرجاء كلها؟ قولي له إن عليه أن يأتي زاحفاً لتقبيل قدمي مثل أي مجرم مغتصب لجدته كي يطلب مني الغفران. ذلك القاضم لحلمة الغراب اليسرى. اليوم سأريه من منا الأرفع».

في غضون ذلك كله كان النهابون يمزقون لوحات مدرسة روبنز من أطرها المذهبة، يخلعون من كراسي الشيراتون قوائمها، يلقون الفضيات الأثرية في جيوب السروج العتيقة البالية، يقذفون بالأباريق البلورية على السجاد الفاخر كي تتناثر شظايا، وهي، راني سيدة القصر، تتابع تطريزها وسط الصخب القاتل، فيما يقف الخدم المسنون، المربية، غلبابا، فتاتا التلميع، سائسو الخيول، وجمع غفير من أهل القرية يراقبون ما يجري، يقرفصون ويسمعون. أما مير الصغير، ذلك التجسيد الطويل البازي الشكل للتمثال المنتصب في القرية، فإنه لا يسكت لحظة واحدة إلى أن يمتطي رجاله ظهور خيولهم من جديد. حينها يصرخ «شرف الرجل في نسائه. وهكذا حين سلبني تلك المومس فقد سلبني شرفي، قولي له ذلك، أخبري بهذا شارب البول ذاك الذي يلاط به. أخبريه قصة الضفدع الذي نق في البئر وكيف أجابه الضفدع العملاق. قولي له أن يرتدع وأن يغبط نفسه على أنني رجل حليم. فقد كان باستطاعتي أن أسترد شرفي بحرمانه من شرفه. أيتها السيدة، كان باستطاعتي أن أفعل بك ما أشاء، ما أشاء، ومن تراه يتجرأ على قول كلا؟ هنا، القانون السائد هو ما أريده، أنا مير، القانون قانوني والسلام عليكم». ثم يحط غبار الخيالة

الراحلين على سطح عصير الرمان الذي لم يمس. بعدئذ يغوص إلى الأسفل ليشكل طبقة رسوبية سميكة في قاع الإبريق. «مع ذلك ليس باستطاعتي أن أخبره»، تقول راني لبلقيس على الهاتف «فذاك يجعلني أشعر بخجل شديد».

«أوه، راني لديك مشكلات إذاً يا عزيزتي». تبدي بلقيس تعاطفها عبر خط الهاتف العسكري «ما الذي تقصدين أنك لا تعرفينه؟ هنا، أنا منفية مثلك تماماً لكنني حتى في هذه البلدة النائية المجهولة أعرف كل ما يدور في كراتشي. عزيزتي، من تراه لم ير زوجك اسكي وذلك الطبيب البدين وهما يدوران في كل مكان، حفلات هز البطون، أحواض السباحة في الفنادق الدولية حيث تسبح نساء البيض عاريات، فلماذا يضعك حيث أنت يا ترى؟ كحول، قمار، أفيون من يدري ماذا يفعل؟ أولئك النسوة بأوراق تينهن المانعة للماء. المعذرة يا عزيزتي لكن ينبغي على أحد الناس أن يقول لك الحقيقة. مصارعات ديكة، مصارعات دببة، مصارعات أفاع ونموس، فشاكيل ذاك يسحر الجميع، يؤثر فيهم مثل إبليس قواد. وكم من النساء؟ أوه يا إلهي! تحت طاولات الموائد يمسك بأفخاذهن. ويقولون إنهما كلاهما يذهبان إلى منطقة الأنوار الحمراء مع آلات التصوير السينمائية. طبعاً، واضح تماماً ما أعد ذلك الشاكيل نفسه لفعله، ذلك النكرة الذي لا يعرف أحد أصله وفصله يعيش أرقى حياة على طبق من ذهب. ربما بعض تلك النسوة يرغبن في أن يُمرّر إليهن فتات من طاولة ذلك الرجل الثري، أنت تفهمين قصدي. على أي حال. بيت القصيد أن زوجك العزيز اسكي انتزع من ابن عمه بغيّه الفرنسية الصغيرة الشهية، وذلك تحت سمعه وبصره تماماً، في إحدى الحفلات الثقافية الكبيرة، أنا آسفة لاضطراري إلى قول ذلك، لكن البلدة كلها تتناقل الخبر، وقد كان أمراً مثيراً للسخرية أن تري السيد مير واقفاً بينما يبتعد اسكي بالفتاة الغضة الشقراء، أوه، يا إلهي أنا لا أدري لماذا لا تصرخين وتصرخين؟ لكن ما الذي ينبغي فعله الآن؟

بالحقيقة عليك أن تعرفي من هو صديقك ومن هو عدوك. عليك أن تسمعيني يا عزيزتي، وأنا على الهاتف كيف أدافع عنك دفاع النمرة. لا، ليست لديك فكرة، يا عزيزتي، أنت التي تقيمين في بيتك النائي تتآمرين على غلبابا وخدمك الأثريين أولئك».

بعدئذ تقابل المربية وهي تقرق كالدجاجة حسرة وأسى وسط الحطام في قاعة الطعام. «لقد شط كثيراً» تقول المربية «ولدي اسكي، ذلك الفتى الفاسد دائماً، دائماً يضع يده على عنزات ابن عمه. لقد شط كثيراً، ذلك النمر الصغير».

حيثما تنظر راني ترَ وجوهاً ساخرة، حيثما توجه إذنيها تسمع أصواتاً. وتحت أنظار الجميع، هي المحمرة خجلاً مما لحق بها من ذل وعار، تطلب إسكندر هاتفياً لتنقل له الخبر (بعد أن ظلت خمسة أيام تستجمع شجاعتها) ويرد اسكندر حربا بثلاث كلمات:

«بسيطة، العمر مديد».

قاد رضا حيدر جنده، جند الغاز، إلى وادي نيدل بعد أسبوع من النشاطات التي أخافت المدينة إلى درجة جعلت رئيس الوزراء غيشكي يأمر رضا بمغادرة البلدة بأقصى سرعة ممكنة وقبل أن يتضاءل عدد عذاراها إلى درجة تشكل خطراً على القيم الأخلاقية كلها في المنطقة. وبصحبة الجند كان هناك معماريون، مهندسون، عمال بناء وجميعهم في حالة من الذعر تبلل ـ بنطلوناتهم، فلأسباب أمنية لم يكن أحد منهم قد علم بوجهة الحملة قبل وصولهما إلى بلدة «ك»، حيث قدمت لهم على الفور نسخ عن القصة رائعة الإحكام من قبل كل ابن شارع وبائع بان. وهكذا بدأ عمال البناء ينشجون بالبكاء داخل العربات المقفلة فشرع الحرس من الجند يسخرون منهم «جبناء! أطفال صغار! حريم!». لكن رضا، وهو في سيارته الجيب ذات الراية الخفاقة لم يسمع شيئاً من هذا، لقد كان عاجزاً عن تحويل ذهنه عن أحداث اليوم السابق حين زاره في الفندق قزم متذلل تفوح من ثيابه الفضفاضة رائحة دخان شديدة كتلك

التي تطلقها عوادم الدراجات النارية: مولانا داود، رجل الدين الهرم ذاك الذي علق ذات يوم بعنقه الهزيلة كأعناق الدجاج طوق من أحذية.

«سيدي، يا سيدي الجليل، إنني أتطلع إلى الأعلى إلى جبينك أيها البطل فيأتيني الإلهام» إذاً، النقطة، كدمة التعبد على جبهة رضا لم تذهب هباء.

«لا، يا أحكم الحكماء، فأنا من تشرفه وتمجده زيارتك» وكان رضا على أتم الاستعداد لمتابعة هذا النسق من الكلام إحدى عشرة دقيقة على الأقل لكنه شعر بشيء من خيبة الأمل حين هز رجل الدين رأسه ثم قال على عجل «إذاً فإلى العمل. إنك تعرف كل شيء عن غيشكي هذا، بالطبع. فهو ليس موضع ثقة».

«ليس موضع ثقة؟».

«مطلقاً. إنه أكثر الناس فساداً. ولسوف تريك ملفاتك هذه».

«اسمح لي أن أنتفع من معلومات رجل ذي معرفة مباشرة بـ. . .»

«إنه مثل جميع سياسيينا هذه الأيام، لا يخشى الله، عصابات تهريب كبيرة، الأمر يصيبك بالسأم، لكن الجيش يترفع عن مسائل كهذه والحمد لله».

«تابع من فضلك».

«أعمال شيطانية مع الأجانب، ولا أقل من ذلك يا سيدي؟ أشياء شيطانية تأتي من الخارج».

أما الأشياء التي اتهم غيشكي بأنه يأتي بها بصورة غير قانونية إلى أرض الله الطاهرة فهي: علب مثلجات، آلات خياطة تُدار بالقدم، موسيقى أمريكية شائعة مسجلة بسرعة ٧٨ دورة بالدقيقة، كتب حب مصورة تلهب عواطف العذارى المحليات، مكيفات هواء، رواويق قهوة، أوانٍ صينية مصنوعة من العظام، تنانير نسائية، نظارات شمسية صنع ألمانيا، مكثفات كولا، دمى بلاستيك، سجاير فرنسية، موانع حمل، سيارات، سجاد اكسمنيستر، بنادق رشاشة، روائح فسق

ومجون، مناهد نسائية، سراويل داخلية من الرايون، آلات زراعية، كتب، أقلام رصاص ذات مماحي، وأطر لعجلات الدراجات. ولقد أصيب ضابط الجمارك في مركز الحدود بالجنون أما ابنته التي لا تعرف الحياء والخجل فترغب في أن تتعامى عن ذلك كله مقابل أعطيات منتظمة. ونتيجة لهذا، يمكن لكل شيء أن يدخل البلاد في وضح النهار، سالكاً الطرق الرئيسية العامة ليشق طريقه إلى أسواق التهريب، حتى في العاصمة ذاتها. «لهذا، على الجيش» قال داود بصوت انخفضت طبقته حتى درجة الهمس «ألا يتوقف عند القضاء على رجال القبائل المتوحشين. فعلى بركة الله يا سيدي».

«قل ما هو قصدك يا سيدي».

«قصدي هذا يا سيدي. الصلاة هي سيف الإيمان. وبالقياس نفسه، أليس سيف المؤمن المسلول في سبيل الله هو شكل من أشكال الصلاة المقدسة؟».

وغامت عينا العقيد حيدر. فأشاح بناظريه متطلعاً عبر النافذة إلى منزل ضخم يرين عليه السكون ومن نافذة علوية فيه كان صبي صغير يتدرب على منظاره الميداني وقد وجهه إلى الفندق. بعدئذ التفت رضا نحو مولانا ثانية.

«أنت تقول، غيشكي».

«أجل، إنه غيشكي، لكن الحال ذاتها في كل مكان. إنهم وزراء!».

«أجل» قال حيدر شارد اللب «إنهم وزراء، ذلك صحيح».

«إذاً، لقد قلت ما علي فاسمح لي بأن أغادر، مقدماً لك أسمى آيات الاحترام لتكرمك علي بهذه المقابلة. جل الله وعلا».

«ليحمك الله».

وتوجه رضا إلى حقول الغاز المهددة بالخطر، والحوار المذكور آنفاً لا يزال يدور في رأسه، وفي ذهنه أيضاً صورة لذلك الصبي الصغير ذي

المنظار الميداني الذي يقف وحيداً في نافذة من نوافذ الطابق العلوي، ذلك الصبي الذي لا يعرف أحد أباه: تلك القطرة التي ظهرت على وجنة ريزور غوتز العجوز ثم نفختها الريح.

«ذاهب لمدة ثلاثة أشهر على الأقل» قالت بلقيس وهي تتنهد في مهتافها: «فماذا أفعل؟ أنا صبية ولست بقادرة على الجلوس طوال النهار كجاموس غائص في الوحل. الحمد لله أن باستطاعتي أن أذهب إلى السينما». وكل ليلة، كانت بلقيس تترك طفلتها في رعاية مربية محلية استأجرتها لتذهب إلى دار للسينما حديثة الطراز تدعى محل منغال. لكن «ك» بلدة صغيرة، العيون فيها ترى الأشياء حتى في الظلام... إلا أنني سأعود إلى هذا الموضوع في وقت لاحق، ذلك أنه لم يعد باستطاعتي أن أتجنب أكثر من ذلك قصة بطلتي المسكينة.

فبعد شهرين من مغادرة رضا حيدر للبلدة قاصداً البراري والمجاهل لخوض معاركه مع عصابات حقول الغاز أصيبت ابنته الوحيدة صفية زنوبيا بحالة من حالات الحمى الدماغية التي حولتها إلى فتاة بلهاء. لقد سمع أحدهم بلقيس، وهي تهيئ شعرها وساريها بحماسة متساوية، تنطق جملة غامضة. «إنه حكم الله» ثم بكت بجوار سرير ابنتها. وليأسها من الأطباء العسكريين والمدنيين، توجهت إلى حكيم محلي أعد شراباً غالي الثمن كان يحضره بالتقطير من جذور الصبار وذرات العاج وريش الببغاء، شراباً أنقذ الفتاة من براثن الموت إلا أنه (وكما قال الحكيم) أبطأ نموها بقية سنوات عمرها، ذلك أن التأثير الجانبي المشؤوم للعقار المشبع بعناصر طويلة العمر هو إعاقة تقدم الزمن داخل أي جسد يعطى له وفي اليوم الذي عاد فيه رضا لقضاء إجازة في المنزل، كانت صفية زنوبيا قد تخلصت من الحمى لكن بلقيس كانت مقتنعة بأنه بات في استطاعتها أن ترى في عيني ابنتها التي لم تبلغ الثانية بعد، آثار ذلك الإبطاء الداخلي الذي لا يمكن حدوث عكسه. فقالت خائفة «إذا كان هناك هذا التأثير، من تراه يعلم عواقبه الأخرى؟ من تراه يستطيع تحديدها؟».

وهكذا كانت بلقيس، وهي تعاني من شعور بإثم بالغ الشدة إلى درجة بدت معها حتى إصابة ابنتها الوحيدة غير كافية للتكفير عنه، لو كنت أملك اللسان الذي يجب التحدث بالفضائح، لقلت إنه شيء ما، له علاقة بمحل منغال والزيارات التي كانت تقوم بها إلى السينما والشبان ذوي الشفاه المكتنزة، أقول كانت بلقيس تقضي لياليها قبل رجوع حيدر وهي تذرع جناح العرسان في فندق فلاشمان جيئة وذهاباً لا تعرف عيناها الرقاد، ولعل من الواجب أن نذكر هنا أن إحدى يديها كانت تداعب باستمرار، وبملء إرادتها على ما يبدو، المنطقة المحيطة بسرتها. في الساعة الرابعة صباحاً من ذات يوم حصلت على مكالمة هاتفية من راني حربا المقيمة في موهينجو النائية حيث أدلت بالملاحظات الطائشة التالية:

«راني، إنه حكم الله، فماذا أفعل؟ أراد ابناً بطلاً فأنجبت له بدلاً من ذلك ابنة معتوهة. تلك هي الحقيقة فاعذريني، لم أستطع منع ذلك. راني، إنها بلهاء، متخلفة عقلياً، لا شيء في طابقها العلوي. تبن بين أذنيها بدلاً من الدماغ. فارغ قحف جمجمتها، فما العمل؟ لا شيء يا عزيزتي. ليس هنالك ما أفعله مع دماغ العصفور ذاك، تلك الفأرة، علي أن أقبل بالأمر الواقع: إنها عاري».

عندما عاد رضا حيدر إلى بلدة «ك»، كان الصبي يقف في نافذة البيت المعزول الكبير مرة ثانية. وحين سأل عنه أحد الأدلاء المحليين أجابه هذا بأن البيت ملك ثلاث ساحرات آثمات مجنونات لم يسبق لهن أن غادرنه قط، ورغم ذلك كن يتدبرن أمرهن وينجبن الأطفال. فالصبي الذي يقف في النافذة هو ابنهن الثاني. وعلى غرار الساحرات في القصص الخرافية يدعين أنه ابنهن جميعاً «لكن القصة يا سيدي هي أن في ذلك المنزل من الثروة ما يفوق كنوز الإسكندر الأكبر». فأجاب رضا بما بدا أشبه بالاحتقار: «هكذا، لكن إن كان الطاووس يرقص في الغابة فمن تراه يرى ذيله؟». مع ذلك لم تستطع عيناه مفارقة الصبي الواقف في النافذة إلى أن وصلت سيارة الجيب إلى الفندق حيث وجد زوجته تنتظره

بشعر منفوش ووجه خال من الحاجبين، إلى درجة بدت وكأنها التجسيد ذاته للمأساة ثم أصغى لما كانت بلقيس أشد خجلاً من أن ترسل إليه كلمة عنه. وهكذا اتحد مرض الابنة مع صورة الصبي الصغير ذي المنظار الميداني في نفس حيدر إضافة إلى مرارة الأيام التسعين التي قضاها في الصحراء، فجعله هذا كله يخرج كالإعصار من جناح العرسان مندفعاً هائجاً إلى حد كان من الضروري، ومن أجل سلامته الشخصية، أن يجد ما يريحه بأقصى سرعة ممكنة. وهكذا طلب سيارة القيادة ثم أمر سائقها بأن يأخذه إلى مقر رئيس الوزراء غيشكي في منطقة الكانتونمنت ثم أخبره، من غير إبطاء أو رسميات، أنه على الرغم من أن أعمال البناء في وادي النيدل ماضية قدماً، إلا أن خطر رجال القبائل لا يزال ماثلاً وأنه لا يمكن القضاء عليه ما لم يعط، هو رضا حيدر، الصلاحية التامة في اتخاذ إجراءات شديدة وإنزال عقوبات صارمة.

«إننا بعون الله ندافع عن الموقع، لكن علينا الآن أن نكف عن هذا التخوف يا سيدي، عليك أن تضع القانون في يدي. صلاحيات مطلقة. ففي بعض الأحيان ينبغي على القانون المدني أن يخضع للضرورات العسكرية. العنف هو اللغة التي يفهمها هؤلاء المتوحشون، لكن القانون يلزمنا بأن نتكلم لغة النساء المهينات، لغة القوة الدنيا. ولا خير في ذلك يا سيدي، فأنا لا أستطيع ضمان النتائج». وحين أجاب غيشكي بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسمح للقوات المسلحة بانتهاك قوانين الدولة «لا، لا أريد بربريات في تلك التلال يا سيد! لا تعذيب، لا رفس بالأرجل، لا شيء من ذلك ما دمت رئيس وزراء هنا»، حينها، وبنبرة عالية فظة تسربت عبر النوافذ والأبواب خارجة من مكتب غيشكي باعثة الرعب في قلوب الحجاب الواقفين في الخارج نظراً لصدورها من شفتي رجل هو بالعادة بالغ التهذيب، فقد أطلق رضا تحذيره لرئيس الوزراء قائلاً: «الجيش ساهر هذه الأيام، يا سيد غيشكي. في كل مكان من البلاد، عيون الجند الشرفاء ترى ما ترى، وما نحن بمسرورين، كلا يا

سيدي. الناس يتحركون يا سيدي، وإذا ما أشاحوا بأنظارهم عن السياسيين، أين تراهم يبحثون عن النقاء؟».

ثم غادر رضا حيدر وهو مغضب ثائر، غيشكي ـ بشعره الحليق القصير ووجه الصيني المفلطح ـ غادره وهو يصوغ جوابه الذي لم ينطقه قط، فوجد مولانا داود بانتظاره قرب سيارة القيادة. ركب الضابط ورجل الدين في المقعد الخلفي، يحجب كلامهما عن السائق لوح من زجاج. لكن من المعقول، على ما يبدو، أنه انتقل خلف هذا الحاجز اسم من شفتي رجل الدين إلى أذن الضابط: اسم يحمل في طياته رائحة الفضيحة. ترى هل أخبر داود رضا حيدر باللقاءات التي كانت تجري بين بلقيس وسندبادها؟ كل ما أقوله إن هذا يبدو محتملاً، فالقاعدة تقول «كل مواطن بريء حتى تثبت إدانته».

في تلك الليلة غادر سندباد منغال، مدير «محل منغال» دارة السينمائية من بابها الخلفي كالعادة ليظهر في الزقاق المظلم الواقع خلف الشاشة السينمائية. كان الرجل يصفر لحناً حزيناً، لحن رجل لا يستطيع لقاء محبوبته رغم أن القمر بدر. لكن رغم هذا الحزن والوحشة في لحنه، فقد كان في كامل أناقته كعادته: بدلة أوروبية لامعة، قميص مشجر وبنطلون من نسيج قطني متين، أي كان الرجل يشع في الزقاق وكان ضوء القمر الكئيب يتراقص على زيت شعره. ولعله لم يلحظ قط أن ظلالاً في الشارع بدأت تقترب منه، فالسكين التي كانت ستلمع تحت ضوء القمر، ظلت في غمدها حتى اللحظة الأخيرة. إننا نعلم هذا لأن سندباد منغال لم يتوقف عن الصفير إلى أن انغرزت السكين في أحشائه وحينها بدأ شخص آخر يصفِّر اللحن ذاته تحسباً من أي شخص قد يكون عابراً في تلك اللحظة ويثار فضوله. ثم أطبقت يد ما على فم سندباد بينما شرعت السكين تعمل وتعمل. في الأيام القليلة التالية كان لا بد لغياب منغال عن مكتبه أن يلفت الانتباه، لكن ذلك لم يحدث إلى أن تذمر عدة رواد للسينما من سوء الصوت المرافق للفيلم إلى درجة جعلت المهندس

يفتش مكبرات الصوت الواقعة خلف الشاشة وهناك اكتشف مزقاً من قميص سندباد منغال الأبيض وبنطلونه القطني وقد أخفيت فيها، إضافة إلى حذائه الأكسفوردي الأسود. أما البدلة التي شرّحتها السكين فقد كانت لا تزال تحوي قطعاً كاملة من جسم مدير السينما حيث قطعت أعضاؤه الجنسية وأدخلت في شرجه. أما الرأس فلم يكتشف مكانه قط كما لم يقدم قاتله إلى العدالة قط.

فالعمر ليس مديداً دائماً.

في تلك الليلة مارس رضا الحب مع بلقيس بخشونة بالغة رأت أن تعزوها للأشهر التي قضاها في المجاهل المقفرة. أما اسم مينغال فلم يذكره أحد منهما. بل لم يرد ذكره حتى عندما امتلأت البلدة بشائعات قصة القتل، وسرعان ما عاد رضا إلى وادي النيدل. بعد ذلك كفت بلقيس عن ارتياد السينما ورغم أنها كانت في هذه الفترة قد احتفظت لنفسها بالهيئة الملكية، فقد بدا الأمر وكأنها تقف على شفا هاوية يكاد ينهار تحت قدميها، ذلك أنها باتت عرضة لنوبات الإغماء. ذات مرة، حينما أخذت ابنتها المتخلفة عقلياً لتلعب معها لعبة حاملة الجرة التقليدية، انزلقت صفية زنوبيا على ظهرها كما تنزلق قربة الماء ثم سقطت الأم على الأرض وقد تكومت فوقها الطفلة المبتهجة قبل أن تنهي صب ما فيها من ماء. بعد ذلك مباشرة اتصلت براني حربا معلنة لها أنها حامل. وفيما كانت تفشي ذلك السر طفق جفن عينها اليسرى يرتعش، دونما تفسير.

عندما تحكك راحة كفك فهذا يعني أنك ستقبض مالاً. وحين تتقاطع فردتا حذائك على الأرض فهذا يعني أنك ستسافر، أما انقلاب الحذاء أسفله عاليه فهو تحذير لك من نكبة، وانفتاح المقص يعني أن شجاراً سيحدث في العائلة وارتعاش العين اليسرى يدل على أن هناك خبر سوء في طريقه إليك.

«في إجازتي القادمة» كتب رضا إلى بلقيس «سأذهب إلى كراتشي.

ثمة بعض الواجبات العائلية كما أن المارشال أورغانزيب يقيم حفلاً، وليس باستطاعة المرء أن يرفض دعوة من رئيس أركانه. ونظراً لوضعك الخاص، فمن الأفضل بقاؤك حيث أنت. إذ ليس من الحكمة أن أطلب إليك مرافقتي في هذه الرحلة الشاقة وغير الضرورية».

قد يكون التهذيب شركاً، ولقد وقعت بلقيس في شرك تهذيب زوجها البالغ، فكتبت له «كما تشاء». على أن ما دفعها لكتابة هذا ليس الشعور بالإثم وحسب بل هو شيء آخر أيضاً لا يمكن ترجمته، قانون فرض عليها أن تزعم لنفسها بأن كلمات رضا لم تكن تعني شيئاً آخر. هذا القانون يدعى التكلف[1]. ولكي تفك ألغاز مجتمع من المجتمعات، تأمل كلماته التي لا تترجم، وما التكلف إلا عنصر من تلك الطائفة من المفاهيم الغامضة والمنتشرة على نطاق عالمي والتي ترفض الانتقال عبر الحدود اللغوية. إنه يدل على صيغة من الشكلانية التي تعقد اللسان، قيد من القيود الاجتماعية بالغ الشدة إلى درجة تجعل من المحال أن تستطيع الضحية التعبير عما تهدف إليه حقاً، نوع من السخرية القسرية التي تصر، من أجل الشكل فقط، على أن تؤخذ حرفياً. وحين يضرب التكلف أطنابه بين الزوج وزوجته، خذ حذرك.

سافر رضا بمفرده إلى العاصمة.. وبما أن تلك الكلمة غير القابلة للترجمة قد جعلت حيدر وحربا اللذين لا تثقلهما رفقة زوجتيهما، يلتقيان مرة ثانية، فقد حان الأوان لأن نلقي نظرة شاملة على الوضع، نظراً لأن متبارزينا هذين سيجدان نفسيهما قريباً يخوضان واحدة من معاركهما الهامة. فحتى الآن، لا تزال قضية شجارهما الأول تتيح لإحدى الخادمات أن تدهن شعرها بالزيت وتضفره. ذلك أن عطية أورانجزيب، المشهورة لدى صديقاتها باسم «بينكي»[2] كانت تفكر

(١) وردت هكذا بالعربية في النص الأصلي.
(٢) بينكي أي وردية اللون.

ببرود، بالسهرة التي قررت إحياءها باسم زوجها الخرف تقريباً، ذلك المارشال المتداعي أورانجزيب، رئيس هيئة الأركان. وبينكي هذه في أواسط ثلاثيناتها، أي أكبر ببضع سنوات من رضا واسكندر لكن هذا لا ينقص من إغرائها، فالمرأة الناضجة لها سحرها الخاص كما هو معروف. وبما أنها كانت قد وقعت في شرك الزواج من عجوز فقد كانت تبحث عن ملذاتها حيثما تستطيع.

في هذه الأثناء، كانت هناك زوجتان تركهما زوجاهما في منفييهما المنفصلين، ولدى كل منهما ابنة كان ينبغي أن تكون ابناً (هنا أجد الحاجة ماسة لأن أقول شيئاً عن الفتاة الصغيرة آرجوماند حربا، لكنني سأقول الكثير، وبالتأكيد، عن البلهاء المسكينة صفية زنوبيا). نهجان مختلفان إلى قضية واحدة هي الانتقام رسمت خطوطهما العامة. إذ بينما كان اسكندر حربا يتفق مع برميل الشحوم الخنزيرية المدعو عمر الخيام شاكيل على شؤون الفسق وما شابه، كان رضا، على ما يبدو، قد وقع تحت تأثير تلك الشخصية الرفيعة المقام التي تهمس بالأسرار الخطيرة في المقاعد الخلفية لسيارات الليموزين. دور السينما، أبناء الساحرات، كدمات الجباه، الضفادع، الطواويس، كلها عملت لخلق الجو الذي ستغدو روائح الشرف المنتنة طاغية تماماً فيه.

أجل، إنه الحين نفسه الذي دخل فيه المتقاتلون الساحة.

الحقيقة الواقعة هي أن رضا حيدر تلقى لطمة بين عينيه تماماً من قبل بينكي أورانجزيب فقد اشتهته إلى درجة جعلت الكدمة على جبينه تؤلمه، لكنه أضاعها لصالح اسكندر حربا، تماماً هناك في حفل المارشال، حين كان الجندي العجوز ينام في أريكته الوثيرة الملقاة في زاوية من زوايا الحشد المتألق لكن حتى وهو في ذلك الوضع فإن العجوز الخرف المحب للنوم لم يُرِقْ قطرة واحدة من كأس الويسكي الطافحة حتى الشفتين التي كان يمسكها بيده وهو نائم.

في تلك المناسبة المصيرية بدأت المبارزة التي ستستمر على أقل

تقدير إلى أن يلقى كلا المتبارزين مصرعه إن لم يكن أكثر. الجائزة الأولى لتلك المبارزة كانت جسد زوجة المارشال، لكن بعد ذلك اتخذ الأمر أشكالاً أخرى وجوائز أرفع. لكن دعنا نتكلم أولاً بأول: بينكي ذات الجسم المثير لدى عرضه بساريه الأخضر الذي لبسته وفق الزي الذي تتبعه نساء الجناح الشرقي واطئاً عند الردفين إلى حد خطير، في أذنيها أقراط من فضة وماس على شكل هلال ونجمة تتدلى متلألئة من شحمة الأذنين، وعلى كتفيها الرقيقتين رقة لا تقاوم شال خفيف تدل صنعته العجيبة على أنه لا يمكن أن يكون إلا من إنتاج تطريزات أنسو الخرافية، فبين توشيحاته الدقيقة الغريبة ثمة ألف قصة وقصة تحكيها صور رسمت بخيوط الذهب، صور مفعمة بالحياة إلى درجة بدا معها الفرسان الصغار الحجم وكأنهم يعدون بخيولهم فعلاً عند عظم ترقوتها كما بدت الطيور الصغيرة وكأنها تطير، تطير فعلاً، منحدرة مع عمودها الفقري الساحر... مع ذلك الجسد الذي يستحق إطالة النظر إليه قليلاً، وقد حدثت إطالة النظر تلك حين تدبر رضا أمره وشق طريقه عبر أمواج من الفحول الشبان والنساء الغيورات ممن يحيطون ببينكي أورانجريب، لكنه وجد هناك شبه السكران اسكندر حربا، فتى المرح رقم واحد في المدينة، ذاك الذي كانت تبتسم له رؤيا الجمال تلك ابتسامة تجمدت لها قطرات العرق على شاربي رضا المشمعين بينما كان ذلك المنحط ذو السمعة السيئة واللسان البذيء الذي أصاب حتى ابن عمه مير بالخزي والعار، يروي لتلك الإلهة الجميلة نكاته القذرة.

فتصلبت قامة رضا حيدر وهو يتخذ وضع الانتباه والضيق، كما تصلبت حلة اشتهائه وقست بفضل نشاء التكلف... لكن اسكي صاح كالمصاب بحازوقة «انظروا من هناك! بطلنا اللعين تيليار». فضحكت بينكي ضحكة شبه مكتومة فيما كان اسكندر يتخذ وقفة أستاذ كبير، أمير شامخ: «التيليار يا سيدتي هو، كما تعلمين، طائر صغير ناحل كثير التنقل لا يصلح لشيء سوى الانطلاق في الجو». طغت أمواج الضحك

حتى على الشبان المنهزمين، ثم غمغمت بينكي، وقد مسحت رضا بنظرة مدمرة قائلة «يسرني أن ألقاك». فوجد رضا نفسه يجيب بلهجة رسمية قاسية فظيعة «هذا شرف لي يا سيدتي، ويمكنني القول إنه، بإذن الله، سيصنع الدم الجديد من أمتنا الجديدة أمة عظيمة». فعملت بينكي أورانجزيب جاهدة على كتم ضحكها، هنا سارع اسكندر حربا للتدخل بروحه المرحة «لك الله يا تيليار هذه حفلة وليست منبر خطابة، تذكر ذلك بحق الله». فعلى أكثر وأكثر السخط الكامن خلف تهذيب حيدر، لكنه كان بلا حول أو طول إزاء ذلك التهذيب الشديد الذي يسمح بكل أشكال البذاءة والتجديف ويمكنه أن يقتل أشد رغبات الرجال وكبريائهم بضحكة ذكية واحدة، «يابن العم» قال رضا محاولاً تجاوز كارثته «أنا مجرد جندي بسيط» عندها كفت مضيفته عن التظاهر بأنها لا تضحك منه، إذ شدت الشال على كتفيها ثم وضعت يدها على ذراع اسكندر وقالت: «خذني إلى الحديقة يا اسكي. التكييف هنا جعل الهواء بارداً للغاية أما في الخارج فالجو دافئ لطيف».

«إذن فإلى الدفء يا أميرتي» هتف حربا مرحاً، وهو يضع كأسه في يد رضا كي تحفظها بأمان. «من أجلك يا بينكي، أدخل نيران الجحيم، إذا ما رغبت في أن أوفر لك الحماية حين تذهبين إلى الجحيم. وقريبي رضا الممتنع امتناعاً تاماً عن المسكرات ليس أقل شجاعة» أضاف ملتفتاً وهو يغادر القاعة «لكنه لا يذهب إلى الجحيم من أجل السيدات، بل من أجل الغاز».

وحين حمل اسكندر حربا جائزته وخرج إلى الحديقة المغلقة الغارقة في غبشة الشفق كان يقف في أحد الأطراف الجانبية متسمراً لا يفارق عيناه المشهد، ذلك الشخص البدين الهملاوي[1]، بطلنا الهامشي، الطبيب، عمر الخيام شاكيل.

---

(١) نسبة إلى هملايا.

هنا أحذرك قائلاً، لا تكوّن رأياً يحط كثيراً من قيمة عطية أورانجزيب. فقد ظلت مخلصة لاسكندر حربا حتى بعد أن انقلب هذا إلى رجل جاد وتخلص من خدماتها، ثم اعتزلت دون أن تنبس بكلمة شكوى، لتعيش مأساة الحرمان منه وذلك إلى أن حانت منيته. عند ذاك، وبعد أن أشعلت النار بشالها القديم المطرز، غرست في قلبها سكين مطبخ بطول تسع بوصات. كذلك، كان اسكندر مخلصاً لها بطريقته الخاصة. فمنذ اللحظة التي غدت فيها خليلته، كف عن مضاجعة زوجته راني كلية، وبذلك ضمن عدم إنجابها لمزيد من الأطفال، بحيث يظل هو آخر ذكر من سلالته وهي فكرة كما قال لعمر الخيام شاكيل ذات يوم، ليست خالية من سحرها الخاص.

(هنا، علي أن أفسر قضية البنات اللواتي كان ينبغي أن يجئن أبناء؛ فصفية زنوبيا هي «المعجزة الخطأ» لأن والدها كان يبغي أن تكون صبياً، لكن هذه لم تكن مشكلة آرجوماند حربا. فآرجوماند التي اشتهرت باسم «ذات السراويل الحديد العذراء» هي التي كانت تتحسر على كونها بنتاً وذلك لأسباب مخالفة تماماً لأسباب والديها، فقد قالت لأبيها يوم صارت امرأة ناضجة «جسد المرأة هذا لا يجلب لواحدتنا سوى الأطفال والقرصات والعار»).

خرج اسكندر حربا من الحديقة مرة ثانية حين كان رضا يستعد للرحيل، فحاول إحلال السلام، وبرسمية تضاهي رسمية رضا قال له: «عزيزي، قبل أن تعود إلى النيدل، عليك أن تزورنا في الموهينجو. ذلك سيسعد راني كثيراً. يا للفتاة المسكينة، كم أود لو أنها ترغب بحياة المدينة هذه... كما أنني أصر أن تدعو زوجتك بيلو أيضاً. دع السيدتين تحظيا بفرصة طيبة للدردشة أما نحن فسوف نقضي النهار بطوله في صيد طيور التيليار ما رأيك؟».

وأرغم التكلف رضا حيدر على أن يجيب: «نعم، شكراً».

في اليوم الذي سبق تنفيذ حكم الإعدام باسكندر حربا سمح له أن

يكلم ابنته بالهاتف لدقيقة واحدة فقط. فكانت الكلمات الأخيرة التي وجهها لها في تلك المكالمة الخاصة مفعمة بالحنين اليائس لتلك الأوقات الغابرة: «آرجوماند حبيبتي، كان علي أن أخرج لقتال حيدر، ناكح ـ الجواميس هذا، حين ربط نفسه بوتد إلى الأرض. لكنني لم أفعل ذلك، وتلك هي خطيئتي الكبرى».

كان اسكندر أحياناً، حتى أيام عبثه ولهوه يشعر بالمرارة على زوجته المعزولة. وفي لحظات كهذه كان يجمع حوله بضعة رفاق، يحشرهم في عربة قطار، ويقود ركب العبث المديني إلى إقطاعيته الريفية، حيث لا تظهر بينكي أورانجزيب، وتستوي راني ملكة على العرش ليوم أو بضعة أيام.

حين قبل رضا حيدر دعوة اسكي إلى موهينجو، ركب الاثنان السيارة معاً، تتبعهما قافلة من خمس سيارات أخرى، تحوي مؤونة كبيرة من الويسكي، نجوم السينما، أبناء ملوك المنسوجات، الدبلوماسيين الأوروبيين، مصاصات الصودا والزوجات. وقد تم استقبال بلقيس صفية زنوبيا والمربية في محطة السكك الحديد الخاصة تلك التي كان السيد مير حربا قد بناها على الخط الرئيسي فكانت المحطة الوحيدة بين العاصمة وبلدة «ك»، وطوال يوم واحد، لم يحدث سوء.

بعد موت اسكندر حربا، ظلت راني وآرجوماند حربا محجوزتين في الموهينجو سنوات عدة، وبغية التخلص من الصمت روت الأم لابنتها قصة الشال: «كنت قد بدأت بتطريزه قبل أن أسمع بأن امرأة مير تلك تشاركني زوجي، لكن تبين في ما بعد أن ذلك ليس سوى تحذير مسبق بأن امرأة أخرى مختلفة تماماً ستشاركني إياه». لكن في ذلك الحين كانت آرجوماند حربا قد وصلت مسبقاً إلى مرحلة ترفض فيها سماع أي سوء عن أبيها. فنخرت رادة: «الله يا أماه، كل ما تستطيعين فعله هو التكلم بالسوء عن الرئيس. إن كان لم يحبك فلا بد أنك فعلت ما تستحقين عليه ذلك». حينذاك هزت راني حربا كتفيها مجيبة: «الرئيس

اسكندر حربا، والدك الذي أحببت دائماً، كان بطول العالم في انعدام الحياء، لقد كان وغداً دولياً، ابن زنى رقم واحد إنك ترين يا ابنتي أنني أتذكر تلك الأيام، أتذكر رضا حيدر حين لم يكن إبليساً بقرنين وذيل، كما أتذكر اسكي قبل أن يصبح قديساً».

السوء الوحيد الذي حدث في موهينجو حين كان آل حيدر هناك إنما بدأه رجل بدين أسرف كثيراً في الشراب. وقد حدث في الليلة الثانية من تلك الزيارة، على الشرفة التي كانت راني تتابع فيها تطريزها بينما كان رجال مير الصغير ينهبون بيتها ويسلبونه ـ وهي النزهة التي كانت آثارها لا تزال بادية، في أطر اللوحات الفارغة التي لم يبق فيها سوى نتف قماش التصقت بالزوايا، وفي المقاعد التي كانت حشوتها تنبثق ظاهرة من جلدها الممزق، وفي التركيبة الغريبة من أواني المطبخ التي وضعت على مائدة الطعام وفي الشعارات البذيئة التي كتبت على جدران القاعة وكان لا يزال بالإمكان رؤيتها رغم طبقة الدهان التي تغطيها. لقد قدم الدمار الجزئي الذي حل بقصر موهينجو للضيوف الشعور بأنهم يقيمون حفلاً وسط حطام كارثة، الأمر الذي جعلهم يتوقعون المزيد من الإزعاجات، إلى درجة اكتسبت معها الضحكة البراقة التي كانت تضحكها نجمة السينما زهرة شكل الهستريا وكان الرجال جميعاً يشربون بسرعة بالغة. أما راني حربا فقد كانت تجلس طيلة الوقت في كرسيها الهزاز تطرز شالها، تاركة تنظيم أمور الموهينجو للمربية التي كانت تعامل اسكندر وكأنه طفل عمره ثلاثة أعوام أو كأنه إله أو كلا الأمرين معاً. أخيراً وقعت المشكلة، وبما أن قدر عمر الخيام شاكيل هو أن يؤثر، من موقعه الهامشي، في الأحداث الكبيرة التي كان أبطالها دائماً هم الناس الآخرون والتي كانت بمجملها تشكل حياته، فإن لسانه الذي أرخته كثرة ما تناول من شراب ذلك المساء هو الذي قال إن بلقيس حيدر امرأة محظوظة وإن اسكندر قد أسدى لها معروفاً بخطف بينكي أورانجزيب من تحت أنف زوجها رضا. «فلو أن اسكي لم يكن موجوداً هناك، ربما كان على

زوجة بطلنا أن تعزي نفسها بالأطفال إذ لن يكون هناك رجل يملأ فراشها». وكان شاكيل يتكلم بصوت عال، كي يلفت انتباه النجمة السينمائية زهرة التي كانت أكثر اهتماماً بالنظرات المفرطة اللمعان التي كانت تحظى بها من شخص آخر يدعى أكبر جونجو، وهو مقامر ومنتج سينمائي شهير، وحين ابتعدت زهرة دون أن تزعج نفسها بتقديم أي اعتذار وجد شاكيل نفسه وهو يقف وجهاً لوجه أمام بلقيس بعينيها الجاحظتين، بلقيس التي كانت قد ظهرت لتوها من الشرفة بعد أن ألقت نظرة على ابنتها النائمة في الفراش، والتي كان الحمل قد ظهر عليها على نحو مبكر كثيراً. . . إذاً من يعلم إن كان ذلك هو سبب وقفة بلقيس ودهشتها، من يعلم إن كانت قد حاولت فقط أن تلقي بإثمها على كتفي زوج باتت استقامته موضع قيل وقال أيضاً؟ على أي حال، لقد حدث ما يلي: بعد أن اتضح للضيوف أن كلمات عمر الخيام قد سمعتها واستوعبتها المرأة التي كانت تقف مندهشة في الشرفة، ساد الصمت تماماً، كما أطبق سكون شديد جعل الحفلة تنكمش لتصبح لوحة للرعب، وفي ذلك السكون صرخت بلقيس حيدر باسم زوجها.

إذ ينبغي ألا ننسى أنها امرأة علق بها منديل العفة النسائية حتى عندما تمزقت عن جسدها بقية ثيابها، وما من امرأة تدير الأذن الصماء لأقاويل الناس. أما رضا حيدر واسكندر حربا فقد كانا يحملقان واحدهما بالآخر دون كلام حين سددت بلقيس سبابتها ذات الظفر الطويل إلى قلب عمر الخيام شاكيل.

«هل سمعت ما قاله ذلك الرجل، أيها الزوج؟ أسمعت أي عار يجلببني به؟ أوه، يا للسكينة، يا لانكتام الصوت الذي يشبه سحابة تحجب الأفق! حتى البوم قد امتنع عن النعيب».

وفي الحال اتخذ رضا حيدر حالة الاستعداد. إذ ما أن يوقظ عفريت الشرف من سباته حتى يرفض الهجوع قبل إرضائه، فقال رضا: «اسكندر، أنا لن أقاتل داخل منزلك» بعدئذ أتى أمراً غريباً وعنيفاً. فقد

سار مبتعداً عن الشرفة ثم دخل الإسطبل وعاد بوتد خشبي، مع مطرقة وقطعة من حبل متين. بعدئذ دق العقيد حيدر، رئيس جمهورية المستقبل، الوتد في الأرض الصلبة كالصخر ثم ربط نفسه إليه من كاحله وألقى بالمطرقة بعيداً ثم صاح.

«ها أنذا أقف هنا، فليخرج لمواجهتي من يتناول شرفي بالنميمة».
وهناك، ظل الليل بطوله، ذلك أن عمر الخيام شاكيل اندفع مسرعاً إلى الداخل ثم وقع مغشياً عليه من الكحول والخوف.

أما حيدر فقد ظل كالثور يدور ويدور على نفسه، يشده الحبل من كاحله إلى الوتد. ومع تقدم الليل، شرع الضيوف المنزعجون، يؤمون أسرتهم. غير أن اسكي حربا ظل على الشرفة، مدركاً أن المعركة الحقيقية، رغم أن الغلطة غلطة الرجل البدين، إنما هي بينه وبين العقيد. وقد قدمت النجمة السينمائية زهرة، وهي في طريقها إلى فراشها الذي يعتبر طول لسان من لا يغتفر أن أقول إنه كان مشغولاً من قبل ـ لذا لن أقول شيئاً عن هذا الموضوع ـ أقول قدمت زهرة تحذيراً لمضيفها إذ قالت له:

«لا تفسح المجال لأية أفكار غبية، عزيزي اسكي، هل تسمعني؟ لا، لا تتجاسر وتخرج إلى هناك. إنه جندي، انظر إليه، فهو كالدبابة، ولسوف يقتلك بالتأكيد. فقط دعه إلى أن يبرد، تماماً؟». أما راني حربا فلم تقدم لزوجها أية نصيحة «أنت ترين يا آرجوماند»؛ قالت راني لابنتها بعد سنوات «إنني أتذكر أباك حين كان أجبن من أن يعالج الأمور كرجل».

كيف انتهت الأمور؟ على نحو سيئ، أي كما ينبغي أن تنتهي تماماً، وكان ذلك قبل الفجر تماماً. إذ ظل رضا سهران طوال الليل، يخبط الأرض بقدميه وهو يدور حول وتد كبريائه، عيناه حمراوان من الغضب والإرهاق والعيون الحمر لا ترى رؤية واضحة ـ لا سيما حين يكون النور ضعيفاً ـ ومن يرى خدماً يأتون، على أي حال؟ هنا أحاول أن أقول

أن غلبابا العجوز أفاق باكراً ثم عبر الساحة وفي يده إبريق نحاسي مملوء بالماء كي يتوضأ قبل تأدية صلاته، لكنه رأى العقيد حيدر المربوط إلى الوتد فدب إليه يسأله: سيدي، ما الذي تفعله هنا، أليس من الأفضل أن تأتي.. والخدم المسنون يأخذون حريتهم في الكلام أحياناً. إنه امتياز يمنحهم إياه سنهم لكن رضا الذي أصابه النعاس بالصمم، لم يسمع سوى خطوات وصوت، ولم يشعر إلا بنقرة على كتفه، فاستدار على عجل. وبضربة رهيبة واحدة ألقى غلبابا أرضاً كغصن مكسور. ذلك العنف حل شيئاً ما داخل الرجل العجوز، شيئاً دعنا نسمه الحياة، ذلك أنه لم ينقض شهر واحد حتى كان غول العجوز قد قضى نحبه، وعلى محياه سيماء الحيرة والاضطراب، مثل رجل يعلم أنه أضاع شيئاً هاماً ولا يتذكر ما هو ذلك الشيء.

عقب تلك اللطمة القاتلة ندمت بلقيس، فخرجت من المنزل كي تقنع رضا بأن يفك رباطه.

«رضا، لا تدع ابنتك المسكينة ترى ما فعلته». وحين عاد رضا إلى الشرفة، وجد أمامه اسكندر حربا، الذي لم يرقد له جفن ولم تحلق له ذقن، يمد ذراعيه إليه معانقاً فاحتضن رضا، بكثير من الرفعة، قريبه اسكي شاداً كتفيه إليه، سامحاً لعنقيهما أن يلتقيا كما يقول المثل.

في اليوم التالي حين خرجت راني حربا من مخدعها لوداع زوجها، شحب وجه اسكندر لرؤيته الشال الذي لفته حول كتفيها، شالاً مكتملاً دقيق الصنعة كتلك الشالات التي تصنعها أبرع نساء آنسو، قطعة رائعة من الوشي تحكي زخرفتها الدقيقة ألف قصة وقصة رسمتها يد فنانة ماهرة إلى حد خيل إليه وكأن الفرسان يعدون بخيولهم قرب ترقوتها، والطيور الصغيرة تطير منحدرة مع عمودها الفقري «مع السلامة اسكندر»، قالت له راني «لكن لا تنس أن حب بعض النساء ليس بأعمى».

حسناً، حسناً، كلمة الصداقة لا تدل تماماً على ذلك الشيء الذي كان يجمع بين اسكندر ورضا، لكنها ظلت، ولفترة طويلة من الزمن

عقب حادثة الوتد، الكلمة التي كانا يستخدمانها كلاهما. ففي بعض الأحيان لا يستطيع الإنسان أن يجد الكلمة المناسبة.

كانت بلقيس ترغب دائماً في أن تكون ملكة، لكن بعد أن بات رضا حيدر أخيراً شبه أمير غدا ذلك المطمح بغيضاً في ناظريها. المولود الثاني ولد قبل ستة أسابيع من موعده، غير أن رضا لم ينطق بكلمة واحدة تدل على الريبة. وكان هذا المولود ابنة أخرى، إلا أنه لم يتذمر حول هذه النقطة أيضاً، فكل ما قاله هو أنه كان من المناسب تماماً لو كان المولود الأول صبياً والثاني بنتاً. وبذلك على المرء ألا يلوم القادمة الجديدة على خطأ ارتكبته أختها الكبرى. وقد سموا الفتاة الجديدة باسم «نافيد» أي النبأ السار أو غودنيوز وكانت طفلة نموذجية. إلا أن هذه الولادة قضت على الأم تماماً. إذ تمزق شيء ما في داخلها فكان رأي الأطباء أنه ينبغي ألا تنجب بعد ذاك. وبذلك حكم على رضا حيدر ألا يرزق بابن ذكر. ولقد تكلم مرة واحدة فقط عن الصبي ذي المنظار الميداني الذي كان يقف على النافذة في بيت الساحرات. إلا أن هذا الموضوع أقفل أيضاً. إنه ينسحب بعيداً عنها هابطاً دهاليز ذهنه، مغلقاً الأبواب خلفه، وهي تهجع في مخدعها وحيدة، إلى درجة باتت معها تحت رحمة مخاوفها القديمة، فتلك هي الأيام التي بدأت فيها بلقيس تخاف من الرياح الحارة التي تهب في الأصائل، وتهب بشدة من ماضيها.

بعدئذ أعلنت الأحكام العرفية، فألقى رضا القبض على رئيس الوزراء غيشكي، كما تم تعيينه حاكم إقليم. ثم انتقل مع زوجته وطفلتيه إلى المقر الوزاري تاركاً للذكرى ذلك الفندق المتصدع الذي كان فيه آخر القردة المدربين قد اعتادوا التجوال كسالى، متوانين وسط النخيل الذي حال لونه في قاعة الطعام بينما يحز الموسيقيون الطاعنون في السن بأقواس أوتارهم على رباباتهم المهترئة أمام جمهور من طاولات خاوية على عروشها. إنها لا ترى رضا كثيراً هذه الأيام. فلديه أعمال كثيرة يعملها. أنابيب الغاز يُجرى تمديدها على نحو حسن، وبما أن إزاحة

غيلكي من الطريق كانت قد تمت من قبل، فقد بوشر ببرنامج ضرب العبر فيمن يقبض عليهم من رجال القبائل. بلقيس تخشى أن تثير جثث المشانق سكان بلدة «ك» ضد زوجها، إلا أنها لا تفصح عن أفكارها له. إنه يتخذ خطاً ثابتاً، ومولانا داود يقدم له كل ما يحتاج من نصح.

آخر مرة زرت فيها الباكستان، حكى لي أحدهم النكتة التالية: «نزل الله سبحانه وتعالى إلى الباكستان ليرى كيف تجري الأمور هناك. فسأل الجنرال أيوب خان لماذا البلاد في تلك الحالة من الفوضى. فأجاب أيوب: «السبب أولئك المدنيون الفاسدون الذين لا يصلحون لشيء يا سيدي. فقط خلصني منهم ودع البقية لي». وهكذا قضى الله جل جلاله على جميع السياسيين. بعد حين من الزمن عاد فرأى الأمور أسوأ من ذي قبل. لكنه هذه المرة سأل يحيى خان طالباً تفسيراً لذلك. فألقى يحيى باللوم على أيوب وأبنائه وحاشيته ثم قال متوسلاً: «افعل المطلوب وسوف أنظف البلاد وأجعلها صالحة ومناسبة». وهكذا مسحت الصواعق أيوباً عن وجه الأرض لكنه في زيارته الثالثة وجد البلوى أشد، لذلك اتفق مع ذو الفقار علي بوتو على ضرورة إعادة الديمقراطية فقلب يحيى خان إلى صرصار ثم كنسه تحت السجاد إلا أنه لاحظ، بعد بضع سنوات، أن الوضع لا يزال مخيفاً تماماً. فمضى إلى الجنرال ضياء الحق عارضاً عليه السلطة المطلقة بشرط واحد فأجاب الجنرال: «قل ما الذي تريده يا إلهي العظيم». فقال الإله «أجبني على سؤال واحد اجعل لك بوتو مسطحاً مثل رغيف الخبز». فقال ضياء «سل حالاً» عندها همس الإله في أذنه: «انظر كم من أشياء أفعلها من أجل هذه البلاد. لكن ما لا أدرك مغزاه هو التالي: لماذا يبدو الناس وكأنهم لا يحبونني البتة؟».

من الواضح أن رئيس جمهورية الباكستان عمل على تقديم جواب مقنع للإله رغم أنني أتساءل: ما تراه كان ذلك الجواب؟

(٣)

العار وغودنيوز والعذراء

الفصل السابع

الاحمرار خجلاً

قبل زمن غير طويل، وفي الحي الشرقي من لندن أقدم أب باكستاني على قتل ابنته الوحيدة، لأنها، بممارستها الحب مع فتى أبيض، ألحقت بعائلتها العار الذي لا يغسله إلا دمها. وقد زاد من شدة المأساة تعلق الأب الشديد بابنته الذبيحة وكذلك رفض أصدقائه وأقربائه (وكلهم «آسيويون»، إذا ما استخدمنا مصطلح أيام المحنة تلك) أن يدينوه. فقد قالوا والحزن يطغى عليهم، أمام عدسات التلفزيون ومكبرات الإذاعة إنهم يفهمون وجهة نظر الرجل وأنهم لا يزالون مصرين على دعمه حتى وإن تبين أن الفتاة لم تكن عملياً «قد قطعت الطريق حتى آخره» مع صديقها الفتى. لقد أرعبتني القصة حين سمعتها، أرعبتني بطريقة واضحة تماماً. فأنا نفسي بت أباً قبل فترة وجيزة، وبذلك بت قادراً أخيراً على تقدير كم يحتاج المرء من القوة كي يتمكن من غرس سكين في جسد من لحمه ودمه. لكن الأشد إرعاباً في الأمر هو تيقني من أني أنا أيضاً قد اكتشفت، شأني شأن أولئك الأصدقاء الذين أجريت معهم المقابلة، بأنني أفهم موقف القتل. فالنبأ لم يبد غريباً علي. ذلك أننا نحن الذين ترعرعنا وفق تربية معينة قائمة على الشرف والعار لا يزال بمستطاعنا أن نستوعب ما بات، على ما يبدو، أمراً لا يمكن التفكير به لدى أناس يعيشون مرحلة ما بعد المأساة، مرحلة انحسار الدين: فنحن من أولئك الرجال الذين يضحون بأعز من يحبونه على مذبح كبريائهم الذي لا يقبل التلوث

(والأمر لا يقتصر على الرجال وحسب، فقد سمعت عن قضية ارتكبت فيها امرأة جريمة مشابهة لأسباب مشابهة). إذاً، بين العار والشرف يقع المحور الذي ندور حوله، أما الشروط الجوية في كلا هذين القطبين فإنهما متباينان كل التباين وفي الشرف والعار: جذور العنف.

من جثة تلك الفتاة القتيلة نشأت بطلتنا صفية زنوبيا رغم أنها (ولا تخشى ذلك) لن تذبح بيد رضا حيدر. إنني، وقد رغبت في الكتابة عن العار، وجدتني في البداية مسكوناً بشبح ذلك الجسد الميت الذي كنت قادراً على تصوره، رقبته مشروخة كرقبة فروج يوم عيد، وقد ارتمى الجسد في ليل لندني قرب تقاطع طرق متكوماً تحت النور والظلمة، النور والظلمة فيما تومض فوقه منارة بليشا، بأنوارها البرتقالية، اللابرتقالية، البرتقالية... لقد خيل إلي أن الجريمة ارتكبت هناك تماماً، تحت أعين الجمهور ووفق الطقوس المعتادة وفي كل نافذة عين تبصر، دون أن تصدر كلمة احتجاج واحدة. وحين قرعت الشرطة الأبواب لم يكن قد ظل من أمل إذ ما أمل المساعدة الذي كانت تمثله الشرطة يا ترى؟ كشف غموض الوجه «الآسيوي»؟ فعلى ما يبدو، كان حتى المسهدون المتطلعون من نوافذهم قد أغمضوا عيونهم ولم يروا شيئاً. وكان الوالد قد غادر، يحمل حزنه واسمه الذي غسل الدم عاره.

ولقد شط بي الخيال إلى درجة أطلقت على الفتاة القتيلة اسماً: إنه أناهيتا محمد، المعروفة باسم آنا التي كانت، في خيالي، تنطق بلهجة شرق لندن لكنها ترتدي الجينز: أزرق، بنياً، زهرياً، لكرهها النابع من عادات قديمة لإظهار الساقين. ومن المؤكد أنها كانت تفهم اللغة التي يتكلمها والداها في المنزل لكن ربما كانت ترفض أن تنطق كلمة واحدة منها. وآنا محمد هذه: مفعمة بالحيوية، جذابة ولا ريب، في سن خطرة قليلاً هي السادسة عشرة. قبلتها التي لا تعرف سواها هي المراقص، الأضواء الخافتة، الشباب، لقد رقصت من وراء ظهري، وكانت طبيعتها تتغير من لمحة إلى أخرى: فهي بريئة حيناً، داعرة حيناً آخر وهي شيء

آخر عند اللمحة الثالثة، وشيء غيره عند الرابعة. لكنها راغت أخيراً، تملصت مني، تحولت إلى شبح فأيقنت أنني، لكي أكتب عنها، عن العار، لا بد لي من أن أعود إلى الشرق، كي أجعل الفكرة تتنفس هواءها المفضل. وهكذا ترحل آنا، تسافر إلى بلد لم تره عيناها قط، تصاب بحمى دماغية وتتحول إلى شبه معتوهة.

لماذا فعلت بها ذلك؟ أوه، لعل الحمى مجرد كذبة، إحدى بنات خيال بلقيس حيدر، هدفت من ورائها لتغطية الأذى الذي لحق بها من الضربات المتكررة على الرأس: فالكراهية قد تحول المعجزة ـ التي ـ جاءت ـ في ـ غير ـ مكانها إلى حالة عجيبة... أما وصفة الحكيم تلك فتبدو غير مقنعة البتة. وكم هو أمر شاق تثبيت الحقيقة، لا سيما حين يكون المرء مضطراً لأن يرى العالم شرائح شرائح، لقطات بعيدة تخفي بقدر ما تظهر.

جميع الروايات تسكنها أشباح القصص التي ربما تجسدها. وآنا محمد تسكن هذا الكتاب كالشبح، لكنني لن أكتب عنها الآن، إذ يوجد هنا أشباح أخرى أيضاً، خيالات لها الأولوية ذات جبلة تجسدها الآن، تربط ما بين العار والعنف. وكما هو شأن آنا فإن هذه الأشباح تسكن بلاداً غير شبحية: ليست «بيكافيستان» الوهمية بل لندن الحقيقية، ولسوف أذكر اثنين منها: أولهما فتاة ينقض عليها آخر الليل في قطار تحت الأرض زمرة من فتيان مراهقين، والفتاة آسيوية أيضاً، أما الفتيان فمن البيض. فيما بعد تتذكر الفتاة الضرب الذي تعرضت له فلا تشعر بالغضب بل الخجل. إنها لا تريد التحدث عما حدث، لا تقدم شكوى رسمية، إذ تأمل أن تبقى القصة طي الكتمان. إنه رد فعل نموذجي، وهذه الفتاة ليست الوحيدة التي تتصرف هكذا بل هناك الكثير من أمثالها. إنني، وأنا أتفرج على المدن ذات الدخان الكثيف التي تعرضها شاشتي التلفزيونية أرى زمراً من الشبان يجرون في الشوارع، على جباههم يشتعل العار فيشعل النار في الحوانيت وتروس الشرطة والسيارات. إنهم

يذكرونني بتلك الفتاة المجهولة الاسم. مارس الإذلال على الناس زمناً كافياً تجد أنه يتفجر من صدورهم وحشية وعنفاً. بعدئذ، قم بمسح للحطام الذي تركه سخطهم، سيبدون لك شباباً حائرين غير واعين بل قد يقولون لك: «نحن فعلنا أموراً كهذه؟ نحن؟ إننا فتيان عاديون تماماً، أناس طيبون، لم نعلم أن باستطاعتنا». . بعدئذ، وشيئاً فشيئاً يهل الفخار عليهم، فخارهم بقوتهم كأنهم تعلموا رد الضربات، ثم أتخيل ما الذي يحدث لو كان بالإمكان إطلاق سخط كهذا من عقاله لدى فتاة القطار تحت الأرضي ـ كيف كانت ستهشم الفتيان البيض، تودي بهم إلى حافة الموت، محطمة أذرعهم سيقانهم، أنوفهم، خصاهم، من دون أن تعلم من أين جاءتها تلك القوة ومن دون أن ترى كيف أن باستطاعتها، هي الفتاة اللطيفة الظريفة، أن تتفتق عن مثل هذه القوة، لكن هم، ما تراهم كانوا سيفعلون؟ كيف سيخبرون الشرطة أنهم تعرضوا للضرب من قبل فتاة، مجرد فتاة، أنثى ضعيفة وحيدة فقط ضدهم هم الكثر؟ كيف سيقابلون رفاقهم وجهاً لوجه؟ إنني أشعر بابتهاج طاغ لهذه الفكرة وإنه لشيء رائع مغر، هذا العنف، أجل، إنه لكذلك.

أبداً لم أطلق على هذه الفتاة الثانية اسماً. لكنها هي أيضاً تكمن داخل بطلتي صفية زنوبيا ولسوف تميزها حين تطل برأسها.

أما الشبح الأخير الذي يكمن داخل بطلتي فهو شبح ذكر، شبح صبي أطل علي برأسه من قصاصة جريدة لعلك قرأت عنه أو على الأقل عن نموذجه الأساسي: فقد وجده الناس يشتعل في موقف للسيارات، تلتهم جلده النيران، لقد احترق حتى الموت، أما الخبراء الذين فحصوا جسمه ومكان الحادثة فقد كانوا مضطرين لأن يقبلوا بما بدا وكأنه مستحيل: أي أن الصبي أشعل النار بذاته من ذاته، أي دون أن يغمس نفسه بالنفط أو يستخدم أية شعلة خارجية، فنحن طاقة، نحن نار، نحن نور، وهكذا حين وجد الصبي المفتاح وخطا نحو تلك الحقيقة، بدأ يحترق.

كفى. عشر سنوات مضت من قصتي وأنا أرى أشباحاً ـ لكن، ثمة كلمة أخيرة عن الموضوع. فالمرة الأولى التي جلست فيها مفكراً بأناهيتا محمد، وجدتني أتذكر الجملة الأخيرة من قصة فرانز كافكا «المحاكمة» وهي الجملة التي تلقى معها جوزيف ك. طعنة الموت. آناي هذه، مثلها مثل جوزيف بطل كافكا، لاقت مصرعها بطعنة سكين أيضاً، أما صفية زنوبيا فلم يكن شأنها كذلك إلا أن تلك الجملة، شبح الشاهدة التي كتبت على قبرها، لا تزال تحوم حول قصتها:

«مثل كلب!» قال الرجل: فبدا وكأنه يقصد بذلك أن يبقى العار بعد الموت.

حين عاد حيدر من بلدة «ك» كانت العاصمة قد كبرت، كرانشي تضخمت، حتى أن الناس الذين كانوا يقطنون فيها منذ البداية لم يعد باستطاعتهم التعرف إلى تلك البلدة الصبية الناحلة، بلدتهم أيام زمان، في أرداف تلك العجوز الشكسة البدينة التي تحولت إليها مدينتهم الكبيرة. فطيات الشحم واللحم الهائلة لتوسعها الذي لا نهاية له كانت قد ابتلعت سبخات الملح الواقعة في أطرافها، وعلى طول كثبان الرمل هناك، كانت قد انبثقت، كفقاعات ماء مغلي، قصور الأغنياء ذات الألوان المبهرجة. كذلك كانت الشوارع ملأى بوجوه مسودة، وجوه شبان جذبتهم إليها السيدة المطلية بالمساحيق بكل ما فيها من فتنة طاغية، شبان اكتشفوا أن ثمنها أغلى من أن يستطيعوا دفعه، فجثم شيء أشبه بالتطهر والعنف على جباههم وبات من المخيف أن تسير بين انقشاعات أوهامهم في شدة الحر. لذا غالباً ما كان الليل يشهد المهربين وهم يمتطون عرباتهم التجارية الواطئة، والجيش، بالطبع، هو المسيطر.

غادر رضا حيدر قطار السكة الحديد القادم من الغرب مكلل الرأس بالشائعات. فتلك هي الفترة التي أعقبت مباشرة اختفاء رئيس الوزراء السابق علاء الدين غيشكي الذي أطلق سراحه أخيراً للافتقار إلى الأدلة الثابتة، فعاش عيشة هدوء وسلام مع زوجته وكلبه عدة أسابيع إلى أن

جاء يوم خرج فيه لتنزيه كلبه الألزاسي ولم يعد قط رغم أن كلماته الأخيرة للسيدة غيشكي كانت: «قولي للطاهي أن يصنع لنا اثني عشر قرص صفيحة للغداء. أنا أكاد أموت جوعاً». وفي الطبق انتظرت أقراص الصفيحة من واحدها حتى الاثني عشر، ينبعث منها البخار على أمل أن تؤكل، لكن شيئاً ما كان قد أفسد شهية غيشكي ولا بد، لأنه لم يأكلها قط. ربما عجز الرجل عن مقاومة أنياب الجوع فالتهم الكلب الألزاسي بدلاً منها، ذلك أن الكلب نفسه قد اختفى أيضاً فلم يجدوا له أثراً، بل ولا شعرة من ذيله. لغز اختفاء غيشكي هذا ظل مضغة الألسن ومدار الأحاديث ردحاً من الزمن وغالباً ما كان اسم حيدر يرد في هذه الأحاديث، ربما لأن الكراهية المتبادلة بين غيشكي ورجل الدين مولانا داود كانت معروفة تماماً، كما أن العلاقة الحميمة بين داود وحيدر لم تكن سراً هي الأخرى. لقد تسربت قصص غريبة إلى كراتشي من بلدة «ك» لتحوم في جو المدينة ذي الهواء المكيف.

ما سجلته السجلات الرسمية عن الفترة التي قضاها حيدر في الغرب هو أنها كانت ناجحة نجاحاً لا شائبة فيه وبذلك تابعت حياته المهنية طريقها الصاعد أبداً. لقد تم القضاء على العصابات وامتلأت المساجد كما تم تطهير مؤسسات الدولة من اتباع غيشكي ووباء الفساد علاوة على أن النزعة الانفصالية غدت بطة ميتة، ريزور غونز العجوز بات الآن عميداً. لكن مثلما كان اسكندر حربا مولعاً بالقول لعمر الخيام شاكيل وهما يتناولان الشراب «يا للعنة! الجميع يعلمون أن رجال القبائل جن جنونهم هناك لأن حيدر كان يشنق الناس الأبرياء من خصيهم»، كذلك كانت هناك شائعات تدور حول مشاكل زوجية في بيت حيدر. إذ حتى راني حربا سمعت، وهي في منفاها، شائعات عن الخلاف القائم بين الزوجين، عن الطفلة المعتوهة التي كانت أمها تدعوها باسم «العار» وتعاملها معاملة الوحل، وعن العطب الداخلي الذي جعل إنجاب الصبيان مستحيلاً وأدى ببلقيس لأن تنحدر في الدهاليز المعتمة نحو

التحطم. لكنها، هي راني، لم تكن تعلم كيف تحدث بلقيس بأمور كهذه، لذلك بقي مهتاف الهاتف معلقاً في مكانه لم يمس.

لكن، ثمة أمور لم يرد ذكرها قط. لا، ما من أحد ذكر الفتى ذا الشفتين المكتنزتين المدعو سندباد منغال، أو ارتاب بأبوة البنت الصغرى.... من المحطة، اتجهت سيارة العميد رضا حيدر مباشرة إلى المقر الخاص للرئيس المارشال محمد آ. حيث استقبل، طبقاً لما تقوله التقارير بالمودة والترحاب، وحيث شدت وجنتاه شدة صداقة، فيما ألمح آخرون إلى أن انفجار الهواء المحمل بالغضب والمنبعث من ثقوب أبواب تلك الغرفة كان حاراً وشديداً إلى درجة سفعت شر سفعة رضا حيدر الذي كان يقف وقفة استعداد أمام رئيسه الغاضب المهتاج لكن المؤكد أن رضا خرج من حضرة الرئيس كوزير للتربية والإعلام والسياحة، بينما امتطى عميد آخر متن القطار المتجه نحو الغرب لتسنم منصب حاكمية «ك». أما حاجبا رضا حيدر فقد بقيا سليمين لم يمسهما شيء.

وثمة أشياء أخرى لم تمس أيضاً: التحالف بين رضا ومولانا داود الذي رافق آل حيدر إلى كراتشي والذي ما إن أقام في المقر الرسمي للوزير الجديد حتى جعل من نفسه قبلة الأنظار وذلك بشن حملة شرسة على أكلة القريدس والسرطانات ذات البطون الزرقاء فهي، كآكلات للقمامة، لا تقل قذارة عن أي خنزير إلا أنها، رغم عدم توفرها في بلدة «ك» النائية لأسباب مفهومة طبعاً، كانت وافرة وشائعة في العاصمة المجاورة للبحر، وقد زاد من حملة مولانا وشدتها رؤيته لحيوانات البحر المدرعة تلك متوفرة بغزارة في أسواق السمك. كما أفلح في كسب تأييد رجال الدين في المدينة أولئك الذين لم يعلموا كيف يعترضون. بعدئذ وجد صيادو السمك أن مبيعات ذوات الدروع هذه بدأت تنخفض انخفاضاً مريعاً في المدينة ولهذا السبب اضطروا إلى الاعتماد أكثر من ذي قبل على الدخل الذي كان يأتيهم من تهريب السلع الممنوعة. وهكذا حلت المشروبات المحرمة والسجائر المحظورة محل السرطانات

الزرقاء في حمولات الكثير من الزوارق. مع ذلك، لم يعرف شراب أو دخان طريقه إلى مقر آل حيدر. فقد كان داود يشن غارات مباغتة على أجنحة الخدم للتأكد من أن الله يكلأها برعايته، وذات مرة أكد لرضا حيدر قائلاً: «حتى مدينة الغيلان المرعبة يمكن تطهيرها بعون الله».

بعد ثلاث سنوات من عودة رضا حيدر من بلدة «ك» بات واضحاً أن نجمه في أفول، ذلك أن الشائعات القادمة من «ك» (مينغال، غيشكي، رجال القبائل الذين شنقوا من خصيهم) لم تخمد البتة، وهكذا حين انتقلت العاصمة من كراتشي إلى الشمال، إلى هواء الجبال النظيف كي تتوضع في الأبنية الجديدة البشعة التي شيدت خصيصاً لهذا الغرض، فإن رضا حيدر ظل على الشاطئ. لقد انتقلت وزارة التربية والإعلام والسياحة إلى الشمال جنباً إلى جنب مع بقية الدوائر أما رضا حيدر فقد وضع على الرف. إذ أعيد إلى السلك العسكري وعهدت إليه مهمة لا مستقبل لها هي إمرة الكلية العسكرية. لقد سمحوا له أن يحتفظ بمنزله لكن مولانا داود قال له: «وماذا إن كانت لا تزال لديك هذه الجدران الرخامية؟ لقد جعلوا منك سرطاناً في هذه القوقعة الرخامية، نا ـ باك: ملوثاً بالشوائب».

لكننا استبقنا الأحداث كثيراً: وقد آن الأوان للإدلاء بملاحظاتنا عن الشائعات والمحاريات. فصفية زنوبيا، المعتوهة، تحمر خجلاً.

ولقد فعلت ذلك بها، على ما أظن، كي أجعلها نقية طاهرة الذيل، لم أستطع التفكير بطريقة أخرى لخلق الطهارة في بلاد يفترض أنها بلاد الطهارة... والمعتوهون، تحديداً أبرياء. إنه استخدام بالغ الرومانسية للتخلف العقلي؟ ربما، لكن فات الأوان على شكوك كهذه. فصفية زنوبيا نمت وكبرت، وقد نما عقلها على نحو أبطأ من نمو جسدها، وبسبب هذا البطء فإنها تبقى في نظري، (باك) نظيفة بشكل من الأشكال وسط عالم قذر.

انظر كيف تداعب، وهي تنمو، حصاة في يدها، عاجزة عن القول

لماذا يبدو الخير كله كامناً في تلك الحصاة المسطحة الملساء، كيف تشع بهجة وهي تسمع كلمات الحب والتدليل رغم أنها موجهة بصورة دائمة تقريباً لشخص آخر... لقد صبت بلقيس عاطفتها على ابنتها الصغرى نفيد. وقد غرقت غودنيوز هذه باسمها المستعار ـ ذاك الذي التصق بها مثل وجه منتوف في الريح ـ غرقت في أمطار الحب الخماسينية تلك، فيما ظلت صفية زنوبيا عبء والديها، عار أمها، يابسة جافة كالصحراء، إذ بدلاً من العاطفة كانت تنهمر عليها أوامر الزجر والإهانات بل حتى ضربات القنوط الوحشية إلا أن مطراً كهذا لا ينتج رطوبة. وقد قست روحها وتصلبت لافتقاد العاطفة والحب. مع ذلك فقد كان بإمكانها، حين يكون الحب بجوارها، أن تشع غبطة وسعادة لمجرد قربها من ذلك الشيء الثمين.

كذلك كانت تحمر خجلاً. وإنك لتتذكر أنها احمرت خجلاً عند مولدها. وبعد عشر سنوات كان والداها لا يزالان في حيرة من أمر هذه الاحمرارات، هذه التوردات خجلاً كنيران نفطية، هذا التوهج المخيف لصفية زنوبيا ذاك الذي زاد من شدته، على ما يبدو، السنوات العجاف في بلدة «ك»، وحين قام آل حيدر بزيارة المجاملة الإلزامية لبرياما وعشيرتها انحنت السيدة العجوز كي تقبل الفتاتين فأرعبها أن شفتيها احترقتا حرقاً خفيفاً باندفاعة الحرارة تلك التي انطلقت من وجنتي صفية زنوبيا، وكان الحرق ظاهراً إلى درجة تطلب وضع مرهم على الشفتين مرتين كل يوم ولمدة أسبوع. هذا التأثير السيئ للآليات الحرارية لدى الطفلة أثار لدى أمها ما بدا وكأنه غضب قديم: «تلك المعتوهة» صرخت بلقيس تحت سمع ونظر السيدة دنيا زاد وبقية النسوة المسرورات: «فقط لا تتطلعن إليها الآن! الله، ما هذا؟ كل من ينظر إليها أو يخاطبها بكلمة واحدة يجعلها تغدو حمراء، حمراء كالفلفل! أقسم لكن! ترى أية طفلة عادية تغدو حمراء حارة كالشوندر إلى درجة قد تنبعث رائحة الاحتراق من ثيابها؟ لكن ماذا أفعل؟ لقد ولدت خطأ وجاء كل ما فيها خطأ، هذه

هي المسألة وما علينا إلا أن نتحمل ونصبر». كذلك كانت خيبة أمل آل حيدر بابنتهم الكبرى قد قست في أشعة الهجيرة في تلك المجاهل وتحولت إلى شيء لا شفقة فيه ولا رحمة كتلك الشمس الحارقة.

لقد كانت الإصابة حقيقية تماماً. فالآنسة شهبانو، المربية الفارسية التي استخدمتها بلقيس لدى عودتها إلى كراتشي تذمرت منذ يومها الأول من أن يديها احترقتا حين حممت صفية زنوبيا، إذ كاد ماء الحمام يصل درجة الغليان بسبب لهب ضيق أحمر يمتد من بصلات شعر الفتاة المعوّقة وحتى أظافر قدميها.

والآن دعونا نتكلم بوضوح: كانت صفية زنوبيا حيدر تحمر خجلاً دون إرادة منها كلما لاحظ أحد الناس وجودها في هذا العالم. لكنها، على ما أعتقد، كانت تحمر خجلاً من أجل هذا العالم.

واسمحوا لي بأن أوضح شكي: إن الحمى الدماغية التي جعلت صفية زنوبيا تتلقى على نحو خارق للطبيعة مختلف الأشياء التي تطوف حولها في الأثير، جعلتها قادرة على أن تمتص، كالإسفنج، حشداً كبيراً من المشاعر التي لا يعرفها أحد.

وأين تراها تذهب بحسب تصورك؟ ـ أقصد المشاعر التي ينبغي الشعور بها، إنما لا يشعر بها أحد ـ كالندم على كلمة فظة مثلاً، الشعور بالذنب، الضيق، الاحتشام، الخزي، العار؟ لنتخيل أن العار سائل، لنقل إنه شراب غازي حلو تهترئ له الأسنان، موجود في آلة لبيع المشروبات. اضغط الزر الأيمن يخرج لك كوب ينصب فيه جدول دافق من هذا السائل. فكيف يمكنك أن تضغط الزر؟ ستقول لا شأن لي به كما أنه لا شأن لك باختراع كذبة، أو مضاجعة فتاة باكستانية لفتى أبيض، أو ولادة مولود من جنس غير مرغوب فيه. . . . إذاً بضغط الزر تخرج العاطفة ذات الزبد متدفقة فتشرب ملء بطنك. . . لكن كم من الكائنات البشرية ترفض اتباع مثل هذه التعليمات البسيطة! أشياء مخزية تجري: كذب، حياة تحلل، عدم احترام للأكبر سناً، تقصير في حب الوطن،

اقتراع خاطئ وقت الانتخابات، إفراط في الأكل، خيانات زوجية، روايات تفضح سيراً ذاتية، غش في ورق اللعب، سوء معاملة للنساء، رسوب في الامتحانات، تهريب، رمي لاعب الكريكيت لمجموعة عصيه في اللحظة الحرجة من مباراة اختبارية: وكلها تجري بلا استحياء أو خجل.

إذاً ما الذي يحدث لكل ذلك العار الذي لا يشعر به أحد؟ ما الذي يحدث لأكواب ذلك الشراب المتدفق من الآلة والذي لا يشربه أحد؟ لنعد ثانية للتفكير بآلة البيع تلك. الزر يضغط. لكن حينئذ تتدخل يد لا تعرف الحياء وتلقي بالكوب! أي أن ضاغط الزر لا يشرب ما طلبه وهكذا يراق على الأرض سائل العار ليشكل بحيرة كثيرة الزبد حول الآلة.

لكننا نناقش قضية مجردة، آلة بيع وهمية تماماً، إذاً في الأثير يمضي عار العالم الذي لا يشعر به أحد. ومن ثم يمتصه، على ما أرى، القلة من سيئي الحظ، بوابو العالم غير المرئي، لتغدو نفوسهم سطولاً يقطر فيها من المماسح ما قد أريق من قبل. ونحن نحتفظ بسطول كهذه في خزائن خاصة لكننا لا نفكر بها كثيراً رغم أنها تخلصنا من مياهنا القذرة.

حسناً إذاً، لقد احمرت صفية زنوبيا المعتوهة خجلاً. فقالت أمها للقريبات المتجمعات: «إنها تفعل ذلك لجذب الاهتمام. أوه، أنتن لا تعلمن لم هذا الارتباك، هذا الحياء وما الغاية منه؟ فهو ليس بلا غاية، ليس عبثاً. لكن حمداً لله على أنه رزقني بابنتي «غودنيوز»، لكن سواء كانت معتوهة أم غير معتوهة، فإن صفية زنوبيا ـ باحمرارها ذلك الاحمرار الشديد كل مرة تنظر فيها أمها نظرة جانبية إلى أبيها ـ قد كشفت لأعين العائلة الراصدة أن هناك حاجزاً عالياً يقوم بين هذين الشخصين. نعم، باستطاعة البُلهاء أن يشعروا بمشاعر كهذه، وهذا كل ما في الأمر.

الاحمرار خجلاً نوع من الاحتراق البطيء. لكنه شيء آخر أيضاً:

إنه واقعة نفسية ـ جسدية فكما وصفه أحدهم: إنه انغلاق مفاجئ في الفتحات الوريدية ـ الشريانية الموجودة في الوجه فتفيض الشعيرات الدموية بالدم، الأمر الذي ينجم عنه احمرار اللون على نحو متميز. والناس الذين لا يؤمنون بالواقعات النفسية الجسدية وينكرون أن العقل يؤثر في الجسد بأساليب عصبية مباشرة ينبغي أن يفكروا بمسألة الخجل الذي يمكن أن يشعر به الناس ذوو الحساسية الشديدة لمجرد تذكرهم مضايقة عانوا مرة منها ـ وهو مثال على تأثير العقل في الجسم يعد من أوضح الأمثلة التي يرغب بها المرء».

هذا الكلام كلام أطباء بالطبع، ومثلهم كان بطلنا عمر الخيام شاكيل، رجلاً يمارس الطب. بل أكثر من ذلك، كان الرجل مهتماً بتأثير العقل في المادة: في سلوك الإنسان، وهو منوم مغناطيسياً، مختص، مثلاً، في التبدلات النفسية لتلك الفئة المتعصبة من الشيعة التي كان اسكندر حربا يدعوها باستخفاف شديد «بق الفراش»، كما كان مهتماً أيضاً بالاحمرار خجلاً. وهكذا، لن يمضي طويل وقت قبل أن يلتقي معاً صفية زنوبيا وعمر الخيام شاكيل، المريضة والطبيب، زوجة وزوج المستقبل. وذلك طبقاً لما ينبغي، إذ إن ما يجب علي أن أرويه هو قصة حب وليس لها صفة أخرى قط.

لعل وصف ما حدث تلك السنة، أي السنة الأربعين من عمر اسكي حربا وكذلك رضا حيدر، ينبغي أن يبدأ باللحظة التي سمع فيها اسكي أن ابن عمه مير الصغير قد فاز بحظوة كبيرة لدى رئيس الجمهورية وأنه على وشك الترقية إلى منصب رفيع. فقد وثب عارياً من فراشه لدى سماعه النبأ، إلا أن بينكي أورانجزيب، صاحبة الفراش، ومصدر ذلك البأس، لم تتحرك قيد أنملة، رغم أنها كانت تعلم أن أزمة قد انفجرت لتحط على رأسها وأن جسدها ابن الثلاثة والأربعين عاماً الذي كان اسكندر قد كشفه تماماً بوثوبه خارج الفراش دون أن يسمح لملاءة الفراش بعد ذاك بأن تشع ذلك النوع من الإشعاع الذي يطير عقول الرجال، أياً كان ما

يزعجهم. «اللعنة على قبر أمي» فكرت بينكي أورانجزيب وهي تضطجع بعد أن أتت على إحدى عشرة سيجارة متتالية فيما كان اسكندر يتمشى جيئة وذهاباً في الغرفة وقد لف نفسه بملاءة السرير. ثم أشعلت سيجارتها الثانية عشرة حين ترك اسكي الملاءة شارد اللب فسقطت على الأرض. بعدئذ راقبته عارياً تماماً وهو يقطع، بصمت تام، روابطه مع حاضره، ويلتفت إلى المستقبل. كانت بينكي أرملة، فالمارشال العجوز أورانجزيب كان قد رفس السطل أخيراً، وفي هذه الأيام، لم تكن حفلاتها المسائية قضايا جوهرية تماماً كما كانت في الماضي، كما أن شائعات المدينة كانت قد تناولتها أخيراً. «الإغريق القدماء» قال اسكندر على نحو غير متوقع وهو الأمر الذي جعل بينكي تسقط رماد سيجارتها على الفراش «لم يحتفظوا في سجلات الألعاب الأولمبية بأسماء العدائين». بعدئذ ارتدى ثيابه على عجل لكن بذلك التأنق الشديد الذي كانت تحبه فيه دائماً، ثم غادرها في الحال، وكانت تلك الجملة هي التفسير الوحيد الذي حصلت عليه في حياتها. لكن في سنوات العزلة التي عاشتها استطاعت بينكي أن تجد ذلك التفسير. فقد كانت تعلم أن التاريخ ينتظر أن يحظى بالتفاتة من اسكندر حربا وأن رجلاً يحظى بنظرة من عين التاريخ يغدو هذا له خليلاً لا فكاك منه. والتاريخ اصطفاء طبيعي. نسخ متغيرة عن الكفاح في الماضي من أجل السيطرة والسيادة، جنس جديد من الحقيقة ينشأ، أما الحقائق القديمة البالية فتلقى أرضاً، أعقاب سجائر منتهية. وحدها الأشكال المتغيرة للقوة تبقى. أما الضعفاء، النكرات المهزومون فلا يتركون سوى علائم قليلة: نماذج ميدانية، رؤوس فؤوس، حكايات شعبية، أباريق مهشمة، أضرحة دفن، ذكرى باهتة لجمالهم أيام الصبا. التاريخ لا يحب إلا من يسيطر عليه: إنها علاقة استرقاق متبادل. لا مجال فيه لنساء كبينكي. أو، بحسب رأي اسكي، لأشباه عمر الخيام شاكيل.

لكن من يود أن يكون بطل أولمبياد، اسكندراً جديداً، لا بد من أن

يتبع أقسى أنظمة التدريب وأشدها صرامة. وهكذا، بعد أن غادر بينكي أورانجزيب، أقسم اسكي حربا أن يتخلى عن كل شيء يزعزع عزيمته. ولسوف تتذكر ابنته آرجوماند دائماً أن ذلك حدث حين أقلع عن لعب البوكر وليالي الروليت الخاصة، والرهان على الخيول والأطعمة الفرنسية والأفيون والأقراص المنومة، كما أقلع عن عادته في التفتيش تحت طاولات الموائد المثقلة بالفضيات عن الكواحل المستثارة والركب المستسلمة، كواحل وركب حسناوات المجتمع، وكذلك كف عن زيارة العاهرات اللواتي كان مغرماً بتصويرهن بآلة تصوير سينمائية قياس ٨ مليمتر طراز بيلارد بوليكس وهن يمارسن الجنس، فرادى أو جماعات، معه أو مع عمر الخيام، في حفلاتهم الصاخبة تلك. وكانت تلك بداية الحياة السياسية الأسطورية التي توجها انتصاره على الموت ذاته. هذه الانتصارات الأولى، باعتبارها انتصارات على نفسه فقط، كانت انتصارات صغيرة ولا ريب. فقد أزال من مفرداته المدنية العامة مخزونه الهائل من الكلمات الريفية البذيئة الفاسدة التي كان باستطاعتها أن تلقي بالكؤوس البلورية المترعة حتى الحافة من أيدي الرجال وتهشمها قبل أن تبلغ الأرض. (لكن حين كان يشن حملاته الانتخابية في القرى كان يسمح للكلمات البذيئة بأن تمر على لسانه مرة ثانية، مدركاً ما للقذارة والبذاءة من قدرة على إحراز الأصوات). وقد كتم للأبد قهقهاته العالية تلك التي كانت تميز فتى اللهو واستبدل بها ضحكة رجل الدولة المشبعة الكتيمة الخفية. كما أقلع عن العبث بالخادمات اللواتي يعملن في منزله في المدينة.

فهل هناك رجل ضحى بأكثر من ذلك من أجل شعبه؟ لقد أقلع عن حضور مصارعات الديكة، مصارعات الدببة ومبارزات النمور والأفاعي، كما أقلع عن حضور حفلات الديسكو الراقصة ولياليه الشهرية في منزل رئيس الرقابة السينمائية حيث كان يشهد تلك الأفلام الخاصة التي كانوا يجمعونها من أكثر الأفلام القادمة من الخارج إثارة.

كذلك قرر التخلي عن عمر الخيام شاكيل، فأعطى تعليماته للبواب على النحو التالي: «حين يأتي ذلك المنحط السافل ذو المؤخرة السمينة لزيارتي، ارفسوه على قفاه راقبوه وهو ينط نطاً». بعد ذلك اعتزل في مخدعه ذي الزخرفة المفرطة والألوان البيض والمذهبة، ذلك المخدع الواقع في قلب قصره في منطقة «الدفاع»، صرح الإسمنت المسلح والحجارة، وهناك غرق في التأمل.

لكن المدهش أن عمر الخيام، ولفترة طويلة من الزمن، لم يزر صديقه القديم ولم يتصل به هاتفياً، فقد انقضى أربعون يوماً قبل أن يدرك الطبيب ما طرأ من تغير على حياته، عالمه المتحلل، الخالي من الإحساس بالعار.

وفي مكان آخر، من تراها كانت تجلس عند قدمي والدها، بينما تهرم بينكي أورانجزيب وتكبر بها السن في بيت خاو؟ إنها آرجوماند حربا: عمرها ثلاثة عشر عاماً وعلى محياها سيماء القناعة والرضا الشديد، تجلس متصالبة الساقين على الأرض الرخامية للمخدع ذي الزخرفة المفرطة، تراقب اسكي وهو يكمل عملية صنع نفسه من جديد، آرجوماند التي لم تكن قد اكتسبت بعد لقبها الشهير «العذراء ذات السراويل الحديد» ذاك اللقب الذي سيلتصق بها بقية حياتها. لقد كانت تعلم دائماً وهي في سنوات ما قبل النضج أن هناك رجلاً ثانياً داخل والدها، ينمو، ينتظر، وها هو أخيراً ينبثق، بينما ينزلق منه اسكندر القديم لينطرح على الأرض، جلد أفعى طرحته تحت أشعة الشمس، فأية متعة عاشتها وهي تشهد تحوله ذاك، ليغدو لها الأب الذي تستحقه! «أنا التي فعلت هذا» تقول آرجوماند لأبيها اسكندر «حاجتي الماسة لذلك الأب هي التي جعلتك تراه أخيراً». فيبتسم اسكندر حربا لابنته وهو يربت على شعرها «ذلك يحدث دائماً» فتضيف آرجوماند «ليس هناك «عمو» عمر بعد الآن. إنه تخلص حسن من وغد فاسد».

ولسوف تجد آرجوماند حربا نفسها دائماً، هي العذراء ذات

السراويل الحديد، محكومة بكل ما هو متطرف. ففي السابق، حين كانت في الثالثة عشرة، كانت لديها موهبة الاشمئزاز وكذلك موهبة التزلف. الاشمئزاز من شاكيل: ذلك القرد البدين الذي يجثم على كاهل والدها، مغرقاً إياه في الوحل وكذلك والدتها راني وهي في قصرها قصر موهينجو ذي البومات المختبئة في الأثلام، رمز للإخفاق والهزيمة. لقد أقنعت آرجوماند والدها بأن يسمح لها بالعيش في المدينة والذهاب إلى المدرسة، وهي تكن لهذا الوالد أشد آيات التبجيل الذي يبلغ حد العبادة. والآن، وقد صار لديها أخيراً موضوع يستحق العبادة بذاته فإن آرجوماند تعجز عن كبت فرحها فتصرخ «ما الذي لن تفعله يا أبت!! فقط انتظر وسترى!» وكان غياب عمر الخيام بجرمه الكبير أكثر من دليل على أنه حمل معه ظلال الماضي.

أما اسكندر المستلقي في سرير مزخرف بألوان الذهب والثلج والغارق في أحلام يقظة محمومة فإنه يقول بوضوح مفاجئ «إنه عالم الرجل يا آرجوماند. ارتفعي فوق جنسك وأنت تكبرين. فليس في هذا العالم مكان للمرأة». الحنين الشديد الذي تنبض به هذه الجمل هو الذي وسم حشرجات الموت الأخيرة للحب الذي كان يربط بين اسكندر وبينكي أورانجزيب لكن ابنته تأخذ بكلامه وحين ينهد صدرها تعمل على شد ذينك النهدين المتفتحين بمشدات كتانية محكمة إلى درجة تجعلها تحمر ألماً. ولسوف تستمتع كل الاستمتاع بالحرب التي شنتها على جسدها وبالنصر البطيء المؤقت الذي أحرزته على ذلك اللحم الطري المحتقر. . . لكن دعنا نتركهما وشأنهما، الأب وابنته، تلك التي كانت قد حبكت في قلبها من قبل أسطورة اسكندر حربا شبه الإله ذاك، تلك الأسطورة التي لن تكون قادرة على إطلاقها من عنانها إلا بعد موته، هو الذي كان يضع في جلسات نقاثه الجديد الخطط الاستراتيجية لانتصاره المستقبلي ولمواكبته لسنه.

لكن أين تراه عمر الخيام شاكيل؟ ما الذي حل ببطلنا الهامشي؟ هو

الآخر، كان يتقدم في السن، إنه، مثل بينكي، في أواسط أربعيناته. والدهر يعامله معاملة حسنة فقد أضفى على شعره ولحيته الماعزية لون الفضة. لكن لنتذكر أنه كان تلميذاً لامعاً أيام صباه وأن لمعان المدرسة ذاك يظل أبد الدهر لا يبهت ولا يخمد، صحيح أنه فاسق وعابث لكن الصحيح أيضاً أنه الطبيب الأبرع في مستشفى المدينة الرئيسي - اختصاصي شؤون المناعة الذي لا يشق له غبار. كان عمر الخيام، خلال الفترة التي انقضت على رؤيتنا له آخر مرة، قد سافر إلى ندوات ومؤتمرات طبية في أمريكا كما نشر أبحاثاً حول إمكانية وقوع أحداث جسدية نفسية ضمن المنظومة المناعية للجسد، وأصبح رجلاً مهماً. إنه لا يزال بديناً وبشعاً، لكنه يرتدي ملابسه الآن بأسلوب مميز نوعاً ما، كما أن بعض أساليب اسكي في التأنق وخياطة الملابس قد حطت عليه أيضاً. فعمر الخيام يرتدي الرمادي: بدلات رمادية، قبعات، ربطات عنق، أحذية سويدية رمادية، سراويل داخلية من الحرير الرمادي، لكأنما يأمل أن يخفف انكتام ذلك اللون الكثير من بهرجة هيئته الجسدية. إنه يحمل هدية من صديقه اسكندر: عصا سيفية ذات رأس فضي من وادي آنسو، اثنتا عشرة بوصة من الفولاذ المصقول تختفي في خشب جوز زخرفي النقش.

إنه في هذه الأيام لا ينام أكثر من ساعتين ونصف كل ليلة، غير أن حلم سقوطه عن حافة الدنيا لا يزال ينتابه من حين إلى آخر. إنه ينتابه أحياناً وهو مستيقظ، ذلك أن الناس الذين ينامون قليلاً يجدون من الصعب حراسة الحدود القائمة بين عالم النوم وعالم اليقظة. والأشياء تنزلق بين أعمدة الحدود الإسمنتية غير المحروسة، متجنبة مخافر الجمارك... وفي أوقات كهذه يهاجمه دوار فظيع، لكأنما يقف على قمة جبل يتداعى، عند ذاك ينحني بتثاقل على عصاه السيفية لمنع نفسه من السقوط. كذلك ينبغي القول إن إنجاحه المهني وصداقته مع اسكندر حربا كان لهما تأثير هام هو التقليل من عدد نوبات الدوار هذه، وإبقاء

قدمي بطلنا أكثر ثباتاً على الأرض. لكن لا يزال الدوار ينتابه بين الفينة والفينة، ليذكره كم هو قريب وكم سيكون دائماً قريباً من الحافة.

لكن أين تراه ذهب؟ لماذا لا يتصل هاتفياً بصديقه، يزوره، يتلقى الرفسات على قفاه؟ إنني أكتشفه في بلدة «ك»، في بيت أمهاته الثلاث، ذلك البيت القلعة، وعلى الفور أعلم أن كارثة ما حلت، إذ ما من شيء آخر يغري عمر الخيام بالعودة إلى مسقط رأسه مرة ثانية. فهو لم يزر «نيسابور» منذ اليوم الذي غادرها فيه وقدماه على لوح جليدي مبرد، بل كان يبعث شيكات المصارف بدلاً منه. كانت نقوده تعوض عن غيابه.. تدفع الثمن لكن، ثمة أثمان أخرى أيضاً، وليس هنالك من فرار أبدي. انقطاعه المتعمد عن ماضيه يمتزج بسهد لياليه الإرادي: ليتركا تأثيراً مشتركاً واحداً هو إيقاد حسه الأخلاقي وتحويله إلى ما يشبه الزومبي[1] الأخلاقية، بحيث بات ابتعاده ذاته يساعده في إطاعة تعليمات أمهاته القديمة: أن لا يحس بالعار.

إنه يحتفظ بعينيه اللتين تنوّمان مغناطيسياً، وبصوته صوت المنوم المغناطيسي. سنوات كثيرة مرت على اسكندر حربا وهو يصحب تينك العينين، ذلك الصوت إلى فندق الانتركونتيننتال ثم يتيح لهما الفرصة كي تعمل لصالحه، فقبح عمر الخيام الفائق الحد، حين يجتمع مع العينين والصوت، يجعله جذاباً في أعين الناس البيض اللواتي هن من نمط معين. إنهن يستسلمن لمغالاته التي يقدمها من خلال التنويم المغناطيسي ولوعوده بكشف أسرار الشرق تلك الوعود التي لا ينطق بها، فيأخذهن إلى جناح أحد الفنادق ويمارس عليهن سحره. وبتحررهن من الكوابح والقيود الاجتماعية يقدمن لعمر واسكي بعضاً من أفعال الجنس ذات الشحنة العالية. وشاكيل يدافع عن سلوكه بقوله: «من المحال أن تقنع

(١) الزومبي: هي الأفعى المؤلهة في الديانة الودونية، أو القوة فوق الطبيعية التي يزعم المعتقد الودوني أنها تدخل أجساد الموتى فتحييها.

من تمارس عليه التنويم المغناطيسي بأن تفعل شيئاً لا ترغب في فعله».
لكن اسكندر حربا لم يزعج نفسه يوماً بالبحث عن الأعذار والمبررات ـ وهذا أيضاً جزء مما تخلى عنه اسكي ـ الذي لم يعد معروفاً لدى عمر الخيام والذي تخلى عنه كرمى للتاريخ.

عمر الخيام في «نيسابور» لأن أخاه بابار مات. الأخ الذي لم يره قط، مات قبل ذكرى ميلاده الثالثة والعشرين، وكل ما خلفه وراءه حزمة دفاتر قذرة سيحملها معه عمر الخيام حين يعود إلى كراتشي بعد انقضاء أيام الحداد الأربعين. لقد مات بابار بطلقة رصاص وقد صدر أمر إطلاق النار عن... لكن لا، الدفاتر أولاً: حين نزلوا بجسده من «الجبال المستحيلة» تنبعث منه رائحة الفساد والماعز، أعيدت الدفاتر في جيوبه إلى عائلته وقد فقد الكثير من صفحاتها. لكن بين البقايا الممزقة لهذه الدفاتر التي تعرضت لشتى أصناف الوحشية، يمكن للمرء أن يفك رموز سلسلة من قصائد الحب الموجهة إلى مطربة أسطوانات شهيرة لم يسبق لبابار شاكيل أن رآها قط. كما وجد أنه يتناثر بين قصائد هذا الحب المجرد ذات الأوزان المضطربة التي كانت تختلط فيها الترانيم الموجهة إلى روحية صوتها بالأشعار المنحلة ذات التوجه الجنسي المفضوح، أقول وجد وصف لإقامته في الجحيم في وقت سابق، تسجيل للعذاب الذي لاقاه لكونه الأخ الأصغر لعمر الخيام.

فطيف الأخ الأكبر كان يسكن كل ركن من أركان «نيسابور» إذ كانت أمهاته الثلاث اللواتي بتن يعشن على ما يرسله الطبيب، ولم يعد لهن أي تعامل مع صاحب مكتب الرهن، قد اتفقن سراً على أن يجعلن طفولة بابار رحلة بلا حراك في معبدهن الذي لا يتحول ولا يتغير والذي كانت جدرانه مشبعة بتمجيد الابن الأكبر، ذلك الراحل المجيد. وبما أن عمر الخيام كان أكبر منه بكثير وكان قد فر منذ زمن طويل من تلك المنطقة المهجورة النائية التي يتجول في شوارعها هذه الأيام عمال حقول الغاز السكارى مع عمال مناجم الفحم الفارين من عملهم وكذلك عمال مناجم

القصدير والنحاس والكروم، والتي لا تزال تطل على سطوحها قبة فندق فلاشمان المتصدعة، فقد طغى على الطفل الصغير بابار شعور بأن أباه الثاني اضطهده وتخلى عنه، وفي بيت النساء ذاك الذي لا يعرف إلا مشاعل الماضي، احتفل الفتى بعيد ميلاده العشرين وهو يحمل وثائق الامتحان والأوسمة الذهب وقصاصات الصحف والكتب المدرسية القديمة وملفات الرسائل ومضارب الكريكيت أي باختصار كل ما تركه أخوه الكبير اللامع من ذكريات في ذلك البيت المعتم الكئيب، ثم أشعل النار بكل ذلك قبل أن تتمكن أمهاته من إيقافه. وبإدارته ظهره إلى المشهد غير المجيد حيث كانت العجائز يبحثن ملهوفات بين ذرات الرماد الحار عن نتف الصور المحروقة وعن الميداليات التي حولت النار ذهبها إلى رصاص، شق بابار طريقه عبر النادل ـ الأبكم إلى شوارع بلدة «ك»، تخمد أفكاره وذكرياته عن عيد ميلاده ذاك شكوكه بالمستقبل. وكان بابار يتجول بلا هدف، يقلب الأفكار في الاحتمالات القليلة المتاحة أمامه، حين بدأ الزلزال.

في البداية ظن أنه رعشة في جسده، غير أن لطمة على جبهته وجهتها له نثرة صغيرة حادة الطرف، جلت ضباب الاستغراق الذاتي عن ناظري شاعر المستقبل. «إنها تمطر زجاجاً» فكر بابار مندهشاً وعيناه تطرفان طرفاً سرياً في أزقة سوق اللصوص التي قادته إليها قدماه دون أن يدري، الأزقة ذات الأكشاك الصفيحية الصغيرة التي كانت رعشته الداخلية المزعومة قد حولتها إلى خليط عجيب: بطيخ يتفجر عند قدميه، أخفاف حادة الرؤوس تتساقط من رفوف تهتز، أحجار كريمة، أقمشة بروكار، أوان فخارية، أمشاط تتساقط وقد اختلط حابلها بنابلها في الأزقة المغطاة بنثار الزجاج. وقف بابار كالأبله وسط ذلك الدفق الزجاجي المنسكب من النوافذ المحطمة، يملأه إحساس طاغ بأنه فرض اضطراباته الخاصة على العالم من حوله، ويقاوم قوة مجنونة تدفعه لأن يمسك بأحد الناس، كائناً من كان من ذلك الحشد المذعور المختلط من

النشالين والباعة وأصحاب الحوانيت كي يعتذر له عن الاضطراب الذي سببه.

لقد كتب بابار في دفتره يقول: «ذلك الزلزال زلزل شيئاً ما في داخلي، أفلته من عقاله فكان رعشة صغرى، لكن ربما هي أيضاً زلزلت شيئاً ما في الموضع الملائم».

حين عاد السكون فخيم على العالم من جديد، سعى باحثاً عن جحر براندي رخيص، شاقاً طريقه عبر شظايا الزجاج ماراً بزمجرات المالك النافذة كالزجاج أيضاً وعندما دخل (طبقاً لما تقوله الدفاتر) لمح، عبر زاوية عينه اليسرى، رجلاً مجنحاً متوهجاً توهج الذهب يطل عليه من طرف السطح، لكن حين فتل رأسه إلى الأعلى كان الملاك قد اختفى. فيما بعد، حينما كان في الجبال مع رجال العصابات القبليين الانفصاليين، حكوا له قصة الملائكة والزلازل والفردوس تحت الأرضي، معتقدين أن الملائكة المذهبين يقفون إلى جانب رجال العصابات ويهبونهم إيماناً لا يتزعزع بعدالة قضيتهم كما يسهلون عليهم الموت في سبيلها. وقد كتب بابار «النزعة الانفصالية هي الاعتقاد بأنك رجل صالح إلى حد يكفي لأن تفر من قبضة الجحيم».

قضى بابار شاكيل عيد ميلاده يسكر ويخمر في جحر الزجاجات المهشمة ذاك مخرجاً أكثر من مرة شظايا الزجاج من فمه، بحيث لم يصل إلى نهاية السهرة حتى كانت ذقنه مخططة بآثار الدم، غير أن المشروب المتناثر عليها عقم ما أصابها من جروح وقضى على خطر الكزاز. في حانوت البراندي رجال قبائل، مومس حولاء العينين، مهرجون متنقلون بطبولهم وأبواقهم. وكانت طرائف المهرجين ونكاتهم تعلو وتعلو مع تقدم الليل، ومزيج من الصخب والدعابة يشكل كوكتيلاً منح بابار شعوراً ذا أبعاد هائلة إلى درجة لم يستطع بعد ذاك التخلص منه قط.

ويا للقهقهات! يا للنكات التي سيعتبرها أي إنسان آخر حين يسمعها ـ بذاءة: هيه ـ اسمعوا، هل تعلمون ما يقوله المطهر حين يختن الأطفال

الصغار من كلمات مقدسة؟ ـ يا غلام أنا أعلم. إذاً ما الذي قاله حين ختن ريزور غوتز العجوز؟ لا أعلم، ما الذي قاله يا ترى؟ ـ كلمة واحدة فقط، أوه. كلمة واحدة ثم ألقي به خارج المنزل! ـ يالله! لا بد أنها كانت كلمة بذيئة، هيا، قلها ـ هي يا سادتي: «يا للهول!»

بابار شاكيل غارق في حالة خطرة من الثمل. جو المرح يدخل مجاريه الدموية فيؤثر في انكتامه الدائم ـ هيه يا سيد، أنت تعلم أنهم يقولون عنا، نحن رجال القبائل إننا عديمو الوطنية تدفعنا دوافع جنسية، حسناً، ذلك صحيح، لكن هل تود أن تعرف السبب؟ ـ نعم. ـ إذن خذ وطنية. رقم واحد، الحكومة تأخذ أرزنا لإطعام الجند، وعلينا أن نرفع رأسنا بذلك، لا، لكننا نتذمر من نقطة واحدة هي أنه لا يبقى لنا شيء. رقم اثنين الحكومة تستخرج ثرواتنا المعدنية والاقتصاد يزدهر، ونحن لا نشكو إلا من أمر واحد هو أنه ما من أحد هنا يرى شيئاً من مردودها. رقم ثلاثة، الغاز المستخرج من وادي النيدل يوفر الآن ستين بالمائة من الحاجات الوطنية، لكننا لا نزال بائسين، نشكو الليل والنهار من أن الغاز غير متوفر محلياً في أي ناحية من هذه الأنحاء. إذاً لا بد من أن توافق الآن على الأسباب التي تجعل الناس أقل وطنية. لكن لحسن الحظ أن حكومتنا تريد أن نظل ساكنين إلى حد جعلت معه دافعنا ـ الجنسي صاحب الأولوية في دوافعنا الوطنية ـ كيف ذلك؟ من اليسير رؤيته: فهذه الحكومة يسعدها أن تستمر في خوزقتنا من اليوم وحتى يوم القيامة. أوه، رائع، يا صاحبي، رائع.

في اليوم التالي غادر بابار المنزل قبل الفجر لينضم إلى رجال العصابات وبعد ذاك لم يره أحد من عائلته على قيد الحياة. من صناديق «نيسابور» التي لا أرضية لها أخذ بابار بندقية عتيقة وعلب الذخيرة التي وجدها معها، كما أخذ بضعة كتب وميدالية من ميداليات عمر الخيام الأكاديمية التي كان قد حولها بواسطة النار إلى معدنها الأساسي كي يذكر نفسه، ولا شك، بأسباب إقدامه على الانفصال الخاص به وأصول

الكراهية التي كانت طاغية إلى حد يكفي لإحداث زلزال. في مخبئه، في «الجبال المستحيلة»، أرخى بابار لحيته ودرس البنية المعقدة لعشائر الجبال، كما كان يكتب شعراً ويستريح بين الغارات التي كانوا يشنونها على المواقع العسكرية والسكك الحديد وخزانات المياه. كذلك استطاع أخيراً، وبفضل متطلبات النأي عن الأهل والمدينة، أن يبحث في دفاتره مسألة الحقوق النسبية في وطء الأغنام والماعز. فهناك رجال عصابات كانوا يفضلون استسلام النعجة وسلبيتها، في حين كان من المستحيل على بعضهم الآخر مقاومة حركية المعزى وحيويتها الأكبر. وقد شط الأمر بكثير من زملاء بابار إلى درجة وقعوا معها في غرام معشوقات من هذه البهائم ذوات الأربع ورغم أنهم كانوا جميعاً من الرجال المطلوبين للعدالة إلا أنهم كانوا يخاطرون بحياتهم ويذهبون إلى أسواق «ك» لابتياع هدايا لمعشوقاتهم: أمشاط صوف، شرائط زينة وأجراس للحبيبات الغاليات اللواتي لم يتنازلن يوماً من الأيام فعبرن عن امتنانهن. أما بابار فقد سما بروحه (إن لم يكن بجسده) على أمور كهذه، إذ كان يسكب خزان عاطفته الذي لم تلمسه يد على تلك الصورة التي رسمها ذهنه لمطربة شعبية لم ترها عيناه قط، وهو يسمع غناءها من مذياعه الصغير المتصدع.

أطلق رجال العصابات على بابار اسماً مستعاراً كان يفتخر به كل الافتخار: فقد سموه «الإمبراطور» تخليداً لذكرى ذلك الإمبراطور الآخر بابار الذي اغتصب منه العرش والذي مضى إلى الجبال بجيش مشتت ليؤسس أخيراً تلك السلالة الشهيرة من الحكام الذين ما تزال كنيتهم تستخدم كلقب شرف يمنح لملوك السينما. بابار، إمبراطور «الجبال المستحيلة..». لكن قبل يومين من رحيل رضا حيدر عن بلدة «ك»، شنت آخر غارة بقيادة الآمر العظيم نفسه، غارة تم فيها إطلاق الرصاصة التي صرعت بابار أرضاً.

لكن ذلك لا يهم، إذ كان قد أمضى وقتاً طويلاً مع الملائكة،

وهناك في الجبال الخادعة المتغيرة دائماً، كان يراقبهم بأجنحتهم وصدورهم المذهبة، وفوق رأسه كان يرفرف رؤساء الملائكة وهو ساهر يقوم بواجب الحراسة على ريف من الصخور. نعم، لعل جبريل نفسه كان قد حوم بكل محبة فوقه كطائرة مروحية مذهبة فيما هو يغتصب نعجة من النعاج. قبل فترة وجيزة من موته كان رجال العصابات قد لاحظوا أن بشرة رفيقهم ذي اللحية بدأت تشع ألقاً أصفر: كما تفتحت على كتفيه البراعم الصغيرة لأجنحة جديدة. إنه تحول مألوف بالنسبة إلى أصحاب الجحور من سكان الجبال المستحيلة. «لن تظل هنا طويلاً» قالوا لبابار بأصوات تنضح حسداً «ستمضي يا إمبراطور ولن تستمتع بعد اليوم بشياهك». وهكذا فإن تحول بابار إلى ملاك كان قد اكتمل ولا بد حين حانت منيته، وكان ذلك حين هاجمت وحدته قطار بضائع معطلاً على ما يبدو فوقع في شرك رضا حيدر، وعلى الرغم من أن ثماني عشرة رصاصة خرقت جسده ذاك الذي كان هدفاً سهلاً إذ كان يتوهج ألقاً أصفر في الليل رغم ثيابه، إلا أنه كان من السهل عليه أن يتخلص من جلده ليحلق في السماء ككتلة ضوء مجنحة ويدخل أبدية الجبال، حيث ارتفعت من قبل سحابة عظيمة من أطياف الملائكة حين اهتز العالم ودوى، وهكذا مع موسيقى القصب والمزامير والطبول السماوية كانت أحضان الأرض السعيدة تستقبل بابار. وحين جاؤوا بجسده كان قد غدا، بحسب ما قيل، روحانياً خفيفاً كجلد سلخته أفعاه قبل سنين، كذاك الإهاب الذي تتركه أفاعي الكوبرا ورجال المرح والعبث وراءهم حين يتبدلون، لقد قضى بابار، مضى الأحمق لما فيه خيره.

وبالطبع، لم يرد وصف موته في أي من دفاتره، إلا أنه ورد في خيالات أمهاته الثلاث الحزانى، إذ إنهن قلن لعمر الخيام وهن يعدن على مسامعه قصة تحول ابنهن إلى ملاك، «إن لدينا الحق كله في أن نمنحه ميتة حسنة، ميتة يمكن للأحياء أن يحيوا بها». وبتأثير المأساة التي حلت بهن، فقد بدأت شوني وموني وبوني يتداعين من الداخل،

ليصبحن مجرد واجهات، كائنات نورانية كجثة ابنهن التي سلخت جلدها وطارت، روحاً متألقة إلى السماء (لكنهن عدن وتماسكن أخيراً).

لقد أعيدت الجثة إليهن بعد بضعة أسابيع من اختراق الرصاصات الثماني عشرة لها. كذلك تلقين معها رسالة على ورقة رسمية كتب عليها: «وحده ماضي عائلتكن واسمها الكريم يحميكن من عواقب ما اقترفه ابنكن من إثم وعار. فنحن نرى أن هناك الكثير مما ينبغي أن تجيب عليه عائلات رجال العصابات هؤلاء». وكانت الرسالة تحمل توقيع رضا نفسه، الحاكم السابق الذي وقع عليها قبل رحيله والذي عرف ولا بد أنه دبر موت الغلام الذي شاهده، قبل سنوات عدة، يراقبه بمنظاره الميداني من نافذة الطابق العلوي للبيت المعزول الواقع بين الكانت والسوق العامة.

لكن رحمة بعمر الخيام شاكيل ـ ولكي نوفر احمراره خجلاً، على سبيل المثال ـ لن نصف المشهد الذي جرى عند باب منزل آل حربا حين وصل الطبيب أخيراً إلى هناك، تقلّه سيارة أجرة وفي يده دفاتر أخيه. إذ تلقى من الرفسات ما مرغه بالتراب في الحال، وتحت وطأة الثقل الشديد لرفض اسكندر هذا له، عانى عمر الخيام من نوبة دوار حادة سقط معها مريضاً في مقعد السيارة الخلفي (لكنني سألقي فوق ذلك أيضاً حجاباً ثقيلاً). مرة أخرى، كان الآخرون قد تصرفوا وبتصرفهم ذاك صاغوا قصة حياته: هروب بابار، رصاصات حيدر، ترقية مير حربا وما نجم عن ذلك من تبدل في موقف اسكندر إضافة إلى رفسة تلقاها بطلنا على أسنانه. في ما بعد أي حين وصل إلى منزله (ونحن لم نزر منزل شاكيل من قبل: إنه شقة معتمة في أحد أحياء المدينة السكنية القديمة تتألف من أربع غرف فارغة تماماً من كل شيء ما خلا الأثاث الضروري للغاية وكأن شاكيل بعد أن بلغ الرشد تمرد على كل ذلك التكديس العجيب الذي يشكله بيت أمهاته، واختار، عوضاً عنه، صورة عن مسكن الزاهد ذي الجدران العارية، مسكن أبيه المختار، ذلك المعلم المختفي صاحب قفص

الطيور، إدواردو رودريغز. وكل أب يحذّر ويغري في آن معاً). أقول حين وصل إلى ذلك المنزل الذي أرغمه سائق السيارة الساخط المهتاج على الوصول إليه ماشياً، لجأ إلى فراشه وهو في آخر رمق تقريباً، فقد كان رأسه لا يزال يفتل، ثم وضع رزمة الدفاتر الممزقة على الطاولة المجاورة لسريره وقال وهو يلقي بنفسه في بحر النوم: «ببابار، الزمن طويل».

في اليوم التالي عاد عمر الخيام إلى العمل، وفي اليوم الذي تلاه بدأ يقع في الغرام.

كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان هناك رقعة أرض ذات موقع ساحر في قلب المنطقة الأولى من الأبنية السكنية التابعة لجمعية الضباط السكنية التعاونية، إلى يمينها المقر الرسمي لوزير التربية والسياحة والإعلام، وهو مبنى مهيب جدرانه مكسوة بالرخام الأخضر المخطط بالأحمر وإلى يساره بيت أرملة المرحوم المارشال أورانجزيب، رئيس هيئة الأركان لكن رغم الموقع والجيران ظلت رقعة الأرض تلك خاوية، لا أساسات حفرت هناك ولا أعمدة رفعت من أجل إشادة جدران من الإسمنت المسلح. ولسوء حظ مالكها، فقد كانت رقعة الأرض تلك تشكل تجويفاً صغيراً إلى حد كانت معه الأمطار التي تهطل خلال يومي المطر اللذين تستمتع بهما المدينة كل عام، تغرق رقعة الأرض الخلاء وتحيلها إلى بحيرة من طين. هذه الظاهرة غير المألوفة، ظاهرة البحيرة التي تبعث إلى الوجود لمدة يومين اثنين كل سنة ثم تجففها الشمس بعد ذاك مخلفة وراءها طبقة رقيقة من الوحل والنفايات والأوساخ كانت تكفي لتثبيط عزيمة كل من يحتمل أن يقدم على بنائها رغم أهمية الموقع الذي تشغله الرقعة كما ذكرنا آنفاً، فالآغا خان يملك المسكن الواقع في أعلى التلة والابن الأكبر للرئيس، الفيلدمارشال محمد آ. يقطن على مقربة منها أيضاً. هذه الرقعة البائسة من الأرض هي التي اختارت بينكي أورانجزيب تربية الديوك الرومية عليها.

فأرملة المارشال قررت، بعد أن هجرها عشيقها ومات عنها

زوجها، أن تلتفت إلى الأعمال الحرة. لقد فتنها نجاح الخطة الجديدة التي كانت الخطوط الجوية الوطنية قد بدأت حديثاً العمل بها من مدخراتها الموجودة في أطراف المطار، لذلك قررت بينكي أن تتوجه إلى الطيور الأكبر، لم يكن المسؤولون عن الجمعية السكنية قادرين على مقاومة إغراء السيدة أورانجزيب (ولعله كان قد تقلّص قليلاً، إلا أنه كان لا يزال شديداً بالنسبة إلى الكتبة والموظفين) لذلك غضوا النظر عن جموع الطيور المكركرة التي أطلقته السيدة في رقعة الأرض الخالية التي تحيط بها الجدران من كل مكان. أما السيدة بلقيس حيدر فقد اعتبرت قدوم الديوك الرومية إهانة موجهة إليها شخصياً. لذا، كانت تلك السيدة المترفعة التي قيل عنها إن مشاكل زواجها باتت تشكل ضغوطاً شديدة ومتزايدة على دماغها، تعمد إلى الإطلال من نوافذ بيتها وتحقير الطيور الصاخبة «هيه، كفي، أيتها الطيور الحمقاء! ديوك رومية تثير من الصخب ما لا يعلم إلا الله، وأين؟ بجوار منزل الوزير بالضبط! انتظري إن لم أقطع حناجرك!».

وحين ناشدت بلقيس زوجها أن يفعل شيئاً بصدد تلك الطيور التي تكركر دون توقف والتي تقضي على ما يبقى في رأسها من سلام، اقتصر رضا حيدر على الإجابة بكل هدوء: «إنها أرملة مارشالنا العجوز، أيتها الزوجة. ولا بد من غض النظر». كان وزير التربية والإعلام والسياحة قد عاد إلى البيت متعباً بعد يوم عمل شاق وافق فيه على الإجراءات التي تضفي الصبغة الشرعية على سرقة الحكومة لنصوص الكتب العلمية الغربية، كما أشرف شخصياً على تدمير إحدى دور النشر الصغيرة التي كانت المنشورات المضادة للدولة تطبع فيها سراً والتي اكتشف وجودها في قبو خريج فنون عائد من إنكلترا أفسدته الأفكار الأجنبية المستوردة. كذلك ناقش مع تجار الفنون الرئيسيين في المدينة تلك المشكلة النامية، مشكلة نهب العاديات من مواقع البلاد الأثرية ـ وينبغي أن يضيف المرء أنه ناقش القضية بحساسية مفرطة إلى درجة جعلت التجار يقدمون له،

اعترافاً بجميله، رأساً حجرياً صغيراً من تاكسيلا، يعود تاريخه إلى حملة الاسكندر الكبير في الشمال. أي باختصار، لم يكن رضا حيدر في مزاج مناسب للديوك الرومية.

لكن بلقيس لم تكن قد نسيت ما ألمح إليه ذات يوم ذلك الرجل البدين بخصوص زوجها والسيدة أورانجزيب في شرفة الموهينجو قبل بضع سنوات، كما تذكرت تلك الليلة التي قام فيها زوجها بربط نفسه إلى وتد دق في الأرض كرمى لعينيها، وكانت قد أصبحت، وهي في سن الثانية والثلاثين، عصبية المزاج أكثر وأكثر. فتلك هي السنة التي كانت فيها رياح «اللو» تهب على نحو أشد من أية سنة سابقة، كما أن حالات الحمى والجنون كانت قد تضاعفت بنسبة أربعمائة وعشرين بالمائة... وهكذا وضعت بلقيس يديها على جانبي خصرها وصرخت بزوجها رضا بحضور ابنتيها الاثنتين: «أوه! يا له من يوم رائع بالنسبة إلي؟ إنك تريد الآن إذلالي بهذه الطيور». فشرعت ابنتها الكبرى، المتخلفة عقلياً، تحمر خجلاً، إذ كان واضحاً أن الديوك الرومية ذات الكركرة الدائمة لم تكن بالحقيقة سوى نصر آخر حققته بينكي أورانجزيب على الزوجات الأخريات، آخر نصر لم تكن صاحبته عارفة به على الإطلاق.

وكان يا ما كان في قديم الزمان، كان هناك ابنة متخلفة عقلياً ظلت تلقم طيلة اثنتي عشرة سنة إلى أن أدركت أنها تجسد عار أمها. نعم، الآن، علي أن أصل إليك، أنت يا صفية زنوبيا، وأنت في سريرك ذي الحجم الكبير والملاءة المطاطية، داخل ذلك المقر الوزاري ذي الجدران الرخامية، في غرفة نومك في الطابق العلوي الذي كانت كركرة الديوك الرومية تصل إليك عبر نوافذه، بينما كانت أختك وهي تجلس إلى طاولة زينتها الرخامية تصيح بالمربية أن تشد لها شعرها.

كانت صفية زنوبيا في نهاية عامها الثاني عشر قد اعتادت عادة بشعة هي تنتيف شعرها. فحين كانت المربية الفارسية شهبانو تغسل لها جدائلها الكستنائية الداكنة، كانت باستمرار ترفس وتصرخ، وكانت

المربية تضطر دائماً لأن تتوقف قبل غسل آخر آثار الصابون. والحضور الدائم للمنظف الذي تشبه رائحته رائحة خشب الصندل كان يجعل صفية زنوبيا في حالة مخيفة من جنون الانتقام. إذ تجلس في سرير الأطفال الضخم الذي كان والداها قد صنعاه لها خصيصاً (والذي حملوه معهم من بلدة «ك»، بكل توابعه من مفارش أطفال كبيرة الحجم وملاءات أسرة مطاطية) ثم تبدأ بتمزيق كل شعرة تنتفها إلى شعرتين. وكانت تفعل هذا بكل جد ومنهجية كما لو أنها تمارس طقساً من الطقوس توقع الأذى بنفسها، تماماً كدراويش الشيعة، أصحاب إسكندر حربا وهم يمارسون طقوسهم في يوم عاشوراء. وحين تفعل ذلك كانت عيناها تدلهمان بلمعة قاتمة، لمعة جليد ناء أو نار تتوقد بعيداً هناك تحت سطحهما القاتم عادة أو كانت كتل الشعر المنتوفة تتناثر حول وجهها لتشكل تحت أشعة الشمس ما يشبه هالة الدمار.

كان ذلك في اليوم الذي أعقب ثورة بلقيس حيدر على الديوك الرومية. في ذلك اليوم نتفت صفية زنوبيا شعرها في سريرها الطفولي. غير أن غودنيوز، ذات الوجه المسطح كرغيف الخبز، قررت أن تبرهن على أن عرفها ذا الكثافة الهائلة نما إلى حد يكفي للجلوس عليه. وهكذا صرخت بشهبانو الشاحبة وهي تدفع برأسها إلى الوراء «شدي! شدي بكل ما في استطاعتك، أوه، ماذا تنتظرين يا غبية! يا حقيرة» حينها حاولت المربية ذات الجسم الضعيف والعينين المجوفتين أن تسحب أطراف الشعر وأن توصله إلى أسفل كفل غودنيوز، فاغرورقت مقلتا الفتاة المفعمتان عزماً بدموع الألم: «جمال المرأة» قالت الفتاة شاهقة «إنما ينمو وينحدر من أعلى رأسها. فمن المعروف تماماً أن الرجال يجنون بالشعر اللامع الذي ينسدل حتى الكفل». فقالت شهبانو بنبرة مجردة: «لا خير في ذلك يا صغيرتي فلا تتابعيه». عندها لطمت غودنيوز مربيتها ثم التفتت إلى أختها مغضبة: «أنت. انظري إلى نفسك. من تراه يتزوجك بهذا الشعر حتى لو كان في رأسك دماغ؟ لفت. شوندر. فجل

إنكليزي. انظري كم تسببين لي من إزعاج بنتفك لشعرك. الأخت الكبرى ينبغي أن تتزوج أولاً، لكن من تراه سيطلب يدها، أيتها المربية؟ أقسم إنك لمأساتي، لكنك لا تدرين. هيا الآن، اسحبي ثانية، هذه المرة لا تزعمي أنه لا يصل ـ لا، لا تهتمي بتلك الحمقاء الآن، دعيها وخجلها النتن وتبليلها لثيابها. إنها لا تفهم. بل ما تفهمه لا يتعدى الصفر». فترد شهبانو هازة كتفيها غيرة متأثرة بضربات نفيد حيدر: «عليك ألا تتكلمي بهذه الطريقة مع أختك يا صغيرتي، إذ سيأتي يوم يصبح لسانك فيه بذيئاً ساقطاً».

الأختان في الغرفة بينما تبدأ الريح الساخنة في الخارج بالهبوب، فتغلق مصاريع النوافذ في وجه العاصفة المسعورة. وهكذا مع تزايد شدة رياح اللو وغضبها، يهجع المنزل مستسلماً للرقاد. شهبانو تفرش حصيراً على الأرض بجوار سرير صفية زنوبيا، وغودنيوز التي استنزف قواها شد ـ الشعر تبسط يديها وذراعيها على سريرها، سرير ابنة العاشرة. الأختان هاجعتان وفي هجعة الرقاد يتكشف وجه الفتاة الصغرى عن تسطحه، وقد جرده النوم من التصميم الذي يكتسبه وقت اليقظة في أن يكون جذاباً، بينما تفقد المعتوهة، وهي نائمة، خواء وجهها من التعبير، فتبدو جمالية سيمائها النموذجية الشديدة تسر أي ناظر. أية تناقضات تحملها هاتان الفتاتان! صفية زنوبيا الضئيلة الحجم إلى حد مزعج (لا، ستتجنب بأي ثمن مقارنتها بنموذج مصغر شرقي) وغودنيوز الممطوطة الممشوقة. صفية وغودنيوز، العار والبشرى: الأولى ببطئها وصمتها والأخرى بسرعتها وصخبها. غودنيوز التي تحملق بوقاحة فيمن هم أكبر منها وصفية التي تشيح بناظرها عنهم. لكن نفيد حيدر هي ملاك أمها الصغير وهي التي تفوز منها بكل شيء. «تصوروا»، سيفكر عمر الخيام في وقت لاحق من المستقبل «تصوروا لو أن فضيحة الزواج تلك حدثت لصفية زنوبيا! إذاً لكانوا قد سلخوا جلدهم وأرسلوها إلى الجحيم!».

اسمعوا: بإمكانكم أن تأخذوا كل ما في صدر غودنيوز حيدر من

حب لأختها وتضعوه في مغلف ثم تختموه وترسلوه بالبريد الجوي إلى أي مكان في العالم مقابل ليرة واحدة، فذلك سيكون وزنه... لكن أين وصلنا بقصتنا يا ترى؟ أوه، نعم، الرياح الساخنة تهب فيطغى عويلها على كل صوت آخر، تلك الرياح الشديدة الجافة تحمل المرض والجنون على أجنحتها الرملية الحادة، أسوأ رياح «لو» يذكرها إنسان حي، رياح تطلق الشياطين لتسرح وتمرح في العالم، شاقة طريقها عبر مصاريع النوافذ كي تنكب بلقيس بأشباح ماضيها المرعبة إلى درجة ظلت فيها بلقيس، رغم دفنها لرأسها تحت الوسادة، ترى أمام عينيها تمثال الفارس المذهب الذي يحمل لوحة تتوهج عليها كلمة غامضة إلى حد مخيف، كلمة «نجارة». لم يكن بالإمكان سماع حتى كركرة الديوك الرومية بسبب العاصفة الرملية التي التجأ منها كل ابن أنثى، وحينذاك بدأت أصابع الريح الممزقة تتغلغل إلى غرفة النوم التي كانت الأختان ترقدان فيها، فبدأت إحداهما تتحرك. من اليسير أن نضع اللوم على الريح. فربما كان لتلك العاصفة المشؤومة شأن بالأمر بشكل من الأشكال ـ ربما، فعندما لامست صفية زنوبيا، احمرت وجنتاها للمسة يدها المخيفة وتوهجت، وربما كان ذلك هو السبب في أنها نهضت من فراشها، عيناها خاويتان كالسراب ثم غادرت الغرفة ـ لكنني أفضل أن أعتقد أن الريح لم تكن أكثر من عذر، مبرر جاء بالمصادفة، ذلك أن ما حدث إنما حدث لأن اثنتي عشرة سنة من الإذلال الخالي من كل الحب تؤثر حتى في المعتوهين والبلهاء، ولأن هناك دائماً نقطة لا يمكن لشيء أن يتجاوزها دون أن يتحطم، نقطة تستطيع فيها القشة أن تقصم ظهر البعير: فهل كان لذلك علاقة بهموم غودنيوز في ما يتعلق بالزواج؟ أم بهدوء رضا في وجه بلقيس وهي تصرخ؟ من الصعب تحديد ذلك.

لا بد أنها كانت تسير في نومها، إذ إنهم حين وجدوها كانت تبدو مرتاحة وكأنها مستغرقة في سبات عميق. ذلك أنه حين سكنت الريح وأفاق أهل البيت من قيلولتهم العصرية المضطربة لاحظت شهبانو سرير

الفتاة الخاوي فدقت النفير في الحال. بعد ذاك لم يستطع أحد أن يستنتج كيف فرت الفتاة وكيف عملت على أن تسير في نومها عبر كل ما في المنزل من أثاث حكومي وحراس. لكن شهبانو ستقول إن السبب هو الريح ولا بد، الريح التي جعلت الحراس ينامون عند البوابة وتجترح معجزة من معجزات السرنمة العجيبة إلى درجة مكنت صفية زنوبيا من عبور المنزل فالحديقة فالسور ومن ثم السقوط على الفور في حالة غيبوبة بسبب مرض الريح. لكن رأيي أنا، أن مصدر القوة، صانعة تلك المعجزة، إنما هو صفية زنوبيا ذاتها، ففي المستقبل ستحدث مناسبات أخرى مماثلة، لا يمكن للمرء أن يضع فيها اللوم على الريح...

لقد وجدوها، بعد أن سكنت الريح، مستغرقة في نوم عميق تحت أشعة الشمس الحارة في ساحة الديوك الرومية الخاصة بالأرملة أورانجزيب، كتلة بشرية صغيرة متكومة على نفسها تشخر شخيراً لطيفاً بين جثث الطيور. أجل، لقد ماتت جميعاً، مات كل طير من الطيور المائتين والثمانية عشر، عزاء بينكي في وحدتها، ولقد صدم الناس إلى درجة نسوا معها إبعاد الطيور الميتة يوماً بكامله، فتركوها تتفسخ تحت أشعة الشمس اللاهبة وألق الغسق وأشعة النجوم الباردة كالجليد. مئتان وثمانية عشر ديكاً رومياً لن تعرف طريقها يوماً من الأيام إلى الأفران أو موائد الطعام. لقد قامت صفية زنوبيا بتقطيع رؤوسها ثم امتدت يداها الدقيقتان العزلاوان إلى أجسامها لتخرج منها أحشاءها وتجعل منها بديلاً لرؤوسها. كانت شهبانو أول من اكتشفها لكنها لم تجرؤ على الاقتراب منها، بعدئذ وصل رضا وبلقيس ثم وصل الجميع: الأخت، الخدم، الجيران ليقفوا هناك وقد فغروا أفواههم لمشهد الفتاة الملطخة بالدم والمخلوقات التي قطعت رؤوسها واقتلعت أحشاؤها. بينكي أورانجزيب نفسها طفقت تتطلع فاغرة الفم إلى بقايا المجزرة، وقد صدمها أكثر من أي شيء آخر الكراهية الجوفاء التي تطل من عيني بلقيس فظلت كلتا المرأتين صامتتين، وكلتاهما أسيرة رعب مختلف، وهكذا فإن رضا

حيدر، بعينيه ذواتي الحلقتين السوداوين المائيتين والمسمرتين على وجه ابنته ذات الشفتين المدماتين، كان أول من نطق فخرج صوته مفعمة أصداؤه بالإعجاب بقدر ما هي مفعمة بالاشمئزاز. لقد قال الوزير الجديد وهو يرتعش: «بيديها المجردتين! يا إلهي! ما الذي وهب الطفلة مثل هذه القوة؟».

هنا، وقد انزاحت أنشوطات الصمت الحديد، بدأت شهبانو المربية تولول بأعلى صوتها: «ويلاه.. ويلي..». وهي الولولة الرهيبة التي بعثت صفية زنوبيا من رقادها ففتحت عينيها، عيني الحليب الممزوج بالماء، لكن ما إن رأت الدمار المحيط بها حتى أغمي عليها، مكررة حال أمها في ذلك اليوم البعيد حين وجدت بلقيس نفسها عارية وسط حشد من الناس فوقعت مغشياً عليها خجلاً.

أية قوى حركت عقل ابنة الثالثة ذاك في جسم ابنة الثانية عشرة آمرة إياها بالانقضاض على دجاجات وديوك رومية كثيرة الريش؟ ليس بإمكان المرء إلا أن يخمن: ترى هل كانت صفية زنوبيا تقوم بدور الفتاة البارة لتخليص أمها من بلوى الطيور ذات الكركرة الدائمة؟ أم أن الغضب، الغضب المتكبر الذي كان رضا يشعر به ولا بد، إنما يرفض أن يعمل به، مفضلاً غض النظر عن بينكي، هو الذي شق طريقه إلى ابنته بدلاً منه؟ الأكيد على ما يبدو هو أن صفية زنوبيا التي حملت زمناً طويلاً عبء كونها معجزة جاءت في غير مكانها، عار العائلة المجسد، اكتشفت في متاهات الذات الباطنية الرباط الخفي الذي يربط بين الإحساس بالعار والعنف وحين أفاقت أدهش الجميع تلك القوة الهائلة لما أفلت في داخلها من عقاله.

الوحش داخل الجمال. عناصر متناقضة من عناصر حكاية خرافية تجتمع في شخصية واحدة.. لكن في هذه المناسبة، لم تصب بلقيس بالإغماء. فضيقها من فعلة ابنتها، جليد وصمة العار الأخيرة تلك كان قد تسرب إلى قامتها صلابة متجلدة. «اهدئي» أمرت بلقيس المربية المولولة

ثم تابعت «اذهبي إلى البيت وائتني بمقص». وإلى أن نفذت بلقيس مهمتها الغامضة لم تسمح بأن يلامس الفتاة أحد فقد أحاطت بها بطريقة منعت حتى رضا حيدر من التجرؤ على الدنو منها. وبينما كانت شهبانو تجري عائدة بالمقص تكلمت بلقيس بصوت رقيق خافت إلى حد لم تعدُ معه سوى بضع كلمات حدود الزوج المراقب والأرملة والبنت الصغرى والخدم والعابرين المجهولين. فكانت كلماتها متقطعة غامضة: «انتفي شعرك... إرث مولدك.. فخار المرأة.. المشوش كله كامرأة غجرية... رخيصة.. منحلة.. مجنونة..». بعدئذ جاء المقص، والكل لا يزال ساكناً لا يجرؤ على التدخل فأمسكت بلقيس بجدائل ابنتها المضطربة المشوشة وراحت تجز وتجز وتجز. أخيراً نصبت قامتها، مقطوعة الأنفاس، تحرك أصابعها المقص شاردة اللب ثم استدارت مبتعدة، فبدا رأس صفية زنوبيا كحقل ذرة أتت عليه النيران، جذول شعر مسودة كثيبة، حطام كارثة صنعتها ثورة أم غاضبة. عند ذاك أمسك رضا حيدر بابنته بلطف بالغ نبع من حيرته اللامحدودة ثم حملها إلى داخل المنزل، بعيداً عن المقص الذي كان لا يزال يقص في الفراغ بين يدي بلقيس التي فقدت السيطرة على نفسها.

وأن يقص المقص الهواء فهذا يعني أن مشكلة ستحدث للعائلة.

«أوه، مامي!!» قالت غودنيوز وهي تكتم ضحكتها خوفاً «ما الذي فعلته؟ إنها تبدو مثل...».

فردت بلقيس في الحال «كنا دائماً نبتغي صبياً، لكن الله خير العارفين».

لم تفق صفية زنوبيا من إغماءتها رغم كل الهزات اللطيفة والخشنة التي هزتها إياها شهبانو ومن ثم غودنيوز. في المساء التالي كانت الحمى قد تمكنت منها، حتى غدت حمرة قانية تبسط وشاحها عليها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، الأمر الذي جعل المربية الفارسية، ذات المظهر الهش والعينين الغائرتين اللتين جعلتاها تبدو في سن الثالثة

والأربعين رغم أنها لم تكن بالحقيقة تتعدى التاسعة عشرة، تقيم إلى جوار سريرها فلا تغادره إلا من أجل إحضار كمادات باردة جديدة تضعها على جبين صفية. «أنتم أيها الفارسيون» قالت غودنيوز لشهبانو «يبدو لي أن لكم موقفاً ليناً تجاه الحالات العقلية. ولا بد أن ذلك كله ينبع من تجربتكم». لم تبد بلقيس أي اهتمام بقضية استخدام الكمادات. فقد جلست في غرفتها، والمقص الذي بدا وكأنه التصق بأصابعها، يقص الفراغ والهدوء. «حمى الريح» الاسم الذي أطلقته شهبانو على إصابة مخدومتها التي لم يجدوا لها اسماً والتي جعلت ذلك الرأس الحليق يتوهج حرارة. لكنه في الليلة التالية برد وخمد ففتحت عينيها، وظن الجميع أنها شفيت. لكن في الصباح التالي لاحظت شهبانو أن شيئاً مخيفاً بدأ يظهر على شكل طفح وبثور كبيرة حمراء وأرجوانية مع حبيبات صلبة صغيرة في منتصفها، كما طفقت بثور تتشكل بين أصابع قدميها وراح ظهرها يفور دافعاً إلى الخارج بكتل قرمزية خارقة للعادة. كذلك بدت إفرازاتها اللعابية مفرطة للغاية حتى بدا ما يشبه نافورات من اللعاب تتدفق من شفتيها. وتحت إبطيها بدأت تتشكل أورام سود مخيفة. لقد بدا وكأن العنف الأسود الذي غرس من قبل داخل ذلك الجسم الصغير قد تحول إلى الداخل، صرف النظر عن الديوك الرومية واتجه إلى الفتاة نفسها، لكأن الفتاة اختارت الشكل الذي تريد عليه نهايتها، تماماً مثل جدها محمود ـ المرأة الذي جلس في داره السينمائية الفارغة بانتظار أن يسدد فاتورته المضاعفة أو مثل جندي قرر الانتحار بالسقوط على سيفه. وباء العار ـ الذي أصر على أن يتضمن داخله كل عار لم يشعر به أولئك الذين يحيطون بها، مثال على ذلك، الشعور الذي لم يشعر به رضا حيدر حين أطلق النار على بابار شاكيل وكذلك العار الدائم من وجودها ذاته ومن شعرها الحليق ـ أقول، ذلك الوباء انتشر بسرعة في ذلك الكيان المنكوب الذي كانت ميزته الرئيسية الخاصة هي حساسيته المفرطة تجاه بكتيريا الذل. وحين نقلت إلى المستشفى

كان الصديد قد انبثق من بثورها قطرات متقطعة وكان رأسها الحليق البشع برهاناً على اشمئزاز أمها من وجودها كله.

ما القديس؟ القديس شخص يتحمل المعاناة والآلام عنا.

في الليلة التي حدث فيها هذا كله، شعر عمر الخيام شاكيل أثناء غفوته القصيرة أنه محاصر بأحلام واضحة تعود للماضي، أحلام يلعب الدور الرئيسي في كل منها معلمه السابق المجلل بالعار إدواردو رودريغز بملابسه البيض الشهيرة. وفي تلك الأحلام كان عمر الخيام يرى نفسه صبياً أيضاً، صبياً يحاول دائماً اللحاق بإدواردو إلى كل مكان، إلى المرحاض، إلى السرير، وهو على قناعة تامة بأنه إذا ما استطاع اللحاق بالمعلم فإنه سيكون قادراً على القفز إلى داخله وبلوغ السعادة أخيراً، لكن إدواردو كان يزجره دائماً مبعداً إياه بقبعته البيضاء، لاطماً، مشيراً إليه أن يغرب، أن يولي، أن يذهب إلى الشيطان. هذه الأحلام أثارت استغراب الطبيب، ظلت لغزاً بالنسبة إليه طيلة أيام كثيرة إلى أن جاء يوم أيقن فيه أنها ليست سوى إنذار مسبق يحذره من أخطار الوقوع في غرام فتيات قاصرات ومن ثم اللحاق بهن إلى آخر الدنيا، حيث لا مناص من أن يلقينك جانباً، وحيث يلقي بك هول رفضهن إلى الفراغ الكوني العظيم حيث لا جاذبية ولا إحساس. لقد تذكر نهاية الحلم الذي بدا فيه إدواردو بحلته البيضاء التي اسودت وتمزقت وسفعتها النار، وهو يطير مبتعداً عنه، يسبح فوق سحابة النار المندلعة، وقد ارتفعت إحدى يديه فوق رأسه كأنما تلوح له بالوداع... ورؤية الوالد تحذير، لكنها إغراء أيضاً، طعم تستحيل مقاومته، وهكذا حين استطاع عمر الخيام تفسير أحلامه كان الأوان قد فات على الأخذ بمدلولاتها، إذ كان قد سار شوطاً بعيداً على درب مصيره، كان التقى بصفية زنوبيا حيدر ابنة الثانية عشرة جسداً والثالثة عقلاً، كريمة الرجل الذي قتل أخاه بابار.

بإمكانك أن تتخيل مدى الكآبة التي أورثنيها سلوك عمر الخيام شاكيل. فأنا أسأل للمرة الثانية: أي نوع من الأبطال هذا البطل؟ بطل

رأيناه آخر مرة يفقد وعيه مغشياً عليه، تنبعث منه روائح القيء النتنة ويقسم على أن ينتقم، أما الآن فنراه متعلقاً بابنة حيدر، كيف يستطيع المرء تفسير شخصية كهذه؟ هل التجانس مطلوب كثيراً؟ إنني أتهم هذا الذي يدعى بطلاً بأنه أصابني بألعن أنواع الصداع وأشدها سوءاً.

لا ريب (ولنأخذ الأمور على مهل، بلا انتقالات مفاجئة رجاء) أقول لا ريب أنه كان في حالة عقلية مضطربة. لقد مات أخوه، ونبذه صديقه المفضل. وهذه ظروف مخففة ولا شك، لا بد من أن نأخذها بالحسبان. كما يستحسن بنا أن نزعم أن الدوار الذي أصابه في السيارة العائدة وخلال الأيام القليلة التالية قد جرده مما هو أكثر من التوازن. إذاً ثمة قضية من تلك القضايا الرديئة التي يصعب الدفاع عنها.

والآن لنتقدم خطوة خطوة. إنه يستيقظ، يحيط به فراغ حياته من كل جانب، وحيداً مسهداً على ضياء الفجر. يغسل وجهه ويديه ثم يرتدي ملابسه ويمضي إلى العمل فيجد أنه بإغراق نفسه في واجباته يمكنه أن يستمر، إذ حتى نوبات الدوار تغدو بعيدة.

ما هو ميدان خبرته؟ إننا نعرفه: فهو اختصاصي في شؤون المناعة. لذا لا يمكن وضع اللوم عليه لمجيء ابنة حيدر إلى مستشفاه، فصفية التي تعاني من أزمة مناعية جيء بها إلى الخبير الرئيسي في البلاد كلها في هذا الميدان.

لكن مهلاً الآن، لنتجنب الصخب والضجيج، ولنمض إلى أخصائي المناعة بحثاً عن الهدوء الذي ينبع من العمل ذاك الذي يمتص الإنسان ويواجهه بالتحدي، فصفية زنوبيا تبدو وكأنها هبة مرسلة من لدن الله. وهكذا يوكل عمر الخيام لسواه أكثر ما يستطيع من مسؤولياته ليكرس نفسه طيلة وقته تقريباً لحالة الفتاة المعتوهة التي كانت آليات جسدها الدفاعية قد أعلنت الحرب على الحياة ذاتها التي يفترض بها أن تحميها، فكان تكريسه خالصاً تماماً (الدفاع يرفض أن يستريح): وفي الأسابيع التالية يتعرف تعرفاً كاملاً إلى خلفيتها الطبية ومن ثم يشرع بالعمل في

أطروحته «حالة الآنسة ح»، كدليل جديد هام اكتشفه عن قوة تأثير العقل «من خلال المسالك العصبية المباشرة» في ما يفعله الجسد. الحالة تصبح مشهورة في الدوائر الطبية، يرتبط الطبيب والمريضة برباط أبدي في تاريخ العلم. لكن هل يفتح هذا الرباط المجال لروابط شخصية أخرى؟ لا يسعني إلا أن أتحفظ بالجواب. فلنمض خطوة أخرى:

عمر الخيام مقتنع بأن صفية زنوبيا ترغب في إيقاع الأذى بنفسها. فهذا هو مغزى حالتها: إنها تبين أنه حتى العقل المتخلف قادر على تنظيم الملتهمات الكبرى والعضويات المتعددة الأشكال، حتى الذكاء الكليل يمكنه أن يقود ثورة في قصر، تمرداً انتحارياً للأتباع ضد القصر نفسه. «انهيار تام في جهاز المناعة» يكتب عمر الخيام في ملاحظاته بعد أن أجرى فحصه الأول للمريضة «أرهب انتفاضة رأيتها في حياتي». الآن دعنا نثبت هذا بكل اللطف الممكن من أجل المرحلة الراهنة (فلدي اتهامات أخرى، لكن عليها أن تنتظر) بعد ذاك، وبغض النظر عن شدة تركيزه وهو يحاول استدعاء التفاصيل الدقيقة لتلك الأيام من دهاليز ذاكرته المسمومة، فإنه يظل عاجزاً عن تحديد اللحظة التي انقلب فيها قلقه وتلهفه المهني إلى حب مأسوي. هو لا يزعم أن صفية زنوبيا قدمت له أدنى تشجيع، فذلك سيكون، في تلك الظروف، أمراً غير معقول على الإطلاق. لكن عند نقطة من النقاط، ربما أثناء سهراته بجانب السرير طوال الليل والتي كان يقضيها لمراقبة تأثيرات عقاقيره المناعية التي كان يصفها لها، تلك السهرات التي كانت تشاركه فيها المربية شهبانو التي رضيت أن ترتدي قبعة ومعطفاً وقفازات وقناعاً معقمة كلها إنما رفضت رفضاً باتاً أن تترك الفتاة بمفردها مع الطبيب ـ أجل، ربما خلال تلك الليالي ذات الرفقة الغريبة المنافية للعقل أو ربما في ما بعد، حين اتضح أنه انتصر وأن التمرد البريتوري قد أخمد، الثورة قمعتها المرتزقة من المواد الصيدلانية، إلى درجة أن الآثار البشعة التي تركتها إصابة صفية زنوبيا قد زالت عن جسدها وعاد اللون إلى وجنتيها ـ ربما في لحظة من

تلك اللحظات حدث ذلك. فقد وقع عمر الخيام وقعة غبية لا رجعة فيها، أجل وقع في الغرام.

«غير معقول» يوبخ الرجل نفسه، لكن عواطفه، وبصورة مناقضة للعلم، تتجاهله، إذ يجد نفسه يتصرف في حضورها تصرف الأخرق، وفي أحلامه يلحق بها إلى نهاية الدنيا حيث البقية الحزينة من إدواردو رودريغز تطل من سمائها العالية مشفقة عليه بسبب ذلك الهاجس الذي ملك عليه نفسه. إنه يفكر أيضاً بالظروف المخففة، يقول لنفسه إنه بات، في حالته النفسية المنكوبة، ضحية لاضطراب عقلي، لكنه يشعر بخجل شديد حتى من التفكير بطلب النصيحة... لا، اللعنة على ذلك! بصداع أو بغير صداع، لن أتركه يفلت مني بهذه السهولة. إنني أتهمه بأنه بشع الداخل كما هو بشع الخارج، وحش تماماً مثلما كانت فرح زهر عشتار قد صنعت منه قبل سنين. إنني أتهمه بأنه افترض نفسه إلهاً أو على الأقل بغماليون، شعر بأن له حقوق الملكية على تلك البريئة التي أنقذ حياتها. إنني أتهم برميل الشحوم الخنزيرية ذلك بالاستغلال، فقد استغل الفرصة الوحيدة التي أتيحت له للحصول على زوجة جميلة فتزوج فتاة معتوهة مضحياً بدماغ الزوجة مقابل جمال الجسم.

لكن عمر الخيام يزعم أن هاجس صفية زنوبيا الذي أصابه شفاه من دواره. هراء! كلام فارغ!! إنني أتهم ذلك الأحمق بالانتهاز، هكذا بلا خجل (هو الذي لم يشعر بالخجل في حياته) أتهمه بمحاولة التسلق الاجتماعي عن طريق شخص عظيم من أشخاص المرحلة. فعمر الخيام يسعى لربط نفسه بنجم آخر. إنه، بكل ما يتصف به من انعدام الحياء والضمير، يغازل فتاة معتوهة كي يخطب ود أبيها، ذلك الأب الذي أعطى الأمر فانطلقت بعده ثماني عشرة طلقة إلى جسم بابار شاكيل.

غير أننا سمعناه يهمهم: «بابار، الزمان طويل» لكن أوه، هذا لا يلعب بعقلي. ترى هل تلمح في ذلك خطة انتقام؟ سيتمكن عمر الخيام، بزواجه من الطفلة غير القابلة للزواج، من البقاء بقرب حيدر سنوات كثيرة

قبل تسلمه منصب الرئاسة وأثناء ذلك وبعده، بانتظار اللحظة المناسبة. فالثأر طويل البال، ينتظر لحظته المناسبة؟ هباء! هراء! فتلك الكلمات المريضة (والمشبعة بالويسكي ولا شك)، كلمات حوت مصاباً بالإغماء، صدى أجوف باهتاً للتهديد المفضل لدى اسكندر حربا، راعي بطلنا السابق وزميله في الفسق ورفيقه. بالطبع لم يكن يعني شيئاً حين نطق بها، فهو ليس ممن ينتقمون. ترى هل شعر بأي شيء تجاه ذلك الأخ الميت الذي لم يكن يعرفه قط؟ أشك في ذلك. وكما سنرى فقد شكت أمهاته الثلاث في ذلك. إذاً هذا احتمال لا يمكن للمرء أن يأخذه مأخذ الجد. انتقام؟ بف، يا للسخرية؟ إن كان عمر الخيام قد فكر بموت أخيه فمن المحتمل أن تفكيره كان على النحو التالي: «أحمق، إرهابي، قاطع طريق! ما الذي يتوقعه يا ترى؟».

لكن، لدي اتهام أخير ألعن وأدق رقبة. فالناس الذين ينكرون ماضيهم يصبحون عاجزين عن التفكير بأنه حقيقي. وعمر الخيام الذي غرق في مدينة ـ العهر الكبيرة، رامياً خلفه عالم بلدة «ك» الحدودية كله، تبدو له الآن بلدته تلك، ومسقط رأسه، أشبه بحلم مزعج، طيف بغيض، شبح. فالمدينة الكبيرة وبلدة الحدود عالمان لا يلتقيان، وباختياره لمدينة كراتشي كان شاكيل يرفض العالم الآخر. يصبح هذا في ناظريه شيئاً وهمياً زائلاً، جلداً سلخته أفعى. فلا يتأثر بعد ذلك بما يحدث هناك، لا يتأثر بمنطقه ومقتضياته إنه بلا وطن، أو بعبارة أخرى، إنسان يمت للمدينة بقضه وقضيضه. والمدينة مأوى اللاجئين الفارين.

اللعنة عليه! لنتابع، فقد أضعت سبع سنوات أخرى من قصتي رهن الصداع الذي يدق رأسي ويخبطه. سبع سنوات ضاعت، أجل والآن، ثمة زيجات ينبغي حضورها. فما أسرع الزمان!

إنني أكره الزيجات المرتبة. لكن، ثمة بعض الأخطاء التي لا يمكن للمرء أن يلوم عليها والديه المسكينين.

الفصل الثامن

الجميلة والوحش

«تخيلي فقط سمكة تلج أسفلك، علقة تبصق في أحشائك» قالت بلقيس: «ولا داعي لأن أخبرك ماذا يحدث للمرأة ليلة زفافها»، فصمتت ابنتها غودنيوز تجاه هذه المشاكسة وأسلمت نفسها لرسم خطوط الحناء على أخمصي قدميها الرقيقتين بعناد ووجوم امرأة تخفي سراً مهولاً. إنها في السابعة عشرة من العمر. والليلة ليلة زفافها. عشيرة النساء في عائلة برياما اجتمعت كلها لإعدادها للزفاف، وفيما كانت بلقيس تضمخها بالحناء كان يحيط بها وبابنتها القريبات المتلهفات وهن يحملن مراهم البشرة، فراشي الشعر، الكحل، ذرر الفضة ومكاوي الثياب. لقد أشرفت برمايا نفسها، بشخصها الموميائي شبه الأعمى، على كل شيء من مكانها المتميز وهي تجلس على تخت عال فرش على شرفها بسجادة شيرازية وحالت القضبان المحيطة به دون سقوطها عنه حين شرعت تقهقه ضاحكة من الوصف المنفر المرعب الذي كانت تضطهد به السيدات غودنيوز وهن يصفن الحياة الزوجية «تصوري سيخ لحم يخترق طبقة دهنية ساخنة» قالت دنيا زاد ومقلتاها تبرقان ببريق مشاجرات قديمة. غير أن العذارى من الفتيات قدمن صوراً أكثر تفاؤلاً: «إنه أشبه بالجلوس على صاروخ ينطلق بك إلى القمر» قالت إحداهن، فحصلت نتيجة ذلك على صاروخ من برياما عقاباً لها على كفرها، ذلك أن الدين يقول بكل جلاء إن الرحلات إلى القمر مستحيلة. ولقد رددت النسوة أغنيات فيها

إساءات لخطيب غودنيوز، الشاب هارون الابن الأكبر للسيد مير حربا الصغير: «يا وجهاً أشبه بدرنة البطاطا، يا جلداً كجلد البندورة.. يا مشية كمشية الفيل... يا من في بنطاله لسان كلسان الحمل...» لكن حين تكلمت غودنيوز للمرة الأولى والأخيرة في تلك الأمسية، لم يستطع أحد أن يفكر بكلمة واحدة يرد بها.

«عزيزتي ماما» قالت نفيد برباطة جأش وقد خيم صمت ملؤه الخزي: «أنا لن أتزوج ذلك الغبي، درنة البطاطا، ولسوف ترين...».

كان هارون حربا في السادسة والعشرين من عمره، معروفاً من قبل الناس جميعاً بسوء السمعة، ذلك أنه خلال العام الذي قضاه في إحدى الجامعات الإنكليزية نشر مقالة في الصحيفة الطالبية وصف فيها الزنزانات الخاصة الموجودة في إقطاعة دارو الواسعة التي كان والده يرمي فيها الناس سنوات متواصلة. كما كتب أيضاً عن الحملة التأديبية التي شنها ذات يوم السيد مير الصغير على بيت ابن عمه اسكندر، وعن حساباته (محدداً رقماً بالطبع) في المصارف الأجنبية التي كان والده يحول إليها مقادير كبيرة من أموال الشعب. وقد أعيد طبع المقالة في مجلة النيوزويك، الأمر الذي جعل السلطات في الوطن الأم تصادر الشحنة كلها من أعداد تلك المجلة وتمزق الصفحات المسيئة من كل نسخة، لكن رغم ذلك انتشرت محتوياتها بحيث عرف بها الجميع. وحين طرد هارون حربا من كليته في نهاية ذلك العام، نظراً لأنه أخفق، بعد ثلاثة فصول من دراسة الاقتصاد، في أن يستوعب مفاهيم العرض والطلب، حينها افترض الناس بصورة عامة أنه كتب مقالته تلك بدافع الغباء المحض، آملاً، ولا ريب، أن يترك انطباعاً مؤثراً في الأجانب عن مقدار سطوة عائلته وقوتها. إذ كان معروفاً أنه قضى أيامه الجامعية بصورة حصرية تقريباً في نوادي القمار اللندنية ومواخيرها، كما انتشرت قصة تقول إنه حين دخل قاعة الامتحان في ذلك الصيف ألقى نظرة سريعة على ورقة الامتحان دون أن يجلس على الكرسي ثم هز كتفيه وصاح

مبتهجاً «لا، لا شأن لي بهذا كله». ثم تمشى خارجاً إلى سيارته المرسيدس المفتوحة من الأعلى دون جلبة. «الولد مغفل» قال مير الصغير للرئيس آ: «آمل ألا تتخذ أية إجراءات ضده. فهو سيعود إلى الوطن وسيستقر».

على أن مير الصغير بذل محاولة واحدة لإقناع كلية هارون بإبقائه فيها. إذ قدمت علبة سيجار كبيرة مزخرفة بالفضة إلى كل من هيئة مدرسي الكلية إلا أن الزملاء رفضوا مجرد التفكير بأن رجلاً متميزاً كمير حربا يحاول أن يرشوهم، لذا قبلوا الهدية ورفسوا ابنه على قفاه. فعاد هارون حربا إلى الوطن محملاً بالكثير من مضارب السكواش وعناوين الأمراء العرب، وزجاجات الويسكي والبدلات الأنيقة والقمصان الحرير والصور الجنسية الفاضحة، إنما بلا أية درجة جامعية.

لكن مقالة النيوزويك اللئيمة لم تكن نتاج غباء هارون بل وليدة الكراهية الأبدية العميقة التي يحملها الابن لأبيه، تلك الكراهية التي ستبقى حتى بعد أن يموت مير حربا ميتته الرهيبة. فمير حربا كان أباً بالغ التسلط لكن ذلك لم يكن بحد ذاته أمراً غير مألوف، بل كان بالإمكان أن ينشأ عنه الحب والاحترام لو لم تكن هناك قصة الكلب. ففي الذكرى العاشرة لميلاد هارون وفي الحفل الذي أقيم له في داره قدم له والده هدية عيد الميلاد التي لم تكن سوى رزمة كبيرة ملفوفة بشريط أخضر كان بإمكان المرء أن يسمع منها وعلى نحو واضح صوت نباح مكتوم. لكن هارون طفل انطوائي وحيد ترعرع على حب العزلة، ولم يكن بالحقيقة يرغب بالجرو الطويل الشعر الذي ظهر من الرزمة فشكر والده بتجهم وفتور أثارا سخط مير حربا وغضبه الشديد. وفي الأيام القليلة التالية بات واضحاً أن هارون ينوي أن يعهد بالكلب لرعاية الخدم، الأمر الذي جعل مير الصغير يشتد سخطاً وعناداً إلى درجة أصدر معها أوامره بألا يضع أي كائن أصبعه على الكلب قائلاً للصبي «الكلب اللعين كلبك، وعليك أنت أن تعتني به» لكن هارون عنيد كأبيه، فلم يتراجع

عن إهماله للكلب بل لم يعطه حتى اسماً، الأمر الذي جعل الكلب المسكين يضطر تحت شمس دارو اللاهبة لأن يبحث عن طعامه وشرابه، ومن ثم يصاب بالجرب والشراسة وتظهر بقع خضر غريبة الشكل على لسانه، ويوشك شعره الطويل على إصابته بالجنون، ثم يقضي نحبه أخيراً أمام باب المنزل الرئيسي، مطلقاً عواء يثير الشفقة، فيما يتسرب من مؤخرته سائل كثيف أصفر. «ادفنه» قال مير لهارون لكن الصبي أشاح بوجهه وابتعد، لتبقى جيفة الكلب التي شرعت شيئاً فشيئاً بالتفسخ مرآة تعكس اشمئزاز الصبي المتزايد من أبيه ذاك الذي رافقت صورته في ذهنه رائحة الكلب المتفسخ إلى الأبد.

بعد ذلك أدرك مير حربا خطأه فبذل كل ما في وسعه لاستعادة ود ابنه. لقد كان أرمل (فوالدة هارون توفيت يوم ولدته) وكان الصبي ذا أهمية بالنسبة إليه. لكن هارون كان مدللاً دلالاً مدمراً، إذ رغم أنه رفض مطالبة أبيه بأية ملابس أو هدايا جديدة إلا أن مير كان يحاول دائماً أن يخمن ما الذي يرغب فيه الصبي ليغرقه بعد ذلك بالهدايا، من ضمن تلك الهدايا كانت هناك مجموعة كاملة من عدة الكريكيت تحوي كل ما يخطر في بال المرء من أشياء ذات علاقة بالكريكيت، تكفيه مدى الحياة. غير أن هارون لم يكن يهتم بالكريكيت فأهمل الهدية، كما أهمل الكلب، إلى أن بهت ألقها في زاوية دارو المنسية جنباً إلى جنب مع عدة البولو وأوتاد الخيام وأجهزة الحاكي المستوردة وعدة السينما المحلية من آلة تصوير وآلة عرض وشاشة. عندما بلغ الغلام الثانية عشرة تعلم ركوب الجياد ليغدو بعد ذلك ولا شأن له سوى أن يهيم في الآفاق التي تتجاوز حتى إقطاعة عمه اسكندر. وفي كل مرة يسمع فيها بقدوم اسكي إلى منزل أجداده كان هارون يركب جواده ويمضي بلا توقف ليجلس عند قدمي الرجل الذي كان ينبغي بحسب اعتقاده، أن يكون له حق أبوته. لذلك لم يبد مير حربا أي احتجاج حين أبدى هارون رغبته في الانتقال إلى كراتشي ومع ترعرعه في تلك المدينة النامية كالفطر، كان تعلق

هارون بعمه اسكي ينمو نمو الفطر أيضاً إلى أن بدأ يتعلق بالتأنق نفسه واللغة البذيئة نفسها والإعجاب نفسه بالثقافة الأوروبية تلك التي كانت سمات اسكي المميزة قبل انقلابه الكبير. ولعل ذلك هو السبب الذي حدا بالفتى لأن يصر على إرساله إلى الخارج كي يدرس هناك، وهو نفسه الذي جعل الفتى يقضي وقته في لندن غارقاً في شؤون الفسق والقمار. وبعد أن عاد تابع الطريق ذاته، فقد بات عادة لديه وليس من اليسير أن يتخلص المرء من عاداته حتى وإن كان عمه، مثله الأعلى، قد أقلع عن نشاطاته التي لا تليق برجل الدولة، وهكذا سرت إشاعة في المدينة بأن اسكي الصغير حل محل اسكي الكبير. وقد ظل مير حربا يغطي النفقات الناجمة عن سلوك ابنه المتحلل، آملاً باستمرار أن يستعيد حب ابنه الوحيد، إنما دون جدوى. فقد بدأ هارون وهو في حالة من السكر الدائم، يتكلم كثيراً وبصحبة أناس لا رباط لألسنتهم وكان، وهو سكران، ينشر يميناً وشمالاً الأفكار السياسية الثورية التي كانت سائدة بين الطلاب الأوروبيين خلال تلك السنة التي قضاها في الخارج. وكان يهاجم حكم الجيش وتسلط الأفراد بكل حماسة آملاً أن يجرح بكلامه ذاك أباه الذي كان يكرهه أكثر من أي كائن آخر.

وحين بلغ به الأمر أن يذكر احتمال إنتاج زجاجات مولوتوف بأعداد كبيرة، لم يأخذ أحد من أصدقائه كلامه على محمل الجد. فقد تكلم عن ذلك في إحدى حفلات الشاطئ فيما هو يجتاز قوقعة سلحفاة مسكينة تجر نفسها على الرمل جراً لتضع بيوضها التي لن تفقس، بيد أن المخبر (أو المخبرة) قدم تقريره (أو تقريرها)، الأمر الذي أطار صواب الرئيس آ الذي كانت قبضته على الحكم قد اهتزت بشكل من الأشكال، فثار غضبه إلى درجة اضطر معها مير الصغير لأن ينبطح أرضاً طالباً المغفرة لابنه الضال. هذه الحادثة كانت سترغم مير على مواجهة ابنه هارون، وهي المواجهة التي كان يخشاها كثيراً، لولا أن ابن عمه اسكندر الذي سمع هو الآخر بآخر خطيئة ارتكبها مريده، وفر عليه تلك المصيبة. لقد

دعي هارون إلى بيت اسكي ذي المستوى المشطور، ليقف مذعوراً ينقل ثقل جسمه من قدم إلى أخرى تحت عيني آرجوماند المشعتين احتقاراً فيما كان والدها يكلمه بنبرة لطيفة لا شائبة فيها. لقد أخذ اسكندر حربا على نفسه أن يلبس بدلات خضراً وفق طراز بيير كاردان تشابه البدلات الموحدة التي يرتديها الحرس الأحمر الصيني، ذلك أنه كوزير للخارجية في حكومة الرئيس آ.، كان قد اشتهر بوصفه صانع معاهدة الصداقة التي عقدت مع الرئيس ماو. وكانت هناك صورة فوتوغرافية يعانق فيها اسكي الزعيم الكبير معلقة على حائط الغرفة التي كان العم يعطي فيها تعليماته لقريبه: «نشاطاتك باتت مصدر ضيق لي. لقد حان الوقت لأن تستقر فاتخذ لك زوجة» هنا، حملقت آرجوماند حربا بهارون يملأ عينيها السخط مرغمة إياه على أن يفعل ما طلبه اسكندر: «لكن من؟» تساءل متخوفاً؛ فأشار اسكندر بيده إشارة حاسمة «أية فتاة حسنة السمعة»، ثم أردف: «وما أكثرهن حولك، فاختر واحدة منهن». حين ذاك أدرك هارون أن المقابلة انتهت، فاستدار كي ينصرف لكن اسكندر حربا استوقفه «وإن كنت مهتماً بالسياسة فمن الخير لك أن تكف عن ركوب سلاحف البحر كي تبدأ العمل من أجلي».

في ذلك الحين كان تحول اسكندر حربا إلى قوة جديدة بالغة النفوذ في المسرح السياسي قد بات كاملاً تماماً. لقد بدأ ارتقاءه سلم النجاح السياسي بكل البراعة المحسوبة التي كانت آرجوماند موقنة على الدوام أنه يمتلكها. فبعد التركيز على عالم العلاقات الدولية ذي المستوى الرفيع، كتب سلسلة من المقالات يحلل فيها متطلبات البلد من القوى العظمى والعالم الإسلامي وبقية دول آسيا ثم أتبع ذلك ببرنامج شاق من الخطب ثبت أن من المستحيل مقاومة حججها. وحين حظيت فكرته عن «الاشتراكية الإسلامية» والتحالف الوثيق مع الصين بقبول شعبي واسع إلى درجة بات يدير معها سياسة البلاد الخارجية دون حتى أن يكون عضواً في الوزارة، حينها لم يظل لدى الرئيس آ. من خيار سوى دعوته للاشتراك

في الحكومة. وقد جعله سحره الشخصي الهائل وطريقته في جعل زوجات زعماء العالم الزائرات لبلاده، تلك الزوجات البسيطات ذوات صدور ـ الحشيات يشعرن بأنهن مثل غريتا غاربو وكذلك عبقريته الخطابية، كل ذلك جعله شخصية الساعة. «ما يرضيني أكثر من أي شيء آخر». قال ذات مرة لابنته «هو أن العمل في طريق كراكورام إلى الصين قد بدأ، وبإمكاني أن أستمتع برفس وزير الأشغال العامة» ذلك أن وزير الأشغال العامة لم يكن سوى مير حربا الصغير، الذي فشلت صداقته القديمة مع الرئيس في طمس سحر اسكندر وشعبيته. بعدئذ قال اسكندر لارجوماند ضاحكاً مبتهجاً «ابن الزنى ذاك وقع أخيراً في قبضتي».

لكن عندما بدأ نظام الرئيس آ. يفقد شعبيته، استقال اسكندر حربا ليشكل الجبهة الشعبية وهي الحزب السياسي الذي وضع كرصيد له ثروته الواسعة وأصبح هو زعيمه الأول «فيما يخص وزير الخارجية السابق» قال مير حربا الصغير للرئيس آ.، بشيء من الحدة «تابعك ذاك، يبدو وكأنه يركز كل التركيز على الجبهة الداخلية» فاكتفى الرئيس بهز كتفيه ثم قال «لسوء الحظ أنه يعلم ما يفعل».

في تلك الأيام كانت الشائعات المتعلقة بفساد الحكومة تقدم الوقود الكامل، بيد أن حملة اسكندر التي ركزت على ضرورة العودة إلى الديمقراطية، لم يكن من السهل إيقافها بأي حال من الأحوال. فقد كان يجوب القرى واعداً كل فلاح بأكرة[1] أرض وبئر ماء جديدة. لكن سرعان ما زج به في السجن إلا أن مظاهرات ضخمة انطلقت فكفلت إطلاق سراحه، وهكذا بدأ من جديد الصراخ بلهجات الأقاليم وهو يخطب عن نهب القطط السمينة لثروات البلاد. ولقد كان للسانه أو ربما لمواهب المسيو غاردان في تصميم الأزياء قوة هائلة إلى درجة بدا وكأنه ما من أحد يتذكر موقع اسكي كإقطاعي له أراض واسعة في السند...

---

(١) الأكرة: حوالى أربعة دونمات.

بعدئذ عرض اسكندر حربا على هارون العمل السياسي في منطقته، فقد قال للشاب: «لديك الوثائق التي تثبت مناهضتك للفساد. أخبرهم عن مقالتك في مجلة النيوزويك». وفي الحال وافقه هارون حربا على استلام المهمة، هو الذي أتيحت له الفرصة الذهبية لإسقاط أبيه وإذلاله في عقر داره.

«حسناً يابا» فكر بسعادة بالغة «أنا وأنت والزمن طويل».

بعد يومين كان هارون يحاضر عن الثورة بسلحفاة من السلاحف التي تضع البيوض على الرمل، كما جاء هاتف لراني حربا في موهينجو من قبل رجل ضاع صوته تحت أحمال الاعتذارات والكياسة والضيق إلى درجة انقضت معها بضع لحظات قبل أن تميز راني حربا أن المتكلم هو مير الصغير الذي لم يجر بينه وبينها أي احتكاك مذ نهبه لبيتها رغم أن ابنه هارون كان زائراً من زوار بيتها الدائمين «لعن الله الشيطان يا راني» اعترف مير الصغير أخيراً عبر سحابات مذلته وهو أنه «إنني بحاجة لمعروف منك» كانت راني حربا وهي في الأربعين قد هزمت مربية اسكندر الرهيبة بطريقة بسيطة هي أنها دفنتها. كما أن الأيام التي كانت فيها الفتيات القرويات يقهقهن في وجهها دون احترام ويعبثن في ثيابها الداخلية، قد ولت منذ زمن طويل، إذ غدت سيدة موهينجو الحقيقية بفضل ذلك الهدوء الذي لا يتزعزع والذي كانت تطرز به شالاً بعد شال وهي تجلس على شرفة منزلها، تقنع القرويين بأنها تصنع لوحة قدرهم وأنها إن شاءت تستطيع أن تحطم حياتهم بمجرد اختيارها أن تخيط مستقبلاً سيئاً في شالاتها السحرية. كانت راني، بعد أن كسبت احترام الجميع، راضية كل الرضا عن حياتها، كما كانت قد حافظت على علاقات ودية مع زوجها رغم غياباته الطويلة عن عالمها وغيابه الدائم عن فراشها. لقد علمت كل شيء عن انتهاء علاقته ببينكي كما كانت تعلم بالحجرات السرية لقلبها أن الرجل الذي يبدأ حياة سياسية لا بد له، إن عاجلاً أو آجلاً، من أن يطلب إلى زوجته أن تقف إلى جانبه على

المسرح. وهكذا، وقد ضمنت المستقبل الذي سيحمل لها اسكيها دون أن يرغمها على فعل شيء، اكتشفت راني دون أن يفاجئها ذلك أن حبها لاسكي كان قد رفض الموت بل أصبح، بدلاً من ذلك، شيئاً من هدوء وقوة. وذلك هو الفارق الكبير بينها وبين بلقيس فكلتا المرأتين لديها زوج انسحب من حياتها إلى متاهات قصره الغامضة، لكن في الوقت الذي أسلمت فيه بلقيس نفسها للممارسات غير السوية، إن لم نقل المجنونة، أسلمت راني نفسها لرجاحة العقل التي جعلتها كائناً بشرياً بالغ القوة وفي ما بعد، بالغ الخطر.

حينما جاء هاتف مير الصغير، كانت راني تتطلع نحو القرية حين كانت المحظيات البيضاوات يلعبن تنس الريشة في الغسق. ففي تلك الأيام كان الكثير من القرويين قد ذهبوا للعمل في الغرب حيناً من الزمن وكان من عاد منهم قد جاء معه بامرأة بيضاء، امرأة بدا لها منظور حياة القرية كزوجة رقم ٢ ذي سحر جنسي لا ينضب إذ كانت الزوجات رقم ١ يعاملن تلك الفتيات معاملة الدمى أو الحيوانات المدللة أما الأزواج الذي فشلوا في أن يجلبوا إلى البيت «غودية» أي دمية بيضاء، فقد كانت نسوتهم يوبخنهم أشد التوبيخ. وهكذا كانت قرية الدمى البيض قد غدت شهيرة في المنطقة فالقرويون يأتون من أميال بعيدة لمشاهدة الفتيات بملابس التنس البيض النظيفة الأنيقة، يقهقهن ويزقون وهن يتواثبن خلف ريشة التنس عارضات سراويلهن المكشكشة. وكانت الزوجات رقم ١ يهللن لضرائرهن، مفتخرات بانتصاراتهن وكذلك بنجاحات أطفالهن، مقدمات لهن المواساة في هزائمهن.

كانت راني حربا تستمد من مشاهدتها لتلك النسوة ـ الدمى وهن يلعبن متعة بالغة إلى حد نسيت معه أن تصغي لما قاله مير الصغير. «أرجوك يا راني» صاح أخيراً بصوت مشبع بغضب كبريائه الجريحة «أرجوك انسي خلافاتنا، هذه القضية بالغة الأهمية، أنا بحاجة لزوجة، حاجة ملحة للغاية».

«فهمت، فهمت».

«يا الله. . راني، لا تكوني صعبة بحق الله. . . الزوجة ليست لي، لا، كيف تذهب بك الظنون مذاهب كهذه؟ لا، لا، بل من أجل هارون. إنها الطريقة الوحيدة».

لقد طغى اليأس الذي صاحب مير الصغير وهو يتلعثم بطلب زوجة حسنة توفر الاستقرار لابنه الضال، طغى على أي نفور أولي يمكن لراني أن تشعر به فقالت على الفور: «غودنيوز؟»[(١)] «حقاً؟» سأل مير الصغير وقد أساء فهمها ثم أردف «أنتن النساء لا تضيعن الوقت؟».

كيفية ترتيب الزواج: اقترحت راني اسم نفيد حيدر، ظانة أن حدوث زفاف في العائلة سيعود بالخير على بلقيس. ففي ذلك الحين لم يعد الاتصال الهاتفي بين المرأتين هو الوسيلة الوحيدة التي تكشف راني من خلالها ما يجري في المدينة، ولم يعد مبرراً لبلقيس لأن تنقل الأقاويل والشائعات في حين تستنتج راني بكل تواضع ومذلة ما يرد في حديث صديقتها من نتف أخبار التقطت من هنا وهناك، بل إن راني هي التي باتت قوية الآن، أما بلقيس التي تحطمت أحلامها القديمة مذ طرد رضا من الحكومة فهي التي كانت بحاجة إلى الدعم وهي التي وجدت في صلابة راني التي لا تحول ولا تزول القوة التي تدعمها في أيامها المضطربة والتي كان اضطرابها يزداد يوماً بعد يوم. «كل ما تحتاجه» فكرت راني مفعمة بالرضا الذاتي «جهاز عرس، سرادقات، حلويات، أشياء أكثر بكثير من أن يفكر بها المرء، وابنتها تلك لا تستطيع الانتظار إلى أن تشبك بإحكام».

لكن قبل أن يوافق مير الصغير على الزيجة المقترحة عاد فأخذ رأي الرئيس، ذلك أن عائلة حيدر كانت قد أصبحت مؤخراً عرضة

---

(١) غودنيوز: بالإنكليزية تعني نبأ ساراً وقد فهم الرجل أنها سرت كثيراً بالنبأ وأنها تعرض عليه ابنتها.

للحوادث: إذ كانت الشائعات القديمة القادمة من بلدة «ك» لا تزال تدور ولم يكن من السهل حجب حادثة الديوك الرومية عن صفحات الجرائد. لكن، في ذلك الحين، وفي برودة الجو الجبلية التي تتمتع بها العاصمة الشمالية الجديدة، كان الرئيس قد بدأ يشعر برياح انعدام شعبيته الباردة فوافق على الزواج إذ قرر أنه حان الوقت لتقريب بطل آنسو مرة ثانية إليه، وذلك كما يفعل المرء بحرام دافئ أو شال لاتقاء البرد. «لا إشكال» قال آملير الصغير «تهاني للزوجين السعيدين».

وهكذا قام مير حربا بزيارة راني في موهينجو بغية بحث التفاصيل. لقد ركب الطريق كله وهو متصلب القامة من الضيق والانزعاج كما تصرف بتذلل رديء طوال الرحلة كلها «ما الذي يفعله الأب لابنه» انفجر قائلاً لراني التي كانت تجلس على الشرفة تشتغل في شال وحدتها الذي لا ينتهي البتة. «حين يصبح ابني أباً سيعلم بنفسه كيف يشعر الأب، لكن آمل أن تكون غودنيوزك هذه امرأة منجبةً».

«البذار الصالح يضمن حصاداً وافراً» أجابت راني بكل رزانة، ثم أردفت قائلة: «من فضلك خذ بعض الشاي».

لم يعترض رضا حيدر على الخطبة. ففي تلك الأيام، حين كانت مسؤوليته الوحيدة هي الإشراف على استقبال طلاب الضباط وتدريبهم، حين كان يواجه ليل نهار حقيقة فشله المرة، تلك الحقيقة التي كانت تشتد مرارة وهو يرى فتيان أكاديميته المرحين الذين لم يكونوا يعرفون طعنة الحربة التي تلقاها، في تلك الأيام كان يرقب صعود اسكندر حربا بحسد مكظوم مطلق ويقول لنفسه بضرب من التنبؤ «سيجيء وقت أستجدي فيه ذاك الفتى من أجل نجمة أخرى» وفي الجو المضطرب الذي كانت تعيشه الحكومة غير المستقرة، كان رضا حيدر محتاراً أي طريق يسلك، هل يؤيد الجبهة الشعبية الداعية للانتخابات أم يناصر بما بقي له من رصيد، الحكومة القائمة عسى أن ينال حظوة الرئيس. وقد جاء عرض هارون حربا في أن يكون صهراً له فرصة تتيح له إمكانية السير

في الطريقين معاً. فالزيجة ستسر الرئيس: ذلك واضح كل الوضوح لكن رضا كان يعلم أيضاً بكراهية هارون لأبيه، تلك الكراهية التي وضعت عائلة الفتى في جيب اسكندر «رجل هنا ورجل هناك». فكر رضا: «تلك هي بطاقة المرور». ومن المحتمل أن سرور رضا كان ينبع من أنه سيتخلص من غودنيوز، ذلك أنه كان قد ظهر عليها، وهي تنمو وتكبر، شيء من اكتناز الشفتين واللامبالاة تلك التي كان يتصف بها المرحوم سندباد منغال. كذلك كان فم هارون سميكاً وعريضاً، بعض تراث عائلته «الاثنان من النمط نفسه، نمط الشفاه المكتنزة» قال رضا حيدر لزوجته بنبرة أكثر مرحاً مما يظهر عليه عادة حين يخاطبها «الكأن واحدهما خلق للآخر، أليس كذلك؟ ربما سيأتي أطفالهما أشبه بالأسماك»، فردت بلقيس بكلمتين فقط «لا بأس».

كيفية ترتيب الزواج: أرى أني نسيت أن أذكر وجهة نظر الشخصين المعنيين، لقد تم تبادل الصور فأخذ هارون حربا مغلفه الأصفر إلى بيت عمه ثم فتحه بحضور اسكندر وآرجوماند: إذ يحدث أحياناً أن يتوجه الفتيان إلى عائلاتهم طلباً للمساعدة. وهناك عرض الصورة الفوتوغرافية التي أدخلت عليها تحسينات فنية بحيث تعطي لغودنيوز بشرة وردية كورق النشاف وعينين خضراوين كالحبر. «يمكنك أن ترى كم أطال لها ضفائرها» أشارت آرجوماند. «دعي الفتى يقرر بنفسه» رد عليها اسكندر لائماً، لكن آرجوماند، ابنة العشرين، كانت قد شعرت بكراهية غريبة للصورة فأعلنت «مسطحة الوجه مثل طبق كما أن بشرتها ليست شقراء تماماً كما يحكى عنها».

فقال هارون «العروس ينبغي أن تكون فتاة ما، وليس في هذه الفتاة من علة» لكن آرجوماند صاحت: «كيف تقول ذلك؟ هل في رأسك هذا عينان أم كرتا بينغ بونغ». عند هذه النقطة أمر اسكندر ابنته أن تلزم الهدوء ثم طلب إلى الحاجب أن يأتي بالحلويات وكؤوس الشراب احتفالاً بالمناسبة. أما هارون فقد استمر يحدق في صورة نفيد حيدر،

ونظراً لأن ما من شيء، حتى ولا فرشاة المصور المتحمس التجميلية، كانت قادرة على حجب تصميم غودنيوز الذي لا ينطفئ لهيبه على أن تكون جميلة، فقد طغى على خطيبها وبمثل لمح البصر، الإرادة الحديد المشعة من عينيها السليولوزيتين، وشرع يفكر بأنها أحلى عروس على وجه الأرض. هذا الوهم الذي كان بكامله نتاج خيال غودنيوز، وبكامله نتيجة تأثير العقل في الجسد، سوف يبقى بعد أن يزول كل شيء، بعد أن تزول فضيحة الزفاف، لكنه لن يبقى بعد موت اسكندر حربا. «يا لك من فتاة!!» قال هارون حربا وهو يدفع آرجوماند من الغرفة باشمئزاز.

أما بالنسبة إلى غودنيوز فقد قالت لبلقيس: «لا داعي لأن أنظر إلى صورة فوتوغرافية غبية. إنه مشهور، غني وقبل كل شيء زوج، فلْنمسك به حالاً». لكن سمعته سيئة «قالت بلقيس كما ينبغي للأم أن تفعل، عارضة على ابنتها فرصة الانسحاب» وهو سيئ المعاملة لوالده.

فأجابت غودنيوز: «سأثبته».

في ما بعد، حين انفردت بالمربية التي راحت تسرح لها شعرها، أضافت غودنيوز بعض الأفكار الأخرى فقد قالت لها: «هيه أنت يا ذات العينين اللتين تشبهان قعر بئر، هل تعلمين ما يعني الزواج للمرأة؟».

فردت شهبانو: «إنني عذراء».

عندها قالت نفيد حيدر: «الزواج هو السلطة، هو الحرية. إنه يعني أن تكفي عن كونك ابنة فلان لتصبحي بدلاً من ذلك أم فلان، حالاً، على الفور، بسرعة. بعد ذلك لن يستطيع أحد أن يقول لك ما تفعلين؟ لكن ماذا تقصدين؟» أردفت وقد خطرت لها فكرة رهيبة: «هل تظنين أنني لست عذراء أنا الأخرى؟ أغلقي فمك القذر، كلمة واحدة وأرميك في الشارع».

«ما الذي تقولينه يا صغيرتي، أنا لم أقصد ذلك قط».

«أقول لك كم هو رائع أن أخلص من هذا البيت! هارون حربا، أقسم إنك لرائع، أجل..رائع.. رائع».

«نحن ناس عصريون» قالت بلقيس لابنتها: «ونظراً لأنك وافقت فإن عليك أن تتعرفي إلى الفتى، وسيكون لك لقاء حب».

كانت الآنسة آرجوماند حربا «العذراء ذات السراويل الحديد» قد رفضت كثيراً من الخطّاب إلى درجة بدأت معها الخاطبات من عجائز المدينة يفكرن بوضعها على الرف، رغم أنها لا تزال في العشرين، فسيل الخاطبين لم يكن بصورة كاملة، أو حتى مبدئية، نتيجة صلاحيتها الشديدة كزوجة باعتبارها ذرية الرئيس اسكندر حربا الوحيدة وحسب، بل كانت له جذوره أيضاً في جمالها المتحدي الخارق الذي بدا معه جسدها، أو هكذا كان يخيل إليها، وكأنه يعذب عقلها. إن من الواجب علي أن أقول ذلك عن كل النساء الجميلات في تلك البلاد المليئة بجمال نسائي غير معقول، فهناك ولا ريب من تأخذ جائزة ملكة الجمال... ورغم أن النهدين المشدودين كانا لا يزالان في حجم التفاحة إلا أن آرجوماند كانت قد أحرزت النصر.

لقد قطعت آرجوماند، انطلاقاً من اشمئزازها من جنسها، شوطاً طويلاً في إخفاء مظهرها. إذ كانت تقص شعرها كالغلمان، وترفض أن تضع المساحيق أو العطور وترتدي قمصان والدها العتيقة وأوسع بنطلونات تجدها في السوق، وتسير دائماً محنية الظهر مترهلة اليدين. لكن بقدر ما كانت تبذل من محاولات كان جسدها اليانع يزداد روعة ويفضح كل محاولاتها لإخفاء تلك الروعة. فالشعر القصير يزداد تألقاً والوجه الذي لا يعرف البهجة يكتسب سيماء الشهوانية اللامحدودة التي لم يكن باستطاعتها كبحها، وبقدر ما كانت تحني قامتها وهي سائرة كانت قامتها تنمو أكثر وأكثر وتزداد مرغوبية أكثر وأكثر. لكنها لم تبلغ السادسة عشرة حتى كانت مضطرة لأن تغدو خبيرة في فنون الدفاع عن النفس. لم يكن اسكندر حربا قد بذل محاولة واحدة لإبقائها بعيدة عن الرجال، فقد كانت ترافقه في جولاته الدبلوماسية وإلى حفلات السفارات الكبيرة حيث كان السفراء المسنون يضطرون للإمساك بما بين أفخاذهم ثم

التوجه إلى المرحاض بعد أن تكون أيديهم المتلصصة الباحثة في الخفاء قد تلقت ركلة من ركبة حسنة التسديد. وفي عيد ميلادها الثامن عشر تضخم حشد عزاب المدينة خارج بابها إلى درجة عرقل معها حركة المرور في الشارع، وبناء على طلبها أرسلها والدها إلى لاهوركي تلتحق بكلية بنات داخلية مسيحية، حيث كانت القوانين المضادة للذكور قاسية فيها إلى درجة لم يكن باستطاعة حتى والدها أن يراها إلا بموعد مسبق وفي حديقة مهشمة من ورود ذابلة ومروج جرداء. لكنها لم تجد الراحة في ذلك السجن الذي لا يسكنه سوى الفتيات اللواتي كانت تحتقرهن لجنسهن ذاته، وكانت الفتيات يلاحقنها فيه مثل الرجل تماماً، بل إن طالبات السنة الأخيرة كن يمسكنها من مؤخرتها كلما عبرت بواحدة منهن، حتى أن إحداهن وعمرها تسعة عشرة عاماً ادعت، بعد أن يئست من لفت انتباه ذات السراويل الحديدية، أنها تسير في نومها إلى أن سقطت في حوض السباحة الفارغ ونقلت إلى المستشفى بعد أن أصيبت بكسور في الجمجمة بينما تسلقت واحدة أخرى، وقد أصابها الحب بمس من الجنون، سور الكلية ثم ذهبت لتجلس في مقهى من مقاهي هيرماندي الشهيرة ذات الأضواء الحمر، بعد أن قررت أن تنقلب إلى عاهرة إن لم تستطع الفوز بقلب آرجوماند. هذه الفتاة المنكوبة خطفها من المقهى زعران من المنطقة أرغموا أباها، وهو قطب من أقطاب الصناعات النسيجية، على دفع فدية مقدارها مليون روبية لإعادتها بسلام، ولم تتزوج قط، إذ رغم أن الزعران أصروا على أن يحتفظوا بشرفهم أيضاً، إلا أن ما من أحد صدق أنها خرجت من بين أيديهم نقية لم تمس، وبعد الفحص الطبي رفضت مديرة الكلية الكاثوليكية المتزمتة رفضاً باتاً أن تسلم بأن بكارة الفتاة فضت في حرمها الجامعي المضاد للفساد. وهكذا كتبت آرجوماند حربا إلى أبيها طالبة إليه أن يخلصها من تلك الكلية قائلة في رسالتها: «لا راحة لي هنا، فقد كان علي أن أعلم أن البنات أشد سوءاً من الصبيان».

حين عاد هارون حربا من لندن، أشعلت عودته حرباً داخل العذراء ذات السراويل الحديد. فشبهه الشديد بصورة أبيها حين كان في السادسة والعشرين أهاج آرجوماند. كما أن ولعه بعالم العهر والقمار وأشكال الفسق الأخرى جعلها تقتنع بأن التقمص ليس مجرد فكرة حمقاء جاءت مع آل حيدر من بلاد عبدة الأوثان. لقد بذلت كل ما في وسعها لكتم الفكرة القائلة أنه تحت إهاب هارون الخارجي المتحلل يكمن رجل عظيم ثان، يكاد يضاهي أباها، رجل عظيم يختفي هناك، وأنه بمساعدتها يمكنه أن يكتشف طبيعته الحقيقية تماماً كما كان الرئيس اسكندر قد... لكنها وقد رفضت أن تسر بأمور كهذه حتى لنفسها وهي في غرفتها الخاصة، وحيدة لا يسمعها أحد، راحت بحضور هارون، تتخذ ذلك الموقف المتعالي المزدري الذي سرعان ما أقنعه بأنه ليس ثمة من جدوى في أن يحاول حيث أخفق الكثيرون من قبل. لم يكن هارون عديم الإحساس تجاه جمالها الفتان بيد أن شهرة آرجوماند كذات سراويل حديد إضافة إلى تلك النظرة الرهيبة المفعمة ازدراء لا انقطاع فيه، كلها كانت كافية لأن تبعث به بعيداً، إلى أي مكان آخر، بعدئذ فتنته صورة نفيد حيدر، وكان الأوان قد فات على تغيير آرجوماند لطريقتها. كان هارون حربا الرجل الوحيد، باستثناء أبيها، الذي أحبته آرجوماند في حياتها، لذا كان غضبها في الأيام التي أعقبت خطبته أشد من أن يحتمل. لكن اسكندر حربا كان مشغول البال في تلك الأيام. فلم ينتبه للحرب التي كانت مشتعلة داخل ابنته.

«يا للعنة» خاطبت آرجوماند مرآتها بأسلوب يعكس باللاشعور العادة السابقة التي كانت أمها قد اعتادتها وهي وحيدة في موهينجو «الحياة قذرة».

لقد شرح لي ذات يوم واحد من أعظم شعراء العالم الأحياء ـ إذ علينا نحن مخربشي النثر التافهين أن نلتفت إلى الشعراء بحثاً عن الحكمة التي تفسر السبب الذي يجعل هذا الكتاب يرد على ذكرهم من حين إلى

آخر، فهناك صديقي الذي علق من قدميه ورأسه إلى الأسفل فزلزل كل ما فيه من شاعرية وهناك بابار شاكيل الذي أراد أن يكون شاعرياً وكذلك عمر الخيام الذي افترض أنه سمي بذلك تيمناً بالشاعر القديم عمر الخيام إنما لم يغد هذا شاعراً ـ أقول شرح لي ذلك الشاعر، أن الحكاية الخرافية، حكاية «الجميلة والوحش» هي بكل بساطة حكاية زواج مرتب.

«تاجر يجور عليه الزمان، فيعد إقطاعياً ثرياً، إنما بغيضاً، أن يزوجه ابنته، إنه السيد الوحش الذي يعطيه مقابل ابنته مهراً كبيراً ـ يتألف، على ما أظن، من صندوق كبير من سبائك الذهب. وكما يقتضي الواجب، تتزوج الجميلة الصغيرة الإقطاعي الهرم، وبذلك يستعيد أبوها ثروته. وبالطبع، يبدو زوجها الغريب تماماً عنها، مرعباً بادئ ذي بدء، بل وحشاً حتى. لكن في النهاية، وبتأثير حبها المخلص المطيع، ينقلب إلى أمير».

«هل تقصد» غامرت وتدخلت «أنه أمير بالوراثة»؟ فحدجني الشاعر الحي العظيم بنظرة تسامح ثم أطاح بشعره الفضي، المنسدل حتى كتفيه جانباً، وقال موبخاً: «تلك ملاحظة برجوازية، لا، طبعاً، التحول الذي حدث ليس في موقعها الاجتماعي ولا في ذاته المادية الجسدية بل في إدراكها له. تخيلهما وهما يقتربان واحدهما من الآخر أكثر وأكثر، وهما يتحركان باتجاه الداخل بمرور السنين من طرفي النقيض: الجمال والوحشية ليصبحا أخيراً كلاً واحداً سعيداً: زوجاً وزوجة».

كان الشاعر الحي العظيم يشتهر بأفكاره الراديكالية وبحياته الفوضوية المعقدة في شؤون الحب غير الزوجي، لذا فكرت أنني سأسره بمثل هذا التعليق الذكي: «ليت شعري لماذا تنظر الحكايات الخرافية دائماً إلى الزواج باعتباره نهاية النهايات؟ ولماذا تقدمه دائماً على أنه سعيد مكتمل تماماً».

لكن بدلاً من أن يغمز بعينه غمزة الرجل للرجل أو يضحك ضحك السرور الذي كنت أرجوه (إذ كنت يومها في ميعة صباي) ارتسمت على محيا الشاعر الحي العظيم سيماء الرصانة والجد، ثم أجاب: «تلك مسألة

ذكرية بحتة، وما من امرأة واحدة تقف حائرة أمامها هكذا. فكرة الخرافة هنا واضحة وهي أن على المرأة أن تقبل قدرها وأن تطور الجوانب الحسنة فيه، ذلك أنها إن لم تحب الرجل، إذاً سيموت، سيهلك الوحش وتظل المرأة أرملة. أي بعبارة أخرى أقل من ابنة، أقل من زوجة، أي بلا أدنى قيمة»، وبكل رقة راح يرشف شرابه الاسكتلندي.

فقلت متلعثماً: «ماذا لو، ماذا لو، أقصد يا عم، ماذا لو أن الفتاة لم تستطع حقاً أن تتحمل الزوج المختار لها؟». فتجهم وجه الشاعر الذي كان قد بدأ يغمغم بأشعار فارسية لنفسه، وقد أصيب بخيبة أمل كبيرة. ثم قال: «لقد أصبحت غربي الأفكار إلى حد بعيد. عليك أن تقضي فترة من الزمن، ربما حوالى سبع سنوات، مع أهل ريفنا. حينذاك ستدرك أن هذه قصة غريبة تماماً وسوف تكف عن طرح مثل هذا السؤال الأحمق: ماذا لو؟ ماذا لو؟». لسوء الحظ أن الشاعر العظيم لم يعد على قيد الحياة بعد، لذلك ليس باستطاعتي أن أسأله ماذا لو أن قصة غودنيوز حيدر كانت صحيحة كما أنني لا آمل بالانتفاع من مشورته في موضوع أكثر حساسية ودقة أيضاً: ماذا لو، ماذا لو أن وحشاً من الوحوش كان يكمن داخل سيدة جميلة. ماذا لو أن الجميلة نفسها كانت هي الوحش؟ لكنني أظن أنه كان سيقول أشوش الأمور: «فكما أوضح السيد ستيفنسون في قصة «الدكتور جيكل والسيد هايد» فإن اختلاط القديس بالوحش على هذا النحو أمر قابل للوجود لدى الرجال، فتلك هي طبيعتنا وأسفاه.. أما جوهر المرأة الكلي فإنه يرفض مثل هذا الاحتمال».

ولعل القارئ استخلص من سؤاليَّ الأخيرين «ماذا لو، ماذا لو؟» أن أمامي زيجتين علي أن أصفهما، فالزيجة الثانية التي لا تزال تنتظر في زوايا الزيجة الأولى المهملة، إنما هي بالطبع عقد النكاح الذي ألمحنا إليه منذ زمن طول بين صفية زنوبيا حيدر وعمر الخيام شاكيل.

لقد شحذ عمر الخيام عزيمته أخيراً، واستجمع كل ما في الدنيا من شجاعة كي يطلب يد صفية زنوبيا حين سمع بخطبة أختها الصغرى.

وعندما وصل بخمسيه المهيبة الشائبة، إلى منزلها الرخامي وتقدم بطلبه الخارق للعادة لم يستطع مولانا داود العجوز الهرم المتداعي أن يمنع نفسه من إطلاق صرخة جعلت رضا حيدر يتطلع حوله خشية وجود إبليس. «نسل العجائز الفاسقات» خاطب داود شاكيل: «إنني أعرفك، أعرفك مذ نزلت إلى الأرض في تلك الآلة التي يحويها بيت أمهاتك الأثري. فكيف تلوث بهذا الاقتراح القذر منزل محبي الله المخلصين هذا؟ عسى أن تقضي في جهنم أكثر من ألف جيل». لكن غضب مولانا داود هذا أحدث لدى بلقيس مزاج المعارضة العنيدة. ففي تلك الأيام كانت لا تزال عرضة لإقفال الأبواب ساخطة ثائرة، كي تدافع عن نفسها ضد زيارات رياح اللو عصر كل يوم، أما النور في عينيها فكان قد بهت ألقه قليلاً. غير أن خطبة غودنيوز كانت قد أعطتها هدفاً جديداً مثلما كانت راني تأمل تماماً، لذا، وبما يشبه غطرستها القديمة، وقفت تخاطب عمر الخيام: «إننا نفهم أنك اضطررت لأن تتقدم بطلبك هذا بنفسك لعدم وجود أحد من أفراد عائلتك في المدينة، ونحن نغفر هذا التجاوز لكن علينا الآن أن نفكر بالأمر في ما بيننا. وسوف يصلك قرارنا في وقت لاحق».

عند ذلك وجد رضا حيدر نفسه، وقد أذهله تماماً هذا الظهور الجديد لبلقيس القديمة، وجد نفسه عاجزاً عن إبداء رفضه إلى أن غادر شاكيل المنزل. وحين نهض عمر الخيام ولبس قبعته الرمادية على شعره الرمادي وشى به احمرار مفاجئ ظهر على شحوب بشرته، فصاح مولانا داود مندهشاً، ماداً أصبعاً حادة الظفر باتجاهه، «تحمر خجلاً هه! تلك خدعة ليس إلا، فمثلك لا يشعر بالخجل أبداً».

بعد أن تماثلت صفية زنوبيا للشفاء من المصاب المناعي الذي أصابها إثر مجزرة الديوك الرومية، اكتشف رضا حيدر أنه لم يعد باستطاعته أن يراها من خلال الحجاب الذي صنعته خيبة أمله بجنسها. فالرقة التي رفعها بها وهي نائمة من المكان الذي شهد عنفها كانت قد

تركت ذكرى مقيمة ترفض مفارقته. في غضون ذلك أيقن أنها حين كانت طريحة الفراش كانت تحاصره بعواطف ومشاعر لا يمكن وصفها إلا بأنها نابعة من الحب الأبوي. قصارى القول، غيَّر رضا حيدر رأيه بابنته المتخلفة عقلياً وبدأ يلاعبها ويفتخر بما تحققه من تقدم ضئيل. وجنباً إلى جنب مع المربية شهبانو كان بطل الحرب العظيم يمثل للفتاة دور القطار أو الرافعة أو المدحلة البخارية، فيرفع الفتاة ثم يقذفها في الهواء، وكأنها لا تزال فعلاً الفتاة الصغيرة التي اضطرت لأن تحتفظ بدماغها كما هو. هذا النمط الجديد من السلوك، أصاب بلقيس بالحيرة. بلقيس التي بقيت عواطفها مركزة على الفتاة الصغرى.. لكن حالة صفية زنوبيا تحسنت على أي حال. إذ نمت بمقدار بوصتين ونصف وكسبت قليلاً من الوزن، كما ازداد عمرها العقلي إلى ما يقارب ست سنوات ونصف. كان عمرها الفعلي هو التاسعة عشرة وكانت تحمل لوالدها، الحديث الحب لها، نوعاً من ذلك التعلق الطفولي يشبه تماماً ما كانت تشعر به آرجوماند لأبيها الرئيس.

«الرجال» قالت بلقيس لراني هاتفياً «لا يمكنك الاعتماد عليهم».

أما عمر الخيام: فقد سبق وناقشنا تعقيد دوافعه. إذ كان قد أمضى سبع سنوات عاجزاً عن شفاء نفسه من ذلك الهاجس الذي أراحه من نوبات الدوار، لكن في غضون سنوات الصراع تلك كان أيضاً قد رتب أمره بحيث يفحص صفية زنوبيا بفواصل زمنية منتظمة كما وطد علاقته مع أبيها، رضا حيدر، الذي كان يشعر بأن الطبيب أنقذ حياة ابنته وكان يشعر بأشد الامتنان له. غير أن طلب يدها للزواج كان مسألة أخرى تماماً، لذا ما إن وجد رضا حيدر نفسه خارج البيت حتى بدأ يعبر عن شكوكه. «الرجل بدين» قال رضا لنفسه مناقشاً المسألة «وهو قبيح الشكل أيضاً. كذلك علينا ألا ننسى ماضيه الداعر» فأضاف داود:

«حياة فسق عاشها ابن ناس فاسقين، وأخ أردي قتيلاً لأسباب سياسية».

لكن بلقيس أغفلت ذكراها عن شاكيل السكران في موهينجو بل قالت بدلاً من ذلك: «أين سنجد للفتاة عريساً أفضل؟».

عند ذلك أدرك أن زوجته تواقة للتخلص من هذه البنت المزعجة بقدر ما كان هو نفسه تواقاً للتخلص من ابنتها المدللة غودنيوز. ويقينه بأن هناك نوعاً من التنسيق، ضرباً من ضروب التبادل المرغوب فيه، هذا اليقين هو الذي أضعف تصميمه إلى حد شعرت معه بلقيس بالتردد في صوته حين سألها: لكن ابنة متخلفة عقلياً، هل ينبغي أن نزوجها أصلاً؟ ألا ينبغي أن نتحمل مسؤوليتها أيتها الزوجة؟ ما قضية الزواج كلها حين يتعلق الأمر بفتاة كهذه؟

فردت بلقيس:

«الفتاة ليست بلهاء كثيراً الآن. إن باستطاعتها أن ترتدي ملابسها بنفسها وأن تقضي حاجتها دون أن تبلل فراشها».

فصاح رضا:

«بحق الله، أيؤهلها هذا لأن تكون زوجة؟».

«نسل الضفدع اللئيم ذاك» هتف داود متعجباً «مبعوث الشيطان ذاك لقد جاء بطلبه هذا كي يزرع الفرقة في هذا البيت المقدس».

«كذلك فإن مفرداتها في تحسن واضح» أضافت بلقيس «فهي تجلس مع شهبانو وتقول للمربية ما ينبغي أن تغسل. كما أن بإمكانها أن تعد حلل الثياب والنقود».

فقال رضا شبه يائس: «لكنها طفلة».

بيد أن بلقيس كانت تزداد قوة كلما ازداد رضا ضعفاً فأجابت: «في جسد المرأة، لا مكان للطفلة. إذ ليس على المرأة أن تكون علبة دماغ. بل إن كثيراً من الناس يرون أن الدماغ قد يشكل سيئة من مساوئ المرأة عند الزواج. وأنها تحب الذهاب إلى المطبخ ومساعدة الطاهي في عمله. وفي السوق يمكنها أن تميز الخضروات الحسنة من الرديئة وأنت نفسك أطريت صناعتها للحساء. إن بإمكانها أن تعرف متى يقصر الخدم

في تنظيف الأثاث على نحو مناسب. وهي تلبس المنهدة، ومن النواحي الأخرى، فإن جسمها أصبح أيضاً جسم امرأة بالغة، بل حتى أنها لم تعد تحمر خجلاً».

وقد كان هذا صحيحاً، فاحمرارات صفية المخيفة كانت، على ما يبدو، أشياء من الماضي، كما أن العنف الذي دفعها لقتل الديوك الرومية كلها لم يتكرر. بل بدا وكأن الفتاة قد نظفت تماماً بانفجار خجلها الوحيد المستهلك لكل شيء.

«ربما» قال رضا حيدر على مهل «ربما كنت أُحمِّل الأمر أكثر مما يحتمل». فقالت بلقيس بنوع من الحسم النهائي: «علاوة على ذلك فهذا الرجل طبيبها. لقد أنقذ حياتها. فأية يد نعهد بها إليها أسلم من يديه يا ترى؟ لا أحد، أقول لك، وقد جاءنا طلب يدها هذا من عند الله».

فصاح داود: «امسكي أذنيك، غفرانك غفرانك يا رب، لكن ربك عظيم المقدرة شديد الغفران، ولذلك قد يغفر لك كفراً كهذا».

عند ذاك كان رضا حيدر يبدو عجوزاً وكئيباً «ينبغي أن نبعث شهبانو معها»، أصر الرجل «ونقيم لها عرساً هادئاً، فالصخب الشديد قد يخيفها».

فقالت بلقيس مبتهجة: «دعني أنتهي من قضية غودنيوز ولسوف نقيم لها عرساً هادئاً لا يسمع فيه شيء سوى تغريد الطيور».

حينذاك انسحب مولانا داود من المكان يجر أذيال خيبته ثم قال وهو يغادر: «فتيات يتزوجن بالأسلوب الخاطئ، وما بدأ بطوق أحذية، يصعب أن ينتهي على خير».

في اليوم الذي كانت ستُجرى فيه مباراة البولو بين فريق الجيش وفريق الشرطة أيقظت بلقيس غودنيوز باكراً. ورغم أن المباراة لم تكن ستبدأ قبل الساعة الخامسة بعد الظهر إلا أن بلقيس قالت: «إحدى عشرة ساعة لتزيين نفسك من أجل مقابلة زوج المستقبل أشبه برصيد في المصرف»، وحين وصلت الأم وابنتها إلى ملعب البولو كانت غودنيوز في حالة رائعة إلى درجة ظن معها الناس أنها عروس تركت حفل زفافها

بغية مشاهدة المباراة. وقد استقبلهما هارون حربا قرب الطاولة الصغيرة التي كان يجلس إليها المعلق الرياضي تحيط به الميكروفونات ثم قادهما إلى المقاعد التي حجزها لهما، وقد كان منظر غودنيوز برأسها الشامخ طاغي السحر إلى درجة خلص معها بانطباع عن تصميم حلي أنفها أوضح بكثير من انطباعه عما جرى في المباراة. وكثيراً ما كان في ذلك العصر يجري مبتعداً ليعود محمل الذراعين بالأطباق الكرتونية وقد تكومت عليها المرطبات والمثلجات وأكواب المشروبات الغازية. لكن خلال فترات غيابه هذه كانت بلقيس تراقب ابنتها بعين الصقر كي تتأكد من أنها لا تحاول إتيان عمل طائش، مثل التطلع إلى الفتيان الآخرين، لكن ما إن يعود هارون، حتى تستغرقها اللعبة تماماً. نجم فريق الشرطة الكبير كان النقيب تلفار الحق. ونظراً لانعدام شعبية الجيش في ذلك الحين، فإن سحقه لفريق البولو العسكري في ذلك العصر، جعله يتحول إلى ما يشبه البطل القومي، خاصة وأن كافة المواصفات البطولية المألوفة، كانت تتوفر فيه، فهو طويل، جريء ذو شاربين وندبة صغيرة على عنقه، بدت أشبه بعضة حب. هذا النقيب تلفار سيكون سبب فضيحة العرس التي سينبثق منها المستقبل كله.

لقد اكتشفت غودنيوز، من المحادثة المضطربة الخجلى التي أجرتها مع هارون في ذلك اليوم، أن زوج المستقبل ذو شهية ضئيلة، بلا مطامح، كما أنه ليس في عجلة من أمره بالنسبة إلى الأطفال. والثقة التي كانت نفيد حيدر قد قالت بها كلمتها تلك «سأثبته» إنما خرجت منها بسبب الشكل العجيني الذي اتخذه حضور ذلك الفتى، لذا ربما كان أمراً لا مناص منه أن تصبح عيناها مشدودتين كما لو أنهما مصمغتان إلى تلفار الحق بقامته المنتصبة الرشيقة الأسطورية، وهو على ظهر حصانه يدور في الملعب ويدور. ولعله كان من المحتم أيضاً أن يجذب تبرجها المفرط وروعة لباسها انتباه نقيب الشرطة الشاب الذي اشتهر بأنه أنجح زير نساء في المدينة ـ وبذلك قد تكون الخطيئة كلها هي خطيئة بلقيس

لجعلها ابنتها تفرط في التبرج ـ على أي حال فإن بلقيس رغم كل حذرها ويقظتها، فاتتها اللحظة التي التقت بها عينا الشاب بعيني الفتاة. لقد حدق كل من غودنيوز وتلفار إلى الآخر عبر سحابة الغبار وحوافر الخيل وعصي البولو، وفي تلك اللحظة، شعرت الفتاة بوخزة حادة تخترق أحشاءها وهي تصعد إلى الأعلى. لكنها تدبرت أمرها فجعلت الأنة الراعشة التي فرت من شفتيها، دون علم منها، تتحول إلى عطسة سعال عنيفة قبل أن يلحظها أحد، ساعدها في تغطيتها تلك، الحدث الذي وقع في ملعب البولو، حين شب حصان النقيب تلفار على قائمتيه، بصورة لا تفسير لها، ثم ألقاه أرضاً بين حوافر الخيل المنطلقة والعصي الطائرة. «في تلك اللحظة كنت قد تصلبت تماماً» أخبر تلفار نفيد في وقت لاحق «الأمر الذي ضايق الحصان مني وعكر مزاجه تماماً».

بعد ذلك انتهت المباراة مباشرة، وعادت غودنيوز مع بلقيس إلى المنزل وهي تعلم أنها لن تتزوج هارون حربا، لا، ليس خلال مليون سنة. في تلك الليلة سمعت الفتاة حصيات تطرق نافذة غرفتها، فجدلت ملاءات سريرها ثم ربطتها معاً وهبطت منحدرة عليها إلى أحضان نجم البولو الذي أركبها في سيارة شرطة ومضى بها إلى كوخه الواقع على الشاطئ في منطقة الكوف فيشرمان. وحين انتهيا من ممارسة الحب، سألته أشد أسئلة حياتها تواضعاً إذ قالت: «أنا لست باهرة الجمال، فلماذا اخترتني؟!». عندها انتصب تلفار الحق في السرير وبدا جاداً كتلميذ مدرسة ثم قال لها: «بناء على شبق رحمك، فإنك أشبه بفم جائع، وأنا أشبه بطعام». حينها أدركت غودنيوز أن تلفار معتد بنفسه، فبدأت تتساءل في سرها ما إذا كانت قد نهشت أكثر مما تستطيع مضغه.

لقد تبين أن تلفار الحق لديه موهبة استشفاف المستقبل منذ طفولته وهي الموهبة التي ساعدته كثيراً في عمله البوليسي، إذ كان باستطاعته أن يحدس أين ستقع الجرائم قبل أن ينفذها أصحابها أنفسهم، لذا فإن سجله في ما يتعلق بالقبض على المجرمين، كان بلا منافس. لقد رأى مسبقاً في

نفيد حيدر، الأطفال الذين كانوا دائماً حلمه الأعظم، وفرة الأطفال الذين سيجعلونه يزهو كبراً بينما هي تتفكك في فوضى أعدادهم المخيفة.

هذه الرؤية جعلته يرغب في الإقدام على أخطر عمل ارتكبه حتى الحين، فقد كان يعلم أن ابنة رضا حيدر، مخطوبة، وسوف تتزوج ابن الأخ المفضل لدى الرئيس اسكندر حربا، وأن بطاقات الدعوة للعرس كانت قد وزعت من قبل، وأن وضعه، بحسب كل المعايير المعروفة، ميؤوس منه، لكنه قال لنفيد: «ليس هناك مستحيل». ثم ارتدى ملابسه وخرج إلى قلب العتمة الشاطئية كي يجد سلحفاة بحر يركبها. بعد لحظات خرجت نفيد فوجدته يهتف ويصيح فرحاً وقد وقف على ظهر سلحفاة، وبينما كان مستغرقاً في متعته البسيطة تلك، جاء صيادو السمك وتحلقوا حوله ضاحكين. بعد ذلك لم تكن نفيد حيدر متأكدة مما إذا كان ذلك جزءاً من خطة تلفار أم لا، ما إذا كان قد أشار لصيادي السمك وهو على ظهر سلحفاته المنتخبة، أم أنه زار الكوخ من قبل وخطط للأمر كله. إذ من المعروف تماماً أن الشرطة وصيادي الأسماك حلفاء حقيقيون، لكونهم يتواجدون دائماً معاً لأغراض التهريب... لكن تلفار لم يعترف أبداً بأية مسؤولية عما حدث.

ما حدث هو أن زعيم الصيادين، وهو رجل مهيب ذو وجه منبسط شريف، فيه مجموعة أسنان بيض لم تعرف التنظيف قط، رغم أنها كانت تشع تحت ضوء القمر إشعاعاً غير معقول، أقول، زعيم الصيادين هذا أخبر الشاب والفتاة مسروراً أنه ورفاقه يودون ابتزازهما! فقد قال الصياد العجوز وعلى وجهه مسحة كآبة «ممارسات رذيلة كهذه تسبب الأذى لنا، تقضي على هدوء بالنا وسلامه. لذا، لا بد من تقديم تعويض ما، شيء يريحنا».

وبلا جدال، دفع لهم تلفار الحق، ثم ساق السيارة بغودنيوز إلى المنزل. وبمساعدته عملت على تسلق الحبل الذي صنعته من ملاءات سريرها دون أن يكتشفها أحد. لكن قبل أن يودعها قال لها: «لن أراك

ثانية قبل أن تفسخي خطوبتك، وتسمحي بأن يحدث ما ينبغي أن يحدث».

رؤيته الثانية لها أنبأته بأنها ستفعل ما طلب منها. لذلك مضى إلى منزله كي يستعد للزواج وللعاصفة التي ستهب بالتأكيد.

كانت غودنيوز (وكما ينبغي أن نتذكر دائماً) هي ابنة أمها المفضلة. لذا فإن خوفها من التفريط بهذه المكانة كان يتصارع في داخلها مع خوف آخر مضاد ومساوٍ له وهو أن صيادي السمك قد يتابعون ابتزازهما، والحب المجنون الذي كانت تكنه لتلفار الحق كان يتصارع صراعاً شديداً مع الواجب الذي كانت تلتزم به تجاه الفتى الذي اختاره لها أبواها، كما أن فض بكارتها جعلها توشك على الجنون هماً وقلقاً. لكنها رغم ذلك كله، ظلت صامتة حتى الليلة التي سبقت يوم زفافها. وقد قال لها تلفار الحق في ما بعد إن عدم قيامها بأي عمل كاد يودي به إلى الجنون وإنه صمم على قلب العرس رأساً على عقب وعلى إطلاق الرصاص على هارون حربا، أياً كانت النتائج، إذا ما قررت أن تمضي بالزواج حتى آخره. لكن، في الساعة الحادية عشرة أخبرت غودنيوز أمها قائلة: «لن أتزوج درنة البطاطا الغبية تلك». وانفتحت أفواه الجميع دفعة واحدة، ذلك أن الحب كان آخر شيء يتوقع الناس منه أن يفسد مثل تلك الترتيبات.

يا لغبطة النساء القريبات وهن يواجهن فضيحة لا يمكن إخفاؤها!! يا لدموع التماسيح، ولطم الوجوه، ودق الصدر كذباً ورياء!! يا لنعيب البهجة المنطلق من البيجوم دنيا زاد وهي ترقص على أشلاء شرف بلقيس!! ثم، يا لعروض الأمل ذات الألسنة المتشعبة كالشوكة! «من يدري، كلميها، الكثير من الفتيات يصبن بالهلع ليلة زفافهن». «نعم، لعلها ستقنع، حاولي فقط»، «موعد الزفاف اقترب، لم يعد ثمة وقت»، «اذهبي إليها، عالجيها، احضنيها، أقنعيها، لكن يا إلهي، الأمر رهيب، إذ كيف يمكننا إلغاء الدعوات؟».

وحين اتضح أن موقف الفتاة لن يتزحزح قيد أنملة، حين غدا الخوف من الأمر كله واضحاً لكل ذي عين، إذ اعترفت غودنيوز بأن ثمة رجلاً آخر، حينها تحركت برياما على سريرها العالي وأطبق الصمت على الغرفة بانتظار حكمها.

لقد قالت برياما بصوت كالزقاء «هذا هو فشلك كأم، لذلك ينبغي أن ندعو الأب. فلتذهب إحداكن كي تأتي به، ولدي رضا، هيا، لتمض إحداكن لإحضاره».

لوحتان. في حجرة العروس تجلس نفيد حيدر بعناد البغل لا تتكلم ولا تتحرك، فيما تحيط بها النسوة من كل جانب وقد حولتهن الغبطة إلى تماثيل حية، نساء يمسكن بالأمشاط، الفراشي، ذرور الفضة، الأثمد، يحملقن بنفيد أصل الكارثة، وقد تجمد على وجوههن السرور. شفتا برياما هما السمة الوحيدة في المشهد كله، منهما تقطر كلمات جعلها الزمان شريفة كريمة: فاسقة، بغي، داعرة، أما في حجرة رضا، فهناك بلقيس تتعلق بساقي زوجها وهو يكافح لارتداء بنطاله.

لقد أفاق رضا حيدر على الكارثة من حلم رأى نفسه فيه يقف في ميدان استعراض فشله أمام كتيبة من المجندين الذين هم جميعاً نسخة طبق الأصل عنه، ما خلا أنهم غير أكفاء، إذ لم يكن باستطاعتهم أن يسيروا بالخطوة المنتظمة أو يلتفتوا إلى اليسار أو يلمّعوا بكلات أحزمتهم على نحو مناسب. كان يصرخ لشدة يأسه من ظلال عجزه تلك، وقد انعكس السخط الذي كان يشعر به في منامه على مزاجه بعد أن استيقظ. فكان رد فعله الأول تجاه الخبر الذي اضطرت بلقيس لأن تنطق به رغماً عنها، هو: ليس من خيار سوى قتل الفتاة، فقد صاح: «عار كهذا سيدمر تدميراً كاملاً كل ما وضعناه من خطط». وقد قرر أن يرميها بالرصاص في رأسها أمام أفراد عائلتها جميعاً. تعلقت بلقيس بفخذيه فجرها أرضاً حين بدأ يتحرك، وعلى هذا النحو، خرجت الزوجة من غرفة النوم مجرورة جراً وأظافرها تنغرس في كاحليه. كما أن عرق

خوفها البارد جعل حاجبيها المرسومين بالقلم يسيلان على وجهها.
صحيح أن أحداً لم يذكر سندباد منغال، لكن أواه!! لقد كان شبحه موجوداً في كل مكان. وهكذا دخل رضا حيدر حجرة غودنيوز والمسدس في يده، فتلقته النسوة بالصراخ والعويل حين دخل.

لكن هذه ليست قصة بطلتي المربية آناهيتي محمد، ذلك أنه حين رفع رضا مسدسه، وجد نفسه غير قادر على استخدامه فقال: «ارموها في الشارع» ثم غادر الحجرة.

بعد ذلك جاء ليل مليء بالمفاوضات. رضا في مقر قيادته يحملق بمسدس لم يستخدم، والوفود ترسل، لكنه ظل مصمماً لا تلين له قناة. بعدئذ ترسل بلقيس المربية شهبانو وهي تفرك عينيها المحاطتين بدوائر مسودة، كعيني رضا تماماً، كي تطرد النوم منهما وتدافع عن قضية غودنيوز. «إنه يحبك لأنك تعتني بصفية زنوبيا، ولعله يصغي إليك في الوقت الذي لا يصغي فيه إلي». هكذا قالت لها بلقيس التي كانت قد تداعت دون أن يرى أحد كيف، صغرت إلى درجة باتت معها تتوسل للخدم. شهبانو تمسك بيدها مستقبل غودنيوز ـ غودنيوز التي كانت ترفسها، تحقرها وتضربها، فتقول شهبانو «سأذهب يا سيدتي البيجوم». ثم تبدأ المربية والأب مؤتمرهما خلف الأبواب المغلقة «المعذرة يا سيدي. لكن لا تضف عاراً على عار».

في الثالثة صباحاً يلين رضا حيدر لكنه يصر: «يجب أن يقام العرس، يجب أن تسلم الفتاة إلى زوج، أي زوج يخلصنا منها، يحدث ضجة أقل من ضجة طردها». ثم يدعو رضا زوجته بلقيس ليعلن لها «عاهرة في بيت خير من عاهرة في زقاق». نفيد تفشي لأمها بالاسم: إذ تقول بشيء من الكبرياء، وبصورة واضحة تماماً بحيث يسمعها الجميع: «إنه النقيب تلفار الحق. ولا أحد سواه».

اتصالات هاتفية تُجرى، مير حربا يوقظ من نومه لإعلامه بتغيير الخطة. «عائلتك سليلة الزنى. اللعنة علي إن كنت أفهم شيئاً». بعدئذ

يتلقى اسكندر النبأ بدوره، ثم ينقله إلى آرجوماند التي تقف، وهي في منزلها، بجوار الهاتف ويومض شيء ما في عينيها.

واسكندر هو الذي يخبر هارون.

ثم يُجرى اتصال آخر، اتصال بنقيب الشرطة الذي لم يغمض له جفن، والذي قضى، شأنه شأن رضا، شطراً من الليل، تلعب أصابعه بالمسدس. «لن أقول لك رأيي فيك» هدر صوت رضا في مهتاف الهاتف «لكن تعال هنا غداً وخذ هذه المخلوقة الفاسدة من بين يدي. قرشاً واحداً لن تأخذ مهراً لها، وعليك ألا تريني وجهك أبد الدهر».

فيجيب تلفار الحق بمنتهى الأدب: «سيدي يشرفني أن أتزوج ابنتك». وفي بيت حيدر، تبدأ النسوة اللواتي قلما آمن بحظهن، يبدأن مرة ثانية باتخاذ الاستعدادات لليوم العظيم. نفيد حيدر تذهب إلى الفراش وتستغرق في سبات عميق وعلى محياها براءة الأطفال. وفيما هي تستريح تتحول الحناء القاتمة التي ضمخ بها أخمصاها إلى اللون البرتقالي.

«الخزي والعار يصمان العائلة» تقول شهبانو لصفية زنوبيا في الصباح «صغيرتي، أنت لا تعلمين ما فقدت».

شيء آخر حدث في تلك الليلة. ففي حرم الجامعات، وأسواق المدن، وتحت ستر الظلام، كان الناس يتجمعون، وحين أشرقت الشمس، كان واضحاً أن الحكومة ستسقط. ففي ذلك الصباح، توجه الناس إلى الشوارع، وأشعلوا النار في السيارات، باصات المدارس، الشاحنات العسكرية، مكتبات المجلس البريطاني، مركز المعلومات الأمريكي، تعبيراً عن استيائهم. فأمر الفيلدمارشال آ. جنوده بالنزول إلى الشوارع لاستعادة الأمن. وفي الحادية عشرة والربع زاره جنرال معروف لدى الجميع بلقب «الكلب الأشعث» أحد الأتباع المرتبطين باسكندر حربا. في هذه الزيارة أعلم «الكلب الأشعث» الرئيس العاثر الحظ، بأن القوات المسلحة ترفض رفضاً باتاً إطلاق النار على المدنيين وأن الجنود قد يطلقون النار على ضباطهم بدلاً من مواطنيهم. هذا القول أقنع الرئيس

آ. بأن حينه قد حان. وهكذا لم يحن وقت الغداء حتى حل محله الجنرال الأشعث الذي وضعه في منزله رهن الإقامة الإجبارية ثم ظهر على شاشة التلفزيون معلناً أن هدفه الوحيد من استلام السلطة هو إعادة الديمقراطية إلى البلاد، وأن الانتخابات ستُجرى خلال ثمانية عشر شهراً. فانقضى عصر ذلك اليوم والجماهير تحتفل في الشوارع. أما سيارات الداتسون وسيارات الأجرة ومبنى الرابطة الفرنسية ومعهد غوته فقد قدمت كلها الوقود لسعادتهم الوهاجة في ذلك العصر.

سمع مير حربا بالانقلاب السلمي الذي قام به الجنرال الأشعث بعد ثماني دقائق من اعتزال المارشال آ. فقضت هذه الضربة القاصمة الثانية على كل إرادة للقتال في نفسه. لذا ترك على مكتبه كتاب استقالة، ثم ولى الأدبار إلى إقطاعته دارو من دون أن يزعج نفسه بانتظار التطورات، مسوراً نفسه هناك بسياج من العزلة إلى درجة كان باستطاعة الخدم أن يسمعوه وهو يغمغم دون إفصاح بأن أيامه باتت معدودة، فقد كان يقول «شيئان حدثا، لكن الثالث لا يزال في الطريق».

قضى اسكندر وآرجوماند يومهما مع هارون في كراتشي. اسكندر على الهاتف طوال النهار، وآرجوماند إلى جانبه، تلك التي أثارها النبأ إلى درجة نسيت معها أن تواسي هارون على فسخ خطوبته فقالت له: «كف عن الظهور بوجه السمكة هذا. لقد بدأ المستقبل الآن». وبالقطار وصلت راني حربا من موهينجو ظانة أنها ستقضي يوماً ممتعاً في عرس غودنيوز، غير أن جوكيو سائق اسكندر، أخبرها في المحطة بأن العالم قد تبدل. ثم ساق بها السيارة إلى البيت حيث عانقها اسكندر بحرارة بالغة قائلاً: «فعلت خيراً بمجيئك. الآن ينبغي أن نقف معاً أمام الجماهير فقد جاءت لحظتنا. وفي الحال نسيت راني كل شيء عن الأعراس والاحتفالات وبدت، وهي في الأربعين، وكأنها في سن ابنتها الوحيدة، ثم هتفت في سرها جذلى: «إنني أعرفه. ذلك الكلب الأشعث العجوز الطبيب».

كبيراً جداً كان هياج ذلك اليوم إلى حد انطمست معه الأحداث التي

جرت في بيت حيدر انطماساً تاماً، رغم أنه كان من المحال تغطية مثل تلك الفضيحة في يوم آخر. لقد جاء النقيب تلفار الحق وحيداً إلى العرس إذ ارتأى ألا يورط أحداً من أصدقائه أو أفراد عائلته في شؤون زواجه المخزي. كما اضطر لأن يكافح كفاح المستميت عبر الشوارع التي كانت تلتهب بالسيارات المحترقة وهو يقود سيارة الجيب التابعة للشرطة التي نجت بأعجوبة من أيدي الجمهور، فاستقبله رضا حيدر برسمية كالجليد واحتقار ما بعده احتقار. «نيتي الخاصة» قال تلفار لرضا «هي أن أكون خير صهر ترغب فيه، حين تعيد النظر بقرارك في طرد ابنتك من حياتك». لكن رضا لم يرد على هذا الحديث المشجع إلا بأوجز الإجابات، فقد قال: «لست معنياً بلاعبي البولو».

أولئك الضيوف الذين استطاعوا الوصول إلى منزل حيدر عبر فوضى الشارع وهياجها، كانوا قد اتخذوا الاحتياطات، فارتدوا أعتق الملابس وأكثرها اهتراء، أما النساء فلم يتحلين بأية مجوهرات، وقد فعلوا ذلك كي يتفادوا لفت انتباه الجمهور الذي كان عادة يصبر على الناس الأغنياء، إلا أنه كان قد اختار بدوره أن يضيف نخبة المدينة الثرية إلى مجموعة الرموز التي يقوم بحرقها. ولقد كانت حالة الضيوف البائسة واحدة من أغرب سمات ذلك اليوم المليء بالغرابات. كما أن غودنيوز حيدر المضمخة بالحناء والمدهونة بالمساحيق والمراهم والمزينة بالمجوهرات في ذلك الجمع من الضيوف المذعورين، بدت غريبة، في غير مكانها، بل أكثر غرابة، حتى مما ظهرت عليه في مباراة البولو التي بتت بمصيرها المحتوم. «إنه أشبه بالزواج في قصر مليء بالشحاذين» همست غودنيوز لتلفار الذي كان يجلس مكلل الرأس بالأزهار إلى جانبها على المنصة الصغيرة تحت السرادق المتألق المصقول كالمرآة. وقد ظلت الحلويات والمأكولات الشهية التي قدمتها بلقيس بدافع كبرياء الأمومة سليمة لم تمس على الطاولات الطويلة ذات الأغطية البيض في الجو الغريب لذلك الوقت الغريب والمليء بالرعب أيضاً.

لماذا رفض الضيوف تناول الطعام: فهم الذين اختل توازنهم من قبل بسبب مخاطر الشوارع، اضطربت ترتيباتهم اضطراباً تاماً تقريباً بسبب الإعلام الذي نقل إليهم على أوراق صغيرة كتبت بخط اليد على عجل، أوراق ظلت بلقيس ساعات تكتبها لتقول للجميع: رغم أن من المتوقع أن تزف غودنيوز حيدر إلى عريسها المعروف، إلا أن تغيير هذا العريس قد تم في آخر لحظة «فنظراً لظروف لا يد لنا فيها سيكون الزوج هو نقيب الشرطة تلفار الحق». وقد اضطرت بلقيس لأن تكتب هذا السطر خمسمائة وخمسين مرة. وكانت الكتابة كل مرة تغرس أظافر عارها أعمق وأعمق في قلبها، بحيث إنه حين وصل الضيوف وقام الخدم بتوزيع قصاصات الورق عليهم، كانت قد تصلبت خزياً وعاراً وكأنها مخوزقة على شجرة. لكن عندما حل على وجوه الضيوف محل صدمة الانقلاب المفاجئ ذاك، شعورهم بحجم الكارثة التي حلت بآل حيدر، غدا رضا أبكم لا ينطق بحرف واحد، لكأنما خدره عاره الذي أحس به الناس، كذلك فإن جبال الأطعمة التي لم يمسها أحد، نشرت برودة العار في نفس المربية شهبانو التي كانت تقف بجانب صفية زنوبيا في حالة من القنوط الشديد، إلى درجة نسيت معها أن تحيي عمر الخيام شاكيل، الطبيب الذي كان يتحرك بتثاقل بين ذلك الجمع من المليونيرية وقد ارتدى ملابس البستانيين، وكان رأسه مليئاً بأفكار غامضة عن خطبته هو لمعبودته المعتوهة إلى درجة عجز معها تماماً عن أن يلاحظ أنه كان يمشي في سراب من الماضي، صورة وهمية لحفلة أسطورية أقامتها ذات يوم الأخوات شاكيل الثلاث في منزلهن العتيق في بلدة «ك»، وقد بقيت في راحته المكتنزة قصاصة ورق مكتوبة بخط اليد دون أن يقرأها إلى أن تجلى له بعد طول وقت، المغزى من بقاء الطعام سليماً لم يمسه أحد.

لكن لم تكن هذه الحفلة نسخة طبق الأصل عن الحفلة القديمة. صحيح أن الطعام لم يؤكل، إلا أن الزفاف تم. لكن هل يمكن أن

يحدث عرس لا يغازل فيه أحد أحداً، عرس يأخذ بألباب الموسيقيين المستأجرين إلى درجة يهملون معها أن يعزفوا نغماً واحداً؟ بالتأكيد، فليس هناك الكثير من حفلات الأعراس التي يوشك فيها عريس اللحظة الأخيرة أن يقتل وهو على منصة العرس على يد ابنة حميه الجديدة.

يالله!! نعم، إنني آسف على اضطراري لأن أخبركم بأن شيطان الخزي الغافي الذي تملك صفية زنوبيا يوم ذبحت الديوك الرومية قد ظهر (لوضع خاتمة إن جاز القول لتلك الكارثة الكاملة لذلك اليوم)، أقول، ظهر مرة أخرى تحت سرادق الخزي المتألق كالمرآة.

مشعة في كل اتجاه من عينيها اللتين اصطبغتا بخواء السرنمة الحليبي، منصبة في داخلها على روحها البالغة الحساسية، روح الوفرة العظيمة للخجل في تلك الخيمة المعذبة، هكذا بدت صفية زنوبيا ناراً تحت الجليد إلى درجة بدأت معها الفتاة تتوهج من كل أنحاء جسمها، شعلة ذهب طمست أحمر وجنتيها وطلاء أصابع يديها ورجليها.. فأدرك عمر الخيام ما يحدث ولكن كان الأوان قد فات بحيث إنه حين صاح بذلك التجمع المتخشب «حذار» كان الشيطان قد قذف فعلاً بصفية زنوبيا عبر الحشد وقبل أن يستطيع واحد منهم التحرك كانت صفية قد أمسكت بالنقيب تلفار الحق من رأسه وبدأت تفتل، تفتل بشدة إلى درجة صاح معها الرجل بأعلى صوته، فقد كانت رقبته على وشك الانقصام مثل قشة.

أمسكت غودنيوز أختها من شعرها وبدأت تشده بكل قوتها، فشعرت بالحرارة الحارقة لتلك النزوة الخارقة للطبيعة التي تملكت أختها تسفع أصابعها، بعدئذ انضم إليها عمر الخيام وشهبانو ورضا حيدر بل وحتى بلقيس، بينما غرق الضيوف أكثر وأكثر في خدرهم المتخشب الأبكم، وقد تملكهم الرعب من هذا التعبير الأخير عن وهمية ذلك اليوم المستحيلة بمجملها. غير أن الجهود المشتركة للأشخاص اليائسين أفلحت في إبعاد يدي صفية زنوبيا قبل أن يطير رأس تلفار الحق عن

جسده مثلما طارت رؤوس الديوك الرومية ذات يوم، لكن حينذاك غرست صفية أنيابها في عنقه تاركة له بذلك ندبة ثانية توازن عضة الحب الشهيرة تلك، جاعلة دمه ينفر لمسافات طويلة عبر الجمع، حتى أن عائلتها كلها وكثيراً من الضيوف المموهين بدوا يشابهون عمالاً في مسلخ إسلامي. خلال ذلك كان تلفار يصرخ مثل خنزير، وحين نجحوا أخيراً في جرها بعيداً عنه كانت ثمة قطعة من جلده ولحمه بين أسنانها. بعد ذاك حين شفي من جرحه هذا، لم يكن باستطاعته أن يحرك رأسه إلى اليسار. أما صفية زنوبيا حيدر، تجسيد عار عائلتها وكذلك سببه الرئيسي فقد سقطت بلا حراك بين يدي خطيبها، وفي الحال أخذ عمر الخيام شاكيل المهاجمة والضحية إلى المستشفى حيث بقي تلفار الحق على لائحة الخطر مائة ساعة وساعة بينما كان على عمر أن يعيد صفية زنوبيا من غيبوبتها المستحثة ذاتياً بممارسة أشد أنواع مهارات التنويم المغناطيسي التي يعرفها. أما غودنيوز فقد قضت ليلة زفافها وهي تبكي وتنوح بلا عزاء أو مواساة على كتف أمها في قاعة الانتظار في المستشفى. «تلك المتوحشة» قالت وهي تنشج بمرارة «كان عليك أن تغرقيها ليلة مولدها».

جرد قصير لنتائج فضيحة العرس: رقبة تلفار الحق المتصلبة التي أنهت حياته كنجم بولو، ميلاد روح الغفران والمصالحة لدى رضا حيدر الذي وجد أن من الصعب أن ينبذ رجلاً كادت ابنته أن تقتله، وبذلك لم يطرد تلفار وغودنيوز من أحضان تلك العائلة الملعونة، ومن النتائج أيضاً تداعي بلقيس المتسارع، بلقيس التي لن يعود بالإمكان إخفاء انهيارها العام، رغم أنها باتت في السنوات التالية لا تتعدى الهمسة أو الشائعة إذ أن رضا حيدر أبعدها عن المجتمع تحت نوع من الإقامة الإجبارية غير الرسمية.

والنتائج الأخرى؟ حين بات واضحاً أن الجبهة الشعبية التابعة لاسكندر حربا ستنجح نجاحاً باهراً في الانتخابات، قام رضا بزيارة

لإسكي. أما بلقيس فقد بقيت في المنزل منفوشة الشعر تستمطر اللعنات من السماء لأن زوجها، رضاها، ذهب يذل نفسه أمام ذلك الرجل ذي الشفتين المنتفختين الذي كان دائماً يحصل على ما يريد.

حاول رضا أن يعتذر عن خيبة العرس إلا أن اسكندر قال بكل مرح «بحق الله يا رضا، هارون قادر على رعاية نفسه، أما بالنسبة إلى تلفار الحق فإنني سعيد كثيراً بالانقلاب الذي صنعه ذلك الفتى، بل إنني أقول لك، هو ذا الرجل بالنسبة إلي..» ولم يمض طويل وقت بعد ذلك اللقاء، حتى حدث جنون تلك الانتخابات واعتزل الرئيس الأشعث متوارياً عن الحياة العامة وغدا اسكندر حربا رئيس وزراء، وسرعان ما قام هذا بتعيين تلفار الحق رئيساً للشرطة فكان أصغر رجل يحتل ذلك المنصب في تاريخ البلاد، كما أنه رقّى رضا حيدر إلى رتبة جنرال وعينه في قيادة الجيش.

وهكذا انتقل آل حيدر وحربا شمالاً إلى العاصمة الجديدة الواقعة في التلال، هناك قال اسكي لراني: «من الآن فصاعداً ليس أمام رضا من خيار سوى أن يكون أحد رجالي. إنه يعلم، هو الذي يحمل على رأسه كل تلك الفضائح، أن من حسن حظه أنني أبقيت عليه في الجيش».

أما هارون حربا، الذي حطمت غودنيوز قلبه، فقد ألقى بنفسه في معمعة العمل الحزبي الذي كلفه به اسكندر ليصبح شخصاً مهماً في الجبهة الشعبية وحين صرحت آرجوماند ذات يوم بحبها له، قال لها بفتور: «لم يعد في اليد حيلة. فقد قررت ألا أتزوج أبداً». هذا الرفض الذي واجهها به خطيب غودنيوز المنبوذ أحدث في قلب العذراء ذات السراويل الحديد كراهية لآل حيدر جميعاً، كراهية ستبقى أبد الدهر، أما الحب الذي كانت تنوي أن تمنحه لهارون فقد سكبته بدلاً من ذلك على أبيها دفق شلال. الرئيس وابنته، اسكندر وآرجوماند. «أحياناً». فكرت راني ذات يوم «تبدو آرجوماند وكأنها زوجته أكثر مما أبدو أنا» وكان هناك توتر آخر غير معلن عنه في معسكر آل حربا، إنه التوتر القائم بين

هارون حربا وتلفار الحق اللذين كانا مضطرين لأن يعملا معاً، وهو الأمر الذي استمر سنوات عديدة دون أن يجدا ضرورة لتبادل كلمة واحدة.

في غضون ذلك تم زواج هادئ بين عمر الخيام وصفية زنوبيا، دون أية أحداث تذكر. لكن ماذا عن صفية زنوبيا؟ ـ دعني فقط أذكر الآن أن ما استيقظ فيها من جديد لم يعد للرقاد قط وبذلك فإن تحولها من الآنسة حيدر إلى السيدة شاكيل لن يكون (كما سنرى) التغير الدائم الأخير.

وهكذا جنباً إلى جنب مع اسكندر، راني، آرجوماند، هارون، رضا، بلقيس، داود، نفيد، تلفار، شهبانو، صفية زنوبيا، وعمر الخيام تنتقل قصتنا شمالاً إلى العاصمة الجديدة والجبال القديمة بحالتها المناخية الخاصة.

كان يا ما كان في قديم الزمان، كان ثمة عائلتان، ارتبط مصيرهما ارتباطاً لا يفصمهما حتى الموت. فقبل أن أبدأ كنت أفكر أن ما أحمله بين يدي ليس أكثر من قصة تطغى عليها الصفات الذكرية تقريباً، حكاية من حكايا التنافس على النساء، الطموح، السلطة، الهيمنة، الغدر، الموت، الانتقام، لكن يبدو أن النساء قد تسربن إليها، جئن من أطراف القصة وحواشيها طالبات إدراج قصصهن، مهازلهن، مآسيهن فيها، فارضات علي أن أوشّي قصتي بكل أنواع العقد والالتفافات. كي أرى قصتي «الذكرية» أساساً، تنكسر، إن جاز لنا القول، عبر موشورات جانبها «الأنثوي» المعاكس، وإنه ليخطر لي أن النساء يعرفن تماماً ما يفعلنه ـ أي أن قصصهن تفسر بل وتصنف قصص الرجال. الكبت حلة محكمة لا فتحة فيها. والمجتمع ذو القوانين القسرية القاهرة في الميادين الجنسية والاجتماعية، المجتمع الذي يسحق نساءه تحت أثقال الشرف والعفة التي لا تحتمل، يخلق لديهن أنواعاً أخرى من الكبت أيضاً. والعكس بالعكس: فالأطباء دائماً ـ أو على الأقل أمام الناس، ولصالح الناس الآخرين ـ هم أناس فطريون. وبذلك يتبين أن حبكتي «الذكرية» و«الأنثوية» هما وجهان للقصة ذاتها بالنتيجة.

لكنني آمل أن تجري الأمور دون أن أضطر للقول: ما كل النساء يسحقهن النظام الاجتماعي مهما يكن هذا النظام استبدادياً. إذ يقال بصورة عامة وصحيحة، على ما أعتقد، أن نساء الباكستان أشد تأثيراً في النفس من رجالها. . رغم ذلك فإن سلاسلهن ليست حكايا خرافية، بل هي موجودة وهي تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم. وإذا ما ضغطت شيئاً ما ضغطت ما يجاوره أيضاً. لكن في النهاية، قد ينفجر كل شيء في وجهك.

(٤)

في القرن الخامس عشر

الفصل التاسع

الاسكندر الكبير

اسكندر حربا يقف في الساحة الأمامية، إصبعه تشير إلى المستقبل، وظله يسقط على خلفية من ضياء الفجر. فوق صفحة خده النبيلة تلتف الرسالة، من اليمين إلى اليسار أشكالاً مذهبة تتدفق. رجل جديد لقرن جديد. القرن الخامس عشر (بحسب التقويم الهجري) يبزغ من الأفق، ماداً أصابع طويلة مشعة في سماء الصباح الباكر، الشمس تشرق في المناطق المدارية على عجل، وعلى إصبع اسكي يشع خاتم السلطة، انعكاساً لأشعة الشمس... الملصقة موجودة في كل مكان تاركة آثارها على العقل: اسكي الساحر، اسكي الذي يخرج الشمس من أغوار البحار.

ما الذي ولد؟ ـ أسطورة. اسكي حربا يصعد، يسقط، اسكي يحكم عليه بالإعدام، العالم يصاب بالرعب، جلاده تغرقه البرقيات، لكنه يرتفع فوق أمواجها، ينفضها عن كتفيه ليبرز جلاداً لا رحمة في قلبه، يائساً خائفاً. بعدئذ يموت اسكي، يدفن، يزور ضريحه العميان فتعود أبصارهم إليهم، وفي الصحراء تزهر ألف زهرة. ست سنوات في السلطة، اثنتان في المعتقل والأبدية كلها تحت الأرض.. الشمس تغرب بسرعة أيضاً. وبإمكانك أن تقف على حافة أي مقلع رملي على الشاطئ وترقبها وهي تغوص في البحر.

الرئيس اسكندر حربا ميت، مجرد من ملابس بيير غاردان، من

التاريخ، لكنه يستمر بإلقاء ظله. صوته يدوي في آذان خصومه الداخلية، بكلام منغم قاس لا يرحم، كلام ينخر أدمغتهم كما يفعل السوس. إصبع الخاتم تشير من اللحد، مشعة بالاتهامات.

اسكندر ينتاب الأحياء شبحاً لا ينام، يسكن في كل مكان، صوته الجميل صوت مذهب يحمل أشعة الفجر، يهمس ويهمس، لا يستطيع أحد إسكاته ولا يستطيع أحد إيقافه. آرجوماند واثقة من هذا. فيما بعد حين نزعت الملصقات عن الجدران، عقب التفاف الأنشوطة حول عنقه كما يلتف حبل السرة حول عنق الطفل، ظل احترام كبير لشخصه إلى درجة لم تترك تلك الأنشوطة أثراً على عنقه، وحين ألقي بها، هي آرجوماند، بعيداً في قصر موهينجو الذي تعرض للنهب مرة أخرى، جنباً إلى جنب مع أم بدت أشبه بجدة، أم لم تقبل بقداسة زوجها الراحل، حينذاك تذكرت الابنة، وهي تركز على التفاصيل، فقالت لنفسها إنه سيجيء يوم يعود فيه اسكندر إلى التاريخ. أسطورته بين يديه. آرجوماند تتمشى في ممرات المنزل الموحشة، تقرأ قصة حب رخيصة، تأكل أكل طائر، تتناول أقراصاً ملينة، تفرغ نفسها من كل شيء كي توسع الفسحة للذكريات. الذكريات تملأها حتى الحافة، تملأ أحشاءها، رئتيها، منخريها.. إنها قبرية أبيها وهي تعمل ذلك.

إلى البداية إذاً، لم تكن الانتخابات التي حملت اسكندر حربا إلى السلطة (كما ينبغي أن نقول) نزيهة تماماً مثل الصورة التي رسمتها لها. إذ كيف يمكن أن تكون كذلك في بلد ينقسم إلى شطرين يفصل بينهما ألف ميل، جناحين متباعدين لطائر خرافي، جناحين بلا جسد، تفصلهما كتلة الأرض الهائلة التي يشكلها الخصم الكبير، ولا يربط بينهما سوى كلمة الله.... آرجوماند تتذكر اليوم الأول ذاك، حين كانت الحشود الهادرة تلف مراكز الاقتراع. يا لارتباك الناس الذين عاشوا طويلاً تحت الحكم العسكري والذين نسوا أبسط الأمور عن الديمقراطية! أعداد كبيرة من الرجال والنساء، تكتسحهم أمواج الحيرة والدهشة، يعجزون عن

تحديد مواقع صناديق الاقتراع أو حتى مواعيد الاقتراع فيخفقون في الأداء بأصواتهم. وآخرون، سباحون أشد مهارة في تلك البحار المتلاطمة، يفلحون في التعبير عن آرائهم فيدلون بأصواتهم اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة مرة. عمال الجبهة الشعبية الذين أصيبوا بكارثة الافتقار العام للياقة الانتخابية، يقومون مثلاً بمحاولات بطولية لإنقاذ ذلك اليوم من الفشل. جماهير الناخبين المدنيين القليلة، تلك التي كانت تعود وتعود مخالفة بذلك نموذج الاقتراع السائد على نطاق واسع في الجانب الغربي، تزورها في الليل جماعات من أعضاء الحزب المتحمسين الذين يساعدون الضباط العائدين في إجراء الحسابات من جديد. بهذه الطريقة تتضح المسائل كثيراً. فخارج مراكز الاقتراع المتنقلة، تتجمع أعداد كبيرة من الديمقراطيين، وقد أمسك الكثيرون منهم بمشاعل تتوهج فوق رؤوسهم أملاً بإلقاء ضوء جديد على الحسابات. ضياء الفجر يسطع في الشوارع، فيما تهتف الحشود وتغني أغاني موقعة، حاثة الضباط العائدين لمتابعة أعمالهم. ومع إشراقة الصباح تظهر إرادة الشعب. لقد تم التعبير عنها في صناديق الاقتراع، إذ فاز الرئيس اسكي بالغالبية الساحقة والمطلقة من مقاعد الجناح الغربي في الجمعية الوطنية الجديدة. «عدالة خام» تتذكر آرجوماند «لكنها مع ذلك عدالة».

بيد أن المشكلة الحقيقية نشبت في الجناح الشرقي، ذلك المستنقع العفن. فمن يسكنه يا ترى؟ أوه، متوحشون، يتوالدون بلا توقف، هوام أدغال، لا يصلحون لشيء سوى زراعة الجوت والأرز وطعن بعضهم بعضاً بالسكاكين وإنماء الخونة بين ظهرانيهم. خيانة الشرق: أثبتها على نحو قاطع فشل الجبهة الشعبية في أن تفوز بمقعد واحد هناك، في حين فاز أوباش عصبة الشعب وهو حزب إقليمي من البرجوازيين الناقمين، يقودهم الشيخ بسم الله، ذلك الرجل غير الكفؤ المعروف، أقول، فازوا بانتصار ساحق إلى درجة حصلوا معها على مقاعد في الجمعية أكثر عدداً من المقاعد التي حصل عليها حزب حربا في الغرب. امتنع الشعب

ديمقراطية وانظر ما يفعل. الغرب في حالة صدمة، صوت جناح واحد يرتعش، وقد حاصرته فكرة مخيفة، فكرة تسليم الحكومة لحزب من البدائيين، سكان المستنقعات، أولئك الرجال الصغار سود الوجوه بلغتهم التي لا يمكن لفظها من حروف صوتية مشوهة وحروف غامضة متداخلة، ربما ليسوا غرباء تماماً لكنهم غرباء بلا شك. وهكذا أرسل الرئيس الأشعث، وهو حزين أشد الحزن، جيشاً جراراً لاستعادة الإحساس بالتوازن في الشرق.

بيد أن أفكار آرجوماند لا تتوقف عند الحرب التي أعقبت ذلك، إلا لكي تذكر بالطبع أن أمة الكفرة التي تفرق ما بين الجناحين، آزرت أبناء الزنى الشرقيين وأوقفتهم على أرجلهم وذلك لسبب واضح هو: فرق تسد. حرب مروعة. في الغرب: مصافي النفط، المطارات، بيوت المدنيين الذين يخافون الله تقصفها قنابل الكفرة. الهزيمة الحاسمة للقوات الغربية، تلك الهزيمة التي أدت إلى إعادة تشكيل الجناح الشرقي كدولة مستقلة (وذلك هو المضحك)، إنما كانت وبكل جلاء، بسبب الغرباء: غسلة الحجارة الأوباش الملعونين. أجل. لقد زار الرئيس الأمم المتحدة، وصب على أولئك الخصيان جام غضبه: «لن تدمرونا ما دمت على قيد الحياة». كان يهدر في الجمعية العامة، وسيم المحيا، ثائراً، عظيماً: «بلادي تصغي إلي، فلماذا ينبغي أن أبقى في مأوى العاهرات القذرات هذا؟». ثم عاد إلى البلاد كي يتسلم زمام الحكم في ما تبقى من أرض الله. أما الشيخ بسم الله صانع التقسيم، فقد أصبح رئيساً لسكان الأدغال، في ما بعد، وكأمر لا بد منه، تجمعوا في قصره ذات يوم وزرعوه هو وأفراد عائلته بالرصاص. ولا عجب، فهذا هو السلوك الذي يتوقعه المرء من نوعية كهذه.

الكارثة: طوال الحرب كلها كانت نشرات الأخبار الساعية تصف الانتصارات المجيدة لكتائب الجناح الغربي في الشرق. لكن في اليوم الأخير وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً، أعلنت الإذاعة عن آخر وأروع

مآثر القوات المسلحة، فقد أعلنت لمستمعيها وبصورة موجزة بالمستحيل: بالاستسلام دون قيد أو شرط، بالخضوع، بالهزيمة، فتجمدت حركة المرور في شوارع المدن، وتوقفت مطابخ النساء عن طهو طعام الغداء. وفي القرى ظلت الماشية دون طعام، والمزروعات دون ري رغم الحر الشديد. أما الرئيس اسكندر حربا الذي بات رئيس وزراء، فقد رأى في رد فعل الشعب تجاه الاستسلام المذهل غضباً تاماً يغذيه الإحساس بالعار. ترى أية كارثة حلت بالجيش بمثل تلك السرعة؟ أي انقلاب مفاجئ وشامل حل فانقلب النصر إلى هزيمة مفجعة خلال ستين دقيقة فقط؟ أعلن اسكندر حربا: «مسؤولية تلك الساعة القاتلة تقع، كما ينبغي أن تقع، على عاتق الرأس». وهكذا أحاط رجال الشرطة وكذلك الكلاب بمنزل الرئيس السابق، الكلب الأشعث، في غضون خمس عشرة دقيقة من هذا الإعلان، وسيق إلى المعتقل كي يقدم إلى المحاكمة بتهمة جرائم الحرب، لكن بعدئذ فكر الرئيس مرة ثانية، وقد هدأت ثائرة الناس بتأثير الهزيمة التي حلت بهم وتشوقهم للمصالحة بغية إنهاء أسباب عارهم، فعرض على الأشعث العفو مقابل قبوله بالإقامة الجبرية في منزله «أنت غسيلنا الوسخ» قال الرئيس اسكندر حربا للرجل العجوز غير الكفؤ «لكن لحسن حظك أن الناس لا يريدون أن يروك وأنت تخبط بالمخباط على حجر الغسيل».

لكن، كان ثمة أناس متشائمون استاؤوا كثيراً من هذا العفو، ولا داعي للقول إن في كل أمة ما يكفيها من العدميين. هذه العناصر استنتجت أن اسكندر حربا كان المستفيد الوحيد من الحرب الأهلية التي جردت بلاده من نصفها. فطفقوا ينشرون شائعات عن تواطئه في القضية المحزنة كلها. إذ كانوا يدمدمون في جحورهم الشعثاء قائلين: «كان الكلب الأشعث دائماً هو الكلب المدلل لدى اسكندر حربا، بل لم يكن يأكل إلا من يديه». للأسف فإن عناصر سلبية كهذه حقيقة من حقائق الحياة البشعة. كان الرئيس يعاملهم باحتقار ففي أحد التجمعات التي

حضرها مليونان من الناس، حل اسكندر حربا أزرار قميصه صارخاً: «ما الذي أخفيه؟ يقولون إنني انتفعت لكني أقول إنني خسرت نصف بلادي الحبيبة تماماً. إذاً قولوا لي أهذا نفع؟ هل هذه استفادة؟ أهذا حسن حظ؟ شعبي الكريم، قلوبكم قرحها الحزن، لكن تأكدوا أن قلبي يحمل قروحاً أشد من قروحكم». ثم مزق اسكندر حربا قميصه إلى نصفين، معرياً صدره الأجرد أمام الجماهير الهاتفة المنتحبة (ولقد فعل الممثل ريتشار بورتون الشيء نفسه ذات مرة في فيلم «الاسكندر الكبير» وقد أحب الجند اسكندرهم ذاك لأنه عرض عليهم الندوب التي خلفتها المعارك في جسمه).

بعض الرجال عظماء إلى درجة لا يمكن أن تصنعهم إلا أنفسهم، لقد كان الجيش المهزوم بحاجة إلى قيادة جديدة، فعزل اسكي الضباط الكبار المجللين بعار الهزيمة وجاء برضا حيدر إلى القيادة. «سيكون تابعاً خانعاً لي. وبوجود قائد خانع كهذا لا يمكن للجيش أن يطغى». هذه الخطيئة الوحيدة أثبتت أنها مقتل أقدر رجل حكم تلك البلاد، بلادي التي كانت دائماً في ما يتعلق برؤوس الحكم فيها سيئة الحظ إلى حد مأسوي، ملعونة إلى أبعد الحدود.

لم يكن باستطاعتهم أن يغفروا له قوته النابعة من الحب الملهم. هكذا تفكر آرجوماند، المعتزلة في موهينجو والمفعمة بالذكريات، سامحة لعقلها الغارق في الذكريات أن يحول نثار الماضي المحتفظ به إلى ذهب الأسطورة. فخلال حملة الانتخابات كان من المألوف أن تأتي النساء إليه تحت سمع وبصر زوجته وابنته، ليصرحن بحبهن له. نساء بعمر الجدات في القرى يقبعن على الأشجار وينادينه وهو يعبر بهن: «آه، لو كنا أصغر بثلاثين عاماً فقط..». ولم يكن الرجال يشعرون بالخجل حين يقبلون قدميه. ترى لماذا أحبوه؟ «إنني الأمل» هذا ما قاله اسكندر لابنته. والحب عاطفة لا تعرف نفسها إلا في الآخرين. لقد كان باستطاعة الناس أن يروها في اسكي، هو المفعم حتى الحافة

بالحب، في الحب الذي كان يفيض منه ليغسل عنهم أدرانهم ـ لكن من أين تراه جاء؟ آرجوماند تعلم، وكذلك أمها. إنه تيار غيّر اتجاهه، إذ كان اسكي قد أقام سداً بين النهر ومجراه الطبيعي، بينه وبين بينكي اورانجزيب.

في البداية، استأجرت آرجوماند مصورين لالتقاط صور سرية لبينكي، بينكي وهي في السوق تحمل فروجاً منتوفاً، بينكي وهي في الحديقة تتوكأ على عصا، بينكي وهي عارية تحت مرش الماء كحبة تمر يبست منذ زمن طول، ثم تركت تلك الصور في مكان يراها فيه الرئيس. «انظر، يا الله!! إنها في الخمسين من عمرها، لكنها تبدو وكأنها في المائة أو في السبعين على الأقل، فماذا بقي منها؟». في الصور كان الوجه منتفخاً والساقان مطرزتين بعروق الدوالي المزرقة والشعر منفوشاً خفيفاً مبيضاً. «كفي عن عرض هذه الصور علي» صاح اسكندر بابنته (وهي تتذكر ذلك إذ لم يكن يفقد أعصابه معها قط). «ألا تظنين أنني أعلم بما فعلته بها؟».

«إذا لامسك رجل عظيم فإنك تشيخين بسرعة كبيرة، تعيشين كثيراً، لكن مستهلكة تماماً». وكان اسكندر حربا يمتلك القدرة على تسريع سيرورة الشيخوخة لدى النساء اللواتي يمررن في حياته. فبينكي في الخمسين كانت قد تجاوزت ذكرى الديوك الرومية، تجاوزت حتى ذكرى جمالها، وراني كانت تقاسي أيضاً، وإذا كانت مقاساتها غير كبيرة، فذلك لسبب واحد، هو أنها كانت أقل الناس رؤية له. حين جاءت إلى العاصمة معه كان لديها أمل بالطبع، لكن حين اتضح أنه لم يكن يريدها إلا لكي تقف إلى جانبه على منصة الانتخابات، وأن زمانها مضى وانقضى، حينذاك رجعت إلى موهينجو دون أي نقاش لتغدو مرة أخرى سيدة الطواويس وطيور اللعب والمحظيات لاعبات ريشة التنس والفراش الخاوي، امرأة لا تعدو أن تكون معلماً من معالم الإقطاعة، روحاً أليفة طيبة تجسد المكان، شخصاً متصدعاً يعشش عليه العنكبوت مثل قصرها

العتيق تماماً. وآرجوماند نفسها كانت رهن التسارع دائماً، هي التي نضجت باكراً قبل أوانها، وكانت حادة كالإبرة «حبك كبير علينا» قالت ذات مرة للرئيس «سوف نموت جميعاً قبلك. فأنت تقتات من أجسامنا».

لكنهم جميعاً عاشوا بعده، كما تبين بعد ذاك. فحبه الذي غير اتجاهه (إذ إنه لم ير بينكي مرة ثانية قط ولم يرفع مهتافاً لها ولم يكتب رسالة، كما أن شفتيه لم تنطقا باسمها قط، لقد رأى الصور الفوتوغرافية ولا شيء آخر) ذلك الحب كان ينثر رذاذه على الناس إلى أن جاء يوم سد حيدر فيه النبع.

ذلك الحب كان ينثر رذاذه أيضاً على آرجوماند وكان ذلك أكثر من كاف بالنسبة إليها. لقد انتقلت مع أبيها إلى مقر رئيس الوزراء في العاصمة الشمالية الجديدة ولفترة من الزمن ظلت راني تكتب لها الرسائل تقترح عليها العرسان بل تبعث حتى بالصور، لكن آرجوماند كانت تعيد الرسائل والصور إلى أمها وقد مزقتها إرباً إرباً. وهكذا، بعد عدة سنوات من تمزيق صور المرشحين للزواج منها، ألحقت العذراء ذات السراويل الحديد بآمال راني هزيمة ماحقة، فتركتها هذه وشأنها تسير الدرب الذي اختارته. كانت آرجوماند في الثالثة والعشرين حين تولى اسكي منصب رئاسة الوزارة لكنها كانت تبدو أكبر سناً رغم أنها كانت لا تزال جميلة تغري الخاطبين إلا أن مرور الزمن قضى على كل أمل بذلك فغض الخاطبون أخيراً كل نظر عنها. أما بين آرجوماند وهارون فلم يكن ثمة ما يقال «لقد مزقتني إلى نصفين منذ زمن طويل».

درست آرجوماند حربا القانون ثم نشطت في مجال الثورة الخضراء، فطوحت بالإقطاعيين من قصورهم، فتحت الزنازين، شنت الغارات على بيوت نجوم السينما، شرطت مفارشهم بالخناجر الطويلة ذات الحدين وضحكت من قلبها وهي ترى المال الحرام ينسكب من بين النوابض المصنوعة على شكل جيوب. وفي المحكمة كانت ترافع ضد أعداء الدولة بعنف بالغ أعطى لقبها المعروف معنى جديداً وأقل بذاءة،

فذات مرة، حين وصلت إلى حجرتها وجدت أن أحد الثعابين تسلل إليها تحت جنح الظلام ثم ترك هدية ساخرة تنتصب وسط الغرفة، هدية عبارة عن النصف الأسفل من لأمة أثرية صدئة، زوج من سيقان معدنية مثيرة للسخرية وقد اتخذتا وضع الاستعداد على السجادة، فيما شد حول الخصر الأجوف، وبكل أناقة، حزام معدني مقفل. إنها آرجوماند حربا «العذراء ذات السراويل الحديد».

تلك الليلة أطلقت لدموعها العنان، وقد جلست على الأرض في مكتب والدها مسندة رأسها إلى مكتبه. «إنهم يكرهونني». فأمسك اسكندر بكتفها وشرع يهزها إلى أن جففت الدهشة دموعها ثم سأل: «من الذي يكرهك؟ اسألي ذلك السؤال فقط، إنهم أعدائي الذين هم أعداؤك وأعداؤنا هم أعداء الشعب. فأي عار في أن يكرهك أبناء الزنى أولئك؟». حينذاك أدركت كم يمكن للحب أن يولد من كراهية. «إنني أبني هذا البلد» استأنف اسكندر بهدوء «وبناء بلد أشبه ببناء الرجل لبيت الزوجية.. بقوة وعناية. لكن لا وقت لدينا للدموع إن كنت ترغبين في المساعدة». عندها مسحت آرجوماند عينيها وكشرت ضاحكة ثم قرصته من ساقه «يا لك من محب لتعدد الزوجات، فأي نمط عتيق متخلف أثبت في الصميم.. كل ما يدور في خلدك هو الزيجات والمحظيات أيها الرجل العصري».

«سيد حربا» يسأله مندوب التلفزيون الإنكليزي «كثير من المعلقين يقولون إن هناك وجهة نظر واسعة الانتشار، قطاعات كاملة من الرأي، تدعم، كما يزعم خصومك، ما يمكن القول بأنه، طبقاً لبعض المقاييس، ومن وجهة نظر معينة، وبشكل من الأشكال، يمكن وصف أسلوبك في الحكم، بأنه وإلى حد ما...» فيقاطعه اسكي: «أوه ما هذا الهراء؟ الآن أرى أنهم يرسلون أطفالاً لإجراء مقابلات معي»، عندها يبدأ المندوب التلفزيوني بالتصبب عرقاً. منظر لم تلتقطه عدسة التلفزيون، إلا أن آرجوماند تتذكره.

«. . . أسلوب أرستقراطي» يكمل المندوب «أوتوقراطي، متشدد، قمعي؟» فيبتسم اسكندر حربا ثم ينتصب بجلسته في كرسيه، طراز لويس الخامس عشر، ويرشف من كأسه البلورية رشفة من شرابه المصنوع من عصير الفواكه، ثم يجيب: «يمكنك القول إنني لا أتحمل البلهاء مسروراً، لكنني، كما ترى، أتحملهم».

آرجوماند تعيد، وهي في موهينجو، تشغيل أشرطة الفيديو المسجلة لوالدها تشغلها في الغرفة نفسها التي وقعت فيها الأحداث، وهذا الحوار يطغى على كل شيء، هذا البث الإلكتروني الذي يتم بالتحكم من بعيد. نعم. . كان يتحملهم. اسمه نقشه التاريخ بأحرف من ذهب وهاج، فلماذا ينبغي أن يهتم بأنماط نحاسية؟ ها هم هنا على شريط الفيديو، يعهدون إلى صحافي غربي بأن يذهب ويسبر غور الناس ثم يعود بالنتائج بنفسه. «لقد عذبني»، يقول أحدهم شاكياً، «أطلق علي النار» يقول الثاني، «اعتقلني»، «فررت كي أنجو بجلدي»، تلفزيون رائع: يجعل قادتنا يبدون أشبه برجال بدائيين، متوحشين حتى وإن كانوا قد تلقوا علومهم في بلاد أجنبية أو يلبسون بدلات أجنبية. أجل، دائماً هناك ساخطون ناقمون، وذلك كل ما يهتمون به.

هو لا يحب المناقشات البتة، افعل ما يأمرك به وافعل ذلك للتو واللحظة، في الحال، أو اخرج من لدنه مجروراً على قفاك. هكذا ينبغي أن تسير الأمور. انظر ما كان يفعله ـ حتى مع وزرائه. وقدر كبير منهم مرتدون، مساحو ـ جوخ، دمى، انتهازيون، لم يكن يثق بواحد من هؤلاء، لذلك أنشأ قوة الأمن الاتحادية، وعلى رأسها تلفار الحق ليقول له دائماً «المعلومات نور».

ولقد تمكن تلفار الحق هذا من خلال استشفافه للمستقبل أن يجمع أضابير ومعلومات لا نهاية لها عن الراشين، المرتشين، المؤامرات، التهرب من الضريبة، الأحاديث الخطرة في حفلات المساء، التجمعات الطالبية، اللواط، جذور الخيانة. كما أن هذا الاستشفاف جعله قادراً

على وضع يده على خائن المستقبل قبل أن يرتكب خيانته، وبذلك كان ينقذ حياته. لكن العناصر السلبية في البلاد، كثيراً ما كانت تتهجم على قوة الأمن الاتحادية، كانوا يودون أن يطفئوا ذلك النور المطهر العظيم، لذا كانوا يؤخذون إلى السجن، خير مكان للساخطين الناقمين. فلا وقت لنماذج كهذه خلال فترة الخلق الوطني الجديد. «إننا كأمة، نتمتع بموهبة فذة في تدمير الذات» قال اسكندر لآرجوماند ذات يوم «إننا نقضم أنفسنا، نلتهم أطفالنا، نشد إلى الأسفل كل من يتسلق إلى الأعلى، لكنني أصر على أننا سنبقى وسنستمر».

«ليس باستطاعة أحد أن يطيح بي» يقول طيف اسكي لظل الصحافي الإنكليزي على الشاشة الإلكترونية «لا القطط السمينة ولا الأميركيون ولا حتى أنت، فمن أنا؟ أنا تجسيد حب الشعب».

الجماهير مقابل الطبقات، تضاد قديم العهد كثيراً. من كان يحبه؟ «الشعب»، الناس الذين ليسوا مجردات رومانسية بحتة، الحساسون الواعون إلى حد يكفي لأن يعرفوا ما الذي يخدمهم على خير وجه. من كان يحبه؟ بينكي اورانجزيب، راني حربا، آرجوماند، تلفار الحق، هارون، وأية خلافات بين هذا الخماسي؟!! بين الزوجة والخليلة، الأم والابنة، آرجوماند المنبوذة وهارون النابذ، هارون المنبوذ وتلفار المغتصب.. وتفكر آرجوماند «لعل سقوطه كان بسببنا. فعبر صفوفنا المتفرقة استطاعوا هم أن يدقوا إسفين هزيمته».

و«هم» هذه، تعني القطط السمينة، المهربين، رجال الدين، نخبة مجتمع المدينة التي تتذكر تحلله أيام الشباب ولا تسامحه على انبثاق الرجل العظيم من شرنقة الفسق والرذيلة، أصحاب المعامل الذين لم يكونوا يهتمون بالحفاظ على عمالهم بقدر ما يهتمون بالحفاظ على أموالهم، والذين كان، هو الرئيس، قد أرغمهم على قبول ذلك الشيء المرفوض، أعني إنشاء النقابات، كما تعني «هم» هذه، المرابين، المحتالين، النصابين، أصحاب المصارف، وكذلك السفير الأميركي.

السفراء: لقد مر عليه تسعة منهم في غضون سنواته الست، وكذلك خمسة سفراء بريطانيين وثلاثة من السوفايت. وكثيراً ما كان اسكندر وآرجوماند يتراهنا على المدة الزمنية التي سيقضيها القادم الجديد في البلاد. بعدئذ، وبسعادة طفل فاز بلعبة جديدة، كان اسكندر يشرع بالعمل للإرسال بهم إلى الجحيم. إذ كان يجعلهم ينتظرون أسابيع لمشاهدته، كما كان يقاطعهم وهم يتكلمون، ويرفض إعطاءهم رخصاً للصيد. لقد كان يدعوهم إلى مآدب يقدم فيها للسفير الروسي حساء عش ـ الطيور[1] وبطة بكين[2]. بينما يقدم للأميركي، البورش[3] والبليني[4]. كما كان يرفض مغازلة زوجاتهم. أما مع السفير البريطاني، فقد كان يتظاهر بأنه انحدر لتوه من الريف، فلا يتحدث إلا بلهجة إقليمية غامضة، لكن مع سفير الولايات المتحدة، كان يسلك الطريق المعاكس تماماً، فلا يخاطبه إلا بفرنسية مصقولة عسيرة على الفهم. كما كانت السفارات تتعرض باستمرار لتجاوزات السلطة. فقد كان اسكي يفتح حقائبهم الدبلوماسية ويضيف بنفسه ملاحظات ساخطة على تقارير السفراء، حتى أن أحد السفراء الروس استدعي إلى بلاده كي يفسر بعض النظريات غير المألوفة عن مختلف أعضاء المكتب السياسي الرئيسي، ولم يعد قط. كما أن زاوية جاك أندرسون الصحافية، حملت ذات يومٍ وثيقة مسربة تؤكد أن مندوب الولايات المتحدة إلى بلاط اسكندر حربا، قد اعترف اعترافاً واضحاً أنه منذ زمن طويل يشعر بانجذاب جنسي شديد نحو وزير الخارجية هنري كيسنجر، وكانت تلك نهاية السفير. «لقد كلفني انطلاقي بعض الزمن» اعترف اسكندر لآرجوماند ذات يوم «لكن ما إن انطلقت، حتى بات من اليسير علي أن أحرم هؤلاء الفتيان من الرقاد».

---

(١) طعام أمريكي.
(٢) طعام صيني.
(٣) حساء خضار روسي.
(٤) طعام روسي.

لقد وضع على هواتفهم أجهزة تنصت في الاتجاهين، إضافة إلى ذلك فقد نكب السفير السوفايتي بتسجيلات دائمة تصيح به كلما رفع السماعة قائلة: «المجد للزعيم» بينما كان السفير الأميركي يحصل على الأفكار الكاملة للرئيس ماو. كذلك قام بتهريب عدد من الغلمان الوسيمين إلى مخدع السفير البريطاني، الأمر الذي أثار كثيراً دهشة، إن لم نقل بهجة، زوجته التي طورت بعد ذلك عادة اللجوء إلى مخدعها باكراً جداً تحسباً فقط لمثل هذه الحالة. كذلك طرد الملحقين الثقافيين والملحقين الزراعيين، كما كان يستدعي السفراء إلى مكتبه في الثالثة صباحاً ويظل يصرخ في وجوههم حتى الفجر، متهماً إياهم بالتآمر مع رجال الدين المتعصبين وأقطاب الصناعات النسيجية الناقمين. كذلك كان يسد مجاريرهم ويراقب بريدهم الداخل، حارماً الإنكليز من نسخهم من صحف سباقات الخيل، والروس من مجلة البلاي بوي، والأمريكيينن من كل شيء آخر. وهكذا فإن آخر السفراء الأمريكيين التسعة لم يستمر سوى ثمانية أسابيع، إذ قضى نحبه إثر إصابته بنوبة قلبية وكان ذلك قبل يومين من وقوع الانقلاب الذي أطاح باسكي وأنهى اللعبة. «إن دام العهد بي طويلاً»، كان الرئيس يفكر «فقد أتمكن من تحطيم الشبكة الديبلوماسية الدولية بكاملها. ولسوف يمنون بنقص السفراء قبل أن أمنى بنقص البخار».

في القرن الخامس عشر تسلم رجل عظيم زمام السلطة. أجل، كان يبدو كلي القوة، وكان يهزأ بكل عظيم وافد، قائلاً لهم «انظروا إلي، ليس باستطاعتكم اللحاق بغباري». خالداً كان حربا، قوياً، لا ضعف فيه. لقد حقق للشعب الفخار... وصل السفير الأميركي العاشر بعد اعتقال اسكندر، ومحياه ينضح بالراحة المباركة. وحين قدم أوراق اعتماده للرئيس رضا حيدر، غمغم بهدوء: «المعذرة يا سيدي، لكنني آمل أن تفتقر لروح الدعابة التي كان سلفك يتمتع بها». فأجاب رضا حيدر «استقرار الوطن مسألة لا مزاح فيها».

ذات مرة حين قامت آرجوماند بزيارة لوالدها في جحره الجهنمي في ذلك المعتقل، اغتصب اسكندر ابتسامة رغم أنه كان مكدم الوجه، تالفاً، مريضاً يعاني من الإسهال، ثم قال والألم يعتصر نفسه: «ابن الزنى العاشر هذا، يبدو لعنة حقيقية. بودي لو أشطره شطرين».

في القرن الخامس عشر... لكن رغم الملصقات فإن تغير القرن لم يحدث أيام ارتقائه. بل حدث في ما بعد، لكن كان لغيابه تأثير كبير إلى درجة بدا معها التغير الفعلي، أي الانتقال، من المائة الثالثة عشرة إلى المائة الرابعة عشرة، وكأنه سقوط من الذروة. فعظمته طغت على الزمان نفسه. رجل جديد لقرن جديد... أجل، كان اسكندر يقود ذلك القرن بيده، يهديه الطريق، متقدماً إياه خطوات، لكن الزمان زرق عليه. إنه انتقام الزمان: ولقد علقه في العراء ليجف.

في منتصف الليل شنقوه ثم أنزلوه، لفوه وسلموه لتلفار الحق الذي وضعه في طائرة وطار به إلى موهينجو حيث كانت تنتظر امرأتان هما نفسهما تحت الحراسة. وحين أُنزل الجثمان من الطائرة رفض قبطانها وملاحوها مغادرتها. وهكذا انتظرت الطائرة تلفار في آخر مدرج موهينجو، مطلقة سحابة من الضجيج تثير الأعصاب، وكأنها لا تتحمل المكوث في ذلك المكان لحظة واحدة لا لزوم لها. كانت سيارة القيادة قد حملت راني وآرجوماند إلى اسكندر، تلك المنطقة الواقعة على أطراف موهينجو التي كان آل حربا يدفنون فيها دائماً، فشاهدتا وسط شواهد القبور الرخامية، حفرة عميقة جديدة. كان تلفار الحق يقف وقفة الاستعداد بجانب الجثمان المكفن بالبياض فرفضت راني حربا بشعرها المبيض الذي جعلها أشبه بشبح بينكي اورانجزيب، أن تصرخ أو تنتحب بل قالت: «هو ذا إذاً» فانحنى تلفار، ذو العنق المتيبسة، طاوياً خصره. «أثبت ذلك» قالت راني حربا «أرني وجه زوجي» «وفري على نفسك ذلك». أجاب تلفار «لقد شنق».

فقالت راني «اهدأ وارفع الملاءة» فانحنى تلفار ثانية «آسف كل الأسف لدي أوامر».

«أية أوامر؟» ردت راني دون أن ترفع صوتها «من ينكر علي حقاً كهذا؟». لكن تلفار قال مرة ثانية «أنا آسف، حقاً آسف ثم خفض عينيه، عيني الخائن. تلفار ورضا، شرطي وجندي: رجلا اسكي».

«إذاً في الجسم أمر ما» قالت راني. تصلب تلفار ثم رد على عجل «زوجك ميت، فما عساه ذلك الأمر وما أهميته الآن؟». «إذن دعني أقبله من فوق الملاءة» همست راني ثم انحنت على الشكل الملفوف، فلم يحاول تلفار إيقافها إلى أن أدرك مقصدها، لكن حينذاك كانت أظافرها قد أحدثت فجوة كبيرة في القماش حيث كان وجه اسكندر الشاحب كالرماد يحدق إليها بعينيه المفتوحتين.

«أنت لم تغلقيهما حتى» خاطبت آرجوماند أمها للمرة الأولى، غير أن أمها لم تحر جواباً بل حملقت صامتة بالشفتين المكتنزتين والشعر الفضي وظلت كذلك إلى أن سحبوها بعيداً. «هيا» قالت راني «ادفنوا دليل عاركم فقد رأيته الآن». وكانت الشمس قد بزغت من الأفق حين ووري اسكندر ثراه.

في السيارة العائدة، قالت راني حربا بصوت نائي المسافات: «عندما يشنق الإنسان فإن عينيه تنتآن والوجه يزرق واللسان يندفع خارجاً».

«ماما، أرجوك، كرمى لله».

«والأحشاء تنتفخ. لكنهم نظفوه على ما يبدو، فقد شممت رائحة مطهر». «لن أسمع هذا».

«ربما حتى الوجه، فلديهم أناس يهتمون بأشياء كهذه، يقطعون اللسان كي يغدو بالإمكان إطباق الشفتين. ولعلهم يستخدمون أخصائي مكياج لهذا الغرض».

عند ذاك، سدت آرجوماند حربا أذنيها براحتيها.

«لكن ثمة أمر هام، على عنق المشنوق يترك الحبل آثاره وعنق اسكندر خالية من أي أثر».

فقالت آرجوماند: «هذا يثير الاشمئزاز، يصيبني بالمرض».

«ألا تفهمين؟» صاحت راني حربا بها «إن كان الحبل لم يترك آثاره فما ذلك إلا لأن أباك كان ميتاً. هل أنت أغبى من أن تري ذلك؟ لقد شنقوا جثة ميتة».

فسقطت يدا آرجوماند في حجرها هاتفة: «يا إلهي!!!» العنق الخالية من الآثار: غياب لبطاقة الزيارة التي يقدمها الموت. فصاحت آرجوماند وقد أطبق عليها جنون مفاجئ «لماذا تتكلمين عن أمور كبيرة يا ماما؟ ما الذي تعرفينه عن الشنق وما شابه؟».

فردت راني بكل لطف «نسيت، إذاً، أنني رأيت مير الصغير».

تلك الليلة حاولت راني حربا، للمرة الأخيرة، الاتصال هاتفياً بصديقتها القديمة بلقيس حيدر، فرد صوت قائلاً: «آسف. البيجوم حيدر لا تستطيع المجيء للتكلم». عندها فكرت بلقيس «إذاً، فالأمر صحيح. مسكينة بلقيس لقد حجر عليها هي الأخرى».

وضعت راني وآرجوماند رهن الإقامة الجبرية ست سنوات تماماً، سنتين قبل إعدام اسكندر حربا وأربعاً بعده. خلال تلك الفترة فشلتا تماماً في أن تَغْدُوَا أكثر التصاقاً وحميمية، وذلك لسبب واحد: عدم التجانس في ذكرياتهما. الشيء الوحيد الذي ظل بينهما هو أنهما لم تبكيا موت اسكندر قط. فوجود سلسلة جبلية صغيرة من الخيام العسكرية التي انبثقت وكأنما بفعل زلزال، في الساحة نفسها التي ربط رضا حيدر نفسه إلى وتد فيها ذات يوم، أقول وجود تلك الخيام ذاته جفف من أعينهما الدموع. أي بعبارة أخرى، كانت الأم وابنتها تعيشان فوق تراب مغتصب، في أرض محتلة وقد صممتا على ألا تدعا الغزاة المحتلين يرون دموعهما ويشمتون. في البداية، حاول رئيس الحرس، وهو نقيب يدعى حجاز، فتى كسبطانة البندقية، شعره كفرشاة الأسنان والزغب

الدائم على شفته العليا يرفض بكل عناد أن يتحول إلى شارب، هذا النقيب حاول في البداية أن يدفعهما إلى ذلك. إذ قال هازاً كتفه: «الله وحده يعلم ما أنتن أيتها النساء. إنكن لكلبات حقيقيات. رجلكن يموت فلا تبلل ثراه دمعة واحدة» لكن راني حربا أبت أن تستثار فأجابت «أنت على حق. الله يعلم، صحيح. لكنه يعلم أيضاً كل شيء عن شبان يرتدون بزات رسمية. فأزرارها النحاسية لا تستطيع إخفاء شيء عنه».

خلال هاتيك السنوات التي انقضت تحت أعين الجند الكثيرة الارتياب وأنسام عزلة ابنتها الباردة، ظلت راني حربا تطرز الشالات الصوفية. «لم تحدث الإقامة الإجبارية إلا القليل من التغيير» اعترفت راني للنقيب حجاز منذ البداية «أما مخاطبة نفسي، فذلك يعني، أن هناك وجوهاً جديدة حولي أناجيها ببضع كلمات بين الفينة والفينة».

«لا تبدئي التخيل بأنني صديقك» صاح حجاز والعرق يلمع على شفته الزغباء. «فما إن نقتل ابن الزنى ذاك، حتى نصادر هذا البيت. هذا الذهب، الفضة، هذه اللوحات الأجنبية القذرة، لوحات النساء العاريات والرجال نصف الفرسان، كله، كله يجب أن يذهب».

فنصحته راني قائلة: «ابدأ بلوحات غرفتي. إنها تساوي مالاً كثيراً. ودعني أعلم إن كنت بحاجة لمساعدتي في فرز الأواني الفضية الحقيقية من الصحاف العادية».

كان النقيب حجاز لا يتعدى التاسعة عشرة من عمره حين جاء إلى موهينجو، فوجد نفسه يغرق في بحران الحيرة والارتباك، وذلك لسببين، الأول: ضيقه الشديد لتكليفه بمهمة حراسة سيدتين بارزتين كراني وآرجوماند، والثاني: خجله وخرقه الناتجان عن صغر سنه. وهكذا حين عرضت راني حربا عليه أن تساعده في نهب موهينجو، قدح صوان خجله النار فأشعل فتيل كبريائه. عندها أمر رجاله بجمع كل غال وثمين في المنزل وتكويمه أمام الشرفة التي كانت راني تجلس فيها متماسكة رابطة الجأش تعمل بشالها ولا يعرف الانفعال وجهها البتة. كان بابار

شاكيل قد حرق في صباه كومة من الأثريات، أما النقيب حجاز الذي لم يسمع قط بذلك الفتى الذي أصبح ملاكاً، فقد أعطى النار مرة ثانية لمحرقة في موهينجو، إنها المحرقة التي يحرق فيها الرجال كل ما يشكل عليهم كابوساً من الماضي. لكن خلال يوم الحرق ذاك، كانت راني حربا ترشد الجنود النهابين الحارقين كي تتأكد بنفسها من أن خيرة قطع الأثاث وصفوة الأعمال الفنية ستشق طريقها إلى تلك المحرقة.

بعد يومين، صعد حجاز إلى راني التي كانت في كرسيها الهزاز كالعادة، ثم اعتذر بلا استحياء عن فعلته الطائشة تلك، فأجابت «لا، لقد كانت فكرة جيدة. أنا نفسي كنت أكره تلك الأشياء القديمة، لكن اسكي كان سيجن لو حاولت التخلص منها». بعد عملية النهب والحرق في موهينجو، شرع حجاز يعامل راني باحترام شديد. وهكذا لم تنته السنوات الست، حتى بات يفكر بها كأم، إذ كان قد كبر أمام عينيها. وهو المحروم من الحياة العادية، من الرفاق والأصحاب في معسكره، بدأ يفضي إليها بكل ما في قلبه، بكل أحلامه نصف المتبلورة عن النساء وعن مزرعة صغيرة في الشمال.

وكانت راني تفكر «إنه قدري، أن يخطئ الناس بي، فيتخذوني أماً لهم» لقد تذكرت أن اسكندر نفسه بدأ مع آخر أيامه يقع في ذلك الخطأ. بل إنه في آخر زيارة قام بها إلى موهينجو، ركع على الأرض وقبل قدميها.

كلتا المرأتين انتقمت من سجانها بطريقتها. راني جعلته يحبها فنجم عن ذلك أنه بات يكره نفسه، أما آرجوماند، فقد شرعت تفعل ما لم تفعله في حياتها، صممت على القتل. إنها تبرم شفتيها، تهز ردفيها، يومض البريق في عينيها لكل الجنود، إلا أن أشد الوميض كانت توجهه لوجه الإجاصة، النقيب حجاز، فكانت نتائج سلوكها هائلة. معارك تنشب في الهملايات القماشية الصغيرة، أسنان تهشم، سكاكين يغرزها الجنود بصدور رفاقهم، بل إن حجازاً نفسه بات يصرخ في باطنه وهو

أسير شهوة شديدة ظن معها أنه سينفجر، مثل بالون مليء بماء ملون، وهكذا حشر آرجوماند عصر ذات يوم في زاوية من الزوايا ثم قال لها محذراً: «لا تحسبي أنني أجهل ما تنوين فعله، أيتها العاهرة المليونيرة. تحسبين أن بإمكانك أن تفعلي شيئاً. في قريتي، ترجم الفتاة بالحجارة إن فعلت ما تفعلين، إن تصرفت بمثل هذا الابتذال، وأنت تعلمين تماماً ما أعني».

فردت آرجوماند «إذاً، ارجمني بالحجارة. أتحداك».

بعد شهر واحد حدثها حجاز مرة ثانية إذ صرخ يائساً: «الرجال يريدون اغتصابك، إنني أرى ذلك في أعينهم. فلماذا أوقفهم؟ لا. سأسمح بذلك، فأنت من تجلب العار على نفسها».

عندها أجابت آرجوماند «ليأتوا ولنر، لكن ينبغي أن تكون أنت على رأسهم».

حينذاك شتمها حجاز وهو يشعر بأنه غارق في بحر من العجز «عاهرة، ألا تعلمين أنك في قبضة يدنا؟ ألا تعلمين أنه ما من أحد يهتم قيد شعرة بما سيحدث لك؟».

فكان كل ما قالته: «أجل، أعلم ذلك».

لكن مع انتهاء فترة الإقامة الإجبارية، كانت آرجوماند قد سجنت النقيب حجاز، عذبته عذاباً بطيئاً حتى الموت، كان الفتى في الرابعة والعشرين من عمره، لكن شعره كان قد شاب قبل أوانه، غدا أبيض كالثلج مثل شعر المرحوم اسكندر حربا. وحين ساقوه إلى حجرات التعذيب، نطق قبل أن يبدأ الصراخ بثلاث كلمات فقط «إذاً، ما الجديد؟».

خلال ست سنوات أنجزت راني حربا، وهي تجلس في كرسيها الهزاز على شرفتها، تطريز ثمانية عشر شالاً، فكانت أروع قطع طرزتها في حياتها، لكن بدلاً من أن تعرض عملها على ابنتها أو على الجند، كانت تضع كل شال، لدى انتهائها منه، في حقيبة معدنية سوداء ملأى

بحبوب النفتالين، ثم تقفلها بالقفل والمفتاح. كان مفتاح تلك الحقيبة هو الشيء الوحيد الذي سمح لها بالاحتفاظ به. أما بقية المفاتيح، فقد كان النقيب حجاز يحتفظ بها في حلقة كبيرة تتدلى من حزامه ذاك الذي كان يذكر راني ببلقيس حيدر، تلك البلقيس التي كانت تقفل الأبواب بكل إحكام خوفاً من رياح «اللو». مسكينة بلقيس! راني تشعر بالحنين لمحادثتها الهاتفية. فما حدث بين الرجلين قطع تلك الآصرة بين المرأتين، حبل السرة ذاك الذي كان يحمل مع نبضاته غير المرئية ومن حين إلى آخر، رسائل الدعم والمؤازرة لهذه الجهة حيناً، ولتلك الجهة حيناً آخر. «لكن لم يكن بالإمكان منع ذلك». خاطبت راني ببرود شالاتها المكتملة. في البداية كان حجاز قد حاول تجريدها من إبرها وخيوطها، لكن سرعان ما جعلته يخجل من محاولته تلك، فقد قالت له: «لا تحسب أنني سأنتحر بسببك يا غلام». وفي مرة أخرى قالت: «ماذا تظن؟ هل سأشنق نفسي بأنشوطة من صوف التطريز؟» وهكذا، بما تملك من رزانة ورصانة بالغتين كسبت زوجة اسكندر الجولة (وكان ذلك قبل موت اسكندر) بل لقد وافق حجاز على تأمين كبّات الغزل لها، طبقاً للألوان والأوزان التي تحددها، من مستودعات القيادة العسكرية، بعدئذ بدأت تعمل من جديد، تحول الشالات، تلك الميادين الناعمة الطرية، ثم ترسم عليها ذلك النتاج الساحر الحي الذي يبدعه فنها السحري.

ثمانية عشر شالاً ترقد في حقيبة مقفلة: فقد كانت راني أيضاً، تخلد الذكريات. أما في ذهن ابنته، فقد كان اسكندر حربا ينبض بالحياة، شديداً، نصف ـ إله، لكن أبداً لم تلتق مجموعتا الذكريات تانك، رغم أن محورهما واحد. . ذلك أن راني لم تعرض عملها على أي إنسان كائناً من كان، إلى أن أرسلت، بعد سنوات، حقيبتها تلك، هدية إلى آرجوماند، وما من أحد استرق النظر من فوق كتفها وهي تعمل، ولم تكن ابنتها أو أحد من الجند مهتماً بما تعمله السيدة حربا طوال بقائها على قيد الحياة.

قبرية من الصوف. ثمانية عشر شالاً من الذكرى. ولكل فنان الحق في أن يسمي ما يبدعه، لذا، وضعت راني ورقة صغيرة داخل الحقيبة قبل إرسالها إلى ابنتها التي استعادت قوتها من جديد. وعلى تلك الورقة كتب العنوان الذي اختارته: «صفاقة الاسكندر الكبير» كما أضافت توقيعاً يثير الدهشة: راني همايون. إذ كانت قد استردت اسمها الأصلي من كرات عث الماضي.

ما الذي تصوره الشالات الثمانية عشر يا ترى؟

في حقيبتها المقفلة، كانت الشالات تنطق بأشياء لا يمكن الإفصاح عنها، أشياء لا يريد أحد أن يسمعها: فعلى شال ريشة التنس، بأرضيته الخضراء الليمونية وزخرفتها الدقيقة المؤلفة من مضارب متراكمة وسراويل داخلية مكشكشة، وريشات تنس رائحة غادية، كان الرجل العظيم يضطجع عارياً، فيما تتواثب من حوله المحظيات ذوات البشرة الوردية، تتطاير ملابسهن الرياضية عن أجسامهن، واه!! ما أشد الروعة التي رسمت بها طيات تلك الملابس وهي تتطاير مع النسيم! ما أبدع الدقة التي رسمت بها الظلال والنور!! فأطياف تلك الحسان تبدو عاجزة عن تحمل قيود القمصان البيض والمناهد والأحذية الرياضية، فتهم بالتخلص منها، فيما يتمدد اسكي على جانبه الأيسر مستنداً إلى كوعه، ليستقبل ما يلقين به، «نعم، أنا أعلم، لقد جعلت منه قديساً يا بنيتي، ازدردت كل ما قدمه لك، زهده، تبتله تبتل بابا شرقي، لكنه لم يكن قادراً على الاستمرار كذلك زمناً طويلاً. هو رجل المتعة، ذلك المتنكر بلباس خادم الواجب، ذلك الارستقراطي الذي أصر على التمسك بحقوقه كسيد إقطاعي، ذلك الذي بز كل الرجال في إخفاء آثامه، لكنني أعرفه هو الذي لم يكن باستطاعته إخفاء شيء عني، فرأيت الفتيات البيضاوات في القرية ينتفخن وتبرز بطونهن. وعرفت كل شيء عن الأعطيات المنتظمة التي كان يرسلها لهن، فأولاد حربا ينبغي ألا يموتوا جوعاً، لكن بعد سقوطه جاؤوا إلي.

وهناك شال الصفع حيث اسكندر يرفع يده ألف مرة ومرة، يرفعها على وزراء، سفراء، رجال دين، مجادلين، أصحاب معامل، خدم، أصدقاء، فيبدو الشال وكأن كل صفعة وجهها اسكندر في حياته موجودة فيه، وما أكثر ما صفع الناس يا آرجوماند!! لا، لست أنت منهم، أنت لا يصفعك، لذا لا تصدقين. لكن تأملي وجنات كل من حوله ولسوف ترين آثار الاحمرار الواضحة التي تركتها راحته. وهناك شال الرفس، حيث اسكندر يرفس الأقفية محدثاً لدى أصحابها مشاعر أخرى غير مشاعر الحب.

وشال الهسيس، حيث اسكندر يجلس في مكتبه أيام مجده، التفاصيل واضحة ودقيقة كل الدقة، حتى أن باستطاعة المرء أن يشم رائحة تلك الحجرة الكريهة، ذلك المكان المكون من أقواس إسمنتية مدببة الرأس والذي أطرت أفكاره على جدرانه، بإمكانه أن يرى أقلام «المونت بلاك» الأشبه بقمم الألب وهي في حاملة الأقلام على الطاولة بل حتى نجومها البيض، طرزتها إبرة راني البارعة، حجرة الظلال والسلطة، تلك الحجرة التي لم يكن فيها ظل واحد بلا معنى، فالعيون تومض في كل ناحية من الظل، والألسنة الحمر تتحرك، والهمسات ذات الخيوط الفضية تتغلغل عبر القماش: اسكندر وجواسيسه، العنكبوت الأكبر في قلب ذلك العش، شعت ألقاً من وجهه، وفي الخيط الفضي كشفت راني الأهوال العنكبوتية لتلك الأيام حين كان الرجال يكذبون على أبنائهم والنساء الغاضبات لا يمكن سوى أن يغمغمن للنسيم عسى أن يحل بعشاقهن أرهب أنواع الانتقام. فأنت، يا آرجوماند لم تشعري يوماً بالخوف مما يعلم من أسرار.

وهناك شال التعذيب الذي طرزته راني برسوم العنف البغيض ذاك الذي كان يمارس في سجونه. سجناء معصوبو العيون، شدوا وثاقهم إلى كراسٍ، فيما طفق سجانوهم يلقون عليهم دلاء الماء الحار حتى درجة

الغليان حيناً (خيوط البخار تتصاعد) والبارد كالثلج حيناً آخر، إلى أن تصاب أجسام الضحايا بالارتباك، فيغدو الماء البارد قادراً على إحداث حروق النار في أجسامهم: كتل الوشي الأحمر تبرز كالندبات على الشال. وهناك «الشال الأبيض»، ذاك الذي طرز بالأبيض على الأبيض بحيث لا تكشف أسراره إلا أشد العيون حدة وتدقيقاً؛ إنه يعرض رجال شرطة، ألبسهم اسكندر بزات جديدة، بزات بيضاً من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين، كل شيء فيهم أبيض، القبعات، جُعَبُ المسدسات، الجزم العالية حتى الركبتين، رجال شرطة يديرون حانات رقص تقدم فيها المشروبات مجاناً، الزجاجات بيض، بطاقاتها بيض، وهناك مساحيق بيض تشم رائحتها من أقفية قفازات بيض، لقد غض الطرف. أنا أفهم ذلك، كان يريد شرطة قوية، وجيشاً ضعيفاً، وكان مبهوراً يا ابنتي بالبياض.

كذلك ثمة شال السب واللعن، حيث اسكندر يفتح فمه واسعاً كهوة الجحيم، تمثل اللعنات المنبثقة منه مخلوقات قذرة تزحف من بين شفتيه، صراصير، عقارب، عناكب، جرذان، سحالى، علق، إذ إنه لم يكف عن ذلك قط، فكم أذناك انتقائيتان يا آرجوماند!! لا تسمعان إلا ما تحبان.

وهناك شالات العار الدولي، حيث اسكي يتلمس قدماً صينية وردية، أو يتآمر مع باهليفي، أو يعانق عيدي أمين دادا، اسكندر المؤمن بالآخرة يمتطي قنبلة ذرية، حربا والكلب الأشعث مثل صبيين متوحشين يحزان بالسكين عنق فروج زمردي، وينتفان الريش من جناحه الشرقي، ريشة ريشة.

وهناك شالا الانتخابات، شال ليوم الاقتراع الذي بدأ فيه حكمه، وشال لليوم الذي أدى إلى سقوطه، شالان يعجان بأشخاص، كل منهم صورة مدهشة بالحجم الطبيعي لعضو من أعضاء الجبهة، أشخاص

يكسرون الأختام، يحشون صناديق الاقتراع، يهشمون الرؤوس، يتسللون إلى أكشاك الاقتراع لمراقبة الفلاحين وهم يدلون بأصواتهم، يلوحون بالعصي، يحملون البنادق، يشعلون النيران حشداً مختلطاً من غوغاء، وعلى شال الانتخابات الثاني، طرزت راني عدداً من الأشخاص أكثر بثلاث مرات مما في الشال الأول، لكن رغم الميدان المزدحم بنتاج فنها، لم يكن ثمة وجه واحد مجهول الاسم، فكل كائن صغير منهم معروف اسمه، إنه عمل من أعمال الاتهام على أعلى مستوى. وبالطبع، كان يفوز بشكل أو بآخر يا ابنتي، بلا منازع كان يحقق النصر بعد النصر، لكنه كان يبتغي المزيد، ولم يكن ثمة غير الإبادة ما يناسب خصومه، كان يريد أن يسحقهم تحت حذائه كالصراصير، أجل، الإبادة، السحق. وفي النهاية جاء دوره، لا تحسبي أنه لم يفاجأ، إذ إنه كان قد نسي أنه مجرد إنسان.

وهناك شال الحساسية، حيث اسكندر وموت الديمقراطية. يداه حول عنق الديمقراطية، تضغطان عليها. عيناها نتأتا من محجريهما، وجهها ازرقّ، لسانها انبثق إلى الخارج، بل لقد زرّقت في سروالها، تحولت يداها إلى كلاّبين يحاولان الإمساك بالهواء، أما اسكندر، فقد أغمض عينيه وهو يضغط، يضغط، فيما يقف في الخلف جنرالات يراقبون، تعكس النظارات التي يضعونها على عيونهم جرائم القتل التي استطاعت إبرة المرأة البارعة أن تصورها على نحو معجز، وكلهم باستثناء واحد فقط، تحيط بعيونهم دوائر شديدة السواد وعلى وجناتهم تسيل دموع غزيرة. وخلف الجنرالات أشخاص يختلسون النظر من فوق الأكتاف ذات الزي الموحد عبر الكتافيات الموشاة بالنجوم، عبر الآباط، كذلك ثمة أميركيون وروس في بدلاتهم الفضفاضة بل حتى الزعيم الصيني العظيم هناك، والكل يراقب، دون أن يحرك ساكناً، لكن، لا داعي لأن تنظري إلى ما وراء أبيك، يا آرجوماند، لا داعي لأن تبحثي

عن المتآمرين، فلقد قام بالعمل نيابة عنهم. لم يحتاجوا للإتيان بحركة واحدة. «أنا الأمل» كان يقول عادة. وهكذا كان حقاً، لكنه سلخ ذلك الجلد وانقلب شيئاً آخر. اسكندر قاتل كل الإمكانات، خلدته راني الفنانة على قماش بذلت فيه كل جهد كي تصور ضحيتها على شكل صبية هشة الجسم، ضئيلة، مدمرة داخلياً، متخذة كنموذج لها، ما تتذكره عن تلك الطفلة المعتوهة، والبريئة بالتالي، صفية زنوبيا حيدر (وفي ما بعد شاكيل) وهي تشهق بين قبضتي اسكندر المتشبثتين، محمرة كالأرجوان.

وهناك شال السيرة الذاتية، حيث رسمت الفنانة نفسها فيه على هيئة عجوز حيزبون، تلك الهيئة الذاتية التي صورت فيها نفسها كائناً يتكون من المواد نفسها التي بني منها المنزل: خشب، آجر، صفيح، حتى امتزج جسمها بمواد موهينجو، إنها أرض وشقوق وعناكب، تغطي المشهد كله غلالة رقيقة من الإهمال، ذلك هو الشال الرابع عشر.

أما الخامس عشر، فهو شال القرن الخامس عشر، حيث أعادت الفنانة رسم الملصقة الشهيرة بخيوط الوشي، وحيث يشير اسكندر بإصبعه إلى المستقبل، إنما ليس في الأفق شيء، ليس ثمة فجر يمد أصابعه، بل هناك فقط أمواج من الظلام لا نهاية لها، وبعد ذاك، شال بينكي الذي انتحرت فيه.

إلا أن الشالين الأخيرين كانا أسوأ الشالات: شال الجحيم الذي يقع، كما كان عمر الخيام شاكيل قد اكتشف في طفولته، في غربي البلاد بجوار بلدة «ك» حيث نمت الحركة الانفصالية وبرزت آثار انفصال الشرق عن الغرب مباشرة، وحيث تزايد ناكحو البهائم وكثرت أعدادهم، لكن اسكندر عالجهم، وقد رسمت راني معالجته لهم باللون القرمزي، فهناك القرمزي وليس من شيء سوى القرمزي، وما فعله إنما كان من أجل الحيلولة دون المزيد من الانفصالات، كيلا ينشأ جناح شرقي آخر أبداً، وهكذا ترتمي الأجسام منبسطة الأيدي والأرجل على الشال. رجال بلا

محاشم، سيقان مفسوخة، أحشاء بدل الوجوه، حشد غريب من الموتى يمسح ذكرى رضا حيدر وحكمه ذاك، بل يضفي على تلك المرحلة، حين تسترجع راني ذكراها، ألقاً متسامحاً لطيفاً، إذ ليس هناك مقارنة يا بنتي، فرجلك هذا رجل الشعب، سيدك هذا ذو طابع جماهيري وإنني لعاجزة عن عد الجثث على شالي: عشرون، خمسون، مائة ألف ميت، من يدري؟ خيط قرمزي واحد على الأرض ليس بكاف لبيان الدم الذي أريق، الناس يعلقون رأساً على عقب ويتركون للكلاب، تلغ في أجوافهم المفتوحة، والناس يكشرون بلا حياة وقد فتحت فيهم الرصاصات أفواهاً ثانية، إنهم يتحدثون في وليمة الديدان، في شال اللحم والدم ذاك.

ومير حربا الصغير على آخر شال من الشالات الثمانية عشر، مير حربا الصغير مدفون في قعر حقيبة، لكنه بالطبع ينهض ليطبق على ابن عمه قبضته الشهيرة، ينهض ليجر اسكندر حربا إلى الأسفل، إلى الجحيم... شالها الثامن عشر، ورائعتها الكبرى، منظر طبيعي شامل، أرض منفاها الصلبة تمتد منبسطة على القماش من موهينجو حتى دارو، قرويون يحملون دلاء الماء توازنها الأعمدة على أكتافهم، خيول تجري طليقة، نساء يصنعن الآجر من الغضار، ضياء الفجر يتألق أعاجيب من الوشي الوردي والأزرق: دارو تستيقظ، ومن شرفتها الكبيرة الواقعة بجوار الدرج يتمايل شيء ما طويل وثقيل مع موجات النسيم، ميتة واحدة بعد مجزرة الشال السابع عشر، مير حربا الصغير يتدلى من عنقه تحت كنف منزله الذي ورثه عن أبيه وجده، ميتاً في الأشهر الأولى من حكم الرئيس، عيناه الخاويتان تحملقان بالنقطة ذاتها التي تركت فيها، ذات يوم، جثة كلب بغيض تتعفن، نعم، لقد رسمت جسده بدقة يتوقف لها القلب، فهي لم تنس شيئاً، لم تنس حتى اقتلاع الأحشاء، لا شيء، ولا ذلك الشق تحت الإبط الذي انتزع من خلاله القلب، ولا اللسان المقتلع، لا شيء، لا شيء. بجوار الجثة يقف قروي وقد خيطت

بالأسود حيرته واندهاشه على شكل ملاحظة تحوم فوق رأسه، فقد كان ذلك الشخص يقول «يبدو جسده وكأنما قد تعرض للنهب مثل بيت من البيوت».

وبالطبع، كان تواطؤه المزعوم في جريمة قتل مير حربا الصغير هو القضية التي حوكم عليها وحكم بالإعدام، كما أدين على تنفيذه الفعلي للجريمة، ابن الرجل الميت، هارون. لكنه مع ذلك، حوكم غيابياً لفراره خارج البلاد كما يعتقد، رغم أن من المحتمل أن هارون ذاك كان قد اختفى، هكذا، وبكل بساطة، مضى إلى باطن الأرض.

على الشال الثامن عشر، لم تصور راني قتلة قط... لكن بعد أن استعرضنا الشالات الثمانية عشر وأعجبنا بها، فقد حان الوقت لأن نتحول بأبصارنا عن آل حربا، عن راني وآرجوماند المعزولتين في ذلك البيت الذي وصل تعفنه إلى درجة باتت صنابيره المشاكلة الصدئة تقطر دماً أحمر بدلاً من الماء. آن الأوان لأن نرجع القهقرى إلى الساعة التي ينهض فيها اسكندر من قبره، ثم ينسحب إلى الزوايا الخلفية للقصة، فالناس الآخرون لا يزالون يحيون حياتهم، فيما ارتفع آل حربا ثم سقطوا.

الفصل العاشر

المرأة ذات الحجاب

كان هناك ذات يوم امرأة شابة تدعى صفية زنوبيا وتعرف أيضاً باسم (وصمة العار). بنيتها ضئيلة، ضعيفة كحبات الصنوبر، ذراعاها وساقاها لا تعرف التناسق حين تمشي. لكن رغم هذا الخرق في طريقة المشي، لم يكن أحد يعدها غريبة الشكل أو شاذة تماماً، إذ كانت خلال سنواتها الإحدى والعشرين الأولى قد اكتسبت جميع الصفات الجسدية العادية بما في ذلك الوجه القاسي الصغير الذي جعلها تبدو ناضجة على نحو غير عادي مخفياً حقيقة أساسية هي أن عمرها العقلي لا يتجاوز عمر طفلة في السابعة، وكان لديها زوج أيضاً، هو عمر الخيام شاكيل، زوج لم يتذمر قط من أن والديها اختارا لها رجلاً يكبرها بإحدى وثلاثين سنة بالتمام والكمال، أي بعبارة أخرى، أكبر من أبيها نفسه. مع ذلك، المظاهر لا تهم، فصفية زنوبيا هذه تبين أنها، في الحقيقة، واحدة من تلك الكائنات الخارقة للطبيعة، تلك الملائكة المنتقمة أو المبيدة، واحدة من تلك الكائنات المستذئبة أو الهامات مصاصات الدماء التي نعيش وفقها، العمليات التي نفهم بها العالم.

فقد كان يكمن داخل صفية زنوبيا شاكيل وحش، أجل وحش. ولقد رأينا من قبل شيئاً من نمو هذا الوحش الذي لا يمكن الكلام عنه، رأينا كيف أنه، هو الذي يقتات عواطف معينة، يمتلك الفتاة من حين إلى آخر، وكيف أنها في مناسبتين وقعت صريعة المرض وأشرفت على

الهلاك، ولعل كلا المرضين، الحمى الدماغية وانهيار جهاز المناعة لديها، كانا محاولتين قامت بهما ذاتها العادية، ذلك الجزء منها الذي يشكل صفية زنوبيا، بغية دحر الوحش فيها حتى ولو كان ذلك على حساب حياتها كلها. لكن الوحش لم يدمر. ولعل البعض خمن، بعد هجومها على صهرها، أن أي شيء بقي منها سوى ذلك الجزء الوحشي إنما كان يفقد شيئاً فشيئاً قدرته على مقاومة ذلك الوحش الدموي الذي يكمن داخلها. لكن حين وجد أخيراً صوت عمر الخيام شاكيل الهامس همساً طريقه لفتح أبواب غيبوبتها، أفاقت مرتاحة عذبة الروح، غير واعية على ما يبدو، أنها أنهت تماماً حياة تلفار الحق كلاعب بولو. كان الوحش قد رقد ثانية لكن قضبان قفصه كانت قد تحطمت. مع ذلك كان ثمة ارتياح عام «المسكينة، لقد اشتد بها الضيق إلى درجة كادت معها تجن، هذا كل ما في الأمر» هكذا تحدثت المربية شهبانو مع عمر الخيام «لكنها الآن على ما يرام، فالحمد لله».

دعا رضا حيدر الدكتور شاكيل للاجتماع به، وبكل نبل عرض عليه فرصة الانسحاب من الزواج المقترح. لكن مولانا داود رجل الدين الأثري، والذي كان موجوداً أيضاً أبى التزام الصمت. إذ كانت معارضته الأصلية للزواج قد ضاعت في متاهة الشيخوخة الضبابية، وهكذا أزّ صوت العجوز كرصاصة حقود حين صاح «تلك الشيطانة وهذا الولد، ابن الشيطانات، دعوهما يصنعان جحيمهما معاً في أي مكان غير هذا المكان» لكن عمر الخيام أجاب بكل ترفع وإباء «سيدي، أنا رجل علم، فإلى الجحيم بكلامك هذا عن الشياطين إنني لن أرمي بفتاة أحبها لأنها سقطت صريعة المرض، بل إن من واجبي أن أجعلها على ما يرام، وهذا سيتم».

أنا لست أقل خيبة أمل ببطلي مما كنت، فنظراً لأنني لست من النمط الموسوس أجد من الصعب علي أن أفهم وسواسه ـ لكن علي أن أعترف بأن حبه للفتاة المتخلفة عقلياً شرع يبدو وكأنه حب صادق مجرد

من كل غاية. . . رغم أن ذلك لا يمحو انتقاداتي له كإنسان. فالكائنات البشرية لديها موهبة خارقة في إقناع نفسها بصحة ونبالة جوانب من ذاتها هي بالحقيقة زائفة خسيسة، وضيعة ـ لكن ما لنا ولهذا: لقد أصر عمر الخيام على المضي قدماً في طريق الزواج.

أما بلقيس حيدر التي شوشت حواسها أحداث عرس غودنيوز، فقد أثبتت أنها عاجزة عن الانخراط في جو الزواج الثاني، وهكذا حين غادرت صفية زنوبيا المستشفى رفضت أمها التكلم إليها، لكن ليلة عرسها جاءت إلى حيث كانت شهبانو تزين الفتاة وتجدل شعرها ثم بدأت كلاماً ثقيلاً مضجراً إلى درجة بدا واضحاً أن كل كلمة منه كانت عبئاً ثقيلاً ترفعه من بئر واجبها التي ليس لها قرار. فقد قالت لصفية زنوبيا «عليك أن تفكري أنك مثل بحر محيط، أجل، وأن تتصوريه، هو الرجل، مخلوقاً بحرياً. فهكذا هم الرجال، لكي يعيشوا عليهم أن يغرقوا فيكن، في طيات لحمكن الخفي». ثم طافت عيناها على غير هدى حول وجهها الذي كانت صفية زنوبيا قد قطبت جبينه لدى سماعها تلك المجردات المعمية التي نطقت بها أمها فأجابت بعناد واضح السمات في صوتها، صوت ابنة السابعة، الذي كان في الوقت نفسه الصوت المتنكر المخيف لذلك الوحش الكامن في داخلها: «إنني أكره السمك».

ما هو الدافع الأشد قوة الذي يشعر به الكائن البشري وهو يواجه الليل، الخطر المجهول، أن يهرب بعيداً، أن يشيح بناظريه ويولي الأدبار، أن يتظاهر بأن التهديد ليس موجهاً إليه. إنها الرغبة في التجاهل، الحماقة العنيدة التي نستأصل بواسطتها من الوعي ما يعجز ذلك الوعي عن تحمله، ولا داعي لضرب مثل النعامة كي يعطي هذا الدافع شكله الرمزي، فالإنسان حين يرغب في شيء، يكون أشد عمى من أية نعامة تدفن رأسها في الرمل.

في عرس صفية زنوبيا (وهو عرس خاص. فلا ضيوف، ولا سرادق. الأمهات الثلاث لم يغادرن بيتهن في بلدة «ك»، داود نفسه لم

يحضر، فالحضور كلهم هم آل حيدر، المحامون وشاكيل) أقول، في ذلك العرس أجبر رضا حيدر عمر الخيام على أن يوافق على إدراج شرط في عقد النكاح يمنعه، هو عمر الخيام، من نقل عروسه من بيت أبويها دون موافقتهما المسبقة. وقد شرح ذلك بقوله: «ليس باستطاعة الأب أن يعمل بعيداً عن فلذات كبده» وهي الجملة التي يمكننا أن نرى منها أن حبه الجديد لصفية كان أشد من أي وقت سابق، لذلك رفض، وقد أعمى عينيه وهج اللهب، أن يرى حقيقتها الفعلية. وفي السنوات التالية أقنع نفسه أنه، بحجره على زوجته واحتجازها داخل جدران ونوافذ مغلقة، يمكنه أن ينقذ عائلته مما في دمها من شر موروث، من نزواتها وعذاباتها (ذلك أنه إذا كانت روح صفية تعاني العذاب، فذلك لأنها ابنة امرأة مسعورة، وذلك أيضاً قد يكون تفسيراً لطبيعة من الطبائع).

كذلك رفض عمر الخيام أن يرى تلك الحقيقة. فتزوج ابنة حيدر وقد أعمى العلم عينيه. ابتسمت صفية زنوبيا والتهمت طبق حلويات مزيناً بورق الفضة، فيما كانت شهبانو المربية تحوم حولها مثل أم العروس.

لكنني أكرر: ليس ثمة مكان للوحوش في مجتمع متحضر. وإذا كانت هناك مخلوقات كهذه تطوف في الأرض، فإنها تفعل ذلك في أطراف الأرض القصوى. لقد أبعدتها إلى تلك الأطراف أفكار أولئك الذين لا يؤمنون بوجودها. . . لكن ذات يوم وتحت ضوء قمر أزرق يجري شيء خطأ. يولد وحش، «أعجوبة خطأ» داخل حصون اللياقة والاحتشام. هو ذا خطر صفية زنوبيا: لقد جاءت لتعيش، ليس في مجهل من مجاهل العفاريت والجن، بل في صميم العالم الراقي. ونتيجة لذلك، بذل ذلك العالم جهداً إرادياً بالغاً لتجاهل حقيقتها كي يتجنب إثارة المشاكل إلى درجة يتحتم معها معالجتها، هي الروح التي تجسد الفوضى، وبالتالي يتحتم طردها، ذلك أن طردها يكشف ما ينبغي أن يظل مجهولاً مهما كان الثمن، أي يكشف تلك الحقيقة غير المعقولة

وهي أن البربرية قد تنمو في تربة الحضارة وأن الهمجية قد تكمن خلف قميص الرقي المكوي جيداً. إنها، كما قالت أمها، تجسد عارها. ولكي نفهم صفية زنوبيا، ربما ينبغي أن يتفتت إحساس أولئك الناس بأنفسهم، كما تتفتت بلورة، وذلك، بالطبع، أمر لم يفعلوه ولن يفعلوه قبل سنوات. لكن بقدر ما كان الوحش يزداد قوة، كانت المحاولات لإنكار وجوده ذاته تشتد ضراوة... ولقد قبرت صفية زنوبيا معظم أفراد عائلتها بل هناك من قضوا نحبهم من أجلها.

لا مجال بعد الآن للأحلام، لا مجال لضربات ماحقة أخرى تنجم عن التعامل مع المجندين الأغرار، فقد حصل رضا حيدر على ترقيته من اسكندر حربا، ووافق عمر الخيام على الرحيل شمالاً مع الجميع. سمعته الرفيعة كطبيب ونفوذ حيدر المتجدد ضمناً لعمر مركز كبير المستشارين في مستشفى جبل حراء في العاصمة الجديدة. بعدئذ انتقلوا، مفارش مطاطية ومربيات وكل شيء. وسرعان ما حملتهم الطائرة فوق الهضبة الشمالية الشاسعة التي تمتد بين نهرين كبيرين، هضبة بوتوار، ذلك المسرح الذي ستُجرى عليه مشاهد عظيمة، تلك الهضبة التي ترتفع ألفاً وسبعمائة قدم فوق سطح البحر.

طبقة رقيقة من التربة فوق حجر مسامي هش.. لكن رغم رقة التربة كانت الهضبة تنتج كمية غير معقولة من الغلال التي تعتمد على الأمطار. إنها أرض ذات خصوبة غير معقولة، استطاعت معها أن تنمي مدينة جديدة كاملة مثل بثرة على ورك بلدة قديمة. إسلام آباد (يمكنك القول) تخرج من ضلع راولبندي.

حين نظر مولانا داود إلى الأسفل ورأى من عليائه هضبة بوتوار بمدنها المتلألئة من بعيد، دق على نافذة الطائرة بشيء من الخرف والبهجة القاطرة قطراً، ثم صرخ بأعلى صوته باعثاً الرجفة في أوصال إحدى المضيفات: «عرفات، ها قد وصلنا عرفات» فلم يجد أحد الشجاعة في نفسه، لا رضا صديقه، ولا بلقيس عدوته، لتصويب رأيه،

وذلك لسبب واحد: إذا كان العجوز قد قرر أن يعتقد أنهم على وشك الهبوط في الأراضي المقدسة، في سهل عرفات المجاور لمكة المكرمة، فليكن ذلك. إنه أيضاً نوع من العمى، توهم مسموح به لدى الطاعنين في السن.

ورث الجنرال رضا حيدر عن سلفه معاوناً طوله سبع أقدام يدعى الرائد شجاع، كما ورث جيشاً أحبطت معنوياته، بسبب هزيمته في الجناح الشرقي السابق، إلى درجة لم يكن باستطاعته أن يفوز بمباراة كرة القدم. ولفهمه العلاقة الوثيقة بين الرياضة والحرب، فقد تعهد رئيس الأركان الجديد على نفسه أن يحضر كل مباراة رياضية يدخلها جنده على أمل أن يشجعهم حضوره ويزيدهم حمية. وهكذا فإنه خلال الأشهر الأولى من استلامه رئاسة الأركان، حضر رضا حيدر أهم مباريات المذلة التي خاضها الجيش ضمن المباريات الدورية السنوية وذلك بدءاً من لعبة الكريكيت الأسطورية، التي أُجريت بين قطاعات القوات المسلحة، والتي خسر فيها الفيلق الحادي عشر خسارة شنيعة، إذ لم يسجل هدفاً واحداً، فيما سجل عليه خصومه من أفراد القوات الجوية كدسة من الأهداف، ذلك أن الحرب كانت إلى حد كبير كارثة القوات البرية. وبذلك بقي رجال الجو ناصعي الجانب لم يلحق بهم الخزي. كذلك شهد حيدر أيضاً مباراة الهوكي التي سجل فيها فريق البحرية أربعين هدفاً خلال ثمانين دقيقة بينما كان جنود المشاة يحملقون ببلاهة بعصيهم المقوسة وكأنها بنادق من تلك التي استسلموا بها يوم الحساب في الشرق، كما شهد بأم عينه، في أحواض السباحة الوطنية الجديدة، مأساة مزدوجة، فأحد غواصي الجيش لم يخرج إلى سطح الماء قط بعد أن قام بغوصة رائعة إلى درجة فضل معها أن يغرق بدلاً من أن يظهر من مياه عاره، بينما أوقع غواص آخر نفسه في ورطة أشد سوءاً، إذ قفز من اللوح العالي ليرتمي على بطنه بضجة أشبه بالضجة التي تحدثها طلقة مدفع، فانشق كما ينشق بالون ملون، الأمر الذي أجبر السلطات على

تجفيف الحوض كي يتمكنوا من تصريف أحشائه. بعد ذلك، جاء الرائد شجاع بوجهه الكئيب إلى مكتب الجنرال ثم قدم نفسه مقترحاً. . «عفواً. . سيادة رئيس الأركان، لعل من الأفضل، لو أن السيد الجنرال يبتعد عن أحداث كهذه، ذلك أن حضوره يزيد من شعور الجند بعارهم ويجعل الأمور تزداد سوءاً».

فصرخ رضا «يا ابن البندقية والمدفع! كيف حدث وانقلب الجيش كله إلى زمرة من النساء الأفاعي بين عشية وضحاها».

«إنها الحرب يا سيدي» أجاب شجاع وهو يتكلم من بئر بأس عميقة إلى درجة لم يعد معها معنياً قط بمستقبل حياته المهنية «وأرجوك المعذرة يا سيدي الجنرال، فأنت لم تعلق بأوساخ تلك المزبلة».

حينذاك أدرك رضا أن جنوده يتشاركون في شعور فظيع بالمهانة والذل، وخمن أخيراً لماذا لم يكن أحد من زملائه الضباط قد قدم له مشروباً غازياً في مطعم الضباط. «كنت أحسب ذلك حسداً وغيرة» وبّخ نفسه في السر، ثم قال لشجاع الذي كان ينتظر باستعداد تام تنزيل رتبته التي تستحقها غطرسته: «تمام أيها الرائد، لكن ما الحل الذي تقترحه؟».

فاجأ السؤال الرائد شجاع فأجفل، الأمر الذي دفعه إلى التواضع: «هل تسمح لي يا سيدي أن أتكلم بصراحة؟» فأومأ حيدر برأسه موافقاً: «كرجل لرجل، أنت وأنا وعمود الباب».

«إذاً، عفواً يا سيدي، ليس هناك سوى العودة إلى حكم الجيش. استلم السلطة يا سيدي».

ففغر حيدر فمه مندهشاً: «هل الناس في هذه البلدة يتكلمون في شؤون الخيانة العظمى دائماً؟».

عندها اشتدت الكآبة التي كانت تلف الضابط المعاون أكثر وأكثر. «سيدي، سيادتك سألت وأنا أجبت. الضباط الصغار قلقون يا سيدي، هذه مدينة الجيش، حيث الجيش يستخدم لفرض السلطة والجميع يعلم يا سيدي ماهية هؤلاء السياسيين. لا خير فيهم يا سيدي، ليسوا مناسبين، إن

الضباط ليتذكرون ذلك الزمان الذي كان السياسيون فيه يحظون بالاحترام، أما في هذه الأيام فإنهم يشعرون بهبوط العزيمة، يا سيدي، إلى درجة تسمح لأي امرئ أن يركل الجيش بقدمه. أرجو مغفرتك يا سيدي».

«إلى الشيطان بانقلابك» قال له حيدر بعنف واضح «فوضع الجيش الآن متردٍ إلى درجة يمكن معها لنصف دستة من خليلات اسكي حربا السابقات أن يمزقنه شر تمزيق».

«نعم يا سيدي» قال شجاع ذلك ثم انفجر بالبكاء على نحو يثير الدهشة. عند ذاك ذكَّر حيدر نفسه بأن العملاق الشاب لم يكن يتعدى الثامنة والعشرين بكثير، حينذاك بدأت مجاريه الدمعية ذات النشاط المفرط والسمعة السيئة، تفيض بالدموع تعاطفاً معه، ثم أسرع إلى القول «بحق الله يا رجل، لا تفعل ذلك فليس هناك من ينوي إحالتك إلى محكمة عسكرية. لكن دعنا نرتب الأمور بحسب أولوياتها. دعنا نربح بعض مباريات البولو قبل التفكير بوضع يدنا على زمام السلطة». «حسن جداً يا سيدي» قال شجاع وقد سيطر على نفسه «سوف أنقل وجهة نظركم إلى فريق البولو يا سيدي».

«أية حياة هذه» قال رضا حيدر بصوت عال حين غدا وحيداً «كلما صعدت أكثر اشتدت سماكة الحمأة ولزوجتها أكثر وأكثر». «ثم فكر الرجل أن من حسن حظ البلاد أنه، هو ريزور غوتز العجوز، كان لا يرضى عادة إلا الوقوف على قدميه».

هنا يستحسن بنا أن نقول إن استعادة الجيش لمعنوياته إنما كانت المجد الذي توج بإكليله حياة رضا حيدر العسكرية ـ وقد كانت، بحسب رايي أصعب من أية مهمة قام بها حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية. كيف تم له ذلك؟ ـ بخسارته مباريات المصارعة.

ففي الصباح الذي أعقب محادثته مع الرائد شجاع أعطى أوامره لمعاونه بأن ينتقي خصوماً له، معظمهم من الجنود الأفراد وكذلك من شريحة الضباط الصغار ثم قال وهو يكذب «إنني مهتم بالمصارعة وقد آن

الأوان لأن أرى ما هي المادة التي صنع منها فتيان جيشنا».

وهكذا دخل رضا حيدر العراك مع مائة وأحد عشر جندياً غلبوه جميعاً. لم يقم الجنرال بمحاولة واحدة لتحقيق الانتصار. بل بدلاً من ذلك كان يركز على قضايا أكثر صعوبة بكثير، قضايا الخسارة أمام الخصوم الذين كانوا قد نسوا أن من الممكن تحقيق النصر وأكثر من ذلك كان يركز على قضايا الخسارة في الوقت الذي يعطي فيه الانطباع بأنه يناضل ويبذل كل ما في وسعه لبلوغ النصر. «يمكنك أن ترى مقدار الفائدة التي أجنيها من ذلك» قال الجنرال لعمر الخيام شاكيل الذي كان يعمل كطبيب شخصي للجنرال قبل وبعد كل جولة والذي كانت قد أخافته الضربات الشديدة التي كان يتلقاها جسم ابن التاسعة والأربعين ذاك، «نعم» أجاب عمر الخيام شاكيل وهو يداوي العظام الموجعة للجنرال والكدمات القوس ـ قزحية «باستطاعة أي أحمق أن يرى ذلك» وكان رضا حيدر يبكي الدموع مدراراً وهو يتوجع تحت أصابع شاكيل المتلمسة الباحثة لكنه كان يدعوها دموع الفرح.

استراتيجية المصارعة التي اتبعها رضا حيدر منحته نصراً مزدوجاً، فقد ساعدت الجيش في أن يقبل قيادته، ذلك أنه بات متحداً مع رجاله تشده إليهم رابطة العار الرهيبة تلك. إذ بينما كان ريزور غوتز العجوز يتلقى الركلات على فكه ويُلقى على الخيش وقد انعقد كاحلاه حول عنقه وشددت الخناق عليه ذراع جندي المشاة، وفيما كانت أضلاعه تتكسر وذراعاه تنخلعان من مفاصلهما، كانت شعبيته، شعبية بطل آنسو القديمة، تعود إلى الحياة من جديد، نظيفة من الغبار وانغمار الاسم الذي عاشه خلال السنوات التي قضاها في كلية الأركان. من جديد عادت تلك الشعبية تشع متألقة، أجل، ريزور غوتز عاد، أكبر حتى من قبل.. لكن رضا حيدر كان يسعى وراء ما هو أكثر من ذلك، وقد تحقق هدفه الثاني أيضاً، ذلك أنه كلما كان الجنود من معسكر بعد معسكر يشاركون أو يشهدون، كمتفرجين، من جوانب الحلقات الهادرة، سحق

بطل الحرب الحقيقي، البطل الوحيد المتبقي في الجيش، كانوا يبدأون استعادة ثقتهم بأنفسهم، والاعتقاد بأنهم إن كانوا قادرين على تمريغ الجنرال بالتراب، فإن من غير المعقول أن يكونوا رجال قتال بائسين على النحو الذي كانوا يتصورونه. بعد سنة من المصارعة نادى رضا حيدر بالتوقف، لكنه كان قد خسر كلاً من نابيه العلويين كما أصيب إصابات أخرى لا عد لها ولا حصر. «لن أضطر لتلقي مثل هذا بعد الآن» قال لشجاع، الذي كانت هيئة حزنه الدائمة (رغم أنها خفت قليلاً) قد تكشفت عن أنها عيب في شخصيته، وليست فقط نتاج الحرب التي هزم فيها، والتي نسيها الناس تقريباً.

«قل لأبناء الزنى أولئك» أعطى رضا حيدر تعليماته لشجاع «إنني أتوقع أن يكسبوا جميع المباريات التي يدخلونها من الآن فصاعداً، وإلا فالويل لهم». وقد تبع ذلك تحسن عجيب في نتائج المباريات الرياضية التي دخلها الجيش.

لقد أطلت الكلام عن قضية معنويات الجيش هذه كي أبين السبب في أن رضا حيدر، خلال الفترة التي قضاها كرئيس للأركان، لم يكن لديه الوقت أو الطاقة الذهنية الكافية لأن يولي اهتماماً مناسباً لما بدأت ابنته صفية زنوبيا تقوم به تحت جنح الظلام.

كان السياسيون والدبلوماسيون هم القيمين على المدينة الجديدة وسادتها أما الجيش فكان يهيمن على البلدة القديمة. العاصمة الجديدة مؤلفة من صروح إسمنتية وافرة العدد، صروح تنضح بسرعة الزوال والزيف. فالقبة الجيوديسية[1] لمسجد الجمعة كانت قد بدأت تتصدع كما كان كل ما حولها من أبنية جديدة يبدو وكأنه على وشك أن يتداعى. التكييف الهوائي مخرَّب، الدارات الكهربائية مقطوعة، الماء الجاري يبقبق في أحواض الغسيل مثيراً بذلك دهشة السمكرية... أوه، يا شر

(١) الجيوديسي: صخر مبطن ببلورات أو مادة معدنية.

المدن! فتلك الأبنية تمثل الانتصار الحاسم الذي حققته الحداثة وليست هذه بالحقيقة إلا نوعاً من الحنين إلى الوطن الذي تعرض للكبت طويلاً، إنها بلا دلالة، صورة للعمارة الإسلامية بغير روحها، أبنية تحوي من الأقواس المغولية أكثر مما كان باستطاعة المغول أنفسهم أن يتخيلوه، أقواس ابتسرها الاسمنت المضغوط مسبقاً حتى غدت مجرد فجوات مدببة الرؤوس في جدران. كانت العاصمة الجديدة بالواقع أكبر تجمع لمواقف الطائرات على وجه الأرض، مجمع نفاية لمقاعد الترانزيت الطويلة غير المطلوبة وقاعات الجمارك، ولعل ذلك كان مناسباً فالديمقراطية ليست بالنتيجة أكثر من طائر يعبر تلك الأنحاء عبوراً. . .
من جهة أخرى، كانت البلدة القديمة رهن ريفيتها البسيطة التي ورثتها من سنواتها القديمة تلك. شوارع قديمة تظللها الأشجار على الصفين، أسواق عامة غارقة في الفوضى، أحياء سكنية فقيرة بائسة وبيوت حجرية متينة أكبر حجماً كان يسكنها الضباط الإنكليز الراحلون. وكان مقر رئيس الأركان السكني الرسمي عبارة عن قصر كلاسيكي حديث مشيد بالحجارة، قصر واسع إلى درجة انتقلت إليه العائلة كلها دون أية نقاشات، وبدأ معها كل من غودنيوز وتلفار الحق، عمر الخيام وصفية زنوبيا، داود وشهبانو المربية وكذلك رضا وبلقيس يسيرون في دروبهم المختلفة تحت ذلك السقف الواسع دون أن يلتقوا، بينما تطل آلهة الرومان والإغريق الغربية، بتماثيلها الحجرية المتصدية للسماء الزرقاء العالية، أقول تطل عليهم من علٍ وعلى وجوهها تعابير الشموخ.

لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

«لكأن هذا الجيش المجنون ليس سيئاً بما فيه الكفاية» كان رضا يقول لنفسه في تلك الأيام الشمالية الأولى «حتى أجد بيتي هذا مليئاً بالمجانين أيضاً». فقد بدا وكأن شاغلي ذلك القصر المنطوي على كل المفارقات التاريخية قد شرع يحول تطرفه الغاضب إلى حقيقة فعلية خاصة.

عندما ظهر مولانا داود ذات صباح وهو يرتدي حلة الحاج التقليدية عند أداء فريضة الحج، وهي قطعتان من قماش أبيض تلف واحدهما حول الحقوين وتعلق الأخرى حول العنق لتغطي الصدر دون ترتيب، اضطر الجنرال رضا حيدر لأن يفكر باحتمال أن يكون الشيخ العجوز قد استسلم أخيراً لأمواج الخرف الزاحفة التي بدأت تلطم شطآنه أثناء طيرانهم إلى الشمال. في البداية حاول أن يعامل حليفه العجوز بكياسة ولطف فقال له: «مولانا الكريم إن أردت أداء فريضة الحج فقل ذلك ولسوف أنهي لك جميع الإجراءات في الحال، بطاقة الطائرة العربية السعودية وكل شيء». لكن داود اكتفى بأن قال: «وما الداعي للطائرة إن كنت قد وطئت الأرض المقدسة فعلاً؟». بعد ذلك بدأ مولانا يهيم في شوارع البلدة قد فتح كفيه أمامه، مثل كتاب، يدندن بآيات القرآن بعربية جعله فقدانه لعقله يخلطها بلهجات أخرى أكثر خشونة وفجاجة، وهكذا بدأ الرجل، وهو في قبضة ذلك الحزن الذي جعله يتصور أنه رأى ذرى أبي قبيس وثبير وحراء[1] خلف البلدة، والذي أدى به لأن يخطئ فيظن أن معمل دراجات هناك هو المقبرة التي دفنت فيها زوجة الرسول، أقول بدأ الرجل يشتم سكان البلدة ويحقرهم لكفرهم وخروجهم على الدين، فالرجال لا يريدون اللباس اللائق والنساء وصمة عار في نظره لكنهن كن يضحكن في وجهه حين يدعوهن بالعاهرات. إنه عجوز مجنون يسأل عن الطريق إلى الكعبة. مأذون ملتحٍ في طفولته الثانية ينبطح أمام حوانيت بيع السمك كأنما هي الأماكن المقدسة في مكة ثم يصرخ «ياالله!». في خاتمة المطاف أعيد جسمه إلى مسكن حيدر على عربة يجرها حمار قال صاحبها المحتار إن العجوز لفظ آخر أنفاسه مع هذه الكلمات «ها هي ذي - إنهم يغطونها بالقذارة». كان العجوز قد تجول حتى وصل طرف البلدة القديمة، حيث نصبت هناك خزانات تنقية الماء حديثاً وقد زعم رضا

(١) جبال قرب مكة المكرمة.

حيدر لنفسه أن ذلك هو السبب الواضح لكلمات مولانا الأخيرة، لكن انتابته بالحقيقة حيرة شديدة، ذلك أنه كرجل متدين لم يستطع يوماً أن ينظر إلى أعمال مولانا الغريبة على أنها مجرد خرف فالكدمة التي هي من آثار السجود على جبهته كانت تؤلمه كما كانت توحي له بأن مولانا داود ربما رأى مكة حقاً رؤيا تتكشف عن القداسة وسط هذه البلدة غير المقدسة، وبذلك فإن كلمات احتضاره قد تحوي تحذيراً سرياً رهيباً «الكعبة» أسر رضا لنفسه مرتعشاً «لا بد من أنها ظهرت له، لا بد من أنه رآها أخيراً، وهم يهيلون الفضلات عليها» وفي ما بعد، حين غدا رئيساً للجمهورية كان عاجزاً عن تخليص ذهنه من تلك الرؤيا.

بانتهاء السنة الأولى من الحكم المدني، أصبح رضا حيدر جَدّاً. فقد أنجبت غودنيوز توأمين من الصبيان وقد سر الجنرال سروراً بالغاً محا من ذهنه كل ما يتعلق بسندباد منغال. بعد سنة أخرى بالضبط أنجبت غودنيوز مرة ثانية لكنها هذه المرة أنجبت ثلاثة توائم فذعر رضا قليلاً وطفق يمازح تلفار الحق بشيء من العصبية: «قلت إنك ستكون الصهر الكامل، لكن، بابا، خمسة أحفاد كفاية، بل لعلك أديت أكثر من واجبك». بعد اثني عشر شهراً تماماً وضعت غودنيوز أربع بنات رائعات الجمال، بنات أحبهن حيدر إلى درجة نسي معها أنه قرر من قبل ألا يعير اهتمامه قط لأسرّة الأطفال المتزايدة واللحف ومناشر الغسيل والخشخاشات التي باتت تملأ البيت. في مثل ذلك اليوم وبعد سنة واحدة بالضبط ولدت غودنيوز خمس بنات أخريات، حينها اضطر حيدر لأن يقول شيئاً: «أربعة عشر طفلاً لهم عيد الميلاد نفسه!!». ثم قال لابنته وزوجها بكل الصرامة التي يستطيع «أين ستصلان بحسب رأيكما؟ ألم تسمعا بالمشكلة السكانية؟ ربما عليكما أن تتخذا بعض الإجراءات». لكن عند ذلك انكمش تلفار الحق على نفسه إلى أن غدا جسمه متصلباً كعنقه ثم أجاب: «سيدي لم يخطر في بالي قط أن أسمعك تقول كلاماً كهذا. أنت رجل مؤمن على ما أظن. شبح مولانا داود سيحمر خجلاً لو

سمع الجنرال حيدر يوصي باتخاذ مثل هذه الإجراءات التي لا يتخذها إلا الكفرة». إذ ذاك شعر رضا بالخجل فأطبق فمه، وفي السنة الخامسة أطلق رحم غودنيوز ستة مواليد جديدة أخرى ثلاثة ذكور وثلاث بنات، ذلك أن تلفار الحق قرر، بكل كبرياء رجولته، أن يتجاهل ملاحظة رضا حيدر عن كثرة الأحفاد وفي العام الذي شهد سقوط اسكندر حربا ارتفع الرقم الإجمالي إلى سبعة وعشرين طفلاً، وحين ذاك كان الجميع قد فقدوا الاهتمام بمعرفة الصبيان من البنات.

غير أن البيجوم نفيد تلفار، غودنيوز حيدر سابقاً، برهنت على أنها عاجزة تماماً عن مواكبة تيار الإنسانية المتدفق من بين فخذيها بلا توقف، لكن زوجها لم يكن يندم ولا يشبع، فحلمه بالأطفال امتد واتسع، ملأ الحيِّز كله ذاك الذي كان يملأه البولو في حياته سابقاً وبسبب قدراته على استشفاف حدب المستقبل فقد كان يعلم دائماً أي الليالي هي الأفضل للحمل. لذا كان يجيئها مرة واحدة في السنة ثم يأمرها أن تستعد، نظراً لأن ذلك هو الوقت المناسب لزرع البذرة، إلى أن شعرت أنها أشبه برقعة أرض من الخضروات استنفدت تربتها الخصبة بالأصل شدة حماسة الجنائني، كما فهمت أنه ليس ثمة أمل للنساء في العالم، إذ سواء كانت واحدتهن محترمة أم غير محترمة فإن الرجال سيطأونها بشكل من الأشكال، ومهما حاولت واحدتهن أن تكون سيدة لائقة معتبرة فإن الرجل سيأتي ويحشوها بكائنات غريبة غير مرغوبة. لقد سحق شخصيتها القديمة ضغط الأطفال الذين كانوا أكثر عدداً من أن تحفظ أسماءهم، وقد استأجرت جيشاً من المربيات ثم عهدت بمصائر ذريتها لهن، بعدئذ كفت عن كل محاولة. فهي لا تحاول أن تجلس على شعرها كما أن تصميمها المطلق على أن تكون جميلة، ذاك التصميم الذي خلب لب هارون حربا أولاً ثم النقيب تلفار ثانياً، كان قد امحى من سيمائها فغدت مكشوفة، مجردة، امرأة عادية لا يميزها شيء مثلما كانت دائماً في الحقيقة. لقد ظلت آرجوماند حربا التي لم تمح السنون كراهيتها

لغودنيوز، تتقصى أخبارها دائماً وتستفسر عن انهيار عدوتها باستمرار. استخدمت المصور نفسه الذي التقط ذات مرة صوراً لبينكي اورانجزيب لالتقاط صور لغودنيوز، ثم عرضت بنوع من اللامبالاة تلك الصور على هارون حربا وكأنما لا أهمية لها، ثم قالت له مشاكسة: «أيها الأعزب العجوز المسكين، فكر فقط أنه كان بالإمكان أن تقضي حياتك كلها مع هذه البغي الباهرة الجمال لو لم تجد من هو خير منك».

رياح «اللو» لا تهب في الشمال، لكن بلقيس كانت لا تزال في بعض الآصال تحمل الأثاث إلى الأبواب والنوافذ للحيلولة دون دخول الرياح، وكانت تجوب دهاليز قصرها الجديد الواسع كاتمة أنفاسها ووقع خطواتها إلى أن رفعت ذات يوم صوتها بقدر يكفي لبلوغه مسامع رضا حيدر إذ سألت على نحو غامض، «ترى كيف يرتفع الصاروخ إلى النجوم؟». لكنها في الحقيقة كانت تكلم نفسها إذ استأنفت: «لا، ليس بالأمر اليسير أن يغادر الأرض. لكن تلك الآلة تفقد قطعاً منها وهي ترتفع إلى الأعلى، قطعاً تفلت وتسقط عائدة إلى الأرض، إلى أن يظل أخيراً الرأس، الرأس وحده الذي يتحرر من جاذبية الأرض». فقطب رضا حيدر جبينه ثم قال «لا يعلم إلا الله ما تهذين به يا امرأة». لكن رغم هذه الملاحظة وما أقبحها من تلميح وجهه إلى عمر الخيام بأن عقل بلقيس بدأ يسرح مثل قدميها، فقد كان يعلم ماذا تعني بالضبط وما تعنيه هو التالي: على الرغم مما حققه رضا من صعود، طبقاً لما تنبأت به بلقيس من قبل، ورغم وصوله إلى ذروة السلك الذي انخرط فيه، إلا أن الناس كانوا يتساقطون من حوله، كان يخسرهم واحداً واحداً. بلقيس تعني أن الكائنات البشرية الأخرى هي الوقود الذي كان يحرقه أثناء طيرانه إلى نجوم ـ الأكتاف. داود غودنيوز بلقيس نفسها، لكنه تساءل في سره: «لماذا ينبغي أن أشعر بالخجل أو أحس بالعار؟ فأنا لم أفعل لهم شيئاً».

منذ سنتين كانت الأشياء لدى بلقيس تتشظى شظايا شظايا، رياح نيران، وتماثيل فرسان، وأصحاب سينما مقتولين، وعدم إنجاب أطفال،

وفقدان حب زوج، وحمى دماغية، وديوكاً رومية، ووريقات مكتوبة بخط اليد، لكن الأسوأ من كل ذلك هو أنها اكتشفت أن ذلك القصر، ذلك المسكن الملوكي الذي كانت تحلم به دائماً، لم يعد هو الآخر يفيد، وأن ما من شيء مفيد، بل إن كل شيء عبث، ذرات رماد، لقد دمرها خواء مجدها، حطمها تحطيماً كاملاً انهيار ابنتها المحبوبة غودنيوز التي كانت تستلقي مختنقة تحت ذلك الجبل من الأطفال الذين أنجبتهم دون أن يريحها شيء قط. . . وذات صباح رأوا جميعاً بلقيس وهي تلبس ملاءة المسلمة السوداء وتنزل الحجاب على وجهها رغم وجودها داخل المنزل، وليس فيه سوى أفراد العائلة والخدم. سألها رضا حيدر ما الذي تفعله، فاكتفت بهز كتفيها والقول: «الجو شديد الحر، لذا أردت إنزال الستائر» ذلك أنها باتت في ذلك الحين غير قادرة على التكلم إلا بالرمز. كما أن غمغماتها كانت مليئة بكلمات الستائر والمحيطات والصواريخ، وسرعان ما ألف الجميع ذلك. كما ألفوا حجاب عزلتها، فلكل منهم مشكلاته الخاصة. في تلك السنين، باتت بلقيس حيدر شخصاً لا يراه أحد تقريباً، شبحاً يطوف الدهاليز بحثاً عن شيء فقده، ربما عن الجسد الذي لم يعد يربطها به أي رباط، وكان رضا حيدر معنياً بأن تبقى داخل المنزل. . . فالبيت يدير نفسه، ثمة خدم لكل شيء، أما ربة بيت رئيس الأركان، فقد باتت أقل من شخص، سراباً، بل أشبه بغمغمة في زوايا القصر، شائعة خلف حجاب.

بين الحين والآخر كانت راني حربا تتصل هاتفياً. فتأتي بلقيس إلى الهاتف أحياناً، وأحياناً لا تأتي. في الحالات الأولى، كانت تتكلم بهدوء تام، وبلهجة مضطربة غامضة إلى درجة يصعب على راني أن تفهم ما تقول. الشيء الوحيد الذي كانت تلمسه الصديقة، هو المرارة العميقة، لكأن بلقيس بدأت تكره صديقتها، أو لكأن زوجة رضا حيدر المنبوذة تقريباً، لا تزال تشعر بالكبرياء، إلى درجة تكفي لأن تكره الأسلوب الذي عامل به اسكندر زوجها وصنع منه رجلاً عظيماً بل لقد

أفصحت عن ذلك ذات مرة إذ قالت بوضوح تام: «راني، لن يشعر زوجك بالسعادة أبداً قبل أن يركع رضا عند قدميه ويلعق حذاءه».

الجنرال رضا حيدر يتذكر حتى يوم مماته تلك الزيارة التي قام بها لاسكندر حربا من أجل مناقشة ميزانية الدفاع حين تلقى صفعة على وجهه، صفعة مؤلمة أشد الإيلام. «الميزانية انخفضت دون المستويات المقبولة يا اسكي» قال رضا لرئيس الوزراء، لكن هذا، وبصورة مثيرة للدهشة، ضرب على طاولته ضرباً شديداً، جعل أقلام «المونت بلاك» تطير من حواملها، والظلال الموجودة في الزوايا تفح خوفاً. «مقبولة لدى من؟» صرخ اسكندر حربا «ليس الجيش هو الذي يقول ما ينبغي أن نفعل يا سيد، ليس بعد الآن. ضع ذلك في ذهنك. إن خصصنا لكم خمسين بيزا في السنة، فعليكم أن تعملوا بتلك البيزات الخمسين. افهم ذلك واخرج من هنا». عندها قال رضا دون أن يرفع صوته: «اسكندر، لا تنس أصدقاءك». فأجاب حربا: «رجل في مركزي لا يكون له أصدقاء، بل تحالفات مؤقّتة فقط، تحالفات قائمة على المصالح المتبادلة».

«إذاً، فأنت لم تعد كائناً بشرياً» قال له رضا، ثم أضاف بعد تفكير ملي «على الإنسان الذي يؤمن بالله أن يؤمن بالناس أيضاً». فهب اسكندر حربا من مقعده وقد سيطر عليه غضب جامح ثم صرخ «حذار يا جنرال، إن باستطاعتي أن أعيدك إلى سلة المهملات تلك التي وجدتك فيها». وكان قد اندفع من خلف مكتبه، ثم وقف أمام رضا صارخاً في وجهه مباشرة، ناثراً البصاق على وجنتيه. فغمغم رضا: «ليسامحك الله. لقد نسيت أننا لسنا خدمك». عند ذاك مد اسكندر حربا يده، وصفعه على الوجنة المبللة بالبصاق، فلم يرد رضا الضربة، إلا أنه قال برقة ودماثة: «الإحمرار الذي تسببه صفعة كهذه لا يزول بسهولة». بعد سنوات لاحقة، ستثبت راني هذه النقطة، بتخليدها احمرارات من هذا النوع على أحدث شالاتها.

وفي غضون تلك السنوات اللاحقة، حين كان اسكندر حربا يرقد

سلام تحت الثرى، وابنته المتصلبة كالأظافر تعيش مع أمها رهن الإقامة الجبرية، سيجد رضا حيدر نفسه يحلم بتلك الصفعة، وبتلك السنوات التي كان اسكندر يعامله فيها معاملته للأقذار. ولقد كانت آرجوماند أسوأ حتى من أبيها، فقد كانت تحدق إليه بكراهية مفضوحة إلى درجة جعلته يعتقد أنها قادرة على فعل أي شيء. بل لقد أرسلها اسكي ذات مرة بدلاً منه إلى الاستعراض العسكري السنوي، لا لشيء إلا لإذلال الجنود وذلك بجعلهم يحيون امرأة، وليست أية امرأة، بل امرأة ليس لها مكانة رسمية في الحكومة، وقد ارتكب رضا خطأ فادحاً حين ذكر متاعبه وهمومه للعذراء ذات السراويل الحديد، فقال: «لعل التاريخ تدخل بين عائلتينا، فجرت بعض الأمور خطأ، لكن تذكري أننا أقرباء يا آرجوماند، وأننا لبعضنا في نهاية المطاف».

فقالت آرجوماند بكل جفاء: «أعلم ذلك، فأمي قريبتك على ما أعتقد».

وصفية زنوبيا؟

إنها زوجة عمر الخيام وليست زوجته في الآن نفسه. ففي كراتشي، وليلة الزفاف بالذات، حرم بند من بنود عقد الزواج على عمر الخيام أخذ عروسه خارج البيت، وبدلاً من ذلك، قاده أحد الخدم إلى غرفة تحوي سريراً مفرداً، ولا أثر فيها لصفية. إنها شهبانو التي قادته إليها، ثم وقفت عند العتبة وقد توترت عضلاتها بكل التصميم والعناد الموجودين على وجه الأرض، ثم قالت: «أيها السيد الطيب، عليك أن تخبرني ما هي نياتك». فلم يغضب عمر الخيام، ذلك أن العزل الشديد الذي كانت تعيشه صفية زنوبيا، والذي دفع شهبانو لأن ترتكب مثل هذا الخرق الفاحش للقانون الاجتماعي، القانون الذي ينظم علاقة الخادم بالسيد، هو الذي منعه أيضاً من أن يغضب، فقال مهدئاً المربية: «لا بأس عليك. أنا أعلم أن الفتاة معتوهة، لكن اعلمي أنه ليس لدي أدنى رغبة في أن أفرض نفسي عليها بالقوة أو أن أطلب حقي الزوجي منها». عند ذلك،

أطرقت شهبانو برأسها ثم قالت: «ذلك حسن حالياً، لكن كم سيدوم ذلك يا ترى؟ فالرجل رجل بالنتيجة».

«لأنتظرن حتى تغدو زوجتي مقبولة» أجاب عمر الخيام غاضباً «فأنا لست وحشاً منحدراً من الأدغال» لكننا ـ نتذكر أنه قال عن نفسه ذات مرة إنه «طفل مذؤوب».

عندئذ استدارت شهبانو عازمة على الذهاب، لكن قبل أن تفعل ذلك، قالت له بصوت ينضح بعقلانية الأمر الواقع: «تذكر، إن فرغ صبرك يوماً من الأيام، أنني سأقتلك إن حاولت».

حين تم الانتقال إلى الشمال، كان من الواضح أن عمر الخيام قد غير أساليبه، إذ أقلع، شأنه شأن اسكندر حربا، وإن يكن لأسباب مغايرة، عن فسقه القديم: إذ لم يكن رضا حيدر يوافق على ما هو أقل من ذلك. وهكذا غدت النسخة الشمالية الجديدة من عمر الخيام شاكيل، تعيش حياة بسيطة وتعمل بجد ودأب: أربع عشرة ساعة في مستشفى جبل حراء، عدا عن تلك المناسبات التي يقف فيها في زاوية من الزوايا حين يكون الجنرال في واحدة من جولاته على حلبة المصارعة. لم يكن عمر الخيام يعود إلى مسكن رئيس الأركان إلا لكي يأكل وينام، لكن رغم كل الأدلة التي تشهد على صلاح ذاته وزهده ونزاهته، فقد ظلت شهبانو تراقبه بعين الصقر، ليس فقط لأن جسمه الضخم كان قد غدا أكثر ترهلاً في تلك الأيام، بل أيضاً لأنه كان يمازح المربية فيقول: «حسناً بانو، أأنا فتى صالح أم لا؟». عندها تجيب بكل جد: «سيد عمر، بوسعي أن أرى أنك تمتلئ بما لا يعلم إلا الله. إنك لا تأكل إلا القليل، وبدرجة لا يمكن أن يكون هذا طعاماً، بل إن باستطاعتي القول إنها مسألة وقت ليس إلا، فلسوف يأتي يوم تفقد فيه التحكم بنفسك أو تنفجر. فكم هو شاق أن يكون الإنسان رجلاً»، وكانت تقول ذلك وفي عينيها شفقة بالغة.

تلك الليلة عرف من دقة الباب أنها شهبانو. فنهض من فراشه، ثم

وصل إلى الباب وهو ينفخ ويربِّت صدره، عند موضع القلب، ليكتشف أن المربية تقف في الخارج، ممسكة قنديلاً، محلولة الشعر، وقد ستر جسمها الناحل، جسم طائر التليار، نصف ستر، قميصها الداخلي القطني. «بماذا تفكرين؟» تساءل عمر الخيام مندهشاً، لكنها أزاحته عن طريقها، ثم مرت به وجلست بكل رزانة على السرير.

«لا أريد أن أقتل أحداً» شرحت شهبانو الأمر بنبرة حيادية، «الذلك فكرت أن من الأفضل أن أفعل هذا بدلاً من ذاك». فتساءل عمر الخيام متعجباً «كم تحبينها إذاً؟».

«أكثر مما تحبها أنت» أجابته دون أثر لانتقاد، ثم خلعت قميصها في الحال.

«أنا رجل عجوز» قال لها في ما بعد: «ثلاث مرات كثيرة للغاية. لعلك تريدين قتلي على أي حال، وهذه أبسط الطرق».

فأجابت: «الأمر ليس بسيطاً يا سيد عمر، وأنت لست عجوزاً هرماً كما تقول».

بعد ذلك، كانت شهبانو تأتيه كل ليلة ما عدا أيام عادتها الشهرية وفترة خصوبتها، وفي تلك الليالي السبع أو الثماني، كان الرجل يستلقي على فراشه أسير أرقه الطوعي، يتخيل جسدها على هيئة سلك يتمدد إلى جواره في الفراش، ويتساءل عن القدر الغريب الذي جعله يتزوج امرأة معينة وينام مع واحدة أخرى مختلفة تماماً. بعد حين من الزمن، أدرك أن جسمه بدأ يفقد وزناً، فقد بدأت الأرطال تتساقط من إهابه، وهكذا حين سقط اسكندر حربا، لم يكن قد أصبح ناحلاً تماماً، فذلك أمر مستحيل لن يحدث، بل كان قد تقلص وانكمش حتى طرح ثيابه كلها (وبذلك نرى أن حياته وحياة اسكي، كانتا لا تزالان مترابطتين، ذلك أن اسكي أيضاً كان قد فقد وزنه.. إنما الأسباب مختلفة تماماً. إنه بتأثير المربية الفارسية وطلسمها السحري كان قد تضاءل حتى بلغ أبعاداً عادية تماماً، «قد لا أكون نجماً سينمائياً لكنني لم أعد أيضاً شخصية هزيلة من

شخصيات أفلام الكرتون»، فقد أتيحت الإمكانية لظله في أن يغدو أقل نمواً.

وصفية زنوبيا؟

تستلقي في سريرها، تضغط أجفانها المغمضة بأظافرها سعياً وراء رقاد، تعلم أنه قد لا يجيء البتة. تشعر على بشرة أجفانها بوخز نظرات شهبانو المحدقة. فالمربية على الحصيرة، تراقب وتنتظر. بعدئذ تقرر هي، صفية زنوبيا، أن الرقاد مستحيل، فتسترخي تماماً، وترخي يديها إلى جانبيها متظاهرة بالنوم. لقد اكتشفت أن هذه المحاكاة للنوم، هذا التظاهر بالنوم، يسعد الآخرين. وهي الآن تقوم به على نحو آلي، بعد أن مارسته كثيراً، أنفاسها تنتظم بإيقاع أنفاس النائمين، وهناك طريقة معينة لتحريك الجسد وتغيير وضعه من حين إلى آخر، وكذلك طريقة معينة لسلوك المقلتين تحت أجفانهما. إنها تسمع شهبانو وهي تنهض من فراشها بعد حين من الزمن ثم تنسل من الغرفة، تسير بضع خطوات في الممر ثم تقرع الباب. الأرق يجعل السمع حاداً. وهي تسمع نوابض سرير، تسمع تأوهاته وصيحاتها المكتومة. فهناك شيء ما يفعله الناس في الليل. أمها حكت لها عن المحيطات والسمك. وبعينيها المغمضتين، ترى المربية الفارسية وهي تتحول، تصبح سائلاً يتدفق إلى الخارج إلى أن يملأ الغرفة. شهبانو الذائبة المالحة اللزجة، وعمر المتمور الذي تغدو له حراشف، زعانف، غلاصم ثم يسبح في ذلك البحر المحيط. لكن صفية تتساءل، كيف يكون الحال حين يعودون كما كانوا من قبل، حين يتغيرون مرة ثانية كيف يجف كل شيء ويعود كما كان (وذات صباح انسلت إلى مخدع زوجها بعد أن غادره إلى المستشفى وذهبت شهبانو تعد الملابس الوسخة مع الغسالة. تلمست الملاءات بيديها، فوجدت بقعاً رطبة. لكن بحراً محيطاً ينبغي أن يترك آثاره، فتفحصت أرض الغرفة بحثاً عن سمكة نجمية، عشبة بحرية، أصداف، لكنها لم تجد شيئاً، لغز غامض).

أحياناً، تود أن يتركها الآخرون وشأنها، فتحدث أشياء في رأسها، أشياء مفضلة تبقيها هناك في الداخل مقفلاً عليها. ففي حضور الآخرين لا تجرؤ على إخراج تلك الأشياء واللعب بها، خشية أن تؤخذ منها أو تحطم خطأ. الناس الكبار المسجّون في كل مكان حولها، وقد لا يكون في نيتهم أن يحطموا تلك الأشياء، لكنهم يحطمونها. داخل رأسها دمى هشة ثمينة، من أفضلها على الإطلاق أن يمسك بها والدها، يحتضنها، يبتسم لها، يبكي عليها، ينطق بأشياء لا تدرك معناها، لكن الأصوات لطيفة. إنها تخرج والدها من رأسها، تجعله يفعل تلك الأشياء المرة تلو المرة، كلها المرة تلو المرة، تماماً كما تروي للطفل قصة خرافية عشرات المرات كي ينام. ربما لا يسعك أن تفعل ذلك بالأشياء التي هي خارج رأسك. فهي لا تحدث أحياناً إلا مرة واحدة، حينها عليك أن تسرع لالتقاطها ومن ثم حشوها في مخبئك السري. لكنها أحياناً لا تحدث على الإطلاق. ثمة شيء تملكه في داخلها، شيء لم يحدث في أي مكان آخر قط: أمها تلعب معها لعبة الحبل. بلقيس تمسك بحبل القفز وهما الاثنتان تنطان معاً، أسرع أسرع إلى أن تغدو سرعتهما أكبر بكثير من أن تستطيع العين تمييز واحدتهما من الأخرى، تصبحان شخصاً واحداً يثب ضمن دائرة الحبل. إن اللعب بهذه اللعبة يتعبها كثيراً، ليس بسبب الوثب، بل لصعوبة القيام بأشياء في داخلك لم تأت بها من الخارج، فلماذا يصعب كثيراً فعل هذه الأشياء الداخلية البحتة؟ ولماذا يستحيل تقريباً تكرارها المرة تلو المرة؟

معلمة خصوصية تأتي معظم الأيام، وهي تحب ذلك. فهذه المعلمة تأتي معها بأشياء جديدة وصفية زنوبيا تضع بعض هذه الأشياء داخل رأسها أيضاً. ثم شيء يدعى العالم يردد صدى أجوف حين تقرع عليه بعقد أصابعك، أو يكون مسطحاً وينقسم إلى كتب. إنها تعلم أنه، فعلاً، صورة لمكان أكبر بكثير يدعى كل مكان، لكنها ليست صورة جيدة، لأنها لا تستطيع أن ترى نفسها فيها حتى ولو استخدمت عدسة

تكبير. إنها تضع في رأسها عالماً أفضل بكثير، وباستطاعتها أن ترى هناك كل ما ترغب في رؤيته. عمر، شهبانو، بلقيس، رضا، كلهم دقائق على لوح صفيحي، إنها تموج هابطة، فتموج العائلة النملية الصغيرة مرتدة إلى الأعلى. كذلك الكتابة، إذ إن باستطاعتها أن تكتب أيضاً، ففي مكانها السري، تخبئ حروفها المفضلة: حرف السين الكثير المهاوي والمطبات، اللام الشبيهة بعصا الهوكي، الميم بصدرها المنفرج كأنه ديك رومي، وهذه الحروف تكتب نفسها المرة تلو المرة.

إنها تملأ رأسها بأشياء كثيرة إلى درجة لا يتسع معها للأشياء الأخرى، تلك التي تكره. صورة لنفسها مع طيور ميتة. من وضعها هناك يا ترى؟ هناك صورة أخرى: إنها تعض أحد الناس عضاً شديداً. هذه الصورة السيئة تشرع أحياناً بتكرار نفسها مثل أسطوانات خربة، حتى ليتعذر عليها أن تبعدها عن ذهنها كي تستعيد بدلاً منها ابتسامة أبيها أو حبل القفز. هي تعلم أنها كانت تمرض كثيراً، ولعل تلك الدمى السيئة بقيت لها من تلك الأيام.

لكن ثمة أشياء أخرى لا يبدو أنها تأتي من مكان معين. إنها في غالب الأحيان ترد خلال ليالي الأرق، أشكالاً تجعلها تشعر وكأنها ترغب بالبكاء، أو أمكنة فيها أناس يتدلون من السقوف، وقد انقلبوا رأساً على عقب. إنها تشعر بأن الأسئلة التي تدخل إلى داخلها لا بد أن تكون نتيجة خطأها. فلو كانت صالحة لما دخلت مثل تلك الأشياء الرديئة إلى داخلها، بل كانت ستذهب إلى مكان آخر. وذلك يعني أنها غير صالحة. فلماذا هي بهذا السوء؟ ما الذي يجعلها رديئة شريرة؟ إنها تتقلب في فراشها. ومن داخلها، تنسكب الأشكال الغريبة المخيفة.

إنها غالباً ما تفكر بالزواج. هي تعلم ما هو الزوج. فوالدها زوج، وكذلك تلفار الحق، والآن هي نفسها لها زوج أيضاً. لكن ماذا يعني ذلك تماماً؟ ماذا يعني أن يكون للمرأة زوج؟ لماذا الزوج؟ بإمكانها أن

تفعل معظم الأشياء لنفسها، وما لا تستطيع فعله تساعدها فيه شهبانو. لكن، لديها زوج. وهذا لغز آخر.

قبل الزواج سألت شهبانو عن هذا الأمر ثم وضعت إجابة شهبانو في رأسها. إنها تخرج المربية من رأسها وتكرر قولها المرة تلو المرة «الأزواج من أجل المال والأطفال. لكن لا تبالي يا صغيرتي، فالمال ليس مشكلة بالنسبة إليك كما أن الأطفال ليسوا لك». هي لا تستطيع أن تفقه هذا، مهما تكررت الصورة والكلمات في رأسها. إن لم يكن المال مشكلة بالنسبة إليك، فلست بحاجة لزوج. والأطفال ليسوا من أجلك. لماذا؟ «هكذا أقول لك. هكذا فقط» لكن لماذا؟ «أوه كفى. لماذا لماذا لماذا، حسبك لماذا؟» وعلى الدوام ينتهي الأمر على هذا النحو، دونما تفسير لأي شيء. لكن قضية الزوج هذه قضية مهمة. فهي لديها زوج. وكل واحد آخر ينبغي أن يعرف، لكنها هي لا تعرف. وهذا أيضاً بسبب خطأها وغبائها.

أفضل ما حدث مؤخراً هو مجيء الأطفال، أطفال أختها. فهي، صفية زنوبيا، تلعب معهم أكبر وقت ممكن. إنها تحب أن تراقبهم وهم يحبون، يتعثرون، يثيرون الصخب. تحب أن تعرف أكثر منهم. تنط بالحبل من أجلهم: أوه يا للتعجب في أعينهم! تضعهم داخل رأسها، ثم تخرجهم حين يجافيها النوم. غودنيوز لا تلاعب الأطفال. لماذا؟ لا فائدة من السؤال. «لماذا لماذا الفطير والصفيحة؟» في رأسها الأطفال يلعبون.

بعدئذ تعود الأشكال السيئة مرة ثانية، ذلك أنه إذا كان لها زوج فإن الزوج من أجل الأطفال، «لكن، الأطفال ليسوا لك». إذاً في الأمر خطأ ما. هذا يبعث في نفسها شعوراً ما، كاحمرارة الخجل تماماً، والمرة تلو المرة، شعوراً حاراً حاراً. لكن رغم أن بشرتها تتخضب بالحمرة، ووجنتيها تتوهجان، إلا أن ذلك لا يحدث إلا في الداخل، فلا أحد يلحظ تلك الاحمرارات الداخلية الجديدة. ذلك غريب أيضاً. الشعور به

يتفاقم سوءاً. إنها تفكر أحياناً «أراني أتغير من حال إلى حال» لكن حين تلج تلك الكلمات رأسها، لا تعلم ما تعني تماماً. كيف تراها تتغير من حال إلى حال؟ تزداد الكلمات السيئة، الخاطئة فيزداد الشعور حدة وإيلاماً. «إليك عني، إليك عني، إليك عني».

ثمة ما تفعله المرأة ليلاً مع زوجها. هي لا تفعله، بل شهبانو تفعله بدلاً منها. أنا أكره السمك. زوجها لا يأتي إليها ليلاً. هناك أمران لا تحبهما: الأول عدم مجيئه، والثاني، ذلك الذي يبدو مرعباً ولا بد، ذاك الذي يجعل الاثنين يصرخان صرخات مكتومة، ويتأوهان، كما يجعل الملاءات مبللة ذات رائحة. أف، أف، أف. شيء يثير الاشمئزاز. إنها زوجة ولديها زوج. لكنها لا تستطيع حل اللغز. الأمر المرعب وعدم فعل ذلك الأمر المرعب. إنها تعصر أجفانها المطبقة بأصابعها لتدع الأطفال يلعبون. ليس ثمة محيط، لكن ثمة شعور بالغرق، يجعلها تشعر بالسقام.

ثمة محيط. إنها تشعر بأمواج مده. وفي مكان ما من أعماقها ثمة وحش، إنه يتحرك.

قضية اختفاء الأولاد مألوفة في الأحياء والمدن الفقيرة منذ سنوات كثيرة. ثمة نظريات عديدة حول تلك الاختفاءات. فقد قال البعض إن الأولاد يرسلون إلى الخليج لتوفير يد عاملة رخيصة أو لكي يستغلهم الأمراء هناك بطرق أسوأ يتعذر ذكرها. أما البعض الآخر فقد قال إن الآباء هم المجرمون، إنهم هم الذين يعمدون إلى التخلص من أفراد عائلاتهم الكبيرة غير المرغوب فيهم. ولم يجد أحد حلاً للغز. لم يلق أحد القبض على أحد ولم تكتشف أية مؤامرات تتعلق بتجارة الرقيق. بل أصبحت واقعة من وقائع الحياة: أطفال يختفون بكل بساطة في وضح النهار، يتبخرون في الأثير، نفخة هواء!

بعدئذ وجدوا أجساماً بلا رؤوس.

حجرة الطائرة تتوهج وتتحلل ثم رأى نفسه ينتصب مثل ظل على

جدران مسكن حميه، يرقب طيف بلقيس حيدر، المحجب كالعادة من أعلى الرأس حتى أخمص القدمين، وهو يتحرك نحوه هابطاً الممر المعتم. حين عبرت به دون أن تنظر باتجاهه دب في قلبه الذعر وهو يرى ملاءتها السوداء ملطخة تقطر بشيء أكثر لزوجة من أن يكون ماء. الدم الأسود في الممر المظلم، يترك أثراً حيث تسلك.

بعدئذ غامت الرؤيا. لكن حين وصلت تلفار إلى المنزل تفحص الأمور هناك فاكتشف أن كل شيء على ما يرام في منزل آل حيدر، فبلقيس لم تغادر المنزل كما أن الجميع على ما يرام، لذلك صرف النظر عن المسألة وعاد لاستغراقه في عمله. لكنه في ما بعد، اعترف للجنرال رضا حيدر: «إنها خطيئتي، إذ كان علي أن أرى في الحال ما يجري، لكن أفكاري كانت منصبة على أمور أخرى».

في اليوم التالي، عقب عودته من بلدة «ك»، سمع تلفار قصة الأجسام الريفية ذات الرؤوس المقطوعة، وكان ذلك بمحض الصدفة: فقد كان اثنان من رجاله يمزحان حول جرائم القتل في مطعم لقوى الأمن، وهما يتساءلان إن كان بالإمكان لصق جرائم القتل بزعماء معارضة مشهورين باللواط. فاقشعر بدن تلفار ثم لعن نفسه وهو يفكر «أيها الأبله، لا عجب إذاً أنك شعرت بألم في رقبتك».

وعلى الفور قاد السيارة إلى قيادة الجيش حيث طلب إلى رضا أن يرافقه إلى الحديقة كي يكون على يقين من أن أحداً لا يسترق السمع. ولشدة ارتباكه، فعل حيدر ما طلب صهره.

وهكذا ما إن أصبحا في الخارج تحت أشعة الشمس الحارقة في ذلك العصر حتى أعاد تلفار سرد رؤياه معترفاً، وقد احمر وجهه خجلاً، أنه يعلم أن الطيف الذي رآه أصغر جسدياً بكثير من أن يكون بلقيس حيدر. كما بدا له أيضاً بعد التفكير والتروي أن هناك شيئاً ما، نوعاً من التخلع وعدم التناسق في مشيته... «عفواً» قال تلفار «أظن أن صفية زنوبيا عادت للسير في نومها مرة ثانية. وقد كان رضا حيدر يحمل من

الاحترام لقدراته الاستشفافية ما جعله يصغي إليه زائغ النظر دون أن يفكر حتى بمقاطعته، وهكذا استأنف تلفار فأعرب عن رأيه بأنه لو أخضعت صفية زنوبيا لفحص طبي فسوف يتبين أنها ليست بالعذراء وهو أمر ذو دلالة بالغة. ذلك أنهم جميعاً يعلمون أن زوجها لم يقربها مطلقاً. «اغفر لي عدم لياقتي يا سيدي، لكنني أعتقد أنها مارست الجماع مع الفتيان الأربعة قبل أن تجتث رؤوسهم».

عند ذاك كانت صورة ابنته المتخلفة عقلياً وهي تستسلم لذلك الجمع من الفتيان يفضون بكارتها، ثم تهب، وقد تملكها حب الانتقام، فتجز رؤوس مضاجعيها، تلك.

حدث ذلك سنة الانتخابات العامة. فبعد ست سنوات من السلطة، كان اسكندر حربا وجبهته الشعبية يشنان حملة شديدة. مع ذلك كانت المعارضة شرسة، فقد اتحد خصوم اسكندر ودخلوا معه معركة ضارية، يوجهون له انتقادات اقتصادية وكذلك اتهامات بالكفر والغطرسة والفساد وما إلى ذلك. وكان يفترض على نطاق واسع أن الجبهة ستخسر كل ناخب في المناطق الحدودية، سواء كان ذلك في الشمال الغربي أم في المناطق المحيطة ببلدة «ك» كما ستخسر مقاعد كثيرة في المدن الصغيرة. قصارى القول، كان لدى الناس الكثير مما يشغل أذهانهم عن الاهتمام بموت بضعة من أبناء الفقراء.

كانت الأجساد الأربعة كلها أجساد ذكور مراهقين مقطوعي الرؤوس. لقد برمت قوة هائلة ما تلك الرؤوس، فاتلة إياها عن أعناقها: أي بالحرف الواحد اجتثتها من أكتافها. كما اكتشفت آثار منيّ في سراويلهم الممزقة، وقد اكتشفت هذه الجثث في مرمى نفايات قرب أحد الأحياء الفقيرة. كما بدا أنهم جميعاً لقوا مصرعهم في الوقت نفسه تقريباً، بيد أن الرؤوس لم يكشف لها مكان.

كانت حملة الانتخابات في أوج استعارها. لذا لم تصل أخبار جرائم القتل هذه إلى الصحف إلا بالكاد، كما لم يذكرها أحد في

الإذاعة. كانت ثمة شائعات، بعض الأقاويل، إلا أن الناس سرعان ما يملون. فالله يعلم أنه يحدث في تلك الأحياء الفقيرة كل أنواع الأشياء.

وهذا ما حدث.

المرأة ذات الحجاب، قصة رعب.

كان تلفار الحق يطير عائداً إلى العاصمة من بلدة «ك» حين حضرته الرؤيا. ففي تلك الأيام كان رئيس قوى الأمن رجلاً كثير الأشغال، نادراً ما ينام، وكثيراً ما يجري هنا وهناك في البلاد. إنه وقت انتخابات وتلفار واحد من حاشية اسكندر الموثوقة، إذ لم يكن قد آن الأوان لأن يغدر بسيده وهكذا كان مشغولاً تماماً، فاسكندر يعتمد على قوى الأمن كي يبقى سابقاً خصومه، يكتشف خططهم، يسرّب أفراداً من الطابور الخامس إلى قياداتهم، يقلب ترتيباتهم، يجد المستمسكات لإلقاء القبض على قادتهم. ولقد كان تلفار مشغولاً بمسائل كهذه وهو على متن طائرته تلك، بحيث بدأت الأربطة التالفة في عنقه تتلاعب مثل إبليس ذاته. صرف أسنانه وتجاهلها. إنه يتصفح بعناية تامة بعض الصور الفوتوغرافية لسياسيين انفصاليين من منطقة الحدود وهم في الأسرة مع فتيان جذابين ليسوا في الحقيقة سوى مخبرين مخلصين لدى دائرة الأمن يعملون بشجاعة وتجرد عن الذات من أجل وطنهم. لكن حينذاك، حضرت الرؤيا، واضطر تلفار لأن يبتعد بنظره عن عمله، إذ خيل إليه أن الصورة جعلت رضا يشعر بالسقام. . «من فضلك، افهمني يا سيدي» قال تلفار باحترام بالغ «أنا لا أرغب في معالجة هذه القضية إلا وفق تعليماتك الدقيقة، فهذه مسألة عائلية».

«أنى لي أن أعلم؟» قال رضا حيدر بصوت يكاد لا يسمع، لكأنما اجتاز مسافات بعيدة «فقد جرت حادثة الديوك الرومية، فحادثة ليلة الزفاف، ثم لا شيء آخر على مدى سنوات. هل ظللنا نفكر بالمشكلة؟ لا، قلنا ستنتهي، انتهت. ضحكنا على أنفسنا، نحن بلهاء» ثم خلد

للصمت دقائق عدة، بعد ذاك استأنف باكتئاب شديد: «أهذه نهايتي؟ أهي الضربة القاصمة، القضية، طلقة الرحمة؟».

فاعترض تلفار: «لن نسمح بذلك يا سيدي، الجيش بحاجة إليك يا سيدي».

«أنت طيب يا تلفار» غمغم رضا بين أسنانه ثم غاب في صمته مرة ثانية إلى أن عاد صهره للسعال ثم سأل «إذاً، ما الإجراء الذي سنتخذه، يا سيدي؟».

فانتفض الجنرال حيدر متسائلاً: «ماذا تقصد؟ أي إجراء هذا؟ أي دليل لديك؟ مجرد افتراضات غامضة. لا، لن نقوم بأي إجراء. بل كيف تتجرأ على إقامة ادعاء على أساس كهذا؟ إلى الجحيم برؤاك يا سيد، اذهب، ولا تضيّع لي وقتي». «أمرك يا سيدي» قال تلفار وقد اتخذ وقفة الاستعداد. ثم ترقرقت الدموع في عيني الجنرال حين وضع ذراعه على كتفي صهره المشدودتين.

«هل بُلّغت يا تلفار. يا فتى؟ صه: اسكت، هذا ما أقصد».

في أعماق المحيط، وحش ـ البحر يتحرك، يتضخم شيئاً فشيئاً، يتغذى على الطلاح، الإثم، العار، ينتفخ صاعداً باتجاه السطح. وللوحش عيون كالمنارات باستطاعته أن يمسك بالمؤرقين ويحولهم إلى متسرنمين. الأرق إلى سرنمة، والفتاة إلى شيطان. الزمن يتحرك على نحو مختلف بالنسبة إلى الفتاة. السنون تمر بها طائرة كأنما لها أجنحة. ومع نمو الفتاة، وتزايد مداركها، يحتاج الوحش للمزيد، قوتاً له... وهكذا لم تبلغ صفية زنوبيا الثامنة والعشرين حتى كانت قد بلغت عمراً عقلياً يقارب التاسعة والنصف، وفي تلك السنة، حين ظهرت أعراض الحمل على المربية شهبانو وطردت من الخدمة نظراً لعدم أخلاقيتها، أدركت صفية ما حدث، إذ كانت تسمع أصوات الضجة وقت الليل، تسمع تنهداته وصيحاتها التي تشبه صيحات الطيور. وعلى الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذتها المربية فقد حملت، ذلك أن من السهل،

أن يخطئ المرء في تقدير المواعيد، ولقد غادرت المنزل دون أن تنبس ببنت شفة، دون أن تحاول إلقاء اللوم على أحد. لكن ظل عمر الخيام على اتصال بها. كما سدد نفقات الإجهاض وتأكد من أنها لن تموت جوعاً، مع ذلك لم تُحل المشكلة، فالضرر قد وقع. صفية زنوبيا متصلبة الجسم في سريرها كأنها لوح من خشب، إنها تحاول إخراج الأشياء الحسنة من داخل رأسها، الأطفال، ابتسامة والدها لكن بدلاً من ذلك، لا تجد إلا ذلك الشيء الوحيد داخل شهبانو، ذلك الشيء الذي يصنعه الأزواج فتقول في نفسها: هو لم يعطني الطفل بل أعطاها إياه كي تحمله في أحشائها بدلاً مني. أما أنا صفية فيتملكني الخزي والعار. تلك المرأة التي أحبتني. وزوجي، الذي قد يلومه المرء، ليست لديه زوجة قط. وفي غرفتها الخاوية تكرر ذلك المرة تلو المرة أنه مد يرتفع باتجاه الفيضان، هي تشعر بأن شيئاً ما قادم، شيئاً يهدر، تشعر بأنه يأخذها، ذلك الشيء، الفيضان، أو ربما ذلك الشيء، الفيضان، أو ربما ذلك الشيء داخل الفيضان، الوحش الذي ينبثق من الأعماق ليلحق دماره بالعالم، بعد ذلك لا تعلم من أمرها شيئاً. لا تتذكر شيئاً على الإطلاق، إذ إن ذلك الشيء بات طليقاً.

الأرق يتحول إلى سرنمة الوحش ينهض من السرير، تجسيداً للعار، يغادر تلك الغرفة الخالية من المربية. الملاءة السوداء تأتي من مكان ما، أي مكان، فليس من الصعب أن تجد ثوباً كهذا في ذلك المنزل الكئيب، ثم تمشي. وكما فعلت يوم مجزرة الديوك الرومية تفعل الليلة، تزوغ من حراس الليل، فعينا الوحش فيها تتوقدان، تحولان الحرس إلى حجارة، من يدري كيف، لكن في ما بعد، حين استيقظ أولئك الحراس لم يعلموا أنهم كانوا نياماً.

وصمة العار تقطع شوارع الليل. في الأحياء الفقيرة أربعة فتيان تسحرهم تلك العينان الرهيبتان اللتان تنطلق منهما نار صفراء قاتلة عبر شبك الحجاب كأنها الريح. الفتيان يتبعونها إلى مرمى النفايات والهلاك،

جرذاناً تلحق بنافخ مزمارها، شخوصاً آلية ترقص في النور المستهلك لكل شيء، ذلك النور المنبعث من عينين محجبتين بالسواد. ثم تستلقي أرضاً، وما تلقته شهبانو في لياليها مع عمر، تتلقاه صفية. أربعة أزواج يأتون ويذهبون. أربعتهم يلجون ويخرجون ثم تمتد يداها إلى عنق الفتى الأول. فيقف الآخرون جامدين، ينتظرون دورهم. الرؤوس تقذف عالياً، تغوص في الغيمات المتفرقة ولا أحد يراها تسقط. بعد ذلك تنهض، تعود إلى البيت ثم ترقد، الوحش يرقد.

فتش الجنرال رضا حيدر غرفة ابنته بنفسه. وحين وجد الملاءة، وجدها ملطخة ببقع الدم الجافة المتيبسة، فلفها في جريدة ثم حرقها إلى أن غدت رماداً. بعد ذاك الرماد من شباك سيارته المتحركة.

فقد كان ذلك اليوم يوم انتخابات، وقد كانت هناك نيران كثيرة.

الفصل الحادي عشر

حوار رجل أمام حبل المشنقة

شعر الرئيس اسكندر حربا بوجع شديد في أسنانه قبل ثلاثين ثانية من إحاطة سيارات الجيب العسكرية بمنزله في عاصمة مدرجات المطار غير المطروقة. قبل لحظة واحدة كانت ابنته آرجوماند قد قالت شيئاً أغرى القدر بأن يضرب ضربته، الأمر الذي جعل أسنان اسكندر المسودة كالفوفل تضج بألم خرافي، لا سيما وأن الوقت كان بعد منتصف الليل، حين تبدو الأشياء أكثر خطورة بكثير مما هي عليه في وضح النهار. «البخار ينطلق من المعارضة» هذا ما أفصحت عنه آرجوماند، وهو ما أثار رعب أبيها فقد كان يفكر بنوع من الرضا الذاتي الذي يشعر به المرء بعد العشاء، بالإشاعات التي تتحدث عن فرار نمر أسود إلى تلال باغير أغالي المكسوة بالأشجار على بعد أربعين ميلاً من العاصمة فأرغم أفكاره على الخروج من تلك الغابات المسكونة ثم قرّع ابنته «لا يعلم إلا الله كيف يمكن تخليصك من هذه النزعة التفاؤلية، لعلي سأضطر إلى تغطيسك في خزان المياه المتشكل خلف سد ـ البراج». بعد ذاك بدأت أسنانه نصب عليه نيران الجحيم، فقد اشتد الوجع أكثر من ذي قبل، ثم قال بصوت عال مندهشاً مما خطر في ذهنه بغتة: «إنني أدخن السيجار الأخير في حياتي». وما إن لفظتا شفتاه تلك النبوءة حتى ظهر أمامهما ضيف لم يدعه أحد، ضابط عسكري له أبأس وجه على وجه الأرض، إنه العقيد شجاع معاون الجنرال رضا حيدر طيلة ست سنوات. حيا العقيد رئيس

الوزراء ثم أعلمه بالانقلاب. «أرجو معذرتك يا سيدي، لكن عليك أن ترافقني حالاً إلى مقر الاستراحة في باغير أغالي» عند ذاك أيقن اسكندر حربا أنه أخفق في إدراك مغزى رؤياه فابتسم لغبائه ثم قال: «أترين، يا آرجوماند، يريدون أن يطعموني للنمر، أليس كذلك؟» بعدئذ التفت إلى شجاع ثم سأله عمن أعطاه تلك الأوامر فأجاب شجاع: «إنه الحاكم العرفي، الجنرال حيدر يا سيدي، وأرجو المعذرة».

فقال اسكندر لابنته «انظري إلى ظهري تري خنجر غادر جبان».

بعد ثلاثين دقيقة كان الجنرال سلمان طقلق، رئيس هيئة الأركان المشتركة، يفيق مذعوراً على كابوس رأى فيه كارثة حرب الجناح الشرقي تمثل أمامه بحركة بطيئة، وقد حرره من كابوسه ذاك جرس الهاتف وهو يرن رنيناً متواصلاً. كان الجنرال سلمان طقلق هو الضابط الوحيد من أفراد القيادة العليا في عهد الرئيس الأشعث الذي نجا من حملة التطهير التي قام بها اسكندر حربا للقيادات العسكرية العليا، وللحظة من الزمن، أبى الكابوس المزعج أن يغادر ذهنه، لذا صرخ في الهاتف كالمفجوع «ماذا حدث؟ هل استسلمنا؟».

فقال رضا بصوت يشوبه بعض الارتباك «الأمر تم».

فازداد الجنرال طقلق حيرة على حيرة «ما الذي تم بحق الله؟» عند ذاك رد الجنرال حيدر مرعوباً «يالله! ألم يخبرك أحد بشيء؟» إذ ذاك بدأ يتلعثم ذلك أن رئيس هيئة الأركان المشتركة كان رئيسه بالطبع وإذا رفض الرئيس أن يؤازر بالقوات البحرية والجوية المبادرة التي قام بها الجيش فإن الأمور ستتردى. لكن بفضل اللعثمة الغامضة التي نجمت عن خوفه وما بقي من ضباب النوم الذي كان يغلف ذهن الجنرال طقلق، مضى على رضا حيدر أكثر من خمس دقائق قبل أن يجعل رئيس هيئة الأركان المشتركة يدرك ما الذي حدث تلك الليلة.

فقال طقلق أخيراً: «هكذا إذاً؟ لكن ما العمل الآن؟».

عند ذاك تحسنت لعثمة حيدر، لكنه بقي حذراً فقال مستخدماً

تكتيك الإرجاء «عفواً سيدي الجنرال، ما الذي تعنيه؟».

فانفجر طقلق «يالله، يا رجل! قل ما هي الأوامر التي تنوي إعطاءها؟».

حينذاك أطبق صمت تام أدرك رضا حيدر في أثنائه أن الأمور على ما يرام، بعدئذ قال بصوت رقيق «سيدي طقلق، أنت تعلم، بخبرتك السابقة في شؤون الحكم العسكري وما إلى ذلك...».

فقاطعه طقلق آمراً: «أفصح... أفصح».

«... بصراحة يا سيدي، نحن نأمل أن تساعدنا في ذلك» فغمغم طقلق العجوز بشيء من السعادة «أبناء زنى، هواة انقلابات. استلموا الحكم ولسوف ترون أنكم عاجزون عن تمييز أيديكم من أرجلكم». لم تكن المعارضة قد قبلت بنتائج الانتخابات قط. فزحفت الجماهير إلى الشوارع تندد بالفساد، كما كان هناك إشعال حرائق، وتظاهرات شغب واضطرابات. أما الجيش فقد تلقى الأوامر بإطلاق النار على المدنيين، عندها ظهرت غمغمات تمرد على شفاه الجند وصغار الضباط لكن طلقات نارية أسكتتها في البداية. ثم جاءت آرجوماند فأغرت القدر بالإسراع.

يقال إن الجنرال حيدر كان كارهاً للتحرك في البداية، وإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن وضعه زملاؤه إزاء خيارين: أن يطيح باسكندر حربا أو يطاح به معه. لكن الرئيس حيدر أنكر ذلك إذ قال: «إنني من النوع الذي لا يرى فوضى إلا ويعمل على التخلص منها».

صباح الانقلاب، ظهر رضا حيدر على شاشة التلفزيون، وهو راكع على سجادة صلاة، رافع يديه إلى أذنيه، يتلو آيات بينات من القرآن الكريم، بعدئذ ختم صلاته ثم نهض يخاطب الأمة. في ذلك الخطاب سمع الجمهور للمرة الأولى مصطلحه الشهير «الحَكَم الميداني» فقد قال رضا على عجل: «افهموا أن الجيش لا يسعى لأن يكون أكثر من مرجع أو حَكَم نزيه».

أين كانت يد رضا اليمنى وهو يتكلم؟ على ماذا استقرت أصابعه حين وعد الشعب بانتخابات جديدة نزيهة في غضون تسعين يوماً؟ ما الذي كان مجلداً بالجلد وملفوفاً بالحرير، والذي أضفى الثقة على يمينه حين أقسم بأن جميع الأحزاب السياسية، بما في ذلك الجبهة الشعبية، جبهة «ذلك المكافح العنيد والسياسي العظيم اسكندر حربا»، سيسمح لها بدخول الانتخابات التي ستجري من جديد؟ «إنني جندي بسيط» هذا ما أعلنه رضا حيدر «لكن الفضيحة هي الفضيحة ولا بد من القضاء عليها أينما كانت» يومها، طافت عدسة التلفزيون بوجهه بدءاً من تلك الكدمة على جبينه، علامة الركوع والسجود، ثم نزلت مع يده اليمنى إلى أن رأى الشعب الموضع الذي استقرت عليه: القرآن الكريم.

وهكذا غدا رضا حيدر، تابع حربا ومحميه، جلاده أخيراً، لكنه حنث أيضاً بيمينه رغم أنه رجل متدين. وما فعله بعد ذاك قد يكون، بالحقيقة نتيجة رغبته في تنقية اسمه الملوث أمام الله.

وهاكم كيف بدأ الأمر: آرجوماند حربا نقلت إلى راني في موهينجو لكن هارون حربا فر بجلده. لعله هرب خارج البلاد أو غاص تحت الأرض، أياً كان الأمر فقد بدا، في الأيام الأولى تلك، نوعاً من رد فعل مبالغ فيه كثيراً. فقد قال رضا حيدر وهو يمازح الجنرال طقلق: «يا له من ولد غبي! أَوَيَظن أنني سأقطع قضيبه لأنه لم يكن جيداً إلى درجة تكفي لزواجه من ابنتي؟».

أما الرئيس اسكندر حربا فقد وضع رهن الاعتقال في أحد مقرات الاستراحة التابعة للحكومة في باغيرا غالي، حيث لم يلتهمه نمر هناك. بل احتفظ بحق استخدام الهاتف للرد على المكالمات الواردة فقط، وقد اكتشفت الصحف الغربية ذلك الرقم فأجرى اسكندر مقابلات صحافية طويلة وبليغة مع العديد من صحافيي ما وراء البحار. في تلك المقابلات كان اسكندر يوجه اتهامات تفصيلية، ملقياً الكثير من ظلال الشك على إيمان رضا حيدر، أخلاقه، قدرته الجنسية، شرعية مولده. لكن رغم

ذلك ظل رضا حيدر صامتاً لا يبدي حراكاً إلى أن أسر للعقيد شجاع ذات يوم: «ذلك الإسكي، فتى متوتر كثيراً. ولقد كان دائماً كذلك. إنه متعكر المزاج بالطبع، ولسوف أظل في نظره كما كنت دائماً، تحت حذائه، لكن على المرء أيضاً ألا يصدق كل شيء يقرأه في الصحف الغربية».

«لنفرض أنك أجريت انتخابات وفاز اسكندر يا سيدي» قال العقيد شجاع بضرب من المغامرة، فيما اكتسب وجهه أشد تعابير الاكتئاب التي رآها رضا في حياته على تلك السيماء البائسة «أستميحك المعذرة يا سيدي، لكن ما الذي سيفعله حينذاك بك؟».

فبدا رضا حيدر وكأنه فوجئ، إذ صرخ: «ما الذي سيفعله بي؟ أنا رفيقه القديم وقريبه بحكم روابط الزواج؟ فهل عذبته يا ترى؟ هل ألقيته بين براثن الغوغاء؟ إذاً، ما الذي يمكنه فعله بي؟».

فقال شجاع: «عائلة من السفاحين السفاكين، عائلة حربا تلك، الجميع يعلم ذلك. جرائم الثأر والانتقام تجري في دمائهم، عفواً يا جنرال».

منذ تلك اللحظة اكتسبت جبهة رضا حيدر المكدمة من آثار السجود أخاديد تفكير عميقة، وبعد يومين أعلن لمعاونه: «سننتهي من قضية ذلك الرجل في الحال ثم نرتب كل شيء».

في ما بعد كان بإمكان العقيد شجاع أن يقسم إن الجنرال رضا لم يفكر باستلام الرئاسة إلى أن جرى ذلك اللقاء بينه وبين اسكندر. فحين يسأله أحدهم كان دائماً يجيب: «ذلك الغبي، سار إلى حتفه بظلفه» يومها قاد شجاع السيارة بالجنرال إلى باغيرا غالي وعندما بدأت السيارة تصعد الطرق التالية أفعمت خياشيمهما رائحة الصنوبر الذكية، تلك الرائحة التي تملك المقدرة على تفتيح القلوب ورفع أثقل الأعباء عنها، كما تملك المقدرة على جعل المرء يفكر بأنه ما من مشكلة بلا حل. وفي منزل باغيرا غالي ذي الطابق الواحد انتظر المعاون في ردهة أمامية فيما جرى الاجتماع المصيري.

كان حدس اسكندر حربا بصدد السيجار قد تحقق، إذ رغم كل وحدات التكييف الهوائي والأقداح البللورية والسجاد الشيرازي ووسائل الراحة والرفاهية الأخرى المتوفرة في مقر استراحته، لم يكن اسكندر قادراً على إيجاد منفضة سجائر واحدة، وحين طلب إلى الحراس أن يأتوا إليه بعلبة من سيجاره المفضل، ماركة هافانا، من منزله، ردوا عليه بكل أدب وتهذيب: «مستحيل». فغدا حظر التدخين هاجس اسكي الذي لا يفارق فكره، لاغياً بذلك كل قيمة لفراشه المريح ووجباته الطيبة، إذ كان من الواضح أن أحدهم أمر الحرس بمنعه من التدخين فنقل إليه ذلك المنع ـ حذار ـ ولم يرق له ذلك، كلا، أبداً. فحرمانه من التدخين جعله يشعر بزنوخة في فمه، لذا شرع يمضغ بزر الفوفل دون توقف باصقاً عصارته عامداً متعمداً على السجاد الفاخر الثمين، إذ كان سخطه قد بدأ يطغى على الكياسة التي تتميز بها طبيعته الحقيقية. لكن مضغ البان جعل وجع أسنانه يتفاقم، لذلك، لم يكن بالأمر المدهش وقد بات كل شيء يدخل فمه يجري خطأ، أن يغدو كلامه بذيئاً فاسداً أيضاً. . . مع ذلك لم يكن بمستطاع رضا حيدر أن يتوقع الاستقبال الذي لقيه. ذلك أنه دخل غرفة اسكندر تشرق على محياه ابتسامة مصالحة، لكن ما إن أغلق الباب وراءه حتى بدأ اسكندر السباب والشتائم، هذا وإن العقيد شجاع ليقسم إنه شاهد خيوط دخان أزرق تنبعث من ثقب المفتاح، كما لو أن ثمة حريقاً في الداخل، أو أربعمائة وعشرين سيجاراً تشتعل كلها في الآن نفسه.

أيها الفاعل بجدتك الكلبة الحقيرة، يا بائع بناتك بأبخس الأثمان لأبناء الزنى، نسل القوادين، أيها الكافر الذي يدنس القرآن بقذارته، هكذا ظل اسكندر حربا يسب رضا ويشتمه طيلة ساعة ونصف الساعة، ولقد أضفى غياب الدخان ووجود عصارة الفوفل على مفرداته الفظيعة البذيئة بالأصل زنخة أشد فتكاً مما كان لها أيام شبابه الصاخب. وحين انتهى كانت جدران تلك الغرفة قد تلطخت من أعلاها إلى أسفلها

بعصارة الفوفل، كما تلطخت الستائر إلى درجة بدت معها وكأن قطيعاً من الحيوانات تم ذبحه هناك أو كأن ديوكاً رومية أو ماعزاً كانت تتخبط أشد التخبط وهي تصارع الموت، راشة كل مكان من الغرفة برشاش الدم المنبعث من الشروخ الحمر في رقابها. لقد خرج رضا حيدر وعصارة البان تقطر من ملابسه كما كان شارباه مليئين بها، كذلك كانت يداه ترتعشان والسائل الأحمر يقطر من أطراف أصابعه، وكأن يديه غسلتا في حوض مليء بدم اسكندر أما وجهه فقد كان شاحباً أبيض كالورق.

مع ذلك لم ينبس الجنرال حيدر ببنت شفة إلى أن خرجت سيارة القيادة خارج المقر عندئذ قال، وعلى نحو عرضي، للعقيد شجاع: كنت أسمع أموراً رهيبة عن السيد حربا إبان حكمه، والحقيقة، هذا الرجل لا يستحق أن يطلق سراحه. إنه خطر على البلاد.

بعد يومين أقسم تلفار الحق اليمين ثم قدم البيان الذي وجه فيه التهمة إلى اسكندر حربا بجريمة قتل ابن عمه، ميرا الصغير. حين قرأ العقيد شجاع تلك الوثيقة فكر، وهو في غاية التعجب: «انظر فقط أين ستودي بك بذاءة لغتك».

في تلك الأيام كان منزل الحاكم العسكري يبدو أشبه بميتم مما هو بمقر حكومة. وذلك لعجز غودنيوز عن إيقاف فيضان الأطفال السنوي المنبعث من حوضها. إذ كان سبعة وعشرون طفلاً تتراوح أعمارهم بين السنة والست سنوات يتناثرون هنا وهناك، بعضهم يسيل لعابه والبعض الآخر يتقيأ، يحبو، يرسم بأقلام الرصاص على الجدران، يلعب بالآجر، يزعق، يريق العصير، يستغرق في سبات عميق، يتدحرج على الدرج، يهشم المزهريات، يولول، يقهقه، يغني، يرقص، ينط، يبلل ثيابه، يحاول جذب الانتباه، يجرب اللغة البذيئة، يركل مربيته، يرفض تنظيف أسنانه، يشد لحية معلم الدين المنشغل بتعليمه الكتابة وقراءة القرآن، يمزق الستائر، يلوث المقاعد، يضيع، يجرح نفسه، يقاوم أبر التطعيم وزرقات الكزاز، يتضرع من أجل إعطائه حيواناً مدللاً ومن ثم

يفقد اهتمامه به، يسرق أجهزة المذياع، يظهر في الاجتماعات ذات المستوى العالي في مسكن المعتوهين ذاك. في تلك الأثناء كانت غودنيوز قد توسعت مرة ثانية وقد غدت كبيرة إلى درجة بدت معها وكأنها ابتلعت حوتاً. كان الجميع يعلمون بضرب من اليقين المخيف أن التقدم مطرد وأنها هذه المرة لن تلد أقل من ثمانية توائم دفعة واحدة وأن العدد في السنة التالية سيكون تسعة وبعد ذلك عشرة وهلم جرّاً إلى أن تكون في عيد ميلادها الثلاثين قد ولدت ما لا يقل عن سبعة وسبعين طفلاً، فليستر الله من الأعظم. لو أن رضا وتلفار لم يكونا منهمكين بأمور أخرى ربما كان من المعقول أن يخمن ما سوف تفعله. لكن ما من أحد منهما كان سيوقفها بأي حال من الأحوال، رغم أن ضغط الأطفال كان قد بدأ يشوش كل من يعيش وسط ذلك الضجيج الذي تصنعه أعدادهم الكبيرة.

أوه، هو ذا تلفار الحق: فأي قلق واضطراب! أي التباسات تحوم حول رئيس قوى الأمن الاتحادي ذي العنق المتيبسة! هو صهر حيدر واليد اليمنى للسيد حربا... بعد سقوط اسكندر حربا، تعرض رضا حيدر لضغط شديد كي يفعل شيئاً بخصوص صهره، فقوى الأمن الاتحادية لم تكن المؤسسة التي يحبها الشعب، ولم يكن لدى رضا من خيار سوى أن يحلها. لكن ظلت هناك أصوات تطالب برأس تلفار. لذا أحسن لاعب البولو السابق صنعاً حين اختار تلك اللحظة لكي يبرهن على أنه يعني كل حرف من اليمين التي أقسمها ذات يوم في أن يكون صهراً كاملاً. وهكذا سلم رضا حيدر ملف المباحث التفصيلي السري المتعلق بقتل مير حربا. ذلك الملف الذي كان واضحاً فيه أن هارون حربا وبدافع حقده القديم على أبيه هو الذي ارتكب الجرم، وأن عبقرية الشر الكامنة خلف العملية كلها من تخطيط وتنفيذ ليس سوى عبقرية رئيس الجبهة الشعبية الذي كان قد غمغم بكثير من الصبر ذات يوم متوعداً ابن عمه: «أنا وأنت والزمن طويل».

«ثمة دليل على أنه أساء استخدام الأموال العامة بتطويره السياحة لمنفعته الخاصة في آنسو» هذا ما أوجزه رضا حيدر للجنرال طقلق «لكن تهمة القتل هذه أفضل بكثير. فهي ستجهز عليه إجهازاً تاماً».

لقد غيرت عملية الخيانة التي ارتكبها تلفار الحق كي يعرف عن ولائه لحميه الجنرال كل شيء. فقد حرمت الجبهة الشعبية من دخول الانتخابات، كما أدت إلى إرجاء الانتخابات مرة أولى ثم ثانية، ثم وضعت على الرف، وفي النهاية ألغيت. في تلك المرحلة اكتسب اسم الحاكم العسكري معنى جديداً. فقد بدأ الناس يقولون إن الأحرف الأولى التي تدل على لقبه إنما تعني «إلغاء إعلاني الأخير».

لكن ذكرى اليد اليمنى وهي تقسم على القرآن الكريم أبت أن تمحى من الأذهان.

نقل الرئيس اسكندر حربا من مقر الاستراحة في باغيرا غالي إلى سجن كوت لاخبات في لاهور، وأعطيت التعليمات بأن يبقى هناك في زنزانة انفرادية، حيث عانى من مرض البرداء والتهابات القولون، وكذلك من هجمات الانفلونزا الحادة. كما بدأت أسنانه تتساقط علاوة على أنه بدأ يفقد وزنه بطريقة أو بأخرى (وقد ذكرنا أن عمر الخيام شاكيل، رفيقه القديم في الأعمال الشيطانية، كان هو الآخر يفقد وزنه في هذه المرحلة، وذلك بتأثير المربية الفارسية، ذلك التأثير السليم من كل مرض).

في المحكمة العليا في لاهور وأمام خمسة من القضاة البنجابيين جرت المحاكمة، رغم أن حربا كان ينحدر، كما ينبغي أن نتذكر، من سلالة موهينجو الإقطاعية في السند. لقد كانت شهادة الرئيس السابق لقوى الأمن الاتحادية هي المحور الأساسي في قضية الادعاء، فدافع اسكندر حربا عن نفسه متهماً تلفار الحق باختلاق الدليل لإنقاذ نفسه هو. وعند نقطة من النقاط استخدم اسكندر عبارة «يا للعنة» فجاءه تعنيف على استخدام تلك اللغة البذيئة في المحكمة، إذ ذاك اعتذر بقوله: «آسف،

حالتي الذهنية ليست حسنة» فأجاب رئيس المحكمة: «هذا لا يعنينا» الأمر الذي جعل مزاج اسكندر ينقلب فصرخ: «حسبي إهانة وإذلالاً». فأصدر رئيس المحكمة أوامره لضباط الشرطة: «ابعدوا ذلك الرجل إلى أن يعود إلى صوابه»، فيما أضاف قاضٍ آخر الملاحظة التالية: «ليس باستطاعتنا تحمل هذا. إنه يتصرف وكأنه رئيس وزراء، لكننا لا نبالي به قيد شعرة»، وكل هذا مسجل في السجلات.

في نهاية المحاكمة التي دامت ستة أشهر، حكم على اسكندر حربا حضورياً وعلى هارون حربا غيابياً بالإعدام شنقاً حتى الموت. وفي الحال نقل اسكندر إلى زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام في سجن كوتن لاخبات. ثم منح سبعة أيام بدل الثلاثين المعروفة، لتقديم طلب استئناف. لكن اسكندر أعلن: «حيث لا توجد عدالة، لا جدوى من البحث عنها. لا، لن أستأنف».

في تلك الليلة وجدت البيجوم غودنيوز في مخدعها في مسكن آل حيدر وقد شنقت نفسها حتى الموت. على الأرض، تحت قدميها المتدليتين كان يرتمي الحبل المتبقي عن محاولتها الأولى، وقد قصمه وزنها الهائل لما تحمله في أحشائها. لكنها لم تكن قد تشوهت، فشعرها يعبق بالياسمين كما تفوح الغرفة بعطر «جولي» مصنوعات جان باتو، أغلى عطر في العالم، ذاك الذي تم استيراده من فرنسا لإخفاء رائحة جوفها الذي انفتح لدى الموت. كذلك علقت ورقة الانتحار بثوبها عند الجذع، وفيها إشارة إلى هلعها من المتوالية الحسابية لعدد الأطفال الذين تنجبهم كل مرة. لكنها لم تأت البتة على ذكر زوجها تلفار الحق الذي لن يقدم إلى المحاكمة بأية تهمة كانت.

في جنازة نفيد تلفار، ظلت عينا رضا حيدر معلقتين بالطيف الغامض والغريب لزوجته بلقيس المجلببة بملاءتها السوداء، فقد تذكر فجأة كيف وقع عليها أول مرة في تلك القلعة النائية المزدحمة باللاجئين وكيف كانت عارية تماماً مثلما هي مجلببة الآن بالسواد، فرأى تاريخها

على شكل تراجع بطيء من ذلك العري الأول إلى هذا الاختفاء الكامل خلف أسرار الحجاب. فغمغم قائلاً: «أي، بلقيس، ما الذي حدث لنا؟».

فأجابت بصوت عال كثيراً «تود أن تشعر بالندم، إذاً فاندم على الحياة التي ضاعت والتي تتحمل كل اللوم عليها. عار، عار، عار فاضح». عندها أدرك أنها لم تعد الفتاة الوضاءة التي وقع في غرامها، هناك في ذلك العالم الآخر، بل هي امرأة ضاع صوابها، لذلك أمر العقيد شجاع بأن يرافقها إلى المنزل قبل اكتمال مراسم الجنازة.

أحياناً، يحسب أن الجدران تنبض نبضاً ما، إن الإسمنت المبقع بالماء يصدر تكتكة، عند ذاك يعمد لإغماض عينيه الثقيلتين كدرعين حديديتين، عله يتمكن من تحديد هويته تماماً. وفي حمى تلك الظلمة العمياء يقول وكأنه يسرد قصة: أنا، اسكندر حربا، رئيس الوزراء، زعيم الجبهة الشعبية، زوج راني، والد آرجوماند، المحب المخلص سابقاً لـ. . . لكنه ينسى اسمها فيقسر أجفانه على الانفتاح، ولكي يفعل ذلك يستخدم أصابعه، فيشعر أن الجدران لا تزال تنبض وتنبض. الصراصير التي تزيحها الحركة من مكانها تتساقط على رأسه، طولها ثلاث بوصات، وحين ينفضها عن ثيابه إلى الأرض يضطر لأن يسحقها بكعبيه الحافيتين، فتفرقع كما تفرقع قشور بذور الصنوبر على الإسمنت. وفي أذنيه دوي كدوي الطبول.

ما هو شكل الموت؟ زنزانة المحكومين بالإعدام طولها عشر أقدام، وعرضها سبع، ارتفاعها ثمانٍ، اثنان وستون فاصل اثنين من الياردات المكعبة الحاسمة التي تقبع وراءها ساحة ما وسيجار أخير ثم سكون.
سأصر على روميو وجولييت، فتلك القصة تنتهي أيضاً بالموت. . . .
إنهم يدعون هذه الزنزانة سجناً انفرادياً، لكن اسكندر ليس وحيداً، فهناك ذباب يزني بأصابع قدميه وبعوض يشرب من برك رسغيه، مستفيداً من الدم قبل أن يذهب كله هدراً. وفي الممر أربعة حراس أيضاً: أي

باختصار، ثمة الكثير من الرفاق. كما أنهم يسمحون لمحاميه بزيارته أحياناً.

عبر الباب المصنوع من القضبان الحديد تأتي رائحة المراحيض النتنة. في الشتاء يرتجف برداً لكن برودته الشديدة تكسر حدة تلك الرائحة الكريهة. أما في الصيف الحار فإنهم لا يشغلون مراوح السقف وبذلك تبقبق الروائح وتفور. حاشرة أصابعها العفنة في أنفه، جاعلة عينيه تنتآن من محجريهما رغم أن مجاريه الدمعية باتت بلا دموع. إنه يضرب عن الطعام وحين يغدو أوهى جسماً من أن يستطيع الحراك يعلقون بطانية على باب المرحاض ويشغلون المروحة. لكن حين يطالب بشربة ماء يأتون إليه بماء يغلي من شدة الحرارة، فيضطر لأن ينتظر ساعات كثيرة عسى أن يبرد لكي يشربه.

آلام في الصدر. إنه يتقيأ دوماً، كما يصاب بالرعاف أيضاً.

سنتان من السقوط إلى الشنق، سنتان قضاهما بكاملهما تقريباً في حيز الموت المغلق، في كوت لاخبات أولاً، ثم في سجن المقاطعة الذي كان باستطاعته، لو أن لديه نافذة، أن يرى صرح مجده السابق منه. حين نقلوه من زنزانته الأولى إلى زنزانته الثانية، تكونت لديه قناعة ذاهلة بأنه رغم مروره بتجربة وضع الرأس في الكيس وحركات الدفع إلى الأمام، ومشاعر الانتقال والطيران، إلا أن كل ما فعلوه لم يكن يتعدى محاولة تضييق وأنهم أعادوه إلى نقطة البدء التي انطلق منها، أو نقطة الانتهاء. فالزنزانتان كانتا متشابهتين إلى درجة لم يصدق معها أنه نقل إلى العاصمة إلى أن سمحوا لمحاميه بإخباره بذلك.

إنهم يقيدونه بالأصفاد والسلاسل، يوثقونه إلى ساعة الحائط. وحين ينقلب في نومه على نحو مفاجئ تنغرس الأصفاد المعدنية في كاحليه. ساعة واحدة في النهار يريحونه من الأصفاد فيتغوط ويتمشى، لتعاد مرة ثانية. مع ذلك يقول لمحاميه «معنوياتي عالية، فأنا لست مصنوعاً من خشب سهل الاحتراق».

زنزانة الموت، محتوياتها، أبعادها، إنه يركز ذهنه على كل ما هو ملموس محسوس، هناك الذباب، البعوض، الصراصير، هذه كلها صديقاته. إنه يعدها، كما يمكنه لمسها أو سحقها أو حملها بيديه. هذه القضبان الحديد تحكم الطوق حوله، من واحد إلى ستة . هذا الفراش، كيس ـ البراغيث، الذي أعطوه إياه بعد نضال خمسة أشهر. وكان ذلك نصراً، ربما نصره الأخير. هذه السلاسل، ذلك الوعاء المليء بماء أشد حرارة من أن يلمس. هنا يقصدون شيئاً ما. فزنزانة الموت تمسك بمفتاح سر الموت لكن ما من أحد خربش كلمة، رمزاً، على أي جدار.

لو كان الأمر حلماً، وفي بعض الأحيان، وبتأثير هجير أيامه، يحسب أنه حلم، إذاً لا بد أن يكون الحالم (وهو يعلم ذلك) شخصاً آخر، أما هو فلا بد أن يكون داخل الحلم، وإلا ما كان بمستطاعه أن يلمس حشرات الحلم، ما كان ماء ـ الحلم ليحرقه. . . لا بد أن أحداً ما يحلم به. الله، إذن؟ لا، ليس الله. إنه يجهد نفسه كي يتذكر وجه رضا حيدر.

قبل الخاتمة يبزغ نور الفهم. لقد جاء، هو اسكندر حربا، بالجنرال رضا من أحد المجاهل إلى العالم. ذلك الجنرال الذي تشكل هذه الزنزانة أحد جوانبه الصغيرة. إنه الجنرال، الكلي ـ الوجود، الملتهم كل شيء: إنها زنزانة داخل رأسه. الموت والجنرال: اسكندر لا يرى فرقاً بين الكلمتين. من الظلمة إلى النور، من العدم إلى التشيؤ. أنا الذي صنعه، أنا والده، هو بذرتي. والآن ها آنذا دونه. إنهم يتهمون هارون بقتل أبيه وذلك ما يفعله حيدر بي.

بعدئذ، تنقله خطوة أخرى يخطوها إلى ما وراء نقطة الإيلام البسيطة هذه: الأب هو الأسمى والابن هو الأدنى. لكنني الآن في الحضيض وهو في الذروة. انقلاب تام: يصبح فيه الوالد ولداً. إنه يحولني إلى ولد من أولاده. يجعل مني ابنه ذاك الذي خرج من رحم أمه ميتاً

والأنشوطة حول عنقه. **تلك الأنشوطة تمهر قدري بخاتمها**. إنه الآن يدرك معنى الزنزانة. الجدران النابضة، رائحة الغائط والبول، دقة قلب فاسد تلك التي تشبه دقة الطبل: إنه جوف للموت، رحم منقلبة، مرآة سوداء لمسقط رأس، هدفه أن يمتصه إلى الداخل، أن يسحبه إلى الوراء والأسفل عبر الزمان إلى أن يشنق الجنين، يخنقه بمياه الرحم ذاته، بحبل سرة ينشد محكماً حول عنقه. لن يترك هذا المكان إلا عندما تكون آليات العمل قد أنجزت عملها، طفل ميت، ينتقل عبر قناة الموت، والأنشوطة تحكم قبضتها على عنقه.

رجل ينتظر العمر بطوله كي ينتقم. قاتل اسكندر حربا ينتقم للطفل الجهيض أجل: أنا لم أكن قيد الوجود.

أقنع المحامون اسكندر حربا بأن يرفع طلب استئناف ضد حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة العليا، فاستمع للطلب سبعة قضاة يجلسون في محكمة النقض في العاصمة الجديدة. وحين جرى هذا الاستماع كان قد مضى على وجود الرجل في المعتقل سنة ونصف السنة، كما كانت ستمر ستة أشهر أخرى قبل أن يصل جسد رئيس الوزراء السابق إلى موهينجو برعاية تلفار الحق الذي كان، حينذاك، قد أعيد إلى منصبه في الأمن.

لم تكن الانتخابات قد أجريت، أما رضا حيدر فكان قد أصبح رئيساً للجمهورية، وكل هذا معروف جيداً.

وصفية زنوبيا؟

مرة أخرى ترجع الساعة إلى الوراء. إنه يوم الانتخابات، وهناك نيران كثيرة مشتعلة. رضا حيدر يذرو الرماد من نافذة سيارته المتحركة، اسكي حربا غير عارف بزنزانات الموت المخبأة له في المستقبل، وعمر الخيام شاكيل أسير رعب قاتل.

لقد تملك الخوف عمر الخيام شاكيل مذ طردت المربية الفارسية شهبانو من المنزل، ذلك أنه شاهد أطياف حياته القديمة أيام الصبا تظهر

من جديد، تسكنه هو الراشد الكبير. فقد تسبب ثانية في جعل فتاة فارسية تحبل، مرة ثانية كانت هنا أم ذات ولد بلا أب. وهكذا سيطرت عليه فكرة واحدة: لا مفر ولا منجاة، تلك الفكرة التفت حول رأسه التفاف منشفة ساخنة ثم شدت من إحكامها إلى درجة جعلت من المتعذر عليه أن يتنفس، علاوة على ذلك فقد كان بالغ التوتر إزاء ما قد يفعله الجنرال رضا بعد أن طرد المربية لارتكابها الزنى، ولم يكن بالإمكان إخفاء السر طويلاً عنه فآجلاً أم عاجلاً سيعلم من هو شريك شهبانو الذي كان يقوم بزيارتها كل ليلة.

إذاً، الواضح وضوح الشمس في رأد الضحى هو: ارتكاب خطيئة الخطايا، الخيانة الزوجية، وأين؟ تحت سقف والد الزوجة. إنها خيانة الخبز والملح.

لكن رضا حيدر كان قلقاً مضطرباً تماماً مثل عمر الخيام ولم يكن يفكر بالخبز والملح. فقد سيطرت عليه، بعد حرق الملاءة الملطخة بالدم، فكرة واحدة هي أن تلفار الحق ربما كان أفضل بقليل من أن يكون صهراً مثالياً. ترى أية عنق تحمل العضة؟ أي لاعب بولو انتهت حياته الرياضية بعملية انتقامية؟ من تراه، وبكل سرور، كان يتحين الفرصة، ينتظر الوقت المناسب للانتقام؟ «يا لي من أحمق» هاجم رضا نفسه «علي أن أجعلهم يحللون دمي. فلعله دم تيس ليس إلا، الآن ينتهي كل شيء إلى دخان».

يا لنفور أب من أن يقبل أن تكون ابنته وحشاً.. ينتهي كل شيء إلى دخان «الإيمان واليقين، الالتزام والواجب، المسؤولية». فكر رضا طويلاً في أحد الخيارات وهو أن ينسى القضية برمتها... لكن في تلك الليلة بالذات زاره طيف مولانا داود، فرأى في حلمه رجل الدين الميت وهو يصيح أنه على وشك أن يعتقد أن شيطاناً رجيماً دخل ابنته، وأن الأمر كله مجرد اختبار لإيمانه، اختبار يود الله سبحانه وتعالى منه أن يمر به، وليته يختار ما يعنيه فعلاً: حياة ابنته أم الحب الأبدي للإله، بعدئذ

أضاف مولانا داود، الذي بدا من الواضح أنه ازداد هرماً بعد وفاته، غدا أكثر تداعياً من ذي قبل، إذ قال إن كان هناك أية مساعدة يمكنه أن يقدمها لحيدر فهي تأكيده على أن حالة صفية زنوبيا لن تتحسن بل ستتفاقم سوءاً وأنها في النهاية ستقضي بكل تأكيد على سمعة رضا وحياته المسلكية. أفاق رضا حيدر من نومه فانفجر باكياً، ذلك أن الحلم كان قد بين له طبيعته الحقيقية، أي طبيعة الرجل المستعد للتضحية بكل شيء، التضحية حتى بابنه في سبيل مرضاة الله. بعدئذ مسح دموعه وهو يقول لنفسه «تذكر سيدنا إبراهيم، يا رجل».

إذاً كان كل من حيدر وشاكيل منكوباً ذلك الصباح بإحساس قاتم هو أنه بات عاجزاً عن السيطرة على حياته، إحساس خانق بوجود القدر المحتوم... فأيقن رضا أن لا خيار أمامه سوى التحدث مع زوج ابنته صفية. «لا تبال بتلك الحماقة التي ارتكبها مع المربية، فالأمر بالغ الخطورة، ومن حق الرجل أن يعرف».

حين قدم مساعد الجنرال نفسه إلى عمر الخيام شاكيل ثم قال بصوت ملؤه الأسى والحيرة والارتباك إن رئيس الأركان يريد من الطبيب أن يذهب معه في رحلة صيد سمك صغيرة، بدأ عمر الخيام يرتعش حتى أخمص قدميه. ما تراه ذلك الأمر الهام الذي يجعل حيدر يقضي النهار معه بينما تتفجر المدينة بالمفرقعات النارية عقب الانتخابات؟ فجاءه الجواب سريعاً «فعلتها المربية بي.... هذه هي المسألة ولا شك». وهكذا ظل طوال الطريق إلى باغيرا غالي خائفاً خوفاً منعه من فتح فمه.

أخبره رضا حيدر أنهم في طريقهم إلى جدول يشتهر كثيراً بجمال الغابات المحيطة بالسفوح المجاورة له وكذلك بأسطورة تقول إن مياهه مسكونة بشبح يكره السمك، شبح شرس إلى درجة تفضل معها أسماك الترويد المكتنزة الكثيرة التي تمر من هناك أن تلقي بنفسها على صنارات الصيادين، مهما يكن جهلهم بصيد السمك كبيراً، على البقاء في الماء. لكن في ذلك اليوم، لا رضا ولا عمر الخيام أفلحا في اصطياد سمكة

واحدة. أسباب رفض سمك الترويد: ترى لماذا لم يأكل السمك الطعم؟ ما الذي جعل الرجلين المتميزين أقل استقطاباً من السمكة ـ الشبح؟ إنني أقدم هنا تفسيري (السمكي تماماً) وهو أنهما عجزا عن دخول مخيلة أية سمكة ترويد. فالسمكة تبحث في صناعة الصيد عن نوع من الثقة، والصنارة توصل حتميتها إلى شفتي السمكة. أي أن صيد السمكة معركة ذكاء، أفكار صيادي السمك تنتقل مع قضبان الصنارات وخيوطها لتكون موضع تقديس من قبل المخلوقات ذات الزعانف. وبهذه المناسبة من يجد مياهاً مسكونة أسهل هضماً من أفكار منحدرة بشعة... حسناً تقول السمكة أقبل، لا أقبل لكن الحقائق حقائق. وهكذا انقضى يوم كامل وهما يخوضان في المياه ثم عادا في نهاية المطاف وسلالهما خاوية. فقد أصدر السمك حكمه على الرجلين.

رجلان في الماء يناقشان أموراً غير معقولة. بينما كل ما حولهما من طيور وأشجار صنوبر وفراشات أضفت على كلماتهما لا معقولية غريبة.. فرضا حيدر العاجز عن البوح بخططه الانتقامية السرية، يرى أنه وضع مصيره بين يدي رجل قام هو بقتل أخيه. أوه، يا للريبة بالأصهار!!! الشك والكآبة يحومان حول رأس حيدر فيبتعد السمك مذعوراً.

لكن حتى لو صدق اسكندر حربا، وهو في زنزانة الموت، أن الإنسان ينتظر عمراً بطوله من أجل لحظة انتقام ـ حتى لو صدق ذلك فإنني مضطر لأن أعرض من جديد ذلك الاحتمال اللعين نظراً لأن رضا حيدر كان قد وضعه في ذهنه ـ إنني ببساطة عاجز عن دفع نفسي لأن أرى بطلنا خطراً كامناً ينتظر لحظته المناسبة في مأساة انتقام. وقد اعترفت بأن هاجسه بشأن صفية زنوبيا ربما كان صادقاً ما عدا ذلك، بل بسبب ذلك فإنني ألتزم الحذر، لقد مر زمن طويل دون أي تلميح من عمر الخيام على أن عملاً رهيباً من أعمال الانتقام على وشك الحدوث، إذ يخيل إلي أنه سبق وأن اختار، اختار آل حيدر، رافضاً تكوين الأسرة، وأن عمر الخيام الزوج، عمر الصهر، كان منذ زمن طويل قد غاب في

ظلال عمر ـ الأخ، نادباً حظه على الذرية التي لن يراها، منتظراً فرصته ـ لكن من الأمور المتعبة أن تكون الرؤية لدى شخصيات الكاتب أقل وضوحاً من رؤيته هو، رغم أنه يقف في صف الكاتب هنا أمهاته الثلاث ـ أما رضا فإنه عاجز عن أخذ همومه مأخذ الجد، ذلك أنه كان قد انتهى من إخبار عمر الخيام بكل شيء، الغلمان الذين جزت رؤوسهم، آثار المني، الملاءة، ولو لم يخبره في ذلك اليوم، إذاً ما كان سيخبره في أي يوم على الإطلاق.

رجلان في جدول سريع الجريان وفوق رأسيهما غيوم مرعدة مبرقة، غيوم لا تراها عين الإنسان بل عيون السمك فتخيفها. بدأت مثانة عمر الخيام تؤلمه لشدة خوفه، فقد حل خوفه من صفية زنوبيا محل خوفه من رضا حيدر، بعد أن أيقن أن هذا غض النظر عن قضية شهبانو، كذلك كان هناك خوف ثالث أيضاً، إنه الخوف مما اقترحه رضا حيدر.

لقد مر رضا حيدر على ذكر التضحية التي قام بها أبونا إبراهيم. حقنة قاتلة بلا ألم. ذكرها رضا والدموع تجري في عينيه ثم تسقط في الماء فتشبط ملوحتها عزيمة السمك المتخوف منها أصلاً أكثر وأكثر. لقد قال حيدر: «أنت طبيبها وزوجها أيضاً، وإنني أترك الأمر لك».

تأثير العقل في المادة. ففي غيبوبة التنويم المغناطيسي يمكن للمنوّم مغناطيسياً أن يكتسب، على ما يبدو، قوة خارقة لا يعرفها البشر. فهو لا يشعر بالألم كما أن الذراعين تصبحان أشد قوة من قضيبَي حديد والقدمين أسرع من الريح. أمور خارقة للعادة. وبإمكان صفية زنوبيا أن تدخل حالة كهذه بلا مساعدة خارجية. لكن، لعل بالإمكان تحقيق الشفاء بتأثير التنويم المغناطيسي؟ وذلك بتحديد منابع السخط ومعرفة مواقعها ومن ثم صرفها وتجفيفها... يكتشف السبب الأساسي لغضبها فيعالج. ولا يغيبنّ عن بالنا أن عمر الخيام شاكيل رجل طب لامع، كما أن التحدي المهني هو الذي قاده إلى صفية زنوبيا قبل سنوات. لقد انبعث ذلك التحدي القديم في نفسه من جديد. رضا وعمر الخيام:

كلاهما يشعر بأنه موضع اختبار، أحدهما يختبره الله والآخر يختبره العلم. ومن المألوف بالنسبة إلى الذكور من الجنس البشري أنهم غالباً ما يعجزون عن مقاومة دخول اختبار، مواجهة تحد، فقال عمر الخيام «سأراقبها عن كثب، ثمة إمكانية لمعالجتها».

لا أحد يحرك ساكناً وذلك، لسبب واحد لا غير. ترى أليس من المعقول أن عمر الخيام، ذاك الذي أمضى عمراً طويلاً لا يشعر بالخجل، قد صيرته شجاعاً لمعة من خجل؟ أليس من المعقول أن شعوره بالذنب في قضية شهبانو جعله يقول «ثمة إمكانية لمعالجتها» وبذلك واجه أشد أخطار حياته؟ لكن ما لا يمكن نكرانه، ما لا أحاول أن أنكره هو أن شجاعته كانت بادية. والشجاعة أندر من الشر، بالنتيجة. إنها الشرف حيث ينبغي أن يكون.

لكن أية حيرة اكتسحت رضا حيدر. . فالرجل الذي قرر أن يتخلص من ابنته لأسباب دينية لا يسره كثيراً أن يقال له: «لقد تسرعت» وهكذا قال الجنرال حيدر لصهره:

«إنك لأحمق: فرأسك الغبي هذا هو الذي سيجز إذا ما تحرك شيطانها مرة ثانية».

لكن دعنا نصل إلى بيت القصيد. ظل عمر الخيام طيلة أيام عدة يراقب صفية في المنزل، يلعب مع الأطفال الذين لا عد لهم، يقفز هنا وهناك من أجلهم، يقشر حبّات الصنوبر، وكان باستطاعته أن يرى أن حالتها تسوء، فتلك المرة هي المرة الأولى التي تفجر فيها العنف دون أن يترك آثاراً، لا إصابة مناعية ولا غيبوبة سباتية. «لقد أدمنت عليه» فكر الطبيب مذعوراً «وهذا قد يحدث مرة ثانية في أية لحظة، وهناك الأطفال». أجل، لقد رأى الخطر بأم عينه، هو الذي كان يبحث عنه رأى رعشاته في عينيها، رأى لمعات صغيرة من ضوء أصفر تأتي وتذهب فيهما. بعناية شديدة كان يراقبها إلى درجة رأى معها ما افتقدته العينان الظاهرتان، رأى أن أطراف صفية زنوبيا بدأت تقلق وتضطرب، كما لو

أن هناك كائنين يشغلان ذلك الحيز الفضائي، يتنافسان عليه، كيانين لهما الشكل ذاته لكن فطرتيهما متضادتان كل التضاد. من نقط الضوء المرتعشة بدأ عمر الخيام يدرك أن العلم ليس كافياً وأنه حتى لو رفض فكرة الجن والشياطين كأسلوب لإنكار مسؤولية البشر عن أعمال من صنع البشر، حتى ولو أن فكرة الإله لم تكن تعني له كثيراً، فإن منطقه كان ما يزال عاجزاً عن مسح الدليل الذي تقدمه تانك العينان، عاجزاً عن التعامي عن ذلك الوهج غير الأرضي، وهج نار الوحش المشتعلة اشتعالاً بطيئاً. وحول صفية زنوبيا كان ثمة أبناء وبنات أختها يلعبون.

«الآن أو أبداً» فكر الطبيب ثم خاطبها بأسلوب زوج قديم الطراز «أيتها الزوجة، من فضلك رافقيني إلى جناحي» فنهضت صفية ثم تبعته دون أن تنبس ببنت شفة، ذلك أن الوحش لم يكن قد استيقظ بعد، لكن ما إن صارا هناك حتى ارتكبا خطأ فادحاً إذ أمرها بالاستلقاء على السرير دون أن يشرح لها أنه لا ينوي إرغامها على أداء حقه الزوجي، أو حتى المطالبة بذلك، وبالطبع أساءت صفية فهم غايته وبدأ كل شيء في الحال، بدأ اللهب الأصفر يتوهج في عينيها، فوثبت عن السرير ثم انقضت عليه بيدين أشبه بكلابتين.

فغر الطبيب فاه هاماً بالصراخ، غير أن مظهرها أفرغ رئتيه من الأنفاس فأخذ يحملق بعينيها، فوهتي الجحيم، وقد انفتح فمه على أقصى اتساع كفم سمكة تختنق. بعدئذ سقط على الأرض ثم شرع يتدحرج زائغاً متملصاً منها، وقد تشكلت فقاعات أرجوانية على لسانها الناتئ إلى الخارج. لكن، كان ثمة صراع، صراع بين صفية زنوبيا والوحش فما بقي من تلك الفتاة المسكينة كان قد ألقى بنفسه على المخلوق المرتمي تحته وكانت الزوجة تحمي بشكل من الأشكال زوجها من نفسها. وإليكم الكيفية التي حدث بها أن حدق عمر الخيام إلى عيني وحش العار ذاك فنجا من الموت، إذ رغم أن ذلك اللهب الوحشي كان قد شله تماماً، إلا أن ما بقي من صفية البريئة المسكينة استطاع أن يكتمه

برهة من الزمن كانت كافية لكسر الطلسم، وبذلك استطاع الطبيب أن يتخلص من قبضته. كانت الفتاة تلقي بنفسها هنا وهناك على الأرض بعنف شديد راح يحطم إطار سريره كلما اصطدمت به. أثناء ذلك استطاع عمر أن يتوصل إلى حقيبته الطبية، فأخذت أصابعه تبحث عن إبرة الحقن والمسكن وفي آخر لحظة من صراخ صفية، حين طغت عليها، ولعشر من أعشار الثانية، الهيئة الهادئة لطفلة نائمة، أي تماماً قبل الهجوم النهائي للوحش، ذلك الهجوم الذي كان سيدمر صفية زنوبيا شاكيل إلى الأبد، أقول في تلك اللحظة بالذات غرس عمر الخيام الإبرة دون أن يستعمل المخدر الموضعي، غرسها عميقاً في كفلها وضغط الحاقنة، فاستسلمت الفتاة على الفور لحالة من فقدان الوعي مطلقة آهة عميقة.

وكان ثمة علّيّة (فالبيت صممه معماريون إنكليز) وهكذا، تحت جنح الظلام، وحين رقد الخدم تماماً، حمل رضا حيدر وعمر الخيام جسم صفية زنوبيا المخدر على السلم المؤدي إلى العلية. بل ومن المحتمل (إذ من المتعذر رؤية شيء في عتمة السلم) أنهما لفاها بسجادة.

كان عمر الخيام قد رفض إعطاءها الحقنة القاتلة غير المؤلمة. **لن أقتلها، أولاً لأنها أنقذت حياتي وثانياً لأنني أنقذت حياتها ذات مرة.** لكنه لم يعد يؤمن بإمكانية المعالجة، فقد رأى العينين الذهبيتين لأقوى منوم مغناطيسي على وجه الأرض. لا قتل ولا شفاء... وهكذا اتفق حيدر وشاكيل على إبقاء صفية زنوبيا في حالة من فقدان الوعي حتى إشعار آخر. كان عليها أن تدخل حالة من الحياة المعلقة، فقد جاء حيدر بسلاسل طويلة أحكم بها وثاق الفتاة إلى عضائد العلية، وفي الليالي التي أعقبت تلك الليلة، سد الرجلان بالآجر شباك العلية ثم ثبتا مزاليج ضخمة على الباب، وبات من واجب عمر أن يذهب، في غفلة من الأعين، مرتين كل أربع وعشرين ساعة إلى تلك الغرفة المعتمة، ذلك الصدى لزنازن موت أخرى، كي يزرق جسم الفتاة الضئيل المتمدد على سجادته

الرقيقة بمصول الغذاء وفقدان الوعي ولكي يعطيها العقاقير التي تحولها من قصة خرافية إلى أخرى، إلى الجميلة النائمة والوحش. «هل ثمة خيار آخر؟» قال حيدر بضرب من القنوط «فأنا أيضاً لا أستطيع قتلها، ألا ترى ذلك؟».

لكن كان لا بد من إخبار العائلة، كيلا تظل يد واحدة نظيفة، كي يصبح الجميع شركاء في قضية صفية زنوبيا ويحفظ السر. . . . «المعجزة ـ الخطأ» ولت، اختفت عن الأنظار. . . . نفخة ريح. . أو شيء من هذا القبيل.

حين أُعلِن أن محكمة النقض أقرت حكم الإعدام بغالبية أربع ضد ثلاثة، قال المحامون لاسكندر حربا: العفو مضمون: كما قالوا له «يستحيل أن يشنق رجل بغالبية كهذه. . . اطمئن» أما أحد القضاة الثلاثة الذين صوتوا إلى جانب تبرئته فقد قال: «الخير في ما ينتهي على خير» لكن السابقة القانونية، كما قيل لاسكندر، تقضي بأن يلزم رئيس الدولة جانب الرأفة إثر تصويت من هذا النوع، فقال اسكندر حربا لمحاميه: «سنرى» بعد ستة أشهر، كان اسكندر لا يزال في زنزانة الموت حين زاره العقيد شجاع ذو الوجه الأبدي ـ الاكتئاب ثم قال له: «لقد جئت لك بسيجار، ماركة روميو وجولييت، سيجارك المفضل على ما أظن». إذ ذاك خمن اسكندر، وهو يشعل ذلك السيجار أنه مائت لا محالة، فشرع يتلو صلواته بلغة عربية جميلة، لكن شجاعاً قاطعه: «عفواً، أنت مخطئ يا سيدي» ثم أصر على أنه جاء لسبب مغاير تماماً، وأن المطلوب من اسكندر حربا التوقيع على اعتراف كامل، حيث يمكن بعد ذلك النظر بقضية الرأفة. لدى سماعه هذا استجمع اسكي حربا آخر ما لديه من قوة صاباً وابلاً من السباب والشتائم على رأس الضابط الثاني الكئيب. لقد كان نوعاً من الانتحار. إذ لم يكن كلامه في لحظة من لحظات حياته أكثر حدة مما كان عليه تلك الساعة، كما أن بذاءة مفرداته كانت أشبه بخناجر في صدر شجاع تمزقه، تنغرز في صميمه، فأدرك شجاع ما عاناه

رضا حيدر قبل عامين من الزمن في باغير أغالي، كما أحس بالغضب يثور في داخله، إذ لم يكن بمستطاعه أن يتحمل ذلاً كهذا دون أن يسيطر عليه الغضب، لذا ما إن صرخ اسكندر حربا به «اللعنة عليك أيها القواد، اذهب فمص قضيب حفيدك» حتى أفلت زمام الأمر من يده، إذ لم يعد مهماً أن سن شجاع لم تكن كافية لأن يكون له حفيد، بل المهم أن ذلك يثير الحنق. وهكذا نهض شجاع على مهل، مصوباً مسدسه إلى قلب رئيس الوزراء السابق ثم أطلق النار.

فللوحش وجوه كثيرة، بعضها كئيب دائماً.

بعدئذ، وفي باحة سجن المنطقة، جرت عملية شنق في غيهب الليل. حينها صاح السجناء، هتفوا، دقوا الكؤوس لكنهم في النهاية أنشدوا مرثية اسكي، ومنذئذ لم تقع على الجلاد عين. لا تسألني ما حل به فليس من المنتظر أن أعرف كل شيء. لقد اختفى، نفخة هواء. . . .

بعد أن أنزل الجسد عن المشنقة، وطارت به الطائرة إلى موهينجو، مزقت راني ملاءة الموت عن وجهه لكنها لم تر الصدر، بعد ذلك بات المكفوف يبصر، والكسيح يمشي والأبرص يشفى عندما يلمس ضريح الشهيد، كما انتشرت أقوال أيضاً بأن لمسة ذلك الضريح علاج شاف تماماً لأوجاع الأسنان.

أما انتحار بينكي فلا داعي للخوض فيه مرة ثانية، لقد استقرت في قبرها، تلبثها الموت فلم ينتب شبحها أحداً قط.

تذكر الرئيس رضا حيدر، وهو في باحة السجن بجوار الجثة المدلاة من حبل المشنقة، ما قالته بلقيس ذات يوم: «إنهم يتساقطون مرحلة مرحلة كمراحل الصاروخ» فأطرق يفكر. داود ذهب إلى مكة، بلقيس وصفية غيبتهما الحجب، غودنيوز شنقت نفسها وها هو ذا إسكي يفتل حول حبله. فأحس رضا، هو الذي لا يثق بصهريه إنما تربطه بهما الضرورة، أحس بالخواء يحيط به من كل جهة. في تلك اللحظة، حين كان اسكندر حربا يتدلى من أنشوطة يغطي رأسه كيس أسود، سمع رضا

صوته يقول «لا بأس أيها العجوز. لكن من الصعب كثيراً التخلص مني. ذلك أن باستطاعتي أن أكون عنيداً وابن حرام حين أشاء».

وكان الصوت ذهبياً، واضحاً مثل رنة جرس، فصاح رضا حيدر مصدوماً: «الفاعل بأمه لم يمت...». لكن تلك البذاءة الخارجة من شفتيه أدهشت الجلاد الذي لم يكن قد اختفى بعد، وفي الحال طرق سمعه صوت اسكي الضاحك: «أوه، لا تكن سخيفاً. أنت تعلم ما يجري هنا».

يا لحوار رجل مشنوق لا يتوقف!!! ذلك أنه منذ الليلة التي غيبت اسكندر وحتى الصباح الذي غيبه هو، لم يفارقه ذلك الصوت الساخر الجاف المهدهد الذي ينصحه في هذه اللحظة بألا يطلق النار على مساعده، لأن ذلك سيكشف الحقيقة بالتأكيد، ينصحه بأن يغض الطرف عن مساعده الذي يشاكسه بقوله: «سيدي الرئيس، أمامك الكثير مما ينبغي أن تتعلمه عن إدارة العرض». كلمات اسكندر تقع على طبلة إذنه مثل تعذيبات صينية، إنه يسمعها حتى في نومه، ترافقها أحياناً أخرى تذكره بطيور التليار وربط نفسه بالوتد وفي مرات أخرى تعيّره، تناكده متسائلة، كم تحسب أنك ستدوم يا رضا، سنة، سنتين؟ لم يكن هناك صوت اسكندر وحسب، فقد رأينا من قبل الظهور الأول لشبح مولانا داود الذي عاد وجثم بصورة غير مرئية، على كتف الرئيس اليمنى، يهمس في أذنه كلاماً وكلاماً. الملائكة على كتفه اليمنى والأبالسة على اليسرى، تلك هي الحقيقة غير المرئية في ما يتعلق برئاسة ريزور العجوز للجمهورية. ذانك الحواران المتصارعان داخل جمجمته، يقطعان السنين معه وهما يسيران شمال ـ يمين، شمال ـ يمين، شمال ـ يمين.

في مسرحية «الانتحار» وهي بقلم كاتب روسي يدعى نيكولاي ايردمان، ثمة قول: «لا يستطيع إلا الموتى الإفصاح عما يفكر به الأحياء».

لكن ينبغي أن توازن ظهورات الموتى الجديدة اختفاءات الأحياء.

وهكذا غدا الجلاد: نفخة هواء... بنكي أورانجزيب مثله أيضاً لكن الأشد سوءاً أن عمر الخيام شاكيل اكتشف، ليلة شنق حربا، أن صفية زنوبيا، زوجته وابنة حيدر، قد اختفت هي الأخرى.

علية فارغة، سلاسل محطمة، عضائد متصدعة، وفي النافذة المسدودة بالآجر ثمة فجوة، فجوة مر بها رأس، ذراعان، رجلان، «ليكن في عوننا الله» قال عمر الخيام هو الذي لم يختن في صغره، ولم يحلق شعر رأسه ولم يذكر اسم الله عليه، فخرج قوله أشبه بدليل على ما يفكر به وهو أنه آن الأوان لأن يتولى الله سبحانه وتعالى زمام الأمور.

الفصل الثاني عشر

الاستقرار

بطل الثورة الفرنسية العظيم دانتون، ذاك الذي فقد رأسه إبان موجة الإرهاب يبدي ملاحظة حزينة إذ يقول: «روبسبيير والشعب فاضلان». دانتون في خشبة مسرح لندني، ليس هو بدانتون الحقيقي بل ممثل ينطق بما كتبه جورج بوهنر مترجماً إلى الإنكليزية. والزمن ليس زمن الثورة الفرنسية بل هو الوقت الحاضر. أنا لا أعلم إن كانت الفكرة ذات أصل فرنسي أم إنكليزي أم ألماني لكنني أعلم أنها تبدو خاوية إلى حد مدهش ـ إذ ما معنى أن **يكون الشعب مثل روبسبيير**؟ قد يكون دانتون بطل ثورة، لكنه هو أيضاً يحب النبيذ، الثياب الرقيقة، العاهرات، وهي نقاط الضعف التي سيراها جمهور المتفرجين في الحال والتي سيتمكن بواسطتها روبسبيير، ذلك الممثل الجيد ذو المعطف الأخضر، من إسقاطه، وحين يساق دانتون إلى زيارة الأرملة الحزينة، تلك المقصلة العجوز ذات السلة الملأى بالرؤوس، ويفصل رأسه على خشبة المسرح بصورة تثير العجب تماماً فإننا نعلم أن ذلك لم يكن لارتكابه أية جريمة سياسية حقيقية بل لأنه مغرم كثيراً باللهو.

الأبيقورية هي التي أطاحت به. فالناس مثل روبسبيير لا يثقون بمن يحب اللهو.

هذا التضاد ـ الأبيقورية ضد التطهرية ـ هو الجدلية الحقيقية للتاريخ، كما تقول لنا المسرحية. إذاً، لننس اليمين ـ اليسار، الرأسمالية

ـ الاشتراكية، الأبيض ـ الأسود. فالفضيلة مقابل الرذيلة، الزهد مقابل الفسق، الله مقابل الشيطان: تلكم هي اللعبة. فاخرجوا وامرحوا: أيها السيدات والسادة. تلك المسرحية شاهدتها في مسرح كبير، ثلثا مقاعده خالية، ذلك أن السياسة تفرغ المسارح في لندن القديمة. بعد ذلك، أبدى الجمهور الخارج من المسرح ملاحظات استياء. مشكلة المسرحية على ما يبدو، هي أنها تحكي الكثير عن دانتون اللاهي العابث لكنها لا تحكي ما فيه الكفاية عن روبسبيير الرصين الجلد. ولقد تذمر المتفرجون من عدم التوازن ذاك. «أعجبتني تلك الشخصية القذرة» قالت إحداهن فوافق صحبها على ما قالته. أما أنا فكنت بصحبة ثلاثة ضيوف من الباكستان أعجبتهم المسرحية كثيراً، فقد قالوا يغبطونني «هنيئاً لك يا صاح، كم أنت محظوظ أنك تعيش حيث يمكن تقديم أشياء كهذه». ثم رووا لي قصة آخر محاولة لعرض مسرحية يوليوس قيصر على مسرح جامعة في الباكستان. فعلى ما يبدو، قلقت السلطات هناك أشد القلق حين سمعت أن النص يدعو لاغتيال رئيس الدولة، والأنكى من ذلك أن الإخراج يلبس لبوساً عصرياً: فالجنرال قيصر سيكون ببزته الرسمية الكاملة حين تبدأ الخناجر عملها فيه، لذلك مورس ضغط شديد على السلطات المسؤولة في الجامعة لوقف إخراج المسرحية. لكن الأساتذة وقفوا وقفة شرف مدافعين عن كاتب قديم ذي اسم عسكري نوعاً ما ضد هجوم الجنرالات هذا. ولإيجاد مخرج، اقترحت الرقابة العسكرية، بعد أخذ ورد، صيغة التسوية التالية: أن توافق الجامعة على إخراج المسرحية كما كتبت تماماً، باستثناء مشهد القتل غير المستساغ ذاك؟ فمن المؤكد أن ذلك المشهد غير ضروري على الإطلاق؟ لكن، أخيراً، خرج المخرج بحل حكيم حكمة سليمان. فقد دعا ديبلوماسياً بريطانياً بارزاً للقيام بدور قيصر وهو يرتدي ملابس الإمبريالية (البريطانية) فاسترخت أعصاب الجيش وافتتحت المسرحية وحين أسدلت ستارة الليلة الأولى، وأضيء المسرح كشفت الأنوار عن صف أمامي مليء بالجنرالات وهم

يصفقون تصفيقاً حاراً تعبيراً عن فرحهم بهذا العمل الوطني الذي يصور كيف أطاحت حركة الحرية في روما بالإمبريالية.

أنا أصر على أنني لم أختلق هذا اختلاقاً.. وأن هذا يذكرني بزوجة.. ديبلوماسي بريطاني سبق أن ذكرتها، إذ يمكن أن تتساءل هنا: «لماذا لا يتخلص الناس في روما من الجنرال قيصر، بالطريقة المعتادة كما تعلم»؟

لكنني كنت أتحدث عن بوهنر. لقد أعجبنا أنا وأصدقائي «بموت دانتون» كثيراً. ففي عصر الخميني.. إلخ... بدا ذلك مناسباً وفي محله تماماً. لكن وجهة نظر دانتون (أو بوهنر)؟ عن الشعب أزعجتنا. فلو كان الشعب مثل روبسبيير: ترى، أنى لدانتون أن يصبح بطلاً يوماً من الأيام؟ لماذا قابله الناس بالهتافات في قاعة المحكمة؟

لقد قال أحد أصدقائي مجادلاً «النقطة الأساسية هي أن هذه المعارضة موجودة تماماً، إنما ما تزال جدلية داخلية». وكان لذلك القول معنى ما. فالشعب ليس مثل روبسبيير فقط. بل هو، نحن، مثل دانتون أيضاً. إننا روبستون ودانبيير: وعدم التجانس لا يهم، فأنا نفسي أعمل على اعتناق عدد كبير من وجهات نظر متباينة كل التباين وفي الآن نفسه، دون أن أجد في ذلك أقل صعوبة. ولا أحسب الآخرين أقل قدرة مني على التقلب.

لم يكن اسكندر حربا دانتون تماماً كما أن رضا حيدر لم يكن روبسبيير الطاهر ـ البسيط. فمما لا ريب فيه أن اسكندر عاش حياة مليئة بل لعله كان شكلاً من أشكال الأبيقورية لكنه كان يعتقد أيضاً أنه دائماً على صواب وعلى نحو لا يقبل النقاش. ولقد أرتنا الشالات الثمانية عشر أنه لم يكن عدواً للإرهاب هو الآخر. إن ما أصابه في زنزانته الخاصة بالمحكومين بالإعدام قد أصاب الآخرين بسببه. وذلك بالغ الأهمية (لكن إن كنا نهتم بالآخرين فعلينا أيضاً، ولسوء الحظ، أن نهتم باسكندر). لكن ماذا عن رضا حيدر؟ أمن المعقول أن نصدق أنه لم

يستمتع بما فعل، أن مبدأ المتعة لم يكن لديه قيد التطبيق، حتى وإن زعم أنه إنما فعل ذلك باسم الله؟ أنا لا أظن ذلك.

اسكي ورضا. إنهما أيضاً دانبيير وروبستون، وقد يكون في ذلك تفسير إنما لا يمكن بالطبع أن يكون فيه مبرر.

حين شاهد عمر الخيام شاكيل الفجوة التي صنعها جسم صفية زنوبيا في النافذة المسدودة بالآجر، خطرت له فكرة واحدة هي أن زوجته لاقت حتفها. لكن هذا لا يعني أنه توقع أن يجد جثتها على المرج المحيط بالمنزل بل إنه خمن أن الوحش داخلها، ذلك الشيء الحار، النار الصفراء، لا بد من أن يكون في تلك اللحظة قد استهلكها استهلاكاً تاماً كما تأتي نار مشتعلة على بيت، وبذلك فإن الفتاة التي حرمها قدرها من أن تكون كاملة تضاءلت أخيراً وتقلصت حتى درجة الاختفاء. أما ما فر منها، ما يجوب طليقاً في الفضاء الذي لا يعرف الريبة والشك، فليس هو بصفية شاكيل على الإطلاق بل هو شيء أشبه بالمبدأ، شيء يجسد العنف، إنه قوة الوحش الشريرة المطلقة.

«يا للعنة..» قال عمر لنفسه «العالم يسير في طريق الجنون».

ذات مرة كان ثمة زوجة يحقنها زوجها مرتين كل يوم بعقاقير تطرح أرضاً. طوال سنتين ظلت ممددة على السجادة أشبه ببطلة قصة خيالية لا يوقظها سوى قبلة أمير دمه أزرق، لكن القدر لم يكتب لها أن تحظى بمثل تلك القبلة فتبين أن طلسمها هو العقاقير، غير أن الوحش داخلها لم ينم، العنف الذي ولد من الشعور بالعار والذي بات في ذلك الحين يعيش حياته الخاصة تحت جلدها، لم يمت، بل كان يكافح السوائل المخدرة، يتمدد شيئاً فشيئاً في جسدها إلى أن بات يشغل كل خلية فيه، إلى أن صارت هي العنف ذاته، فلم يعد ثمة حاجة لما يطلقه، ذلك أن الحيوان المفترس ما إن يتذوق طعم الدم حتى يغدو من المحال أن تضحك عليه بشيء من النبات. وهكذا تغلب الوحش على المسكن آخر المطاف، ثم نهض بجسمه محطماً ما تبقى من سلاسل.

بندورا[1] يتملكها كل ما في علبتها من شرور.

نار صفراء خلف أجفانها المغمضة، نار تحت أظافرها، تحت بصيلات شعرها. نعم، كانت قد ماتت تماماً، أنا واثق من ذلك، إذ لم يعد هناك ذرة واحدة من صفية زنوبيا فقد أتى ذلك الجحيم على كل شيء فيها. الق بجسد على محرقة موتى ولسوف تجد أنه يتخبط، ينتفض، ينهض، يرقص، يبتسم، فالنار تشد أوتار الأعصاب في الجثة تلك التي تصبح دمية في يد النار تحمل وهماً مخيفاً عن الحياة وسط اللهب...

ذات مرة كان ثمة وحش. حين وثق من قوته، اختار لحظته وانطلق، مخترقاً جداراً من الآجر.

في غضون السنوات الأربع التالية، أي فترة رئاسة رضا حيدر للجمهورية، غدا عمر الخيام شاكيل عجوزاً هرماً. في البداية لم يلحظ أحد ذلك، إذ كان شعره قد شاب منذ سنتين، لكن ما إن بلغ الستين حتى أعلنت التمرد قدماه اللتان ظلتا طيلة حياتهما مضطرتين لحمل ثقله غير المعقول، ذلك أنه، إثر رحيل شهبانو المربية، وحرمانه من الشاي بالنعناع والتغذية الليلية التي كان إخلاصها يقدمها له، بدأ يكسب وزناً من جديد. وهكذا شرعت الأزرار تتقطّع من أماكنها على حزام البنطال، وبدأت قدماه الإضراب، فغدت خطاه تقطر ضنى وعناء حتى عندما يتكئ على العصا الخافية للسيف تلك التي ظل يحملها عبر السنين الطوال، بدءاً من ذلك اليوم الذي تحالف فيه على الفسق مع اسكندر حربا. كما شرع يقضي ساعات لا نهاية لها وهو جالس في كرسي خيزران في المكان الذي كان ذات يوم زنزانة صفية زنوبيا محدقاً بناظريه عبر النافذة التي احتفظت، على نحو خيالي إجمالي، بما خلفه شكل زوجته الراحلة من آثار في الآجر الأحمر.

---

(١) امرأة أرسلها إله الإغريق عقاباً للجنس البشري بعد أن سرق بروميثيوس النار وأعطاها علبة ما إن فتحتها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور.

لقد استقال من مستشفى جبل حراء وأرسل معظم راتبه التقاعدي إلى البيت العتيق في بدلة ك ذلك الذي كانت تسكنه ثلاث عجائز يأبين أن يمتن وذلك خلافاً لبرياما التي فعلت منذ زمن طويل ذلك الشيء الجميل وأسلمت الروح... أموال أخرى أرسلت إلى المربية الفارسية، أما عمر الخيام فقد عاش بهدوء تحت سقف رضا حيدر يقشر بذور الصنوبر بينما تطوف عيناه في الخارج عبر نافذة العلية على نحو تبدوان فيه وكأنهما تتابعان شخصاً ما، رغم أنه لم يكن ثمة أحد.

ولأنه كان يعرف جيداً النظرية القائلة بأن إمكانية التأثر بالتنويم المغناطيسي دليل على قدرة خيالية شديدة النمو ـ أي أن غيبوبة التنويم المغناطيسي شكل من أشكال الإبداع الداخلي، تعيد الخاضعة للتنويم المغناطيسي خلاله صياغة نفسها وعالمها وفق ما ترغب وتشتهي ـ فقد كان يفكر أحياناً أن تحول صفية زنوبيا لا بد وأنه مقصود إرادياً، ذلك أنه حتى المنومة المغناطيسية لذاتها لا تستطيع أن تطلب إلى نفسها أن تفعل ما هي غير راغبة في فعله. إذاً هي التي اختارت وهي التي صنعت الوحش... «في هذه الحالة»، يتابع عمر الخيام اجترار أفكاره وهو في كرسيه الخيزراني تملأ فمه بذور الصنوبر، «فإن حالتها تعتبر درساً محسوساً، إنها تبين مقدار الخطر الذي ينجم عن إطلاق العنان للخيال. فما حل بصفية زنوبيا من دمار إنما هو نتيجة لجموح خيال لا كابح له».

«ولسوف يجللني العار» يخاطب عمر الوقواق الجاثم على النافذة «فهنا اجلس ثم افعل ما أنهى عنه، ظاناً أن الله يعلم ما في رأسي منذ زمن طويل».

كذلك كان رضا حيدر يفكر: «لسوف يجللني العار» إذ رغم أن صفية زنوبيا ولت عنه الأدبار إلا أنها لم تكن تفارق خياله قط. فهي همه المقيم. ذلك الانفلات الشديد في عضلاتها، ذلك الانخلاع في مشيتها كان منذ حين من الزمن قد جعله يكف عن حبها. كان ينبغي أن تموت قبل أن أصبح... ذلك بالطبع لم يكن كافياً. وكان رأسه يتفجر

بأصوات: اسكي داود اسكي داود. من الصعب أن يفكر المرء على نحو مباشر... الآن سوف تتأثر. سوف تنتقم بشكل من الأشكال، وفي وقت من الأوقات سوف تصرعه أرضاً، إن لم يجدها قبل ذلك. لكن من عساه يرسل؟ بمن عساه يثق؟ «ابنتي التي عتهت إثر إصابتها بحمى دماغية، أصبحت مقصلة بشرية، بدأت تجز رؤوس الرجال. هذه صورتها. مطلوبة حية أو ميتة، مكافأة مجزية» لكن الآن مستحيل، ذلك غير مناسب.

آه، يا لعجز السلطة!! الرئيس يقنع نفسه بألا يكون غبياً، فهي لن تظل على قيد الحياة، بل لم تعد على قيد الحياة، إذ ما من أحد يسمع عنها شيئاً منذ حين من الزمن، وكما يقول المثل «لا أخبار، أحسن الأخبار» أم تراها ستظهر في مكان ما وحينذاك تطغى أخبارها على كل شيء. أفكاره مشغولة دائماً بصورة فتاة ضئيلة الجسم وجهها ينضح بقسوة شديدة، إنه يتهم... النبض يشتد في عروق صدغيه، اسكي وداود يهمسان ويتجادلان يمين يسار يمين، لكن قد تنتاب المرء أشباح الأحياء مثلما تنتابه الموتى، وفي عيني رضا تظهر نظرة وحشية.

بدأ الرئيس رضا حيدر، شأنه شأن عمر الخيام شاكيل، يقشر نوى الصنوبر، يأكل كميات كبيرة منها، إنه عمل صفية زنوبيا المفضل الذي كانت تقضي كل يوم ساعات طويلة وسعيدة فيه، تقشر نوى الصنوبر باستغراق شديد، ذلك أن تقشير نوى الصنوبر ضرب من الجنون، فأنت تنفق من الطاقة كي تحصل على ذلك الشيء التافه أكثر بكثير مما يعطيك حين تأكله.

«جنرال حيدر» يسأل مندوب التلفزيون الإنكليزي الرئيس رضا: «المصادر المطلعة ترى، المراقبون الوثيقو الصلة يزعمون، والكثير من أصحاب وجهات النظر لدينا في الغرب يقولون إنك تكره النقاش والجدل كثيراً. ترى هل لديك ما تقوله بصدد الزعم القائل إن إقامتك للحد الإسلامي مثل الجلد وقطع الأيدي قد ينظر إليها في بعض الجهات على

أنها، بحسب بعض المعايير، وبشكل من الأشكال، نوع من البربرية؟».

فيبتسم رضا حيدر للعدسة ابتسامة لطيفة مجاملة، ابتسامة رجل حسن التهذيب والسلوك، بالغ الذوق واللياقة، ثم يجيب «لا، ليست بربرية. والسبب؟ الحقيقة ثمة ثلاثة أسباب». ثم يفرد إصبعاً من أصابعه لكل سبب وهو يعدها مفسراً شارحاً: السبب رقم واحد هو أن القانون بحد ذاته، وأرجو أن تدرك ذلك، ليس بربرياً أو غير بربري. المهم هنا هو الإنسان الذي يطبق القانون، وفي هذه الحالة فإنني أنا رضا حيدر، من يطبق القانون، لذا لا يمكن، طبعاً، أن يكون بربرياً.

رقم اثنين، دعني أقل يا سيدي، أننا لسنا همجاً انحدروا من الغابات، ألا ترى ذلك؟ أي أننا بكل بساطة لن نأمر الناس أن يمدوا أيديهم هكذا ثم نهوي عليها بساطور جزار. كلا يا سيدي. كل شيء سيُجرى وفق أفضل الشروط الصحية، بإشراف طبي مناسب واستخدام العقاقير المخدرة.. إلخ.. إلخ..

لكن السبب الثالث والأهم يا عزيزي هو أننا لم نأت بمثل هذه القوانين من الهواء، بل هي كلام الله المنزل كما يتجلى ذلك في آيات القرآن الكريم، وإذا كانت كلام الله المنزل، إذاً لا يمكن أن تكون بربرية. ذلك غير معقول. بل لا بد من أن تكون شيئاً مغايراً تماماً.

لقد قرر رضا ألا ينتقل إلى مسكن رئيس الجمهورية في العاصمة الجديدة، لشعوره براحة أكبر في مقر رئيس الأركان، رغم صخب الحشود الحاشدة من الأطفال الذين فقدوا أمهم وهم يناكدون المربيات في ممرات القصر ويشاكسونهن. في البداية كان يرغب في قضاء بعض لياليه تحت سقف المقر الرئاسي، مثال على ذلك، فترة انعقاد المؤتمر الإسلامي، حين جاء رؤساء الدول الإسلامية من كل أنحاء العالم وجاؤوا جميعاً بأمهاتهم معهم، حتى بدا وكأن جهنم أفلتت من عقالها، إذ إن الأمهات شرعن على الفور في عراك مرير في جناح الحريم من أجل الأقدمية، وظللن يرسلن رسائل عاجلة إلى أبنائهن، مقاطعات

جلسات المؤتمر ذات الصلاحيات المطلقة شاكيات متذمرات من الإهانات القاتلة التي تلقينها والشرف الذي مرغ بالوحل، الأمر الذي كاد يؤدي إلى نشوب عراك بالأيدي بين زعماء العالم المؤتمرين بل إلى حروب. لم يكن لدى رضا حيدر أم تضعه في المغطس الحار، لكن كان لديه همومه الخاصة إذ إنه اكتشف ليلة افتتاح المؤتمر في ذلك القصر الفسيح الأرجاء كالمطار، أن صوت اسكندر حربا يطن عالياً في أذنيه إلى درجة كان من المتعذر عليه أن يسمع شيئاً آخر. كان الحوار الإفرادي للرجل المشنوق يدوي في جمجمته، حتى خيل إليه أن اسكي قرر أن يعطي خَلفه بعض الأفكار والمعلومات المفيدة، ذلك أن الصوت غير المتجسد بدأ يقتبس دونما تعيين، وبنبرة غنائية مثيرة للأعصاب، من كتابات ذلك الكافر الأجنبي نيكولو مكيافيللي. وقد ظل رضا طوال الليل مسهداً لا يغمض له جفن والأزيز الشبحي في رأسه فقد كان اسكندر يقول: «لدى استلام الدولة، على المستلم الغاصب أن يرتب ارتكاب فظاعاته كلها في الحال، إذ ينبغي أن تحدث الأضرار كلها دفعة واحدة،، بحيث يكون إحساس الناس بها في أدنى درجاته وبالتالي ما ينتج عنها من إساءة في أدنى درجاته». ولم يستطع رضا حيدر أن يحول دون انبعاث التعجب من شفتيه الرناسيتين «يالله!! صه.. صه». وفي الحال جرى الحراس إلى مخدعه خشية الأسوأ، أي بالتحديد خشية غزو تقوم به أمهات زعماء العالم اللواتي لا تنتهي شكواهن، عند ذلك اضطر رضا حيدر لأن يقول خجلاً: «لا شيء، لا شيء، مجرد كابوس، حلم مزعج لا يستحق الاهتمام». «آسف رضا» همس اسكندر من جديد «أنا فقط أحاول تقديم مساعدة».

وفي اللحظة الأخيرة التي اختتم فيها المؤتمر ورحلت الأمهات، عاد رضا حيدر مسرعاً إلى بيته الآخر، حيث يستطيع أن يسترخي وحيث يطن صوت مولانا داود في أذنه اليمنى على نحو يغطي صوت اسكي في يسراه. لقد تعلم أن يركز كل انتباهه على جانبه الأيمن، ونتيجة لذلك،

صار بإمكانه أن يتعايش مع شبح اسكندر حربا، رغم أن اسكي ظل على محاولته في تحقيق أهدافه.

في القرن الخامس عشر أصبح الجنرال رضا حيدر رئيس جمهورية بلاده، فبدأ كل شيء يتغير. أما التأثير الذي تركه صوت اسكندر حربا الدائم فهو أنه ألقى برضا حيدر في الأحضان العجاف لصديقه القديم مولانا داود، الذي طوق عنقه خطأ ذات يوم طوق من أحذية. فرضا حيدر ذو الكدمة الباقية من أثار السجود على جبهته، هو كما تذكر، ضرب من ضروب المهاجرين الذين لا يفارقهم ذكر الله. وبقدر ما كان اسكندر يهمس في أذن رضا، كان هذا يشعر أن الله رجاؤه الوحيد، وهكذا حين أزّ صوت داود قائلاً: هنا في مكة المكرمة يرى المرء الكثير من الشر والفساد، لذا ينبغي تطهير الأماكن المقدسة، إنه واجبك الأول والوحيد حينها أعطى حيدر كل انتباهه، رغم أنه كان واضحاً أن الموت لم يستطع تخليص رجل الدين ذاك من الفكرة التي سيطرت على ذهنه وهي أنهم جاؤوا إلى قلب الإيمان المقدس، إلى مكة الشريفة، مدينة الحجر الأسود العظيم.

ما فعله رضا: تحريم المشروبات. فقد أغلق معمل البيرة القديم الشهير الموجود في باغيرا، بحيث غدت بيرة «البانثر ليجر» ذكرى جميلة بدلاً من أن تكون شراباً منعشاً. كما أدخل تغييرات شديدة على برامج التلفزيون إلى درجة بدأ الناس معها يستدعون أخصائي التلفزيون لإصلاح أجهزتهم، إذ هم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا بدأت أجهزتهم فجأة ترفض تقديم شيء سوى المواعظ الدينية، كما شرعوا يتساءلون كيف يمكن لأولئك الملات (رجال الدين) أن يظلوا ملتصقين بالشاشة. في ذكرى المولد النبوي أقام رضا حيدر ترتيباً يتعين فيه على كل مسجد في البلاد أن يطلق صافرة في التاسعة صباحاً، وكل من ينسى أن يتوقف عن عمله لأداء الصلاة حين يسمع تلك الصافرة يلقى حالاً في السجن. وقد تذكر متسولو العاصمة وجميع المدن الأخرى أيضاً أن القرآن يفرض على

المؤمنين أداء الصدقات، لذلك استفادوا من قدوم الإيمان إلى مكتب الرئاسة فقاموا بسلسلة من المسيرات الضخمة طالبوا فيها بقانون يفرض زكاة بهذه المناسبة لا تقل عن خمس روبيات. لكنهم أعطوا لإيمان الرئيس قدراً أقل مما يستحق، ففي السنة الأولى من حكمه سجن رضا حيدر مائة ألف شحاذ، وخلال حملته تلك سجن ألفين وخمسمائة آخرين من أعضاء الجبهة الشعبية التي باتت في ظله غير شرعية، والتي بات حال أعضائها ليس أفضل بكثير من حال المتسولين. فقد أعلنت إذاعة رضا أن الدين والاشتراكية صنوان لا يتفقان، وإن عقيدة الاشتراكية الإسلامية التي بنت عليها الجبهة الشعبية دعوتها هي أسوأ أنواع الكفر الذي يتخيله عقل بشري، كما أعلن رضا للجماهير «لم يكن اسكندر حربا يؤمن بالله، لذا كان يدمر البلاد وهو يزعم أنه يبنيها». وعقيدة التضاد هذه جعلت رضا محبوباً كثيراً لدى الأمريكيين الذين كان لهم الرأي نفسه، رغم أن دينهم غير دينه.

«أما أولئك الذين فازوا بلقب الأمير عن طريق الخسة والنذالة» كان صوت اسكندر يهمس في أذنه «فعليهم أن يقرأوا «كتاب الأمير»، الفصل الثامن، أجل، عليك أن تقرأه يا رضا، إنه فصل قصير للغاية». لكن في ذلك الحين كان رضا قد تعلم كيف يتجاهل الصوت المشؤوم، صوت ملاكه الميت القابع على كتفه اليسرى. بات يتجاوز كل ما يقوله اسكندر بدلاً من أن يولي اهتمامه للسوابق التاريخية التي كانت تقدمها تواريخ آغاثوكلس الصقلي[١] واوليفر تودافيرمو[٢]، فقد كان يصغي لصوت مولانا داود. لكن اسكندر رفض أن يستسلم، زاعماً أنه ينطلق من دوافع

---

(١) طاغية صقلية المستبد، حكم ما بين ٣١٧ و ٢٨٩ ق.م، اشتهر باستبداده وحبه للحروب وسفك الدماء. في مجزرة واحدة قتل ما ينوف على العشرة آلاف من مواطنيه.

(٢) إقطاعي من القرون الوسطى اشتهر بطغيانه أيضاً، وإقطاعيته «فيرمو» هذه مدينة في منطقة المارش في إيطاليا.

غير أنانية، محاولاً أن يذكر رضا بالفارق بين الفظاعات التي ترتكب بصورة حسنة وتلك التي ترتكب بصورة سيئة، وكذلك بضرورة تناقص ارتكاب مثل تلك الفظاعات مع الزمن، وبالحاجة لتقديم المنافع شيئاً فشيئاً بحيث يستمتع بها الناس على نحو أفضل. لكن في تلك الفترة كان شبح داود هو المسيطر، فقد كسب ثقة الرئيس كلها، انطلاقاً من معاملته المتحيزة له، وهكذا أمر رضا بحظر السينما أو على الأقل بحظر الأفلام المستوردة كبداية، كما اعترض على خروج النساء سافرات في الشوارع وطالب باتخاذ إجراءات مشددة وفرض قبضة حديد. وفي تلك الأيام سجلت الأحداث أن طلاب الشريعة بدأوا يحملون البنادق ويطلقون النار أحياناً على أساتذة ناقصي الإيمان، كما سجلت أن الرجال غدوا يبصقون على النساء في الشارع إن ذهبت واحدتهن في شأن من شؤونها وقد كشفت عن وسطها، وأن شخصاً كاد يقضي خنقاً لتدخينه سيجارة خلال شهر الصوم، كذلك تم تعليق القانون، إذ إن المحامين أوضحوا الطبيعة الدنسة أساساً لمهنتهم حين احتجوا على أنشطة مختلفة للدولة، فحلت محل محاكم القانون العادية محاكم شرعية على رأسها رجال دين كان رضا حيدر يعينهم انطلاقاً من أسس عاطفية إذ كانت لحاهم تذكره بمستشاره الراحل. للدين الكلمة العليا، وإذا ما راود أحد الناس الشك في ذلك فقد كان باستطاعته أن يريه مظاهر قوته: ولقد جعل العديد من العناصر المضادة تختفي اختفاء أولاد الفقراء. أجل كانت قدرة الله سبحانه وتعالى تخطفهم فيختفون، نفخة هواء أو شيء من هذا القبيل.

في تلك السنوات كان رضا حيدر رجلاً كثير الانشغال، لا فراغ لديه البتة لما بقي له من حياته العائلية. لقد تجاهل أحفاده السبعة والعشرين، تاركاً إياهم لأبيهم ومربياتهم، لكن تعلقه بفكرة الأسرة كان مشهوراً تماماً، الأمر الذي استفاد منه كثيراً والذي جعله يرى بلقيس مرة كل أسبوع. بل لقد كان يجيء بها أحياناً إلى استديوهات التلفزيون حين يود توجيه خطابه إلى الأمة. وكان هذا يبدأ دائماً بالصلاة إذ يركع رضا في

الساحة الأمامية مجدداً كدمة جبهته بينما تركع خلفه بلقيس مصلية أيضاً، شأنها شأن أية زوجة صالحة، يسترها الحجاب الشرعي من رأسها حتى قدميها.

وفي مناسبات كهذه كان يجلس معها بضع لحظات قبل بث البرنامج على الهواء ولقد لاحظ أنها تجلب معها دائماً شيئاً ما تخيطه. لكن بلقيس ليست راني، وهي لا تطرز شالات بل إن نشاطاتها أبسط وأكثر غموضاً في الآن نفسه، إنها تخيط قطعاً كبيرة من الأقمشة السوداء بأشكال يستحيل فك رموزها، ولزمن طويل ظل الجفاء بينهما يمنع رضا من سؤالها عما تفعله، لكنه في النهاية بات عاجزاً عن كبح فضوله فسألها بعد أن تأكد من أن أحداً لا يسمعهما: «ترى ما هذا الذي تخيطينه؟ ما الذي تصنعينه بهذه العجالة حتى أنك لا تستطيعين الانتظار إلى أن تعودي إلى البيت؟». فأجابت بصوت كله جد: «أكفان». عند ذاك شعر بقشعريرة تسري في عموده الفقري.

بعد عامين من موت اسكندر حربا بدأت النساء في طول البلاد وعرضها يقمن بالمسيرات احتجاجاً على التعليمات المتزمتة الجديدة. فقال رضا في نفسه إن تلك المسيرات أمور خادعة وأنها بحاجة لإشراف ورعاية. لذا اتخذ خطوات حذرة رغم أن مولانا داود كان يصرخ في أذنه أنه رجل ضعيف وأن عليه أن يجرد تلك العاهرات من ثيابهن وأن يعلقهن على كل شجرة موجودة. لكن رضا ظل حذراً محترساً، فأمر رجال الشرطة أن يتجنبوا ضرب النساء على صدورهن حين يفرقون التظاهرات، فكافأه الله أخيراً على كبحه الفاضل هذا. إذ علم مخبروه أن تلك المسيرات تنظمها سيدة ما تدعى البيجوم نور، وأن هذه السيدة تطوف الأحياء والقرى مستثيرة المشاعر المضادة للدين. مع ذلك ظل رضا كارهاً لأن يطلب إلى الله أن يخفي تلك الكلبة عن وجه الأرض، إذ ليس باستطاعتك أن تطلب إلى الله تعالى أن يفعل كل شيء، لذا شعر بأن لديه الأعذار والمبررات الكافية حين قدمت له كل الأدلة التي تثبت أن السيدة

نور تلك شخصية سيئة السمعة ذات تاريخ طويل حافل بتصدير النساء والأطفال ليكونوا حريماً وغلماناً لدى الأمراء العرب. حينذاك فقط أرسل رجاله للقبض عليها، إذ ما من أحد يستطيع الاعتراض على اعتقال كهذا، بل حتى اسكندر نفسه اطراه: أنت سريع التعلم يا رضا، لعلنا جميعاً استهنا بقدراتك.

أما دافع حيدر للقيام بمثل ذلك العمل فهو التالي: الاستقرار تحت راية الدين لكنه، بعد قضية البيجوم نور، أضاف شعاراً آخر إلى الشعار الأول «الله في عون العبد ما دام العبد في عون نفسه». ولكي يحقق الاستقرار تحت راية الدين فقد وضع ضباطاً من الجيش في المجالس الإدارية للمشروعات الصناعية الرئيسية في البلاد، كما وزع الجنرالات في كل مكان، بحيث باتت أصابع الجيش تمتد داخل كل شيء أعمق مما كانت من قبل. كان رضا يعلم أن سياسته أتت أكلها تماماً حين جاءه الجنرالان: راضي وبكر وفيصادي، وهم أصغر وأقدر جنرالات أركانه، بدليل ثابت وأكيد على أن الجنرال سلمان طقلق يخطط بالاشتراك مع مدير الأمن تلفار الحق، صهره نفسه، والعقيد شجاع معاونه القديم الأزل، للقيام بانقلاب عسكري، فغمغم رضا حيدر بكثير من الأسى والحسرة «حمقى، مدمنو ويسكي، أليس كذلك؟ إنهم يحنون لمشروباتهم الروحية، لذلك يريدون هدم كل ما بنينا». ثم اكتسى محياه بسيماء كآبة مأسوية كتلك التي يعرفها وجه شجاع لكنه كان مبتهجاً في السر، فقد كانت تضايقه دائماً ذكرى اتصاله الليلي المتردد ذاك مع الجنرال طقلق، كما كان يسعى لإيجاد سبب يزيل به مساعده من منصبه، منذ قضية زنزانة الموت في سجن المنطقة، أما تلفار الحق فقد كف عن أن يكون موضع ثقته منذ سنوات. فقال رضا لراضي الشاب ولبكر وفيصادي: «من ينقلب ضد رئيسه مرة ينقلب مرتين». لكن ما كان يقصده بالحقيقة هو أن قدرة تلفار الحق على استشفاف المستقبل ترعبه تماماً، كما أن الرجل كان يعلم كل شيء عن صفية زنوبيا وذلك يعني أنه

يعرف أكثر مما ينبغي. . . وهكذا ربَّت رضا ظهور الجنرالات الشبان ثم قال «حسناً، حسناً، الآن الأمر كله بيد الله». لكن لم تبزغ شمس الصباح التالي حتى كان المتآمرون الثلاثة قد اختفوا تماماً دون أن يتركوا خلفهم أثراً من دخان. ملأ الأيتام السبعة والعشرون الذين تركهم تلفار الحق مرغماً مقر رئيس الأركان بصراخ متناغم غريب إذ كان كل منهم يصرخ بالطبقة الصوتية ذاتها ثم يتوقف، طلباً للنفس في الوقت ذاته حتى تعين على كل من في المنزل أن يضعوا سدادات في آذانهم طيلة أربعين يوماً، بعدئذ أيقن الأيتام أن أباهم لا ينوي العودة فخرسوا تماماً حتى أن جدهم لم يلحظ وجودهم بعد ذلك قط.

لقد تبين رضا حيدر من إخلاص جنرالاته الصغار أن الجيش يعيش فترة زاهية إلى درجة يصعب معها أن يرغب في تحطيم السفينة، فطفق يهنئ نفسه «وضع مستقر وكل شيء على ما يرام».

عند هذه النقطة عادت ابنته صفية زنوبيا فدخلت حياته.

لكن هل تسمحون لي أن أقاطع القصة هنا ببضع كلمات عن إحياء الإسلام؟ وعهداً علي لن آخذ من وقتكم كثيراً.

الباكستان ليست إيران. وهذا قد يبدو أمراً غريباً، غريباً أن نقوله عن بلد كان حتى مجيء الخميني، أحد بلدين على وجه الأرض تسيطر عليهما دولة خاضعة لحكم رجال الدين (فإسرائيل هي البلد الآخر) لكن رأيي أن الباكستان لم تكن يوماً من الأيام مجتمعاً يهيمن عليه رجال الدين. فالمتدينون المتطرفون من حزب «الجماعة» لهم أنصارهم بين طلاب الجامعات وما شابه إلا أن نسبة قليلة من الناس تصوت لصالح حزب الجماعة وقت الانتخابات، بل إن جناح نفسه مؤسس هذا الحزب أو «قائد العظام» لا يثير فضولي كنموذج خاص من نماذج الأخوة بالله، فالإسلام ودولة الإسلام لم يكونا، في نظره، سوى أفكار سياسية وثقافية، أما اللاهوت نفسه فلم يكن بذي شأن لديه.

لكنني أرجو ألا يقوم النظام الراهن في ذلك البلد البائس بحظر ما

أقوله الآن أو صب جام غضبه عليه، فذلك سيكون أمراً بالغ السوء. ما أريد قوله هو أن الإسلام أثبت بما لا يقبل الجدل أنه عامل توحيد بالغ الفعالية في باكستان ما بعد بنغلادش، لو أن الناس لم يحاولوا تحويله إلى صفقة كبيرة شاملة إلى هذه الدرجة. وربما كان السنديون، البالوش، البنجابيون والباثيون، هذا إن غضضت النظر عن المهاجرين، سيذيبون خلافاتهم ويعملون على طمس الفوارق في ما بينهم كرمى لدينهم المشترك.

بيد أن القلة من الأساطير اللاهوتية تبقى بعد التمحيص الدقيق. وقد تصبح بغيضة على الناس بالحقيقة إن أراد الآخرون فرضها عليهم بالإكراه.

ترى ما الذي يحدث إذا ما أرغم المرء على ازدراد وجبات هائلة عسيرة الهضم إرغاماً؟ إنه يمرض. يرفض ما يقدم له من تغذية. إنه، أيها القارئ: يتقيأ.

إذاً ما يدعى «المنطلقات الأساسية» الإسلامية لا ينبع، في الباكستان من الشعب. بل يفرض عليه من فوق، ذلك أن حكم القلة الأوتوقراطية تجد من المفيد التمسك بأهداب الإيمان والتكلم بلسانه، ذلك أن الناس يحترمون تلك اللغة، ويكرهون معارضتها. وهذه هي الكيفية التي تعمل بها الأديان على نقل الحكام المستبدين إلى شطآن الأمان، إنها تحيطهم بهالة السلطة، تلك الهالة التي يكره عامة الناس أن يروها موضع استهانة أو حط أو سخرية. لكن حشو البلعوم بالطعام يقف عند حد. ذلك أنك في النهاية تصاب بالغثيان، تفقد إيمانك بالإيمان، إن لم يكن به ذاته، فإنك تفقد إيمانك به كأسس للدولة. وحينذاك يسقط الديكتاتور، ثم يسقط معه كل ما جاء به، تبطل الأسطورة التي كانت تبرر استعباد الشعب. وهذا يترك خيارين اثنين: التفكك أو قيام ديكتاتورية جديدة.. لا، ثمة خيار ثالث، «فأنا لن أكون متشائماً إلى درجة أنكر معها احتمال وجود هذا الخيار. إنه إحلال أسطورة جديدة محل الأسطورة القديمة.

وهنا نجد ثلاث أساطير جاهزة غبّ الطلب: الحرية المساواة، الإخاء، وإنني لأزكيها كل التزكية.

في ما بعد، وخلال فراره مذعوراً من العاصمة، سيتذكر رضا حيدر قصة النمر الأبيض الذي أفلت أيام القبض على اسكندر حربا، ولسوف ترتعد فرائصه خوفاً وهلعاً. كانت الشائعة قد خمدت على نحو مريع تماماً، إذ ما من أحد ذكر يومها أنه شاهد فعلاً ذلك الحيوان الخرافي، باستثناء صبي قروي يدعى غفار لا يوثق بكلامه، ذلك أن وصفه للحيوان كان غريباً إلى درجة قرر معها الناس أن ذلك النمر إنما هو من بنات خيال ذلك الوغد غفار المشهور بكذبه ودجله. فقد قال الصبي في وصفه لذلك الوحش غير المعقول: «ليس أبيض تماماً، بل إن له رأساً أسود وليس له شعر في أي مكان آخر لأنه سيغدو أجرد، كما أنه يمشي مرحاً في الأرض». وقد أوردت الصحف هذا الكلام بصورة عابثة، لمعرفتها أن قراءها مولعون ولعاً يجعلهم يتسامحون تجاه قصص الوحوش، بيد أن فكرة مخيفة سيطرت على الجنرال حيدر، وهو يستعيد القصة في ذهنه، وهو أن نمر باغيرا غالي الأبيض لم يكن إلا المعجزة المتوقعة، النبوءة التي أنذر بها، شبح الزمان، المستقبل وهو يجوب غابات الماضي. «لقد رآها بالتأكيد» فكر رضا بمرارة «لكن لا أحد يصدقه».

ولقد عادت للظهور بهذه الطريقة:

ذات صباح كان عمر الخيام شاكيل يجلس في مكانه المعتاد من العلية يحدق بناظريه عبر النافذة إلى الخارج ويقشر بذور الصنوبر حين جاءت خادمة ـ الكنس أسفاري التي كانت عادته تلك تصيبها بالجنون والتي أرغمتها تلك العادة على أن تصعد وتكنس تلك الغرفة المنسية كما أرغمها على ذلك أسلوبه، وهو غائب الذهن، في إلقاء قشور الصنوبر على الأرض أثناء كنسها حتى، ثم غمغمت من بين شفتين لا أسنان وراءهما، شفتي امرأة عجوز تعبقان برائحة الفنيل المعقم: «عسى ذلك الوحش أن يأتي هنا فيخلصنا من جميع أولئك الذين لا تعرف قلوبهم

الرحمة والذين لا يدعون امرأة مسكينة تنهي عملها». وللتو، تغلغلت كلمة «الوحش» في رأس عمر الخيام مخترقة ضباب أحلام يقظته، فبعث الرعب في أوصال المرأة حين سألها صارخة «ما تعنين بقولك ذاك؟». وحين اقتنعت بأنه لن يتسبب في طردها كما فعل بشهبانو، ولن ينظر إلى الحدة التي أبدت فيها ملاحظتها على أنها إهانة، حينها استرخت أعصابها وشرعت تقرعه بأسلوب العجائز الطاعنات في السن لأخذه الأمور على مأخذ الجد كثيراً. فقد قال: «تلك القصص بدأت تنتشر مرة ثانية. هذا كل ما في الأمر. ألسنة كسلى بحاجة لشيء من التمرين. فلا داعي لأن يثور السيد الكبير أو يقلق».

لكن عمر الخيام ظل طيلة ذلك اليوم مصدوماً، رهين عاصفة داخلية لم يجروء على تسمية سببها حتى في سره، لكن في الليل، وفي إحدى غفواته الكثيرة المتقطعة جاءته صفية زنوبيا في الحلم. إنها تمشي على قوائمها الأربع، عارية تماماً عري أمها بعد رياح النار الأسطورية تلك التي لفحتها في صباها ـ لا، أكثر من ذلك بكثير، لم يكن هناك شيء عالق بكتفيها، لا سترة ولا حتى منديل العفة والحياء. استيقظ عمر، غير أن الحلم رفض مفارقته. ظل يحوم أمام عينيه، شبح زوجته في القفار والبراري يتصيد فرائسه من البشر والحيوان.

في الأسابيع التالية ألقى أرضاً بكسل سنواته التي نافت على السنين. . . . ورغم وهن قدميه وغرابة شكله فقد غدا شخصاً مألوفاً في محطة الباصات حيث كان يبحث عن أنماط حدودية مخيفة ثم يعرض عليهم المال مقابل بعض المعلومات. كما كان يحوم حول المسالخ، متكئاً على عصاه، في الأيام التي يأتي بها الفلاحون بحيواناتهم من المناطق الحدودية النائية، كذلك بات يغشى الأسواق العامة، والملاهي العتيقة، طيفاً متداعياً في بدلة رمادية. يتوكأ على عصاه يطرح أسئلة ثم يصغي ويصغي.

وهكذا اتضح له شيئاً فشيئاً أن قصص النمر الأبيض عادت لأفواه

الناس مرة ثانية، لكن ما لاحظه على نحو خاص هو أن تلك القصص بدأت تتوارد من أنحاء البلاد كلها، في الصرر المحمولة فوق الباصات والتابعة لعمال حقول الغاز العائدين من وادي النيدل، وفي أحزمة الخرطوش التي يشدها رجال القبائل القادمون من الشمال على صدورهم. إنها بلاد كبيرة، كبيرة حتى من غير جناحها الشرقي، بلاد من القفار والسباخ والمستنقعات المرصعة بأشجار المنجرف والسلاسل الجبلية والصحارى. ومن كل ركن من أركان البلاد، على ما يبدو، كانت حكاية النمر الأبيض تنتقل إلى العاصمة، رأس أسود، جسم أجرد شاحب، مشية خرقاء تعوزها الرشاقة، المرة تلو المرة، بات وصف الوحش الذي قدمه غفار والذي هزئ منه الجميع في حينه يتكرر على مسمع عمر الخيام من قبل قرويين أميين كلهم يعتقد أن الشائعة تخص منطقته وحدها من مناطق العالم جميعاً، ولم يحاول عمر الخيام مناقشتهم في اعتقادهم ذلك.

حوادث قتل يتعرض لها حيوانات وآدميون، قرى تتعرض لغارات في الليل، أطفال موتى، قطعان مذبوحة، أصوات عواء تقطر دماً: ويسود الهلع بسبب آكل لحوم البشر لكن على نحو جديد أشد هولاً، فقد سأل أحد الرجال الحدوديين الذين يبلغ طولهم ستة أقدام، سأل عمر الخيام ببراءة طفل وخوفه: «أي حيوان يا ترى يستطيع جز رأس إنسان من الكتفين ثم سحب أحشائه عبر الفجوة التي تركها الرأس كي يلتهمها»؟

وقد سمع عمر أخباراً عن قرى شكلت مجموعات حراسة، عن قبائل جبلية وضعت حرساً يسهرون على أمنها طوال الليل. كما ترافقت قصص مشاهدة الوحش مع ادعاءات متبجحة عن إصابته بجروح ورصاصات، أو حكايات أقل وثوقاً، «لن تصدق يا سيد، فقد ضربته بأخمص البندقية بين عينيه تماماً، لكنه الشيطان بعينه، فقد استدار ثم اختفى في الفضاء، ليس باستطاعتك أن تقتل مخلوقات كهذه. . . ليحمنا الله. .». وبذلك تم فعلاً إضفاء الصبغة الأسطورية على النمر الأبيض إذ

ظهر هناك من يقول إن باستطاعة ذلك النمر أن يطير أو يتحول إلى روح أو يتضخم إلى أن يغدو أكبر من شجرة بكثير.

وفي مخيلة عمر الخيام شاكيل، نمت صفية زنوبيا وكبرت أيضاً. لكنه لم يفصح لكائن من كان عن شيء من شكوكه أمداً طويلاً، غير أن هذه الشكوك كانت تتجمع حول شكله الأرق ساهر الليالي محدقة من كل جهة بكرسيه الذي يجلس عليه طوال أيامه وهو يقشر بذور الصنوبر. كان عمر يتخيلها، هي الوحش، وقد اختارت بحسها السليم أن تنأى عن المدن، عارفة ربما، أنه على الرغم من قوتها الجبارة فإنها تظل سريعة العطب حيث الرصاص والغازات والدبابات. وبقدر ما كانت تزداد سرعة، بقدر ما كانت تغطي قدراً أكبر من الأرض، باسطة وجودها على أوسع نطاق في حواشي وأطراف الأرض التي انقضى الزمان فيها قبل أن يتاح لأساطيرها المتباينة أن يواجه بعضها بعضاً وبقدر ما كانت كذلك تلقى نوعاً من الوحدة في أفكاره وتشكل خطاً يمكنه أن يرفع الستار عن شكلها المحجوب بالظلمة حتى قال ذات يوم للنافذة المفتوحة «صفية زنوبيا، باستطاعتي أن أراك الآن». على أطرافها الأربعة جميعاً، وقد غلظت مواطئ الدوس من راحتيها وأخمصيها. أما الشعر الأسود الذي قصه ذات مرة مقص بلقيس حيدر، فقد طال وتلبد حول وجهها مغلقاً الإطار حوله كأنه الفرو، في حين سفعت الشمس البشرة الشاحبة التي ورثتها من أسلافها المهاجرين وقسّتها، كما انتشر عليها هنا وهناك ندوب كندوب المعارك: ندوب الجروح التي ألحقتها بها الشجيرات والحيوانات وأظافرها ذاتها التي تحك بها جلدها وتخدشه. كذلك هناك العينان الناريتان ورائحة النتن والموت. «للمرة الأولى في حياتها تجد تلك الفتاة نفسها حرة» فكر عمر فصدمه ما أحس به من تعاطف في تفكيره مع الفتاة، فقد تخيلها فخورة بقوتها، فخورة بالعنف الذي تصنع به أسطورتها، ذاك الذي منع أي كائن من أن يكلمها عما تفعله، أو يقول لها من هي أو ما الذي كان ينبغي أن تكونه ولم تكنه، نعم لقد ارتفعت

فوق كل شيء لا ترغب في سماعه. فتساءل في سره متعجباً: ترى هل يعقل أن تكون الكائنات البشرية قادرة على اكتشاف نبالتها من خلال همجيتها؟ عند ذلك غضب من نفسه وهو يتذكر أنها لم تعد صفية زنوبيا، لم يبق فيها ما يمكن التعرف إليه على أنها ابنة بلقيس حيدر، ذلك أن الوحش في داخلها كان قد غيرها تماماً، عندئذ فكر عمر «علي أن أكف عن مناداتها باسمها» لكنه وجد أنه لا يستطيع ذلك. ابنة حيدر، زوجتي، صفية زنوبيا شاكيل.

حين قرر عدم كتمان سره أكثر من ذلك، ومضى إلى رضا حيدر يحكي له عن نشاطات ابنته، وجد عمر الجنرالات الثلاثة، راضي، بكر وفيصادي، يخرجون من مكتب الرئيس وعلى وجههم سيماء واحدة: سيماء الدهشة والعجب فقد كانوا يطيرون على السحاب مزهوين، فرحين مذ رقّاهم حيدر وجعلهم من بطانته الخاصة إثر انقلاب طقلق، لكنهم في هذه المناسبة كانوا على وشك الاختناق لفرط ما أدوه من صلوات. فقد فرغوا لتوهم من إخبار رضا أن الروس أرسلوا جيشاً إلى بلاد آ. ، عبر الحدود الشمالية الغربية، لكن لفرط دهشتهم رأوا الرئيس يقفز من كرسيه ثم يبسط أربع سجادات صلاة على الأرض طالباً إليهم تقديم الشكر لله، حالاً، وعلى الفور، أن يحمدوه على تلك النعمة التي أنعم بها عليهم. وهكذا، ظلوا طيلة ساعة ونصف يركعون ويسجدون، إلى أن ظهرت على جباههم الآثار الأولى للكدمة التي تحملها بكل فخار جبهة رضا، بعدئذ توقف شارحاً لهم أن الهجوم الروسي هو المرحلة النهائية في الاستراتيجية الإلهية، فالآن ستضمن القوى العظمى استقرار حكومته. عندها أجاب الجنرال راضي بشيء من الحدة أن السياسة الأمريكية تتركز على القيام بانقلاب مضاد هائل يستهدف الألعاب الأولمبية، لكن قبل أن يتعكر مزاج رضا بدأ صديقا راضي، فيصادي وبكر، يهنئان ويصافحان واحدهما الآخر بمرح وصخب «ذلك اليانكي ذو الإلية السمينة» هتف فيصادي مشيراً إلى

السفير الأمريكي «سيضطر الآن لدفع الفواتير». ثم شرع بكر يتخيل معدات عسكرية جديدة بما يساوي خمسة بلايين دولار، أحدث المعدات، صواريخ يمكنها أن تشق السماء بصورة جانبية دون أن تعوز محركاتها الأوكسجين، شبكات رادار يمكنها أن تكشف بعوضة الملاريا على بعد عشرة آلاف ميل. وقد شطح بالجنرالات الخيال إلى درجة نسوا معها تماماً أن يخبروا الرئيس بقية الخبر، لكن راضي تذكر فنطق الخبر قبل أن يستطيع زميلاه إيقافه فقال إن السيد هارون حربا قد اتخذ مقراً له في مبنى النخبة الواقع في وسط مدينة كابول وهي عاصمة البلاد آ. ، حاول زميلاه الآخران اللذان أخافهما الخطأ الثاني الذي ارتكبه راضي، وهو إساءة تقديره لمزاج الرئيس، حاولا تغطية الأمر ثانية وذلك بالتأكيد أن التقرير غير مثبت وأن مختلف أصناف المعلومات المضللة تنبعث الآن من كابول إثر الاحتلال الروسي، كما حاولا أن يوجها انتباهه إلى مسألة اللاجئين إلا أن الرئيس لم يفعل سوى أن توهج وتوهج ثم صاح: «بإمكانهم أن يرسلوا لنا عشرة ملايين لاجئ، ذلك أنني حين أستلم ذلك اللاجئ يكتمل زهوي الملكي».

إذ ذاك أصيب الجنرالات الثلاثة بالارتباك التام، فقد شعروا جميعاً بأنهم مضطرون لأن يفسروا أن أكثر معلوماتهم تفاؤلاً تقول إن هارون حربا يحظى بكامل الدعم وأشده فعالية من الحكم الجديد في البلد المجاور الذي يدعمه الروس، وأن هارون هذا يعمل على تجميع فئة إرهابية تتلقى الأسلحة من الروس والتدريب لدى الفلسطينيين. وقد أطلق عليها اسم الاسكندر تيمناً باسم عمه المحبوب. فكشر حيدر مبتسماً «ممتاز. أخيراً يمكننا أن نري الناس أن الجبهة الشعبية ليست سوى زمرة من السفاحين، قطاع الطرق». ثم جعل الجنرالات الثلاثة يركعون على الأرض مقدمين صلوات الحمد والشكر لله مرة ثانية.

بعدئذ رافق رضا حيدر زملاءه إلى باب مكتبه تغمر قلبه سعادة حقيقة، وحين غادره هؤلاء يتعثرون بدهشتهم وذهولهم وجد الرئيس

أمامه عمر الخيام شاكيل فحياه بحرارة ومودة صادقتين «حسناً، أيها الكلب العجوز، ما الذي جاء بك؟».

ذلك المزاج الرائق الذي قابله به رضا حيدر أخاف عمر الخيام، أثار في داخله مشاعر غريبة إلى درجة بدا وكأنه مسرور حين أجابه: «مسألة بالغة السرية والدقة» وخلف أبواب مكتب الرئيس المقفلة طفق عمر، بمزاج من الرضا الرصين، يمطر رضا بتخميناته ونتائج بحوثه ويرقب آثار النبأ السار، الذي أفرحه قبل قليل، وهي تغيب عن محياه، إلى أن حل محلها تماماً شحوب الخوف الرمادي.

«هكذا، إذاً» قال رضا حيدر أخيراً «كدت أخدع نفسي بأنها ماتت» حينذاك همس اسكندر حربا في أذنه «يمكنني أن أقارنها بنهر عنيف مندفع. إنه، باندفاعه، يغرق السهول، يقتلع الأشجار، يكتسح البيوت فيفر الجميع أمامه، يذعن كل شيء لغضبته دون أن تكون لديه القدرة على الوقوف في وجهه. وهذا هو شأن المستقبل الذي يبدي قوته حيث لا يمكن اتخاذ أية إجراءات لمقاومته، ويوجه غضبه حيث يعلم أنه لا توجد حواجز أو سدود للوقوف في وجهه».

فصاح رضا حيدر عالياً «أية حواجز؟» حينها اقتنع عمر الخيام بأن الرئيس يحمل عبئاً ثقيلاً على كاهله. «أية أسوار يمكنني أن أقيمها في وجه ابنتي؟». لكن مولانا داود، الملاك الجاثم على كتفه اليمنى، لم يجب بشيء.

كيف يسقط طاغ مستبد؟ ثمة مثل قديم يقول بنوع من التفاؤل الأحمق: طبيعة الطغيان ذاتها هي التي تنهيه. وعلى هذا يمكن للمرء أن يقول إن من طبيعته أيضاً أن يبدأ، أن يستمر، أن يحفر قبره بنفسه وأن تدفنه قوى أكبر من قوته ذاتها.

حسن، حسن، علي ألا أنسى أنني مجرد راوٍ لقصة خرافية. وذلك المستبد الطاغية الذي أتكلم عنه إنما تسقطه قوى الجن والعفاريت. «ذلك يجعل الأمر أسهل عليك» هوذا النقد الواضح الذي يمكن توجيهه

لكنني أوافق، أوافق. ثم أضيف، حتى ولو بدا في ذلك بعض الحق: «حاولوا أنتم وتخلصوا من طاغية من الطغاة في وقت من الأوقات».

حين انقضى على الرئيس حيدر في رئاسته ما يقارب الأربع سنوات، بدأ النمر الأبيض يقترب من العاصمة أكثر فأكثر. أي بعبارة أخرى، بدأت جرائم القتل وذبح الحيوانات تتقارب وتتواتر أكثر فأكثر إلى درجة بدأت القصص تترابط بعضها بالبعض الآخر، مشكّلة حلقة كاملة تحيط بالمدينة. وهكذا قال الجنرال راضي لرضا حيدر ذات يوم: «من الجلي أن أعمال الإرهاب تلك إنما هي من فعل جماعة الإسكندر التي يتزعمها هارون حربا،» عند ذاك ولدهشته البالغة، ربت الرئيس ظهره تربيتاً شديداً ملؤه الغبطة والسرور. ثم هدر صوته مدوياً «عرض جيد يا راضي، أنت لست أبله كما تصورت». بعدئذ عقد الرئيس مؤتمراً صحافياً موجزاً وضع فيه اللوم بصدد ما يدعى «جرائم القتل التي تقطع فيها الرؤوس» على أولئك السفاحين، رجال العصابات سيئي السمعة الذين يدعمهم الروس ويأتمرون بأمر قاطع الطريق الأكبر هارون، الذي يهدف لامتصاص دم الأمة وتفريغها من قيمها الأخلاقية «كي يضعف إيماننا بالله» قال رضا أخيراً «فزعزعة الاستقرار هدفهم لكنني أؤكد لكم: لن يفلحوا قط».

غير أنه كان، في السر، وجلاً أشد الوجل من هذا البرهان الأخير على عجزه عن مقاومة ابنته. وقد خيل إليه مرة ثانية أن سنوات عظمته وتشييده لصرح استقرار البلاد العظيم ليس أكثر من وهم خادع، وأن آلهة الانتقام هذه إنما تمشي بحذائه سامحة له أن يرتفع ويرتفع بحيث يغدو سقوطه أشد هولاً، فلذة كبده ضده وما من أحد يملك القدرة على الدفاع ضد خيانة كهذه. وهكذا بات رضا، وقد استسلم لكآبة قاتلة حملها له تيقنه من دنو يوم الحساب، يدع شؤون الحكم اليومية لجنرالاته الصاعدين الثلاثة، مدركاً أنه إن قتلت صفية زنوبيا إحدى جماعات البحث الكثيرة التي بدأت تجوب الريف بحثاً عن الإرهابيين، فإنها

ستحدد هويتها أيضاً، وقد يودي عار ذاك الاكتشاف بمجده كله، وإذا ما استطاعت التملص من مطارديها، فلن يكون في ذلك نفع أيضاً، إذ بات يرى بأم عينه أن ما تفعله صفية إنما يتحرك شيئاً فشيئاً باتجاه الداخل، يدور حلزونياً وعلى نحو لا مناص منه نحو المركز، إلى الحجرة ذاتها التي يذهب فيها ويجيء وقد جافاه الرقاد، ساحقاً مع كل خطوة من خطواته قشور نوى الصنوبر التي تغطي الأرض كما تغطيها السجادة، فيما يحدق عمر الخيام شاكيل، المؤرق أيضاً، عبر نافذة العلية إلى ظلمة الليل المشحونة بالأخطار.

في أذنه اليمنى يخيم السكون والصمت، لقد اختفى مولانا داود. لم يعد يحدثه قط. وهكذا، منكوباً بصمته ذاك الذي بات قاهراً مغيظاً كهذر اسكندر حربا الذي لا ينقطع في أذنه اليسرى، غرق رضا حيدر أكثر فأكثر في كثبان يأسه الرملية، مدركاً أن الله سبحانه وتعالى قد تخلى عنه تاركاً إياه لأقداره.

لا، أنا لم أغير رأيي بصدد السيد هارون حربا: فالرجل أحمق لكن الزمن يحمل لضحاياه أموراً غريبة تثير السخرية، فهارون الذي كان ذات يوم يتلفظ بشعارات ثورية كاذبة ويلقي بالنكات حول زجاجات المولوتوف فيما هو يمتطي ظهر سلحفاة بحرية، بات الآن يجسد ذلك الشيء الذي كان يزدريه في الماضي، بات قائد عصابة سيئ السمعة تأتمر بإمرته عصبة من المتمردين اليائسين.

سمحت السلطات لراني وآرجوماند حربا بإصدار بيانات من موهينجو تنددان فيها بالنشاطات الإرهابية. لكن هارون كان قد اشتد عناداً إلى درجة لا حدود لها، عناد رجل غبي كل الغباء، ولم يكن موت اسكي حربا قد شفاه من هاجسه الذي تثيره بصورة دائمة ذكرى غودنيوز حيدر. إذ ليس من غير المألوف أن يعود حب ميت فيولد من جديد على شكل نقيضه، لذا بات اسم «حيدر» في تلك الأيام يعمي هارون عن كل لون سوى الأحمر. ومن سخرية القدر أكثر وأكثر، أن خطفه لطائرة مدنية

كانت تجثم في مطار بلدة «ك» لم يفد إلا في صرف الانتباه، حيناً من الزمن، عن فضيحة جرائم القتل التي كان يقوم بها النمر الأبيض وأزمة الحكم التي كان يتخبط فيها الرئيس حيدر.

حين أرسل الجنرال راضي للسيطرة على الطائرة المخطوفة في بلدة «ك»، باشر هذا خطة تثير الانتباه. فقد أعطى تعليمات لسلطات الأمن المحلية تقضي بأن تعمل تلك السلطات على مداهمة رجال حربا أكبر قدر مستطاع. «قولوا لهم إن هناك انقلاباً في الطريق» اقترح راضي، فدهش هو نفسه لما في فكرته من إلهام، «قولوا أيضاً إن حيدر قد اعتقل وأن نساء موهينجو سيطلق سراحهن في الحال» خدع ذلك هارون حربا، المغفل، فأبقى الطائرة وهي بكامل ركابها على أرض المطار، ثم انتظر الدعوة لاستلام السلطة.

حرارة النهار اشتدت. قطرات العرق بدأت تتكثف على سقف حجرة الركاب وتسقط على رؤوسهم كأنها المطر. مؤن الطائرة من الطعام والشراب بدأت تتناقص، فأرسل هارون لنفاد صبره وغرارته، رسالة لاسلكية من برج المراقبة طلب فيها إرسال وجبة طعام، فقوبل طلبه بكل تهذيب وأدب، إذ قيل له ليس باستطاعتهم أن يفعلوا ما يليق بزعيم المستقبل سوى إرسال مأدبة كبيرة فاخرة إلى الطائرة، مع رجائهم الشديد بأن يأكل ويشرب ملء بطنه، مؤكدين له أنهم سيعلمونه باللحظة التي تغدو سلامته مضمونة فيها إذا ما ظهر وهكذا جمع الإرهابيون أنفسهم حول طعام الأحلام ذاك، «صفيحة» الأمل الواقع فيما وراء الأمل، «ومرطبات» الوهم، لكن بعد ساعة من إنهائهم لوجبة الطعام، سقط الجميع غارقين في سبات عميق رغم شدة الحر وقد انفتحت الأزرار العليا من بنطلوناتهم. حينذاك صعد رجال الأمن إلى الطائرة ثم شدوا وثاقهم جميعاً دون أن يطلقوا طلقة واحدة. بحث الجنرال راضي في مقر رئيس الأركان عن حيدر فقيل له إنه في علية يأسه. دخل العلية فوجد رضا وعمر الخيام هناك ضائعين في متاهات صمتهما. «أخبار

رائعة يا سيدي» أعلن راضي لكن ما إن أنهى تقريره حتى أيقن أن قدمه انحرفت عن الطريق الصحيح مرة ثانية إذ إن الرئيس أحاطه بذراعه ثم هدر صائحاً: «إذاً، أوقعت حربا في الفخ، آ؟؟ فمن تقترح أن يكون المتهم في ما يتعلق بعمليات القتل التي يقوم بها النمر الآن؟». عند ذلك احمر الجنرال راضي خجلاً احمرار عروس ليلة عرسها ثم بدأ يعتذر، لكن لشدة دهشته، لم يستطع الإفصاح بشيء فتلعثم قائلاً: «لكن يا سيدي، من المؤكد أن القضاء على عصابة الاسكندر سيضع حداً لجرائم القتل التي تقطع فيها الرؤوس».

«اذهب، هيا، اغرب عن وجهي» غمغم رضا، فرأى راضي أن غضب الرئيس مكتوم ناءٍ «كما لو أنه رهن قدر خفي ما» حينها غادر الغرفة تتكسر قشور الصنوبر تحت نعليه.

لكن عمليات القتل استمرت: فلاحون، كلاب بقعاء، ماعز بحيث كانت تشكل تلك العمليات حلقة ـ موت حول العاصمة، بشقيها: الجديد والقديم. جرائم قتل بلا ناظم أو سبب، ترتكب على ما يبدو حباً بالقتل، أو تلبية لحاجة بغيضة ما. بيد أن القضاء على هارون حربا قضى في الآن نفسه على التفسير المعقول الذي كان يقدم من قبل، فبدأ الهلع يشتد. فرق البحث عن الإرهابيين تضاعفت أول مرة ثم تضاعفت مرة ثانية، مع ذلك ظل النمط الدموي المحدق بالمدينة يتقدم شيئاً فشيئاً. فبدأت فكرة الوحش تلقى قدراً من الجدية لدى الصحف، إذ ورد في إحدى المقالات «يبدو هذا الوحش وكأنه قادر على سحر ضحاياه، فليس هناك دليل على أن الضحية تقاوم» كما رسم أحد رسامي الكاريكاتور صورة لأفعى ضخمة من نوع الكوبرا وقد سمرت في مكانها قطيعاً من النموس ذات الأسلحة الفتاكة إنما المجردة من كل قوة.

«لم تعد بعيدة الآن» قال رضا حيدر بصوت عال وهو في عليته. «إنه الختام» فوافق عمر الخيام. ولقد خيل إليه أن صفية زنوبيا تجرب قوتها، تمتحن ما تمتلكه تانك العينان المنومتان مغناطيسياً من تأثير على

استدعى رضا ثالوثه من الجنرالات، فجاء راضي وبكر وفيصادي كي يسمعوا رضا وهو ينثر على مسامعهم، وللمرة الأخيرة، البقية الباقية من أوامره السلطوية القديمة فقد طلب وهو يلوح بالصحف في وجه الجنرالات قائلاً: «ألقوا القبض على هؤلاء المخربين، أريدهم في أشد السجون حلكة، أريدهم أن ينتهوا، أن يزولوا عن وجه الأرض». فانتظر الضباط الثلاثة إلى أن انتهى ثم قال راضي ببهجة من انتظر طويلاً مجيء تلك اللحظة: «سيدي الرئيس، نحن لا نعتقد أن من الحكمة القيام بعمل كهذا». «ستفرض الإقامة الإجبارية علي خلال يوم أو يومين». قال رضا لعمر الخيام: «أي حين يهيئون الجو. إنها الستارة الأخيرة كما قلت لك، إنه راضي، ذاك الجنرال الطموح لكن كان علي أن أعلم أنني أفقد زمام الأمور. فحين يحلم جنرال في هذا البلد اللعين بانقلاب، يمكنك أن تراهن بأنه سيحاول القيام بانقلاب وسينفذه حتى وإن ذكر ذلك في البداية كنوع من المزاح أو الحيلة».

كيف يسقط الطاغية؟ راضي، بكر، فيصادي، يسار، صحافيون، عمليات حظر. صلات الوصل القاتلة يلمح إليها في الصحف: ديوك بينكي اورانجزيب الرومية الميتة، الفشل الذي انتهى إليه عرس غودنيوز حيدر وعنق تلفار الحق المتيبسة، نظريات عن الغلمان الذين وجدوا مقتولين في الأحياء الفقيرة، ومن ذلك كله يتكون الخبر أخيراً، فيقول رضا حيدر «الناس أشبه بالحطب الجاف وهذه الشرارات تشعل نيراناً».

بعدئذ تحل الليلة الأخيرة.

طوال النهار ثمة حشد من الناس يتجمع حول الأسوار، حشد يتزايد غضبه كلما تزايد عدده، ها هو ذا الليل قد حل، لكنهم ما زالوا يسمعونه وهو يدور على نفسه منشداً الأناشيد، مطلقاً الصيحات، هازئاً ومن أماكن أبعد تأتي أصوات كالصفير، ألق نيران وصراخ. أين هي؟ يتساءل شاكيل، هل تأتي يا ترى ومتى؟ كيف سيقضى الأمر، يفكر عمر: باندفاع الغوغاء إلى القصر، بإعدامهم كل من فيه دون محاكمة، بسلبهم

القصر ونهبهم له، بإشعالهم النار فيه ـ أم بالطريقة الأخرى الأكثر غرابة، يتفرق الناس مثل مياه أسطورية، بإشاحتهم عيونهم بعيداً، بالسماح لها بالمرور كي تقوم بعملها القذر: هي بطلتهم، وحشهم ذو العينين الناريتين؟ ثم يفكر كالمجنون، بالطبع، لم يرسلوا جنوداً لحمايتنا، ترى أي جنود يضعون أقدامهم في بيت يحيق به الدمار!؟.. بعدئذ يسمع في الممرات السفلية أصواتاً ناعمة أشبه بأصوات الجرذان، همسات الخدم وهم يفرون من المنزل، على رؤوسهم مفارشهم المطوية، الحجاب، العتالون، الكناسون، الجنائنية، الخدم المؤقّتون إضافة إلى المربيات والخادمات. بعضهم يصحبه أطفال ربما كانوا في ضوء النهار سيبدون أطفالاً حسني التغذية مقارنة بأسمالهم الرثة، لكنهم سيبدون في ظلمة الليل أشبه بأبناء الفقراء. سبعة وعشرون طفلاً، يسمع عمر وقع خطاهم، فيعدهم في مخيلته وهم يرحلون، ثم يشعر بترقب يملأ الجو إلى أن يطغى على جمهور الليل غير المرئي. فيناشد رضا قائلاً: «بحق الله دعنا نحاول الخروج» لكن حيدر بات رجلاً مسحوقاً، عاجزاً للمرة الأولى في حياته عن ذرف الدموع من عينيه، فيهز كتفيه «مستحيل. الجماهير. وخلف الجماهير ثمة الجند».

الباب يصرف، قدما امرأة تسحقان قشور الصنوبر الفارغة المتبعثرة. عبر قشور الصنوبر يقترب طيف منسي ـ طيف بلقيس حيدر وهي تحمل كومة من ثياب عديمة الأشكال، مجموعة اختارتها مما اشتغلته في سنوات عزلتها تلك. براقع وملاءات، يراها عمر الخيام فينبثق في داخله الأمل، عباءات تستر المرء من رأسه حتى قدميه، ملاءات تخفي أحياء كالأموات يلبسون الأكفان. «البسا هاتين» تقول بلقيس ببساطة فيمسك شاكيل بالملاءة النسائية ثم يختفي داخلها، بعدئذ تسحب القماش الأسود فوق رأس زوجها المستسلم، ثم تقول له: «ابنك جاء أنثى بدلاً من أن يأتي ذكراً. والآن عليك أنت أيضاً أن تغير جنسك. فقد كنت أعلم أنني أخيط هذه لسبب من الأسباب». الرئيس مطواع خاضع، يسمح للآخرين

أن يقودوه، فيختلط الهاربون المحجبون بالسواد بالخدم الفارين عبر دهاليز المنزل المعتمة.

وهكذا سقط رضا حيدر: في اللامعقول، في الفوضى، في لباس النساء، في السواد.

لا، لا أحد يسأل. نسوة يلبسن الحجب. فينسل الجميع عبر الغوغاء، يخترقون طوق الجند فسيارات الجيب فالشاحنات العسكرية. أخيراً يتكلم رضا: «والآن، ما العمل؟ أين نذهب يا ترى؟».

عمر الخيام المفعم بإحساس من يحلم، يسمع نفسه وهو يجيب: «أظن أنني أعرف مكاناً».

وصفية زنوبيا؟

صفية لم تهاجم القصر الفارغ، كما أن أحداً لم يمسكها ولم يقتلها بل لم ترها عين في تلك الناحية من البلاد. لقد بدا وكأن جوعها أشبع، أو كأنها لم تكن أكثر من شائعة، قصة خرافية، وهم جماعي خلقه شعب مخنوق، كابوس صنعه الغضب، أو كأنها، هي التي أحست بالتغير في نظام العالم، قد انسحبت تهيئ نفسها للانتظار، برهة قليلة أخرى من القرن الخامس عشر ذاك، إلى أن تحين لحظتها المناسبة.

(٥)

يوم الحساب

الأمر انتهى تقريباً.

إنهم يتوجهون نحو الجنوب والغرب محجبين بملاءات النساء، يدقون بقبضات أيديهم على الباصات، يتسللون متسترين بظلال المحطات، دائماً على الطرق الفرعية، في الباصات ذات الرحلات القصيرة، متحاشين وسائط النقل التي تستخدم الطرق الرئيسية. إنهم يغادرون هضبة بوتوار، ينحدرون إلى السهول المليئة بالأنهار، قبلتهم حدود البلاد الواقعة ما وراء بلدة «ك»، المال الموجود في جيوبهم هو كل ما يملكون، لذا يأكلون قليلاً ويشربون كثيراً: منشطات خضراء، شاياً زهرياً يصب من أباريق ألمنيوم كبيرة، ماء مستمداً من بحيرات صفر تتمدد فيها جواميس خاملة. طيلة يومين لا ينطق واحدهم بحرف تقريباً، يرغمون أنفسهم على البقاء صامتين خاملين حين يمر أفراد الشرطة تتفحص أعينهم أرتال المسافرين المنتظرين في محطات السفر في المدن الصغيرة، وتضرب سياطهم أفخاذهم ذات السراويل القصيرة. الذل الحقيقي بالنسبة إلى شاكيل وحيدر هو ذهابهما إلى مراحيض السيدات. وليس هناك بلاد أفقر من بلاد الفرار.

لم يمسك بهم أحد، فلا أحد يتوقع أن يجد رئيس جمهورية فاراً في ثياب امرأة وفي باص عتيق من الدرجة الثالثة. لكن، ثمة أيام وليال تمر بلا رقاد، ثمة خوف ويأس. فرار عبر أرض مليئة بالألغام. وفي الحر الخانق الذي تتميز به المناطق الريفية يقاطع مذياع الباص عذابات

المطربين وتأوهاتهم كي يتكلم عن أعمال الشغب وإطلاق النيران وفي مناسبتين اثنتين يجدون أنفسهم في باصات يحيط بهم المتظاهرون، فيتساءلون إن كانوا سيلقون مصرعهم في بلدة كالحة مجهولة الاسم طعاماً لألسنة النيران. لكن في كلتا المناسبتين يسمح للباصات بالمرور أخيراً. شيئاً فشيئاً تدنو الحدود، خلف الحدود ثمة أمل، احتمال أمل: أجل، قد يكون هناك ملاذ عبر الحدود، في ذلك البلد المجاور، بلد الملوك ـ الكهان، بلد الرجال المؤمنين الذين يوفرون الأمان بالتأكيد لزعيم ساقط، على جبهته كدمة من أثر السجود. وعند ذاك قد يكونون نائين كفاية عنها، هي إلهة النقمة الجهنمية، بعيدين عن انتقام فلذة كبد رضا حيدر الذي ألغت رجولته ملاءة نسائية خاطتها زوجته، إنه يأمل ذلك، يرجوه كل الرجاء، يتعلق بقشة التفاؤل تلك.

الحدود، يتعذر على الشرطة رصدها. الأعمدة الإسمنتية تنتصب عبر المجاهل والقفار. عمر الخيام يتذكر قصصاً عن أناس يعبرونها ساعة يشاؤون، عن زهر عشتار ذلك الجمركي القديم الذي أفقره انفتاح الحدود ذاك، حرمه كل من الملحقات التي يمكن أن تضاف إلى دخله. ذكرى فرح رودريغز التي تثيرها تلك الذكريات تكاد تخنقه، وهي تمتزج داخل بلعومه بذكرى المربية شهبانو، عندئذ يبدأ الدوار. وفيما يتذكر الغيمة التي حطت على طول الحدود وأخافته إلى درجة سقط معها مغشياً عليه في أحضان فرح، يدرك أن دواره القديم يعود من جديد يعذبه، ينقض عليه وهو قابع في باص يعج بالدجاج الذي ينقر رقبته وبالمسافرين المصابين بدوار ـ السفر المرميين في ممر الباص وهم يتقيأون على رجليه. الدوار يحمله على أجنحته عائداً به إلى طفولته، يريه مرة ثانية أسوأ الكوابيس التي كانت تنتابه، هوة الفراغ الفاغرة فاها. أعمق أعماق عمر الخيام تجيش مرة أخرى، الدوار يمخضها، فتنذره بأنه مهما يقل عليه أن يعلم أن الحدود هي نهاية عالمه، حافة أشيائه وأن الأحلام الحقيقية هي تلك الأفكار البعيدة المنال، أفكار اجتياز تلك الحدود

الخارقة للطبيعة، الأحلام الحقيقية هي ذلك الضرب من الهلوسة المجنونة حول أرض الميعاد. «عد إلى أرض نيسابور»، تهمس في داخله أصوات، «فذلك هو المكان الذي ظل وجهتك طيلة حياتك، قبلتك مذ غادرته».

الخوف يصارع الدوار ويصده، يمنحه القوة في ألا يغمى عليه. لكن اللحظة الأسوأ تأتي في النهاية تقريباً. إنهم يصعدون إلى متن آخر باصات هروبهم، الباص الذي سيقلهم إلى بلدة «ك»، عندئذ يسمعون المزحة المخيفة. «انظروا ما آل إليه أمرنا في هذا البلد» يقول سائق الباص ساخراً، «حتى العاهرات يلبسن الملاءات الآن» إنه ضخم الجسم، ذو ذراعين كجذوع الأشجار ووجه كمسند مصنوع من شعر الخيل وفي الحال يبدأ كل من في الباص من عمال حقول غاز ومناجم قصدير، يبدأون حفلة صاخبة من الصفير، القهقهات، الكلمات البذيئة، الولولات، الأغاني. ثم تمتد الأيدي، تقرص مؤخرات المحجبات، فيفكر عمر الخيام «هي ذي النهاية، قضي الأمر، وقعنا في الفخ، انتهينا»، لا يراوده شك في أن أحد الناس سينزع عنهم الحجب وبذلك ينكشف أخيراً وجه حيدر، ذلك الوجه المشهور ـ لكن في تلك اللحظة بالضبط يعلو صوت بلقيس فيخرس الركاب تماماً.

«لكم الخزي والعار» تصرخ بصوتها الأنثوي الذي لا مراء فيه «هل انحط الرجال في هذه المنطقة إلى درجة يعاملون فيها سيداتهم معاملة العاهرات؟».

ويخيم على الباص سكون مطبق مفعم بالضيق. ثم يعطي السائق، وقد احمر خجلاً، أوامره لثلاثة من العمال الزراعيين بإخلاء مقاعدهم الأمامية «كيلا تتعرضن أيتها السيدات لأية مضايقة بعد ذلك. نعم، إنها مسألة شرف بالنسبة إلي، فقد تلطخت كرامة باصي بالوحل».

وهكذا: في باص غارق بالصمت والندامة، عقب تجاوز الخطر الشديد الذي داهمهم، يصل عمر الخيام شاكيل ورفيقاه، بعد منتصف

الليل مباشرة، إلى محطة الباص في ضواحي بلدة «ك»، عارجاً على قدمين تؤلمانه، مجرداً من دعم العصا التي اعتاد التوكؤ عليها والتي اضطر لتركها حيث كان. بعد ذلك يقودهما، منهكاً مستنفد القوى، عبر شوارع معتمة إلى بناء كبير يقع بين الكانتونمنت والسوق العامة حيث يكشف عن نفسه بإطلاق صفرة معينة، يظل يكررها إلى أن يرى حركة في نافذة علوية، بعدئذ تبدأ آلة ميستري يعقوب بالوش هبوطها، ثم ترفعها إلى قلب «نيسابور» الوطن الأم، مسقط الرأس، وكأنهم دلاء ماء تسحب من بئر.

حين عرفت أمهات عمر الخيام شاكيل هوية الماثل أمامهن تنفسن الصعداء وكأنما تخلصن، بعد سنوات كثيرة، من بدلات ضيقة تشد على أجسامهن. بعدئذ جلسن جنباً إلى جنب، على مقعدهن الهزاز القديم ذي الصريف المشهور، وهن يبتسمن. بسمات بريئة بهيجة كانت، لكن تماثلها الشديد على الأفواه الثلاثة الهرمة أضفى عليها نوعاً من التهديد بالخطر متميزاً وإن يكن غير محدد المعالم. إنه منتصف الليل، غير أن إحدى العجائز الثلاث، التي لم يستطع عمر الخيام المرهق أن يميز أنها الأم شوني إلا بالكاد، أمرته أن يمضي حالاً إلى المطبخ وأن يغلي الشاي، وكأنما عاد لتوه إلى البيت بعد غياب دقيقتين ليس إلا. «لم يعد ثمة خدم» اعتذرت شوني شاكيل بكياسة بالغة لرضا حيدر الذي كان قد نزع البرقع عن وجهه، تهاوى بين ذراعي أقرب كرسي في حالة من الانهيار لا يشكل التعب إلا تفسيراً جزئياً لها «لكن لا بد من أن نقدم لأول زوار لنا منذ خمسين سنة شيئاً من ضيافة، كأس ترحيب». وهكذا مضى عمر متهالكاً إلى المطبخ ثم عاد بالصينية إنما لتستقبله الأم الثانية، أو بالأحرى ما أبقته الأيام من موني ـ الوسطى بتوبيخ ودي: «عبث، أقسم على ذلك. أي إبريق جئت به يا ولد؟ اذهب إلى الخزانة وهات أفضل إبريق». تبع عمر إصبعها المؤشرة فوجد نفسه أمام خزانة أوان من خشب الساج اكتشف فيها، وهو أسير دهشة بالغة، الطقم الصيني

المؤلف من ألف قطعة والذي كان قد افتقد منذ زمن طويل، ذلك الطقم الذي صنعه ذات يوم غاردنر في روسيا القيصرية، تلك الأعجوبة من أعاجيب الفن الزاخر في الذي تحول إلى أسطورة من الأساطير مذ كان طفلاً. فبعثت الصحاف والطباق العائدة من قبورها ضرباً من الاحمرار اللاهب في محياه، مالئة أفكاره المدوّمة برعب الحنين إلى المنزل موحية إليه بفكرة مزعجة سريعة الزوال هي أنه عاد إلى بيت لا تسكنه سوى الأشباح. لكن كانت الكؤوس وصحونها الزرق الوردية حقيقة ملموسة، فشرع يرتبها على الصينية ترتعش أصابعه رعشة الشك.

«الآن، أسرع إلى علبة «البيك فرين» وائت بالكعك»، طلبت إليه بوني أمه الصغرى، وصوتها الثمانيني يرتعش بهجة لم تحاول حتى تفسيرها، فغمغم عمر الخيام بكلام غامض غير مسموع ثم تحامل على نفسه وهو يعرج سعياً وراء الكعك العفن الذي أضفى اللمسة الأخيرة على اللامعقولية الغريبة لحفل الشاي، ذلك الكابوس الذي طغى عليه التكلف فوافقت شوني وهي تقطع شرائح الكعك اليابس وتقدّمه للضيوف قائلة: «هذا يليق أكثر بضيوف مبجلين كضيوفنا. إنها تقاليد الضيافة».

لكن حين خرج عمر الخيام من الغرفة لإحضار الكعك، لاحظ أن أمهاته أجبرن بلقيس حيدر، بقوة ملاطفتهن وسحرها، على خلع برقعها. فبدا وجهها الخالي من الحاجبين، الشاحب كالغبار، الميت ـ نعاساً، أشبه بقناع ـ موت ليس فيه ما يدل على الحياة سوى نقاط صغيرة من اللون الأحمر على وجنتيها، الأمر الذي جعل مشاعر عمر الخيام البائسة أشد بؤساً من ذي قبل. وهكذا بدأ كوبه يرتعش في يده حين عصر قلبه من جديد خوف راعش طفق يتسرب إليه، خوفه من الجو السري الرهيب الذي يسود بيت أمهاته، ذلك الجو الذي يستطيع تحويل الأناس الأحياء إلى مرايا لأشباحهم، لكن حينذاك تكلمت بلقيس، فقذفه بعيداً عن تلك الخيالات المنهكة تعبيرها عن فكرة أشد خصوصية. «ذات مرة كان هنالك عمالقة» بدأت بلقيس حيدر بصوت حذر مكتئب، فقوانين التكلف

ترغمها على فتح الحوار، لكن كان قد مضى زمن طويل مذ كانت تنخرط في مثل تلك الحوارات، لقد أضاعت قدرتها على ذلك، كما كان هنالك التوتر والوهن اللذان خلفهما الفرار الطويل فضلاً عن حالتها الغريبة الشاذة خلال سنواتها الأخيرة تلك. حين بدأت بلقيس الكلام كانت ترشف الشاي وتبتسم ابتسامات وضاءة رداً على ابتسامة مضيفاتها الثلاثية فبدت وكأنها تتخيل أنها تروي من جديد خبراً صغيراً مسلياً أو تسهب في حديث ذكي حول صرعة من صرعات الأزياء الراقية، فكررت مؤكدة: «ذات مرة كان العمالقة يجوبون الأرض. أجل، العمالقة بالتأكيد، إنها حقيقة». وفي الحال صدر عن الأمهات الثلاث صريف كصريف الأبواب. رحن يتأرجحن في مقعدهن وعلى وجوههن المبتسمة تعابير الافتتان والاستغراق، لكن رضا حيدر لم يلحظ شيئاً، فقد كان مغمض العينين، يطلق الأنات بين الفينة والفينة. «أما الآن فالأقزام هم المسيطرون» تابعت بلقيس بنوع من البوح بالسر. «إنها شخصيات ضئيلة، نمال. أما هو فقد كان عملاقاً ذات يوم»، ثم مدت إبهامها باتجاه زوجها الغافي «قد لا تصدقن إلى درجة لا تتطلعن إليه، لكنه كان هكذا. كانت الشوارع التي يجتازها ترتعد خوفاً وإجلالاً. حتى هنا، في هذه البلدة بالذات. لكنكن ترين أن بالإمكان تقزيم حتى العمالقة، لقد تقلص الآن، تضاءل حتى غدا أصغر من بعوضة. أقزام، أقزام في كل مكان، حشرات، نمال ـ العار والشنار على العمالقة، أليس كذلك؟ الشنار عليهم لتضاؤلهم وصغارهم، ذلكم رأيي. . . »، كانت العجائز الثلاث يومئن برؤوسهن بكل رزانة ورصانة طوال مندبة بلقيس تلك، بعدئذ أسرعن للموافقة على كلامها فأعلنت شوني بأدب جم «صحيح تماماً» ثم تدخلت موني «العمالقة، كم هذا صحيح. . أجل إنهم كانوا هناك» بعد ذلك ختمت الكلام بوني شاكيل قائلة: «أجل، لا بد من ذلك إذ كانت هناك ملائكة أيضاً. . بل إنها لا تزال موجودة حولنا، أوه، أجل نحن واثقات من ذلك»:

واصطبغ وجه بلقيس، وهي ترشف شايها، بلون أحمر غير طبيعي مزيلاً بذلك صورة قناع ـ الموت، فعلى ما يبدو كانت قد صممت على إيجاد العزاء في ذلك المشهد المرعب بغية إقناع نفسها بأنها تصل بر السلام حين تعقد أواصر مودة سريعة يائسة مع الحيزبونات الثلاث.. لكن عمر الخيام كف عن ملاحظة الأشياء، فحين جاءت أمه الصغرى على ذكر الملائكة أدرك السبب في ارتفاع معنويات الأخوات شاكيل، ذلك الارتفاع الغريب. لقد ارتجلت أمهاته الثلاث ذلك المشهد السريع من مشاهد مسرح المجانين كي يتجنبن الإتيان على ذكر فتى قضى نحبه في يوم من الأيام، لكن كان هناك، في قلب حسن ضيافتهن وابتسامتهن، فجوة، وكن يتفادين الوقوع فيها، يعملن على محاذاة أطرافها، يحمن حول تلك الهوة الخاوية مثلما فعلت مخلوقات هاربة بنوافذ كانت قد سدت بالآجر. كن يحمن حول ذلك الغياب، ذلك الشكل لمن لا يمكن ذكر اسمه بابار شاكيل. أجل، تلك هي النقطة، فقد كن في حالة من النشوة، ذلك أن رضا حيدر وقع في قبضتهن أخيراً، وليس باستطاعتهن أن يرين سوى سبب واحد لإتيان عمر الخيام به إلى هذا المكان، لذا كن يحاولن عدم إفساد الأمور، ساعيات إلى تهدئة ضحاياهن، إلى إغراقها بشعور من الأمان الزائف إذ لم يكنَّ يرغبن في أن يشعر آل حيدر بالضيق فيحاولوا الفرار، وفي الوقت نفسه كن يتنفسن الصعداء، مقتنعات بأن الأوان قد آن أخيراً، حان وقت الثأر، ولسوف يتم ذلك الثأر تحت أسماعهن وأبصارهن. كان عمر الخيام يعلم كل العلم أن أمهاته الثلاث سيرغمنه على فعل ذلك، سيرغمنه على أن ينفذ، بأعصاب باردة لا تعرف الندامة، حكم الموت برضا حيدر تحت سقف بيته.

في الصباح التالي أفاق عمر على صوت بلقيس حيدر وهي تصفق النوافذ فجاهد للخروج من فراشه الذي كان مبللاً عرقاً، وعلى نحو لا تفسير له، لكن ساقيه كانتا أوهى وقدميه أكثر إيلاماً من المعتاد، فتحامل على نفسه لرؤية ما يجري. رأى عمر أمهاته الثلاث يرقبن بلقيس وهي

تدور كالإعصار في المنزل، مغلقة النوافذ بعنف شديد، وكأنها مغضبة من أمر ما، مثبتة المصاريع منزلة ستائر النوافذ. لكن ما أدهش عمر كل الإدهاش، وكأنما يرى ذلك للمرة الأولى، إنما هو قامات أمهاته الطوال، أمهاته اللواتي بدون أشبه بأذرع ممتدة عالية في السماء. كانت الأمهات الثلاث يقفن وقفة عزلة متبادلة تستند واحدتهن إلى الأخرى بمرفقها، لكن دون أن يبذلن أية محاولة لمقاطعة اندفاع بلقيس المسعور في عملية إغلاق النوافذ. شعر عمر الخيام برغبة في إيقافها عند حدها، فحين أغلقت النوافذ غدا الهواء في الداخل أشد وطأة ولزوجة إلى درجة أحس معها وكأنه يستنشق حساء كثير التوابل، لكن أمهاته الثلاث أشرن إليه بالتزام الهدوء، ثم همست الأم شوني قائلة: «إنها ضيفتنا، لهذا السبب يمكنها أن تمكث هنا إلى الأبد»، لقد خمنت العجوز أن سلوك بلقيس سلوك امرأة قطعت شوطاً بعيداً على طريق الجنون، سلوك امرأة كفت عن الاعتقاد بالحدود وما يقع وراء الحدود. كانت بلقيس تتمترس ضد العالم الخارجي آملة أن يدعها وشأنها، وكان باستطاعة الأخوات شاكيل أن يفهمن ذلك دون أن يسمعن كلمة واحدة عنه. «لقد عانت» قالت موني شاكيل وقد افتر ثغرها عن ابتسامة غامضة «لكننا نرحب بها هنا كل الترحيب».

أحس عمر الخيام بأن الهواء حوله يتخثر على شكل حساء وأن جراثيم رهاب الاحتجاز بدأت تتكاثر. لكن، كان ثمة جراثيم أخرى أيضاً، وهكذا، حين انهارت بلقيس في نوع من الخدر الشديد، خمن عمر الخيام معنى الوهن الذي شعر به في ذلك الصباح، والاحمرارات اللاهبة والسيقان الرخوة كالمطاط «ملاريا» شعر بلسانه ينطق، ثم بدأ الدوار يلفه. بعدئذ هوى إلى جانب بلقيس حيدر، بارد الأطراف ملتهب الصدغين.

في تلك اللحظة أفاق رضا حيدر من حلم مزعج رأى فيه الأشلاء العديدة التي انتهت إليها جثة المرحوم سندباد منغال تعود للظهور أمام

عينيه، وقد ركب بعضها على البعض الآخر بأسلوب خاطئ، فرأس الرجل في بطنه، وقدماه في موضع رأسه والأخمصان نحو الأعلى وكأنهما أذنا حمار تنبثقان من عنقه. لم يقم منفال بتوجيه أي اتهام على الإطلاق، لكن مجرد ظهوره كان تحذيراً لرضا بأنه، طبقاً للنحو الذي تسير عليه الأمور، سيغدو السيد الجنرال ذاته أشلاء خلال بضعة أيام. نهض ريزور غوتز العجوز، وهو لا يزال نصف نائم من فراشه صارخاً «خطر، خطر» لكن المرض كان قد بدأ يكوي داخله أيضاً، فهوى على فراشه من جديد يشهق طلباً للهواء ويرتعد وكأنه في عز الشتاء، حينذاك جاءت الأخوات شاكيل ثم وقفن بجوار سريره يرقبنه وهو يرتعش.

«كم هو رائع» قالت بوني شاكيل بارتياح «فالجنرال، على ما يبدو، غير متعجل للرحيل». كانت الحمى نوعاً من النار التي تجعلك تبرد. لقد حرقت الحواجز القائمة بين الوعي والرقاد، بحيث لم يعد عمر الخيام يعلم: أحقيقة ما ترى عيناه أم وهم؟ وقد جاءه حين من الزمن ظن فيه، وهو يستلقي في غرفته المظلمة، أنه سمع بلقيس تصرخ بكلام ما عن الحمى الدماغية، عن العقاب والحساب، المرض الذي عطل ابنتها والذي حل بأبويها في مدينة عارها. كما خيل إليه أيضاً أنه سمع رضا يهتف طالباً بذور الصنوبر، وفي مرة أخرى كان واثقاً من أن الشبح المنسي، شبح معلم المدرسة إدواردو رودريغز، كان ينتصب بجوار السرير يشير إليه بإصبع الاتهام وهو يحمل طفلاً ميتاً بين ذراعيه ـ لكن لا يمكن أن يكون ذلك حقيقياً، لا بد أنه هذيان الحمى. كما مرت به لحظات شعر بها بما يشبه الإشراق، فدعا خلالها أمهاته وأملى عليهن أسماء الأدوية. كذلك ظلت في ذهنه نتف ذكريات عن تلقي معالجة. إنه يتذكر أذرعة ترفع رأسه، تدفع أقراصاً بيضاً في فمه، لكن حين عض واحداً منها بطريق الخطأ أحس بأن له طعم الكلس، فخامر الشك دماغه المحموم: إن أمهاته لم يطلبن عقاقير البتة. ولقد اشتدت حرارة أفكاره إلى درجة خطر له فيها الاحتمال القائل بأن الأخوات شاكيل كن سعيدات

بأن يدعن الملاريا تفعل فعلها القذر بهم وأنهن كن يرغبن بالتضحية بابنهن الباقي على قيد الحياة إذا كان موته يعني موت آل حيدر أيضاً. عند ذلك فكر: إما أن أكون أنا المجنون أو هن المجنونات، بعدئذ طغت عليه أمواج الحمى فغدا كل تفكير مستحيلاً.

أحياناً كان يخيل إليه أنه استعاد الوعي وأنه يسمع عبر النوافذ المغلقة والمصاريع المطبقة بإحكام نتفاً من أصوات غاضبة في الأسفل وكذلك طلقات، انفجارات، زجاج يتكسر وإذا لم يكن ذلك جزءاً من الهذيان أيضاً، فإنه لا يعني سوى أنه كان ثمة مشاكل في البلدة، أجل باستطاعته أن يتذكر بعض الصرخات بوضوح، مثال على ذلك: الفندق يحترق، فهل ذلك صحيح أم لا؟ الذكريات ترتد نحوه عبر مستنقعات المرض. إنه واثق الآن تقريباً من أنه سمع باحتراق الفندق، بانسحاق القبة المذهبة وهي تنهار، بآخر الأنغام المنضغطة المختنقة لجوقة موسيقية تنسحق تحت بناء يتداعى.

فصباح ذات يوم استطاعت سحابة الرماد المتصاعدة من الفندق الذي لفظ أنفاسه أن تدخل قصر «نيسابور» رغم المصاريع وألواح النوافذ التي كانت تحجب العالم كله عن مخدعه ثم غطت كل شيء بالمسحوق الرمادي المتخلف عن جثة الفندق المحترقة، مقوية إحساسه بأنه سقط إلى الأبد في هوة أشباح. لكن حين سأل إحداهن ـ أي أمهاته الثلاث يا ترى؟ ـ عن الفندق المحترق، أجابته ـ لكن من هي يا ترى؟ ـ قائلة: «أغمض عينيك الآن ولا تشغل بالك. الرماد في كل مكان، ويا لها من فكرة».

لقد ظل على اعتقاده بأن العالم الخارجي يتغير. النظم القديمة تهوي، بنى عظيمة تسقط لتحل محلها بنى أخرى. الأرض تتزلزل، فتنفغر هوى وترتفع معابد ـ أحلام وتهوي، منطق «الجبال المستحيل» حط على السهول. لكن، في هذيانه، في قبضة المرض الحارقة وجو المنزل البغيض، ما من شيء كان يبدو معقولاً سوى النهايات. كان باستطاعة

عمر الخيام أن يشعر بالأشياء تفتح تجاويف في داخله، يشعر بانزلاقات ترابية، بارتفاعات، بخبطة المبنى المتداعي على صدره، بأسنان العجلات تتكسر، بنغمة التعطل في صوت المحرك، فقال بصوت عال في مكان ما من ذلك الزمان المتوقف «هذا المحرك لن يدور بعد الآن».

إلى جانب فراشه كانت الأمهات يصرفن صريفاً حاداً وهن على مقعدهن الهزاز. لا، كم تراهن حركنه؟ ما الذي كن يفعلن به؟، إنه شبح، سراب، يرفض الإيمان بصحته، يغمض عينيه، يضغطهما بشدة، يفتحهما من جديد بعد دقيقة أو بعد أسبوع فيرى الأمهات الثلاث ما زلن في المقعد. إذاً، واضح تماماً أن المرض يتفاقم، الهلوسات تكسب الجولة. الأخوات يفسرن بأسى بالغ أن المنزل لم يعد واسعاً كما كان من قبل، «إننا نخسر غرفاً باستمرار» يقول طيف بوني الحزينة «هذا اليوم خسرنا مكتب جدك. أنت تعلم مكانه المعتاد، لكن إذا ما ذهبت الآن عبر ذلك الباب فإنك ستجد نفسك في غرفة الطعام، وذلك مستحيل، إذ يفترض أن غرفة الطعام تقع إلى الجانب الآخر من الممر». فتهز الأم شوني رأسها «أمر مؤسف يا بني، انظر ما يحل بعجائزك من مصائب هذه الحياة، لقد اعتدت على غرفة نوم معينة، لكن يأتي يوم، تطير فيه مثل نفخة هواء، تولي بعيداً. سلم الدرج يختفي، فماذا تفعل؟» بعدئذ تقول موني الوسطى وهي تنفث دخاناً «المكان يتقلص تقلصاً شديداً، لكأنه، وشرفي، قميص رخيص، ربما علينا أن نتسنفر (نغدو كالسنافر: تلك المخلوقات الخرافية البالغة الصغر) فقريباً جداً سيغدو البيت كله أصغر من علبة كبريت ولسوف نجد أنفسنا في الشارع». ثم تنطق الأم شوني بالكلمة الأخيرة: «في العراء، تحت أشعة الشمس تلك» يتنبأ شبح أمه الكبرى «ولكن لن يكون بمستطاعنا العيش بل سنتحول إلى ذرات تراب تسفونا الرياح».

بعد ذلك فقد وعيه مرة ثانية. وحين طفا على السطح، لم يكن هناك مقعد هزاز ولا أمهات، بل كان وحيداً في ذلك السرير ذي القوائم

العالية الأربع التي التفت عليها الثعابين وزخرفت كلتها بصور الفردوس. إنه السرير الذي احتضر عليه جده، ملؤه اليقين بأنه قوي كالحصان. إنه موعد النهوض. فيقفز من السرير ثم يتجول في منامته حافي القدمين ويخرج من الغرفة قبل أن يخطر في باله أن هذا ليس سوى وهم آخر، لكنه حينذاك يكون عاجزاً عن إيقاف نفسه، فقدماه اللتان لم تعودا تؤلمانه تسيران به في الدهاليز الغاصة بكل ما هب ودب فيرى أن من المستحيل أن يكون البيت قد تقلص بل يرى أنه قد اتسع عملياً، كبر وازداد رحابة إلى درجة بات يحتوي داخل جدرانه كل مكان وطئته قدماه. مجموع احتمالاته كلها: لقد فتح باباً عششت فيه العناكب فارتد منكمشاً قليلاً لدى رؤيته المجموعة الصغيرة المضاءة جيداً، مجموعة الأشخاص ذوي الأقنعة البيض وهي تنحني فوق جسم من الأجسام. إنها غرفة عمليات في مستشفى جبل حراء. الأشخاص يومئون له بأيديهم بطريقة ودية، يريدونه أن يشترك في العملية لكنه يخشى أن يرى وجه المريض. فيستدير مسرعاً، يشعر بقشور بذور الصنوبر تنسحق تحت عقبيه وفي الوقت نفسه تبدأ غرف المقر الرسمي لرئيس الأركان بالتشكل حوله. في لحظة من اللحظات يشرع بالجري، يحاول أن يجد طريق العودة إلى سريره، لكن الممرات تظل تدور، المنعطفات فيها تظهر دون إنذار، فيصل متقطع الأنفاس إلى سرادق مصقول كالمرآة، سرادق أقيمت فيه مائدة زفاف. هناك يرى وجه عروسه في شظية من شظايا مرآة، يراها وهي تضع أنشوطة حول عنقها، فيصرخ ملء صوته «ينبغي أن تبقي رهينة الموت»، الأمر الذي يجعل الضيوف كلهم يحملقون فيه. الضيوف جميعاً يرتدون ملابس رثة تجنباً لخطر ارتداء ملابس حسنة وهم يخوضون فوضى الشوارع واضطراباتها والكل ينشد بصوت واحد يا للعار يا للعار!! يا للعار والشنار!! كل البنات يعرفن اسمك. بعدئذ يجري مرة ثانية، لكنه يتمهل، فقد غدا أثقل خطاً، ذقنه تتصبب عرقاً، ترفرف نازلة من فكه إلى أن تلامس حمالتي صديرته، طيات كرشه المترهل تدق

ركبتيه، فيغدو عاجزاً عن التحرك، يحاول، لكنه يعجز عن التحرك، إنه يتصبب عرقاً مثل خنزير، حرارة، برد، لا مفر، يفكر عمر ثم ينقلب إلى الوراء فيما ينزل فوقه نزولاً رفيقاً كفن من الأكفان، كفن أبيض، رطب مبلل فيوقن أنه في الفراش.

بعدئذ يسمع صوته. فيعرف بعد جهد أنه صوت حشمة بيبي. إنها تتكلم من ثنايا غيمة: «طفل وحيد. إنهم دائماً يعمرون كثيراً، برؤوسهم المسكينة». لكنه لم يكن طفلاً وحيداً حينذاك.

احتراق، احتراق في تلك النار الباردة. حمى دماغية. بلقيس حيدر بجوار سريره تشير بإصبعها غاضبة إلى علبة «البيك فرين». إصبعها تتهم، فيما تقول شفتاها: «سم، جرثومة سامة في الكعك. لكننا كنا جائعين ولم يكن بوسعنا المقاومة فأكلنا». مزاج عمر الخيام يتعكر لهذه اللطخة التي لحقت باسم العائلة، فيشرع بالدفاع عن كرم أمهاته وحسن ضيافتهن. «لا، ليس هو الكعك، صحيح أنه كان عفناً، لكن لا تكوني مضحكة، فكري بالرحلة التي قطعناها بالباص، فكري بما تناولنا من شراب. أخضر أصفر وردي، ودفاعاتنا ضعيفة». فتهز بلقيس كتفيها ثم تمضي إلى خزانة الأواني تخرج كل قطعة من مجموعة الخزف الصيني طراز غاردنر، ثم تهشمها قطعة قطعة محيلة إياها إلى ذرات تراب أزرق ووردي تغطي أرض الغرفة. عمر يغمض عينيه، لكن الأجفان لم تعد قادرة على حجب الرؤية. ثمة أبواب في أمكنة أخرى، في أحدها يقف رضا حيدر ببزته الرسمية وعلى كل كتف من كتفيه قرد من القرود. القرد الجاثم على اليمين له وجه مولانا داود وقد أطبق كفيه على فمه، أما على الكتف اليسرى فيجثم قرد له وجه اسكندر حربا وهو يحك تحت إبطه. يدا حيدر تمضيان إلى أذنيه، أما يدا اسكي فتغطيان عينيه بعد الانتهاء من الحك، إلا أنه يتلصص من خلال أصابعه. «القصص تنتهي، العالم ينتهي» يقول اسكي القرد «ثم يأتي يوم الحساب» نار تشتعل، ثم ينهض الموتى، يرقصون بين ألسنة اللهب.

إبان غوصه في أعماق الحمى يتذكر عمر أن يحلم بأشياء لا يعقل أن تكون حقيقية، برؤى المستقبل، بما سيحدث في الختام. المنازعات بين الجنرالات الثلاثة، استمرار الاضطرابات الشعبية، تغيير القوى العظمى لمواقفها، التوصل إلى القرار القائل بأن الجيش قلق غير مستقر. وفي النهاية يطلق سراح آرجوماند وهارون. يعودان من جديد إلى السلطة، العذراء ذات السراويل الحديد وحبها الوحيد يتسلمان الزمام. يسقط التزمت الديني ويحل محله أسطورة الشهيد اسكندر. بعد ذلك، تحدث اعتقالات، معاقبات، محاكمات، عمليات شنق، دم، دورة جديدة من انعدام الإحساس بالعار، في غضون ذلك تظهر في موهينجو تشققات في الأرض.

يحلم عمر براني حربا: تلك التي تقرر البقاء في موهينجو وذات يوم تبعث إلى آرجوماند هدية تتألف من ثمانية عشر شالاً رائعاً. هذه الشالات تؤكد أنها لن تغادر الإقطاعة مرة ثانية: فقد وضعت آرجوماند أمها تحت الحراسة. الناس منشغلون بصنع أساطير جديدة، ليس لديهم فراغ لتطريز انتقاداتهم على الشالات. راني تبقى في ذلك البيت الثقيل الطنف الذي تجري فيه المياه من صنابيرها حمراء كالدم. إنها تحني رأسها باتجاه عمر الخيام شاكيل. «يبدو العالم وكأن من المحال أن يكون مكاناً أميناً» تنطق راني حربا بقبريتها «لو تتحرر راني حربا من كل قيد».

القصص تنتهي، العالم ينتهي، ثم يأتي يوم الحساب.

أمه شوني تقول: «ثمة أمر ينبغي أن تعرفه».

إنه يتمدد يائساً عاجزاً بين ثعبانين خشبيين، يحترق، يتجمد، عيناه حمراوان تطوفان في رأسه. إنه يعب الهواء، يشعر بشكل من الأشكال أنه مشوش، كل شيء غائم في عينيه كما لو أن العدالة الإلهية دفنته تحت جبل خشبي هائل. لكن هذه المرة، أمهاته الثلاث هناك فعلاً، لا هلوسة، هو واثق من ذلك، إنهن يجلسن على سريره. لديهن سر يرغبن في أن يبحن به لكن رأسه يسبح فيغمض عينيه.

وللمرة الأولى في حياته يسمع سر العائلة الأخير، أسوأ حكاية في التاريخ، حكاية جده الأكبر حفيظ الله وأخيه رومي شاكيل. فكلاهما تزوج امرأة وجدها الآخر غير مناسبة، وحين بدأ حفيظ ينشر في أرجاء المدينة أن زوجة أخيه امرأة واسعة الذمة كمنامة فضفاضة وأن رومي التقطها من مواخير هيراماندي، غدت القطيعة بين الأخوين كاملة تماماً. بعدئذ أخذت زوجة رومي بثأرها، فقد أقنعت رومي أن السبب في رفض حفيظ لها هو أنه راودها عن نفسها، بعد أن أصبحت زوجة أخيه، إلا أنها ردته على عقبيه. فأصبح رومي شاكيل بارداً كالجليد ومضى في الحال إلى طاولة مكتبه حيث كتب رسالة مغفلة تقطر سماً لأخيه، اتهم فيها زوجة حفيظ بالخيانة الزوجية وأن لها علاقة جنسية مع عازف غيتار شهير في ذلك الأوان، وقد كان اتهاماً قاتلاً لا لشيء إلا لأنه كان صحيحاً. ولما كان حفيظ شاكيل يثق بزوجته دائماً ثقة عمياء، فقد شحب وجهه حالما قرأ الرسالة التي عرف في الحال أنها كتبت بخط يد أخيه. لكن سرعان ما اعترفت زوجته بصحتها حين سألها فقد قالت دون استحياء أن علاقة الحب بينها وبين عازف الغيتار قديمة وأنها كانت ستفر معه لو لم يزوجها والداها من حفيظ. حينذاك وقع الجد الأكبر لعمر الخيام شاكيل طريح الفراش وحين جاءت زوجته لرؤيته، حاملة ابنها بين ذراعيها، وضع يده اليمنى على صدره ثم وجه كلماته الأخيرة إلى الغلام الصغير قائلاً بأسى بالغ:

«هذا المحرك لن يدور بعد اليوم».

ثم لفظ أنفاسه في تلك الليلة.

«ولقد قلت الشيء ذاته» تستأنف موني شاكيل مخبرة عمر الخيام «حين كنت صريع الحمى، حين لم تكن تعلم ما تقول. الشيء ذاته والكلمات ذاتها. والآن أنت تعلم لماذا روينا لك القصة».

«أنت تعلم كل شيء الآن» تتابع الأم شوني «أنت تعلم أن هذه هي

العائلة التي يفعل فيها الأخوة شر الأفعال بأخوتهم ولعلك تعلم أيضاً أنك لم تخرج عن ذلك الخط البتة».

«أنت أيضاً كان لك أخ» تقول بوني «ولقد مرغت ذكراه بالطين».

ذات مرة، وقبل أن يخرج إلى العالم، كانت أمهاته قد حظرن عليه أن يشعر بالخجل أو يحس بالعار، والآن ها هو ذا يراهن وهن يقلبن ذلك الشعور على رأسه، يشطرنه بذلك السيف. «والد أخيك كان ملاكاً عظيماً» همست شوني شاكيل، وهي تجلس بجوار سريره، «لذا جاء الفتى أكثر طيبة من أن يناسب هذا العالم. لكن أنت، كان صانعك إبليساً من أبالسة الجحيم». عند ذلك عاد عمر فغرق في مستنقعات الحمى، لكن هذه الملاحظة أصابت الهدف، إذ لم يسبق لأم من أمهاته أن أثارت بصورة تلقائية قضية والده أو والد أخيه، فبات واضحاً لديه أن أمهاته يكرهنه، ولشدة دهشته وجد فكرة تلك الكراهية أرهب من أن يتمكن من حملها.

المرض يتمطى تحت أهدابه الآن، عارضاً عليه النسيان. لقد كافح ضده، رجل في الخامسة والستين يطغى عليه اشمئزاز أمهاته منه. ذلك الاشمئزاز يمثل أمام عينيه شيئاً حياً، هائل الحجم زلقاً. لقد غذينه سنين وسنين، مقدمات له قطعاً من أنفسهن، مطعمات حيوانهن المدلل الحاقد مزقاً من ذكرياتهن عن بابار الفقيد، وكان يلتهم تلك القطع، تلك المزق بل كان يخطفها بشره بالغ من أصابع الأخوات العجفاء الناحلة الطويلة.

فقيدهم بابار الذي لم يسمح له، خلال حياته القصيرة، أن ينسى أنه أقل قدراً من أخيه الأكبر ذلك الرجل العظيم الناجح، ذاك الذي مكنهم من التخلص من صاحب حانوت الرهن، أنقذ ماضيهم من أن ينتهي إلى رفوف السيد شلق، صاحب حانوت الرهن. وذلك الفقيد، ذلك الأخ لم يره عمر الخيام قط. الأمهات يستخدمن أولادهن كالعصي ـ كل أخ عصا يجلد بها الأخ الآخر. وهكذا فر بابار الذي خنقته الرياح الساخنة التي كانت تنطلق من عبادة أمهاته لعمر الخيام، فر إلى الجبال أما الآن فقد غيرت الأمهات موقفهن، إذ غدا الأخ الفقيد سلاحهن ضد الأخ الحي.

لقد تزوجت من أسرة القاتل. لعقت أقدام العظماء. ومن خلف أجفانه يرى عمر الخيام أمهاته وهن يطوقن عنقه بطوق كراهيتهن. لا ليس وهماً هذه المرة فلحيته المبللة بالعرق تحتك بالمخرمات المكشكشة وبالألسنة الجليدية الممزقة وبالأفواه الضاحكة التي يشكلها طوق الأحذية البالية.

إن للوحش وجوهاً كثيرة، وباستطاعته أن يتخذ الشكل الذي يشاء. ولقد أحس به عمر يزحف إلى جفونه ثم يشرع بالالتهام.

فجر ذات يوم استيقظ الجنرال رضا حيدر وأذناه تدويان بصوت رنين وتناثر، صوت أشبه بتحطم ألف نافذة معاً، فأيقن أنها ضجة انكسار، انكسار حدة المرض. حينذاك تنفس الصعداء وانتصب جالساً في السرير «أيتها الحمى» قال تغمره السعادة «إني أهزمك. ريزور غوتز العجوز لم ينته بعد». وما إن انتهت الضجة حتى راوده شعور بأنه يعوم في بحيرة من الصمت، ذلك أن صوت اسكندر حربا كان قد خرس تماماً، للمرة الأولى منذ أربع سنوات طوال. فسمع الطيور تغرد في الخارج، ورغم أنها لم تكن سوى غربان إلا أن أصواتها بدت أعذب من تغريد البلابل. «الأمور في تحسن» فكر رضا في سره ثم لاحظ الحالة التي وصل إليها. لقد تركوه يتهرأ في مستنقع عصاراته. إذ كان واضحاً لكل ذي عين أنه ما من أحد جاء لرؤيته منذ أيام. لقد كان مستلقياً في سبخة غائطه القاتلة بين ملاءات اصفر لونها بفعل التعرق والبول وحيث كان العفن قد بدأ يتشكل على الفراش واللحاف كما كانت هناك فطور خضر على جسمه أيضاً. «إذاً هذا رأيهن بي» خاطب الغرفة الخاوية متعجباً «تلك الساحرات، لأحاسبهن على ذلك». لكن رغم الحالة البغيضة التي كان عليها فراش المرض فإن مزاجه التفاؤلي الجديد أبى المضايقة أو الإزعاج، فانتصب على ساقين لم تكونا ترتعدان إلا قليلاً ثم ألقى بملابس مرضه النتنة، بعد ذلك، وبكثير من النفور ومراعاة الأصول جمع في صرة واحدة كل الأغطية المتسخة الملوثة ثم ألقاها من النافذة. «عجائز ساحرات» قهقه لنفسه قهقهة مكتومة «ليستعدن غسيلهن القذر من

همس قائلاً «رضا هنا. أنا هنا ولسوف أنظفك خير تنظيف ثم أرعاك بنفسي. هذه النسوة الحيوانات لأجعلهن يلقطن غائطهن برموشهن ثم يحشين به خياشيمهن».

لكن بلقيس لم تجب، ولقد مرت بضع لحظات قبل أن يدرك رضا سبب صمتها. بعدئذ شم الرائحة الأخرى بين روائح البراز الكريهة، فأحس وكأن أنشوطة جلاد تسحقه، تدق مؤخرة عنقه، وللتو اقتعد الأرض ثم بدأ ينقر بأصابعه عليها. وحين أفصح عما في نفسه، اتخذ كلامه الشكل الخاطئ، إذ رغم أنه لم يكن في نيته أن يبدو متعكر المزاج، إلا أن ما نطقت به شفتاه كان التالي: «بحق الله يا بيلو، ما الذي دهاك؟ كل أملي أنك لا تمثلين أو ما شابه. لكن ما معنى هذا، أنت التي يفترض بك ألا تموتي؟» لكن بلقيس كانت قد عبرت خط حدودها.

بعد أن نطق رضا بكلماته المتشكية، تلك التي لم تحمل له سوى الإزعاج والضيق، تطلع حوله فوجد الأخوات الثلاث شاكيل ينتصبن أمامه وقد كمّمن أفواههن وأنوفهن بمناديل معطرة. كذلك كانت شوني تمسك بيدها الأخرى بندقية قصيرة قديمة ربما تعود لجدها حفيظ الله شاكيل. كانت البندقية مسددة إلى صدره، إلا أنها كانت ترتعش في يدها إلى حد علم أن فرصتها في إصابته جد قليلة، كما كانت البندقية عتيقة إلى درجة يمكن معها أن تنفجر في وجهها لو ضغطت على الزناد، لكن لسوء حظ رضا، كانت الأختان الأخريان مسلحتين أيضاً فقد كانت الأيدي اليسرى تمسك بالمناديل لكن كان في يمنى موني خنجر رهيب المنظر مقبضه مرصع بالجواهر، في حين كانت قبضة موني مطبقة على رمح صدئ الحربة كثيراً إنما مستدقها تماماً، فغاض كل تفاؤل من صدر رضا دون أن يزعج نفسه بقول «الوداع».

«كان عليك أنت أن تموت بدلاً منها»، أعلنت شوني شاكيل.

فرد رضا مشجعاً الأخوات، وقد تخلى عنه الغضب كما تخلى عنه الأمل. «هيا امضين قدماً، ولسوف يحاسبنا الله جميعاً».

فأجابت بوني في الحال «لقد فعل ابننا خيراً إذ جاء بك إلينا. لكم طال انتظاره إلى أن سقطت. ليس ثمة عار في أن نقتلك الآن فأنت رجل ميت على أي حال. إنه نوع من إعدام جثة لا غير».

«كذلك» أرجفت موني شاكيل «ليس هنالك من يحاسب».

عند ذلك حركت شوني البندقية القصيرة باتجاه بلقيس ثم أمرته «ارفعها. تماماً كما هي. ارفعها وهاتها سريعاً». نهض رضا على قدميه فانزلقت المنشفة، حاول الإمساك بها لكنها أفلتت منه وهكذا وقف عارياً تماماً أمام النسوة العجائز اللواتي جعلتهن الحشمة يشهقن... بعدئذ حمل الجنرال رضا حيدر، المغتسل حديثاً، العاري كل العري، جثة زوجته النتنة المغطاة بالعفن، عبر ممرات نيسابور، فيما كانت تحدق به الأخوات الثلاث كغربان الجيف. «عليك أن تدخل هنا» أمرته شوني وهي تدفع مؤخرته بفوهة البندقية، فدخل آخر حجرة يدخلها في حياته وهناك ميز الجرم الأسود للنادل ـ الأبكم المتدلي خارج النافذة حاجباً معظم النور. كان رضا قد صمم على التزام الصمت مهما حدث لكن دهشته جعلته ينطق رغماً عنه فسأل: «ما هذا؟ أترسلننا إلى الخارج؟».

«الجنرال مشهور في بلدتنا ولا بد» قالت موني وهي غارقة في التفكير «وثمة أصدقاء كثيرون يرغبون في لقائك مرة ثانية، أليس كذلك؟ ترى أية حفاوة سيستقبلونك بها حين يكتشفون من أنت!!».

وقف رضا حيدر عارياً تماماً في النادل ـ الأبكم بجوار جثة بلقيس. بعدئذ تحركت الأخوات الثلاث إلى لوحة على الجدار: أزرار مفاتيح عتلات ثم بدأت شوني تشرح: «هذه الآلة صنعها أمهر الصناعيين في تلك الأيام القديمة حين لم يكن هنالك شيء يمكن صنعه، رجل يدعى ميستري بالوش ولقد صنعها بناء على طلبنا الذي انتقل إليه عبر عزيزتنا الراحلة حشمة بيبي، وقد أدخل في الآلة بعض المعدات الإضافية التي نقترح الآن أن تستعملها للمرة الأولى والأخيرة».

وتتصرف تصرف الأطفال؟ هيا تحرك، لا أستطيع أن أقضي النهار كله معك، إنهم ينتظرونني في ملعب البولو الآن».

«هل العفو ممكن حقاً؟» سأل عمر الخيام فهز المحقق كتفيه بشيء من البرم، ثم أجاب «كل شيء ممكن. والله كبير، كما تعلم ولا ريب».

«هذا لا يجدي» قاطعه المحقق «ترى أي نوع من الرجال أنت؟ أي نمط من الأشخاص العابثين أنت، يا من يتملص من جريمته ليلقي بالمسؤولية على أمهاته؟».

فأجاب عمر الخيام: «أنا إنسان هامشي. الآخرون دائماً هم الفاعلون الرئيسيون في حياتي. حيدر وحربا الرجلان الرئيسيان في حياتي. مهاجر وابن بلد، مؤمن وكافر، عسكري ومدني، وهناك عدة سيدات أساسيات. كنت أراقب من الأجنحة البعيدة، لا أعلم ما أفعل. إنني أعترف بتهمة التسلق الاجتماعي، بأدائي عملي فقط، بهامشيتي كرجل زاوية في مباريات المصارعة التي يخوضها الآخرون. اعترف بأنني كنت أخشى النوم».

«لم نتوصل إلى شيء» قال المحقق وقد بدا عليه الغضب «رغم أنه لا خلاف في البينة، والبينة عصاك السيفية التي أهداك إياها اسكندر حربا عدو الضحية الأكبر. أما عن الدوافع والفائدة المرجوة فحدث ولا حرج. لكن لماذا تحافظ على ادعائك هذا؟ لقد انتظرت لحظتك المناسبة منذ سنين وأنت تحيا حياة زائفة إلى أن فزت بثقته ثم جررته إلى مذبحة. وعدته بالهرب عبر الحدود لإيقاعه في المصيدة. طعم شديد الإغراء. بعدئذ انقضضت عليه طعناً طعناً طعناً. الأمر واضح لكل ذي عين، فكف عن ثرثرتك الآن واكتب».

«أنا بريء» بدأ عمر الخيام «فقد تركت العصا السيفية في مقر رئيس الأركان» لكن في تلك اللحظة تماماً بدأ يشعر أن جيوبه ثقيلة للغاية، فمد المحقق يديه ثم التقط ما أثقل جيوبه. وحين رأى عمر الخيام ما عرضه تلفار الحق أمام عينيه على راحة كفه المتهمة ارتعش صوته واحتد صارخاً

«لا بد أن أمهاتي هن اللواتي وضعنها هناك». لكن لا فائدة من الاستمرار إذ كانت تحدجه من كف محققه معروضات رهيبة، أشلاء من رضا حيدر وقد قطعت شرائح شرائح، شاربه، مقلتاه، أسنانه. «عليك اللعنة» قال تلفار الحق ثم رفع مسدسه وأطلق النار على عمر الخيام في قلبه تماماً. بدأت الزنزانة تضطرم فرأى عمر الخيام هوة تنفغر تحت قدميه ثم شعر بدوار يحط عليه وبالعالم يتحلل، فصرخ «إني أعترف» لكن كان الأوان قد فات فقد انقلب في النار السوداء ثم احترق.

لما كان الجميع قد اعتادوا على تجاهل المنزل لم يلحظ أحد حتى المساء أن هناك أي تغير لكن مع مجيء المساء لاحظ أحدهم ذلك ثم هتف قائلاً إن البوابات الأمامية لمنزل شاكيل مفتوحة على مصاريعها وذلك لأول مرة منذ زمن أطول من أن يتذكره أحد، لكنهم حينذاك علموا جميعاً وعلى الفور أن أمراً هاماً قد حدث. لذلك لم يبد في الأمر أية مفاجأة حين اكتشفوا بركة الدم المتخثرة تحت النادل ـ الأبكم، آلة ميستري بالوش. ولفترة طويلة من الزمن وقفوا مسمرين تماماً بجوار الأبواب المفتوحة رغم فضولهم الشديد عاجزين عن الدخول حتى لإلقاء نظرة. بعدئذ، وفي لحظة واحدة اندفعوا جميعاً، وكأن صوتاً غير مرئي أعطاهم الأذن بالدخول: إسكافيون، متسولون، عمال في حقول الغاز، شرطة، باعة حليب، موظفو مصارف، نساء راكبات حميراً، أطفال معهم حلقات معدنية وعصي، باعة جوالون، بهلوانات، حدادون، بياطرة، زوجات، أمهات، كل الناس، كل الناس.

هناك وجدوا القصر البغيض، قصر الأخوات المتكبرات المتغطرسات ينتصب أعزل مجرداً من كل سلاح، يستكين تحت رحمتهم، فأدهشتهم أنفسهم، أدهشتهم كراهيتهم للمكان، الكراهية التي ظلت خمسة وستين عاماً تنزُّ من آبار منسية، فمزقوا البيت إرباً إرباً وهم يبحثون عن النسوة العجائز. لقد حطوا كالجراد، انتزعوا الستائر القديمة عن الجدران، فتحولت خيوطها إلى ذرات، فتات في أيديهم، بعدئذ

كسروا صناديق المال فوجدوها ملأى بأوراق وعملات باطلة، ثم فتحوا الأبواب على مصاريعها فصرت وسقطت من مفصلاتها، بعد ذلك قلبوا الأسرّة رأساً على عقب، نهبوا محتويات الخزائن الفضية، انتزعوا أحواض الحمامات من أماكنها سعياً وراء أطرها المذهبة ثم نبشوا حشيات المقاعد بحثاً عن كنوز مخفية وأخيراً ألقوا من أقرب نافذة بالمقعد الهزاز العتيق عديم النفع، لقد بدا وكأن الطلسم بطل مفعوله، كأن الحيلة القديمة الساحرة المثيرة للغضب قد انكشفت أخيراً. بعد ذلك بدأوا يتطلعون بعضهم إلى البعض الآخر وفي عيونهم المتقلبة بين الفخر والخجل شيء من عدم التصديق «أنحن من فعل ذلك حقاً؟ لكننا ناس عاديون..».

حل الظلام لكنهم لم يجدوا الأخوات.

في النادل ـ الأبكم وجدوا الجثتين، أما الأخوات شاكيل فقد اختفين، لم ترهن عين بعد ذلك، لا في «نيسابور» ولا في أي مكان آخر على وجه الأرض. لقد هجرن منزلهن لكنهن حافظن على عهدهن بأن ينسحبن، يتفتتن ربما إلى ذرات دقيقة تحت أشعة الشمس أو تنشأ لهن أجنحة يطرن بها إلى «الجبال المستحيلة» في الغرب. فنسوة هائلات كالأخوات الثلاث شاكيل لا يفعلن أقل مما ينوين فعله.

دجنة الليل. وفي غرفة في أعلى المنزل يجدون رجلاً عجوزاً عابس الوجه مستلقياً في سرير ذي أربع قوائم عالية نقشت عليها ثعابين خشبية تلتف على كل قائمة. الضجة أيقظته، فانتصب جالساً متمتماً «إذاً أنا ما أزال على قيد الحياة» كان اللون الرمادي يغطيه كله، كان رمادياً من رأسه حتى أخمص قدميه، رجلاً التهمه المرض حتى بات من المستحيل التعرف إلى الشخصية. ولما كان يتسم بهيئة الخارج من قبر فقد ارتد الجميع مبتعدين عنه مذعورين. «أنا جائع» قال الرجل وقد بدت عليه الدهشة ثم حملق بالمشاعل الكهربائية الرخيصة ومشاعل الوقود ذات الاحتراق البطيء التي كان غزاة المنزل يحملونها فطلب أن يعرف ماذا

يفعلون في منزله، حينذاك نكصوا على أعقابهم وولوا الأدبار، هاتفين بضباط الشرطة أن هناك رجلاً في الأعلى، ربما هو ميت وربما حي، لكن، هناك على أي حال امرؤ في بيت الموتى ذاك، يجلس منتصباً في سريره ويتصرف بلباقة. وحين بدأ ضباط الشرطة شق طريقهم إلى الأعلى سمعوا نوعاً من الحركة المذعورة تبدأ في الخارج، فارتدوا إلى هناك للتحقيق، نافخين صافراتهم، تاركين الرجل العجوز ينهض من سريره، يرتدي مبذلاً حريرياً رمادياً تركته أمهاته مطوياً بكل أناقة إلى جانبه، ثم يعب قدراً كبيراً من الشراب من إبريق مليء بعصير الليمون الطازج الذي لم يكن قد مضى عليه وقت أكثر مما يتطلبه ذوبان الجليد. بعدئذ سمع عمر الصرخات أيضاً. صرخات غريبة كانت، سمعها عمر الخيام ترتفع حتى حدودها القصوى ثم تتلاشى بسرعة مذهلة، بعدئذ علم ما الذي يجري في البيت، علم ما الذي يمكنه أن يجمد الصرخة في منتصفها، ما الذي يحجر الكائن الحي.

عرف بمجيء ذلك المخلوق الذي اجتاز شوارع المدينة المظلمة دون أن يستطيع أحد نكرانه. إنه يصعد الدرج: ولقد سمعه وهو يزمجر ويهدر.

وقف عمر بجوار السرير ينتظر كما ينتظر العريس عروسه ليلة زفافه بينما كان ذلك المخلوق الوحش صفية زنوبيا، زوجته، تصعد باتجاهه، تهدر مثل نار تؤججها الريح. انفتح الباب على مصراعيه، وهو يقف منتصب القامة في قلب العتمة، يراقب الوهج القادم، بعدئذ ظهرت هي على قوائمها الأربع عارية لا يسترها سوى الوحل والدم، والقذر. على ظهرها التصقت أغصان وفي شعرها خنافس. رأته فارتعشت، بعد ذلك انتصبت على قائمتيها الخلفيتين ثم مدت مخالبها الأمامية لكنه وجد الوقت الكافي لأن يقول: «حسن، أيتها الزوجة، ها أنت ذي أخيراً» قبل أن تجبره عيناها على التطلع.

بشدة كافح قوتهما المنومة، قوة جاذبيتهما. حاول ألا يتطلع لكن

عبثاً، فقد ارتفعت عيناه رغماً عنه، محدقتين إلى اللهب الأصفر الناري في عينيها، هناك رأى وللحظة من الزمن شيئاً من ارتعاش، نوعاً من خمود اللهب في رماد الشك، لكأنها كانت تحتضن في تلك اللحظة العابرة من الزمن، ذلك الوهم الغريب بأنها عروس حقاً تدخل حجرة حبيبها لكن سرعان ما حرق الفرن الملتهب داخلها كل الشكوك وهكذا بينما كان يقف أمامها عاجزاً عن الحركة امتدت يداها، يدا زوجته، ثم أطبقتا على عنقه.

جسمه يتداعى، يسقط بجوارها، فتنهل من دمه وقد غدا بلا رأس بعدئذ يضمحل الوحش فيها مرة ثانية، يتلاشى، فتقف هناك تطرف أجفانها بغباء شديد تكاد قدماها لا تحملانها وكأنها لم تكن تعلم أن على جميع القصص أن تنتهي معاً وأن النار قد استهلكت كل ما فيها من قوة وأنه في يوم الحساب، لا يعفى حتى القضاة من الحساب وأن من المستحيل أن تظل قوة وحش العار طويلاً ضمن هيكل واحد من اللحم والدم أياً كان هذا الهيكل. ذلك أن الوحش ينمو يتغذى يتضخم إلى أن تعجز الأوردة الدموية في ذلك الهيكل عن التوسع فتنفجر.

الانفجار يندفع، موجة صدمة تقوض البيت، ثم تندلع كرة النار التي تجسد الاحتراق، تتدحرج نحو الأفق كأمواج بحر وفي الختام تنبثق غيمة ترتفع في السماء، تمتد، تبسط أجنحتها على الخواء، على العدم، إلى أن يتعذر علي أن أرى هناك ما لم يعد له وجود، لكن الغيمة الساكنة تتخذ هيئة رجل ضخم أشيب مقطوع الرأس، طيف من طيوف الأحلام، شبح يرفع يده ملوحاً بالوداع.

هذا الكتاب

لم يقرأ كثيرون رائعة رشدي «أطفال منتصف الليل» التي صدرت مطلع الثمانينات وعُرّبت في دمشق. ولم تترجم أعماله اللاحقة إلى لغة الضاد، من «هارون وبحر الحكايا» إلى «شاليمار المهرّج». لقد توقف العرب عند «الآيات الشيطانيّة» ذات يوم من ١٩٨٩، ولم يخرجوا منه إلى اليوم. وإذا كان لهذه الرواية «الملعونة» من فضل علينا، فكونها طرحت على الضمير العربي المعاصر سؤالاً يتردّد على مرّ العصور: مَن يرسم حدود الابداع؟ حفنة من المثقفين العرب انتصرت لحريّة التعبير، وأعلنت تضامنها مع الكاتب البريطاني بمعزل عن الموقف من روايته الإشكاليّة. فالرواية ـ كما ذكّر صادق جلال العظم ـ عمل أدبي، متخيّل ومبتكر، يقيم مع الواقع الصِلات التي يريد، لكن لا نستطيع محاسبته على أنّه الواقع.

جريدة الأخبار ـ بيروت



